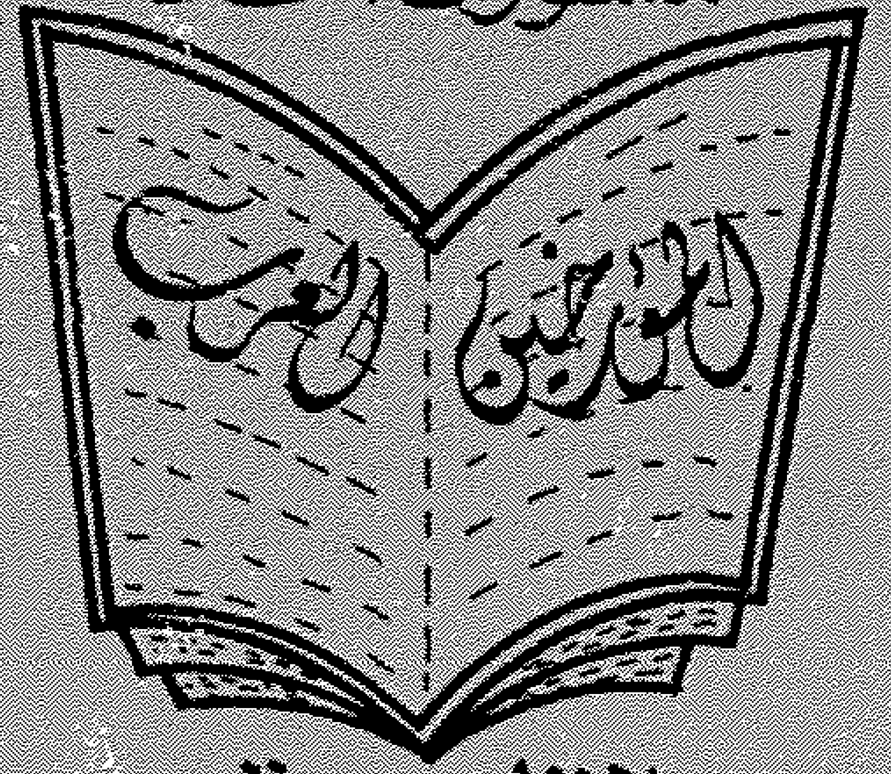
منشورات اتحاد



القاهرة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

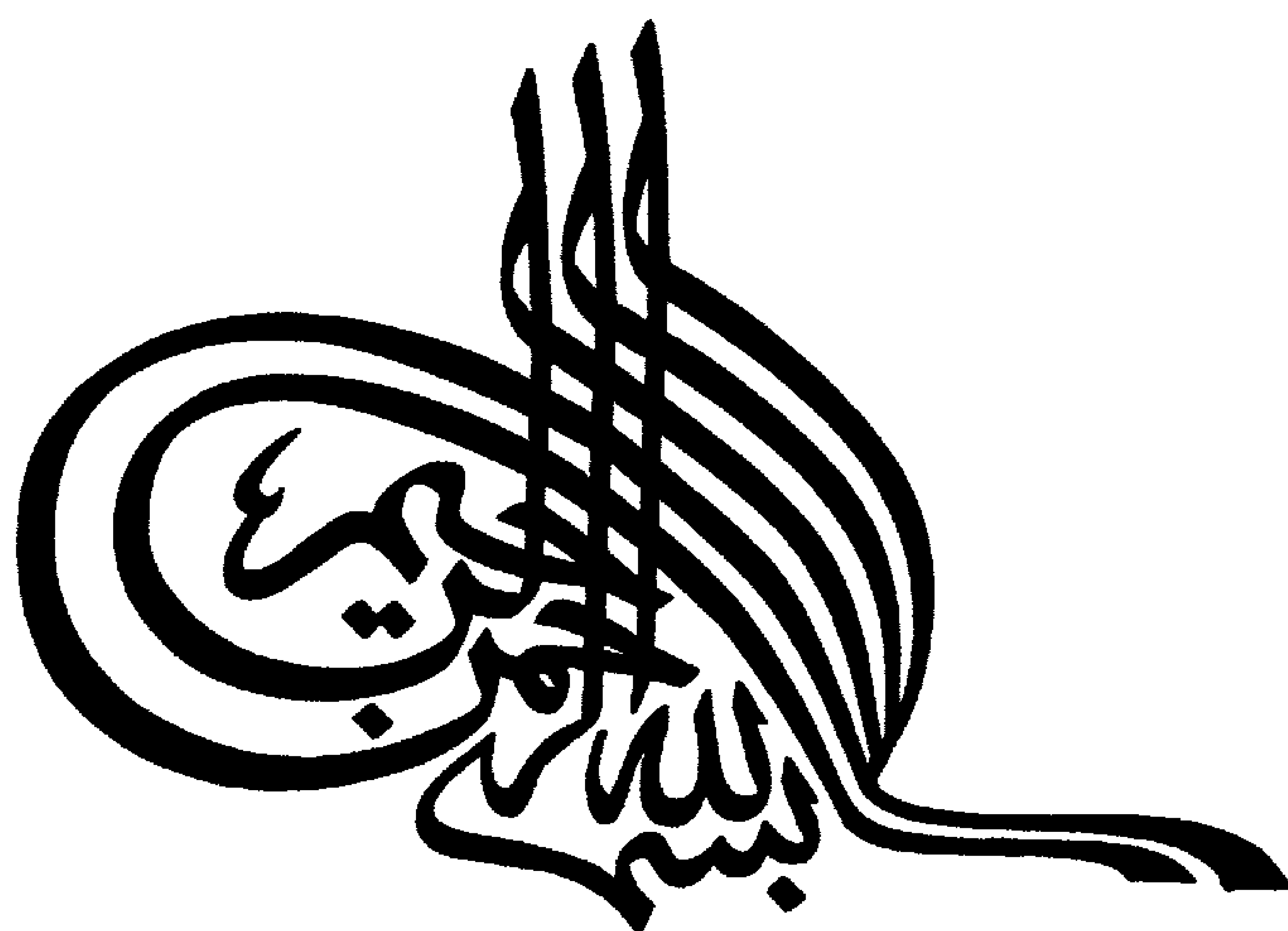
الإطار التاريخي للحركة الصليبية

حصاد
(٣)
ندوة
عقدها الاتحاد بمقره في القاهرة
٥ - ٧ رجب ١٤١٦هـ
٢٨-٣٠ نوفمبر ١٩٩٥م



الإطار التاريخى للحركة الصليبية

حصاد
(٣)
ندوة
عقدها الاتحاد بمقره فى القاهرة
٥ - ٧ رجب ١٤١٦هـ
٢٨-٣٠ نوفمبر ١٩٩٥م


بسم الله الرحمن الرحيم

لقطات سريعة من الندوة










إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
ندوة



جمعيـــة
اتحاد المؤرخين العرب
بالقـــاهرة

نـــدوة

الإطار التاريخي للحركة الصليبية

بمناسبة مرور تسعمائة عام
على الدعوة للحروب الصليبية سنة ١٠٩٥م

برنامج الندوة
أيام ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٩٥

اليوم الأول

الثلاثاء ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٩٥

الجلسة الأولى : (١٠ - ١١,٣٠ صباحاً)

- كلمة الافتتاح يلقيها رئيس الاتحاد .
- أ. د. محمود سعيد عمران :

وليم آدم والفكر الأوربى الصليبى

- أ. د. سهيل زكار :

الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية

- أ. د. رأفت عبد الحميد محمد :

أثر الفكر البابوى الصليبى فى الصراع مع السلطة الزمنية

- مناقشة

استراحة وتناول الشاى (١١,٣٠ - ١٢)

الجلسة الثانية : (١٢ - ١,٣٠ ظهراً)

- أ. د. مصطفى العبادى :

الحركة الصليبية ومصير بعض كتب التراث

- د. عبد الله عبد الرحمن الربيعى :

الدوافع الدينية للحركة الصليبية

- أ. إبراهيم العنانى :

البحرية الإسلامية فى مواجهة القوى الصليبية فى شرق حوض البحر المتوسط

- مناقشة

(دعوة عامة للغذاء)

بعد الظهر : جولة حرة .

اليوم الثانى

الأربعاء ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٩٥

الجلسة الثالثة : (١٠ - ١١,٣٠ صباحاً)

- د. فاروق عثمان أباظة :

صدى الحروب الصليبية فى حركة الكشوف الجغرافية .

- أ. د. إبراهيم زعرور :

تحرير الرها وأثره فى مسيرة الحروب الصليبية .

- د. صالح محمد السنيدى :

المنشآت الإسلامية فى غرناطة بعد سقوطها .

(استراحة وتناول الشاى ١١,٣٠ - ١٢)

الجلسة الرابعة : (١٢ - ١,٣٠ ظهراً)

- أ. د. ميشيل بالدرد :

فن الحصار الحربى فى ضوء مصادر الحملة الصليبية الأولى .

- د. فيصل عبد الله الكندرى :

الفتح العثمانى لجزيرة رودس ٩٢٩هـ/ ١٥٣٢م .

- د. محمد محمود النشار :

البابوية وفرنسا على مسرح الحروب الصليبية فى الأندلس .

- مناقشة .

(دعوة لتناول الغذاء)

الجلسة الخامسة : (٤ - ٦ مساء)

- أ. د. رجب محمد عبد الحليم :

التيار الصليبى والمغرب الإسلامى فى القرن الحادى عشر للميلاد .

- د. عبد الله كامل موسى عبده :

العمارة الحربية بمصر فى عصر الحروب الصليبية .

- مناقشة .

(الساعة السادسة دعوة لأعضاء الاتحاد لتناول العشاء بالخارج)

اليوم الثالث

الخميس ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٩٥

الجلسة السادسة : (١٠ - ١١,٣٠)

- د. شوقى عطا الله الجمل :

دور الأسبان فى الحركة الصليبية فى القرن السادس عشر للميلاد .

- أ. د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم :

الصراع البرتغالى فى المغرب فى النصف الثانى من القرن السادس عشر للميلاد

- مناقشة

(استراحة لتناول الشاى ١١,٣٠ - ١٢)

الجلسة السابعة : (١٢ - ١,٣٠)

- أ. د. على أحمد :

دور الأندلسيين والمغاربة فى الحركة الصليبية .

- د. على محمد عودة الغامدى :

حصن بغراس ودوره فى عصر الحروب الصليبية .

- د. محمد بركات البيلى :

بلاد الشام بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى .

- ختام ، كلمة الختام يلقيها الأستاذ الدكتور رئيس الاتحاد .

(دعوة للغذاء)

بعد الظهر :

- جولة حرة للأعضاء .   - اجتماع مجلس الإدارة .

تهنئة وشكر

استهل الأستاذ الدكتور رئيس الاتحاد الندوة بتقديم أصدق التهاني باسم أعضاء الاتحاد جميعًا إلى الأستاذ الدكتور المحترم عبد الله بن يوسف الشبل نائب رئيس الاتحاد بمناسبة تعيينه مديرًا لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

واتحاد المؤرخين العرب سيظل دائمًا أبدًا يذكر للأخ الكريم جليل مساعداته – أدبيًا ومعنويًا وماديًا – للاتحاد ، داعيًا له بالتوفيق في رسالته الكبيرة التي ينهض بها .

* * *

كذلك وجه رئيس الاتحاد شكرًا خاصًا للأستاذة الدكتورة المحترمة الشيخة ميمونة الصباح عضو الاتحاد وأستاذة التاريخ الحديث بجامعة الكويت على دعمها للاتحاد وحرصها على دفع مسيرته بما يعود على أمة العرب بالخير والبركة .

المحتويات

كلمة الافتتـاح

حضرات الإخوة الأعضاء ... حضرات الضيوف الكرام .

مرحباً بكم جميعاً فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب للمشاركة فى ندوته لهذا العام ، والتى موضوعها " **الإطار التاريخى للحركة الصليبية** " .

حضرات الإخوة الحضور

يصادف هذا العام - عام ١٩٩٥ للميلاد - بل هذا اليوم وهو الثامن والعشرون من شهر نوفمبر - ذكرى مرور تسعة قرون بالضبط على اندلاع شرارة الحروب الصليبية ، وكان ذلك عندما دعت البابوية فى نفس اليوم والشهر من سنة ١٠٩٥ لشن حرب على المسلمين تثأر بها الكنيسة الغربية لما حل بالعالم المسيحى من خسائر نتيجة لحركة التوسع الإسلامى التى كانت قد بدأت قبل ذلك بقرابة أربعة قرون .

وإذا قلنا إن عامنا هذا يرتبط فى التاريخ بذكرى مرور تسعة قرون على اندلاع الحرب الصليبية ، فإن علينا أن ندرك أن هذا الحدث لا يمثل مجرد حرب عابرة من ذلك النوع الذى يزخر به التاريخ . إنها تحمل اسم (حرب) . ولكنها كانت فى الحقيقة - كما أطلقنا عليها لأول مرة فى كتاباتنا - حركة واسعة ضخمة ، لها جذورها وبواعثها ، ولها آثارها ونتائجها . حركة متعددة الآفاق الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، مما يتطلب من المؤرخ اليقظ تفسيراً واضحاً ومحايداً لمعالمها الروحية والنفسية ، الدينية والدنيوية ، فضلاً عن آثارها فى تكييف صورة المجتمع البشرى على مدى سنوات وقرون عديدة .

حضرات الإخوة الزملاء

لا يخفى علينا أن التاريخ مدرسة كبيرة يراجع فيها الإنسان نفسه ويستعرض تجارب الماضى ليفيد منها جميعاً فى مواجهة متاعب الحاضر ومشكلاته ، وفى التخطيط لمستقبل أفضل يتجنب فيه العثرات ويحاول جاهداً أن يتفادى الزلات .

وعلى المؤرخ الواعى أن يذكر دائماً أنه بمثابة القاضى العادل الذى لا يصدر حكمه إلا عن روية وعلى أساس من الثقة والحيدة ليكون أميناً فى أحكامه صادقاً فى كلمته ، متجرداً تماماً من الميول الشخصية ، دينية كانت أو مذهبية أو عقائدية ، عرقية كانت أو قومية أو وطنية .

وفى استعراضنا لتاريخ الحقبة الزمنية التى نطلق عليها اسم العصور الوسطى ، والتى تحتل نحواً من عشرة قرون بين العصور القديمة والعصور الحديثة ، علينا أن نضع فى اعتبارنا دائماً أن تلك الحقبة الزمنية تميزت بتغلب الجانب الدينى على مسيرة التاريخ . وحسب العصور الوسطى أن الكلمة الأولى فيها كانت للدين ورجال الدين . حسب تلك العصور أنها شهدت انتشار المسيحية فى معظم أنحاء العالم المعروف عندئذ ، ثم شهدت مولد الإسلام وانتشاره فى بلاد المشرق والمغرب لتولد تحت مظلته وفى رحابه أعظم حضارة عرفها العالم فى تلك العصور . وأخيراً حسب العصور الوسطى إنها شهدت الصراع بين أتباع المسيحية وأتباع الإسلام - ولا نقول بين المسيحية والإسلام - فى شكل ما عرف باسم الحروب الصليبية .

حضرات الإخوة الزملاء

إن محمداً عليه الصلاة والسلام ، لم يبعث لينقض البناء السابق الذى أقامه موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنما ليكمل هذا البناء ويتوجه . وقد حرص القرآن الكريم على أن يشيد بالتوراة والإنجيل :

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (سورة المائدة : الآية ٤٤)

﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ (سورة المائدة : الآية ٤٦)

﴿وعداً عليه حقاً فىالتوراة والإنجيل والقرآن﴾(سورة التوبة:الآية١١١)

﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىللناس﴾(سورةآل عمران:الآية٤)

بل لقد جعل الله عز وجل من صفات المؤمن الحق أن يؤمن بالقرآن ، فضلاً عن الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء السابقين :

﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك ، وما أُنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ﴾ (سورة البقرة : الآية ٤)

﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ... وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾

(سورة آل عمران : الآية ٨٤)

وهكذا تبدو الرسالات السماوية كلها متكاملة لا يمكن أن يكون بينها وبين بعض صدام أو خلاف أو تعارض ، طالما أنها كلها ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ . والمسلم يؤمن بموسى عليه السلام ورسالته ، وبعيسى عليه السلام ورسالته ، ويتخذ من محمد عليه أفضل الصلاة والسلام خاتماً للنبيين ويعتبر رسالته متممة لرسالات الأنبياء السابقين .

ولكن كثيرين من أهل الكتاب لم يفهموا حقيقة الإسلام وروحه وجوهره. وعندما أخذت تنتشر رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كانت المسيحية هى الديانة السائدة فى معظم أرجاء العالم المعروف ، وبخاصة فى بلاد حوض البحر المتوسط وغرب القارة الأوربية . ولم تر الكنيسة الغربية - وعلى رأسها البابوية - فى الإسلام والمسلمين عندئذ إلا عدواً شرساً ظهر ليمحو آية المسيحية ويستحوذ على بلاد كانت المسرح الأول لنشاط عيسى عليه السلام ، والحصن الأول للمسيحية الذى انطلقت منه إلى شتى بلاد العالم. لم تدرك الكنيسة أن حركة الفتوح الإسلامية لم يكن هدفها محو المسيحية واقتلاع جذورها وإنما الدعوة إلى الإسلام داخل الإطار الذى حدده الله عز وجل لنبيه الكريم بقوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (سورة النحل : الآية ١٢٥) . وهكذا نادى رجال الكنيسة فى الغرب بأن الإسلام انتشر بحد السيف ، وذلك تبريراً للصدمة التى منوا بها عندما وجدوا نسبة كبيرة من أهالى البلاد التى فتحها المسلمون دخلوا فى دين الله أفواجاً " عن عقيدة وإرادة حرة " حسبما يقول أحد المستشرقين المنصفين . لقد فات الكنيسة الغربية فى تلك العصور أن تدرك أن حركة الفتوح الإسلامية لم تستهدف فرض الإسلام على أهالى البلاد المفتوحة ، وإنما استهدفت إسقاط الحكومات والحكام الذين شكلوا حاجزاً فى وجه الدعوة الإسلامية وحالوا دون وصول رسالة الإسلام إلى رعاياهم وشعوبهم ، وحجبوا تلك الرسالة عن أعين الناس . وبإسقاط هؤلاء الحكام تُرك أهل البلاد المفتوحة أحراراً ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (سورة آل عمران : الآية ٢٠) . لقد اتخذ الإسلام منذ مولده شعاراً واضحاً له ينادى بأن ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (سورة البقرة :

الآية ٢٥٦) واستنكر أية محاولة لإكراه الناس على الدخول فى الإسلام ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (سورة يونس : الآية ٩٩) . وإذا كانت قد ظهرت فى مسيرة التاريخ الإسلامى قلة من الحكام خالفوا هذا المبدأ، فإن حكمنا على هؤلاء أنهم لم يتشربوا روح الإسلام بقدر كاف وأن تصرفهم جاء خارجاً عن أصول الدين .

ولكن الكنيسة الغربية لم تدرك كل هذه الاعتبارات وانزعجت أمام اتساع رقعة الإسلام وآلمها أن نسبة كبيرة من المسيحين فى البلاد التى فتحها المسلمون دخلوا فى دين الله أفواجاً ، بل إن بلاداً مثل مصر اشتهر أهلها قبل الإسلام بالصمود فى وجه الوثنية والاستشهاد دفاعاً عن المسيحية ، وعلى أرضها ولدت الرهبانية والديرية ... راعهم أن بلداً مثل هذا غدا قلعة من قلاع الإسلام بعد أن كان حصناً من حصون المسيحية .

وزاد الموقف اشتعالاً أنه عندما استنفد العنصر العربى طاقته فى عملية الجهاد – وما كلف الله نفساً إلا وسعها – ظهر على المسرح من يمكن أن نسميهم " المسلمين الجدد " ، وهؤلاء كانوا من العناصر الأسيوية – وبخاصة الأتراك والأكراد والتركمان – الذين دخلوا فى الإسلام فى وقت متأخر نسبياً – فى القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادى عشر للميلاد – فحملوا الأمانة وواصلوا أداء الرسالة تحت شعار ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (سورة الحجرات : الآية ١٠) ، الأمر الذى جعل جبهة الحدود بينهم وبين دولة الروم – أو الدولة البيزنطية – تزداد أجاجاً ، مما حدا بأباطرة هذه الدولة فى القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر للميلاد – أن يولوا أنظارهم شطر إخوتهم المسيحيين فى الغرب طالبين النجدة ضد المسلمين ، مؤكدين أن الخطر ، إنما هو خطر الإسلام لا مجرد خطر

الأتراك ، وأن الضربة ستتجاوز بلاد الروم وشرق أوربا إلى البابوية وغرب أوربا .

ولم تكن البابوية فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد الإسلام والمسلمين . ولئن كانت الأوضاع فى القرون الأربعة السابقة قد ساعدت على رجحان كفة المسلمين فى الوقت الذى كان الغرب الأوربى يمر بمرحلة عصيبة أطلق عليها بالنسبة لهم اسم " العصور المظلمة " ، فإن الأوضاع أخذت تتبدل تدريجياً منذ أواخر القرن العاشر للميلاد - الرابع الهجرى - عندما دخل غرب أوربا دوراً من أدوار الصحوة ، بدأت بإصلاح الكنيسة والمؤسسات الدينية ، وامتدت لتشمل كافة أرجاء المجتمع فكرياً وحضارياً وسياسياً .

وجاءت هذه الصحوة فى الغرب الأوربى مواكبة لموجة من السبات عمت العالم الإسلامى - مشرقه ومغربه - وذلك نتيجة لأسباب شتى تخرج عن نطاق بحثنا . وهكذا أخذ التيار يتحول ليجعل من العالم المسيحى مركزاً للهجوم ، ومن العالم الإسلامى جبهة للدفاع . أما البابوية فكانت ترقب الموقف وتشجع حركة الاسترداد التى قامت بها القوى المسيحية فى شمال الأندلس والتى أخذت تتقدم شيئاً فشيئاً حتى تم القضاء على دولة المسلمين تماماً فى تلك البلاد بعد نحو أربعة قرون .

والواقع أنه فى موجة الصحوة التى عمت الغرب الأوربى كان لا يمكن للبابوية - بوصفها زعيمة العالم المسيحى الغربى والمطالبة بالسمو على الإمبراطورية الغربية - أن تظل ساكناً أمام أصوات الاستغاثة الصادرة عن إمبراطورية الروم فى الشرق . وهكذا دعا البابا أوربان الثانى فى أحد المجامع الدينية - مجمع كلير مونت - العالم المسيحى الغربى للقيام بحملة

لاسترداد أرض المسيح ومدينته وكنيسته من المسلمين . وقد انطلقت هذه الدعوة سنة ١٠٩٥ أى منذ تسعمائة سنة بالضبط .

وليس هذا مجال التأريخ للحركة الصليبية التى مرت بأدوار عديدة لكل دور منها وجهه وخصائصه ومعالمه المميزة . وإنما نجتمع نحن الآن فى هذه الندوة – مسلمون ومسيحيون – لنتدبر الإطار العام لتلك الحركة ، ونضع حوادثها ومراحلها أمام عقولنا وأبصارنا ثم لنناقش حكم التاريخ عليها . ما الأهداف الحقيقية لتلك الحركة ؟ وإذا كان المحرك الأول لها هو الباعث الدينى فهل هذا الباعث هو الذى حرك جميع المشاركين فيها من حكام وملوك وأباطرة وفرسان فضلاً عن جمهور العوام ؟ والآن وبعد مضى تسعة قرون على الدعوة للحملة الصليبية الأولى هل غيرت البابوية والعالم المسيحى الغربى من نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين ؟ وهل أحس الغربيون فى ضوء دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية واعية أن ثمة أخطاء وقع فيها أجدادهم وأن هناك حاجة إلى مراجعة النفس ومحاسبة الضمير ؟

ومن ناحية أخرى هل وعى كثير من المسلمين روح الإسلام على حقيقتها ؟ وهل أدركوا أن تخليهم عن روح الإسلام وتعاليمه فى مرحلة من مراحل التاريخ هو الذى جعلهم يتعرضون لضربة قاسية أضرت بالبلاد والعباد ؟ وهل أحس المسلمون أن الشقاق الذى دب بين حكامهم طمعاً فى الاستحواذ على الزعامة والرئاسة وما صحب ذلك من مصادمات وحروب فيما بينهم وبين بعض ، هو الذى أدى إلى تخريب الجبهة الإسلامية وتمكين الغزاة منهم ؟ هل عرفوا أن نجاح الصليبيين فى إنزال الضربات الأولى بالمسلمين لا يرجع إلى قوة الغزاة وتماسكهم بقدر ما يرجع إلى تفكك الجبهة الإسلامية وانحلالها ؟ وأخيراً هل أدرك المسلمون أنهم إذا كانوا قد نجحوا فى

طرد الغزاة من أرضهم في أواخر القرن السابع الهجرى - الثالث عشر للميلاد - ومواجهة هجماته على بلاد الإسلام بعد ذلك فى شرق حوض البحر المتوسط وغربه ، فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى صحوتهم وتحقيق قدر من الوحدة بين صفوفهم ؟

هذه هى بعض الجوانب التى تستهدف هذه الندوة مناقشتها لنخرج بالحركة الصليبية من حيز العبارات الإنشائية إلى مجال الدراسات التاريخية المدعمة بالأسانيد العلمية ، المستقاة من المصادر المعاصرة ، الخاضعة لتحكيم العقل لا لمجرد العاطفة .

والله نعم الموفق ،،،

أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الفكر البابوى الصليبى

فى مواجهة السلطة الزمنية

أ.د. رأفت عبد الحميد(*)

شهد عصر الحروب الصليبية احتدام الصراع فى غرب أوربا بين البابوية والإمبراطورية ، أو بين السلطتين الدينية والزمنية . وكان السبب الحقيقى لهذا الصراع هو التنافس بين الطرفين على زعامة العالم المسيحى الغربى : أيهما أسمى وأيهما تكون له الزعامة على العالم ، البابا أم الإمبراطور ؟

وليس هذا هو مجال الخوض فى تفاصيل هذا الصراع ، والأدوار التى مر بها ، وإنما نستهدف فى هذا البحث الكشف عن أثر هذا الصراع فى توجيه مسيرة الحركة الصليبية وتكييف أحداثها .

ففى الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ ، وفى مدينة كليرمونت Clermont بجنوب فرنسا وكان ذلك فى ختام جلسات المجمع الدينى الذى شهدته المدينة على امتداد تسعة أيام ، وجه البابا أوربان الثانى Urban II الدعوة لرعايا الكنيسة حاضرهم وغائبهم ، كى يحملوا الصليب ويولوا وجوههم شطر الشرق لانقاذ إخوانهم المسيحيين هناك من ويلات العذاب الذى يتعرضون له - بزعمه - واستخلاص القبر المقدس من الانتهاكات التى لحقت به - حسبما قال - على أيدى المسلمين ؛ قال : " يا شعب الفرنجة أنتم يا من تعيشون خلف جبال الألب ، يا من اختاركم الرب وأحبكم من خلال أعمالكم الكثيرة ، يا من تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم وعقيدتكم الكاثوليكية والشرف الذى أوليتموه للكنيسة .. إليكم

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة عين شمس .

بخطابنا نستحثكم ، ولتعلموا أن دافعا محزنًا جاء بنا إلى بلادكم .. إنها الحاجة إليكم وإلى كل المخلصين "(١) .

ودخل البابا بعد ذلك فى حديث طويل عن التعذيب والقمع والإضطهادات الوحشية التى زعم أن المسيحيين الشرقيين يتعرضون لها . واستخدم أسلوبا مثيرًا ألهب قلوب سامعية ودفعهم إلى تلبية ندائه فى حماسة بالغة وأخذ البابا يتساءل " على من إذن تقع مهمة الانتقام لهذا الوضع ، ومهمة الخلاص منه ، إذا لم تقع على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة القوة فى السلاح وجسارة القلب والبسطة فى الجسم ، والقدرة على التحدى ؟ لتكن قصص أسلافكم العظام حافزًا لكم يحرك أرواحكم صوب النصر هاهو شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم قد دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود البيعة المقدسة داخلها ... أيها الجنود يا من تتمتعون بالقوة وتنحدرون من صلب آباء لا يشق لهم غبار فى القتال لا ترضوا لأنفسكم مظهرًا أقل من أسلافكم وتذكروا على الدوام مجدهم . وإذا كان حب البنين والوالدين والزوجات سوف يعوقكم ، تذكروا ما جاء فى الأنجيل " من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ومن أحب إبنا أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى " [متى ١٠ / ٢٧ - ٢٨] . وكل من ترك بيته أو أباه أو أمه أو زوجه أو أطفاله فى سبيل المسيح فقد قدم حسنة سوف ينال قدرها مائة مرة كما يستحق الخلود "(٢) .

وحاول البابا أغراءهم بالخلاص من وطأة نظام اقطاعى قصم ظهور الأقنان وأشعل نيران حروب أهلية طاحنة بين النبلاء ، وفشلت كافة المحاولات

---

(١) رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ٧٧ .

(٢) نفسه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

مثل " هدنــه الـرب " و " سـلام الـرب " فـى وضـع حدلهـا ، فحـاول البابـا توجيـه الأنظار نحو الأرض المقدسة حيث يتوافر السلام والخيرات ، إذ قـال " ... هـذه الأرض التى تعيشون عليها يحوطها البحر من كل جانب وتحفها سلاسـل الجبـال من كل ناحيــة ، وتضــيق بكثرتكم ، وتشــح بالثروة ، ولا تكاد تغـل مـن الطعـام ما يكفى الزراعين ، ولذا فـأنتم تشـنون الحـروب ضـد بعضكم بعضـا ، وتقتلـون أنفسكم بأيدكم . الآن .. أوقفوا هذه المصادمـات ، وكفـوا عـن الـنزاع ، وأطفئـوا نيران الحرب بينــكم ، وانطلقوا إلى طريـق القبر المقـدس لتنقــذوا تلـك الأرض من ذلك الجنس الذى يثير الرعب فى النفـــوس ، ولتكـن لكــم الأرض خالصـــة من دونهم ، فهى الأرض التــى حدثتـا عنهـا الكتـاب المقـدس بأنهـا تفيـض بـاللبن والعسل "(١) .

ومـا كـان إلا أن ارتفعـت أصـــوات جمهـور المحتشــدين وهـم يـرددون : صيحات إنها " إرادة الله " و " الله يريدها Deus Vult . Deus Vult ". وهكـذا سـرت الدعـوة مسـرى النـار فـى الهشيم ، وكأنمـا كـان المجتمـع بأسـره يتلهــف لسماعها فاستجاب لها الأمراء والفرسان والأقنـان والزنـاة والخطـاة، واللصـوص والسفاكون ، والهاربون من الديـون ، والفـارون مـن السـجون : المجتمـع بأكملـه عليته وحثالته : بأضلاعه الثلاثة التى حدثنا عنها ألفرد العظيم Alfred the Great ملك إنجلترا فى القرن التاسع : ضلعه الذى يصلى (يعنــى رجـال الاكليروس) وضلعه الذى يحكـم (الأمـراء العلمـانيون) ، وضلعـه الـذى يقـوم بخدمـة هذيـن الضلعين (الفلاحون الأقنان)(٢) .

---

(١) نفسه .

(2) " Vos qui ameis de vraie amour " An Anonymous Poet writes of the love of God expressed by the Crusader (in Riley - Smith, The Crusades, Idea and Reality, London , 1981, PP. 89 - 90 .

أما الملوك فقد وضعوا أصابعهم فى أذانهم ولم يستجيبوا لتلك الدعوة طوال خمسين سنة، إلى أن قرر بعضهم تلبية النداء بحمل الصليب ، وذلك فى آخريات النصف الأول من القرن الثانى عشر . وهذا الموقف الذى أتخذه ملوك أوربا آنذاك بلا استثناء ، يثير كثيرًا من علامات الاستفهام .. أتراهم لم يؤمنوا بالفكرة فى حد ذاتها؟ أم أنهم لم يقتنعوا بجدواها فى مواجهة عدو يجهلون حقيقة قوته العسكرية وتعبئة جيوشه ؟ أم أن البابوية نفسها كانت راغبة عن اشتراكهم كارهة لحاجة فى نفسها يمكن تفسيرها فى ضوء ما كان هناك فى تلك الحقبة من تنافس وصدام بين السلطتين الدينية والزمنية .

ولعل التساؤل الأخير يجد إجابته مباشرة فىسلوك أوربان الثانى، الذى ما أن فرغ من دعوته العامة فى كلير مونت حتىعكف خلال الأشهر التاليةالتىاستغرقتها الاستعدادات لخروج الحملة الأولى باتجاه الشرق، على مكاتبة بعض أمراء أوربا من وراء ظهر ملوكهم وأخذ يعقد المجامع الكنسية ، ويبعث برجاله إلى أنحاء متفرقة من أوربا حاثا على دعوة الأمراء والنبلاء والفرسان على الاستجابة لدعوته .

وفى رسالة بعث بها إلى " كل المخلصين فى الفلاندرز " فى ديسمبر ١٠٩٥ ، أى في أعقاب مجمع كلير مونت قال البابا : " ... لقد زرنا بلاد الكنائس [فرنسا] لحث السادة والرعايا بشدة فى هذا الأقليم على الاستجابة لتحرير الكنائس الشرقية .. وفرضنا عليهم بأن ينجزوا مثل هذا المشروع لمحو كافة خطاياهم ، وعينا نائبًا عنا ليقود هذه الحملة هو أبننا العزيز أديمار Adhemar أسقف لى بوى Le - Puy ومن ثم فإن كل من يقرر المشاركة فى هذه الرحلة عليه أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا ، كما يجب أن يخضع لسلطانه تماما فى الحل والعقد فى أية قرارات تتصل بعمله "(١) .

---

(١) URBAN II, To all the faithful in Flanders, December 1095 وراجع أيضًا الترجمة العربية عند قاسم ، المرجع السابق ص ٩٠ .

وواضح من هذه الرسالة أن البابا قد اختار قائدا روحيا وموجها للحملة هو أسقف لى بوى ، ولم يعقد لواء الزعامة لأى من الأمراء الذين خرجوا بجيوشهم فى هذه الحملة مثل جود فروى دى بوايون God frey de Bouillon دوق اللورين، وبوهيمند Bohemond النورمانى ، وستفن كونت بلوا Stephen Count Blois ، وريموند Raymond الصنجيلى Saint Giles أمير تولوز Toulouse ، وإن كان الأخير قد حظى بصحبة المندوب البابوى مما أوحى بأنه من المقربين !

وفى التاسع عشر من سبتمبر عام ١٠٩٦ كتب البابا إلى أتباعه فى بولونيا Bologna يقول ضمن إجراءات تنظيمية : " ... علمنا أن كثيرين منكم قد استبد بهم الشوق للذهاب إلى أورشليم ، وذلك شئ أثلج صدورنا ، وليكن معلوما لديكم أن كل من يمضى إلى هناك لتحرير الكنيسة وليس لتحقيق مكاسب دنيوية فإننا بمقتضى السلطة المخولة لنا وسلطة أساقفتنا الكبار وكل أساقفة الغال ، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثوليكية ، نكفّر عنهم ذنوبهم وخطاياهم التى اعترفوا بها ، لأنهم قدموا أموالهم وحياتهم فى حب الرب . أما الأساقفة والرهبان فلا يسمح لهم بالرحيل قبل الحصول على موافقة أساقفتهم ومقدمى أديرتهم . و يجب أن يوضع فى الاعتبار أن الشباب حديثى الزواج لا يفضل أن يقوموا برحلة طويلة كهذه دون موافقة أزواجهم . وليساعدكم الرب العظيم "(١) .

وبعد ثلاثة أسابيع من هذه التاريخ ، أى فى السابع من أكتوبر ١٠٩٦ ، أرسل إلى جماعة دير " فالومبروسا " Vallombrosa يقول : " لقد نما إلى علمنا أن بعضكم يريد الأنطلاق مع الفرسان المتجهين إلى أورشليم بنية خالصة لتحرير المسيحية ، وهذا نوع من التضحية الحقة ، غير أن هذه الخطوة جاءت من أفراد

---

(١) URBAN II, to his partisans in Bologna 19 September 1096 وراجع الترجمة العربية قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ص ٩١ .

غير مؤهلين لذلك ، ونحن نستنفر افئدة الفرسان للقيام بهذه المهمة لأنهم هم القادرون على كبح جماح المسلمين بأسلحتهم ، وتحرير المسيحيين . ونحن لا نريد لأولئك الذين هجروا متاعاً ، ونذروا أنفسهم لجهاد الروح ، أن يحملوا السلاح أو يشاركوا فى هذه الحملة "(١) .

ويتضح تماما من هذه الرسائل التى جئنا على طرف منها هنا ، وتلك التى أوردتها المصادر ولم نذكرها ، ومن خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت ، أن البابوية وضعت نفسها منذ البداية فى موضع الزعامة الروحية والسياسية للحركة الصليبية . أما عن الزعامة الروحية فلا سبيل إلى الشك فيها أو النيل منها ، وأما عن الزعامة السياسية فقد خاطبت البابوية الفرسان دون الملوك - فكانت تعنى صراحة تجاهل السلطة الزمنية فى أوروبا ، فالأمراء يدينون بولائهم السياسى - ولو من الناحية النظرية فقط ، لملوكهم باعتبارهم أفصالهم الإقطاعيين . وقد أقسموا لهم بمقتضى النظام الإقطاعى السائد يمين الولاء والتبعية . ورغم أن الأمراء وملوكهم يدينون بالتبعية الروحية للبابوية ، إلا أن مخاطبتهم من وراء ظهور سادتهم الإقطاعيين ، حتى ولو كان من جانب البابا بوصفه خليفة القديس بطرس ونائب المسيح Vicarius Christi يعد اعتداءً على حقوق السلطة الزمنية وانتهاكًا لأسس النظام الأقطاعى السائد فى أوروبا آنذاك ، والذى يقضى " برابطة تعاقدية تحت زعامة الملك باعتباره ممثلاً لقمة الهرم الإقطاعى "(٢) .

---

(1) URBAN II, to the Religious of the Congregation of Vallombrosa 7 October 1096

وراجع الترجمة العربية عند ، قاسم عبده قاسم المرجع السابق ، ص٩٢ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ١٩٨٣ ، الجزء الثانى ١٩٨٦ ، ص ٢٧٣ ؛ محمد كامل ليلة ، النظم السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص٤٢٢ .

ولما كانت البابوية تدرك ذلك تماما ، فقد سعت حثيثًا لتضع نفسها هى الأخرى فى مصاف الملوك الإقطاعيين ، ووسعت فى هذا السبيل خطوها حتى أمسى البابا بدوره سيدًا إقطاعيا تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك. وقد بدأ هذا الاتجاه واضحًا منذ وقت سابق مبكر عندما كتب البابا جريجورى السابع Gregory VII سنة ١٠٧٣ رسالة "إلى الأمراء الراغبين فى محاربة المسلمين فى أسبانيا"(١).

جاء فيها : " ها هو كونت إفولوس Evolus صاحب روشيو Roceio وصاحب الشهرة الفائقة ، يرغب فى مهاجمة تلك الأراضى لاستخلاصها من أيدى الوثنيين [يعنى المسلمين فى الأندلس] ، ومن ثم فقد أعطيناه الحق فى امتلاك كل الأراضى التى يستردها بنفسه أو بمساعدة حلفائه ، وكان ذلك بموافقتنا نحن ممثلى القديس بطرس ، فإذا حذوتم حذوه وسعيتم سعيه ، كان سعيكم مشكورًا ، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضى منفردًا أو لحسابه الخاص ... فليكن معلومًا لديكم جميعًا أنه من الخطأ البين أن تغضبوا القديس بطرس باستيلائكم لحسابكم على تلك الأراضى ، وبذلك يكون شأنكم مثل شأن الوثنيين " .

وإذا كان جريجورى السابع قد استفتح ولاية عهده البابوى بتأكيد سيادته الإقطاعية تجاه الأمراء ، فإنه ثنى ذلك فى العام التالى (١٠٧٤) بدعم هذا الأدعاء إزاء الملوك ، فقد كتب إلى سليمان Solomon ملك المجر(٢) يؤكد له أن سلطته كملك تستمد من البابا بوصفه خليفة القديس بطرس وليس من ملك ألمانيا . ويبدو أن الفكر الصليبى البابوى قد قر

---

(1) GREGORY VII, to the princes wishing to reconquest Spain , 1073 .

(2) GREGORY VII, to Solomon King of Hungary 1074 .

فـى ذهـن جـر يجـورى قبـل أوروبـان الثـانى بعشـرين سـنة كاملـة ، وأن الاتجاه إلـى الشـرق فـى حملـة صليبيـة كـان مـن بنـات أفكـار جريجـورى السـابع نفسـه ، ففـى عـام ١٠٧٤ وجـه الأخـير نـداءً عامـا " إلـى كـل الراغبيـن فـى الدفـاع عـن العقيـدة المسـيحية "(١) افتتحـه بـالحديث عـن الويـلات التى حلت بالمسيحيين فـى الشرق ، والاضطهـادات التـى تعرضـوا لهـا علـى يـد المسلمين ، ومـا تعانيـه الإمبراطوريـة فـى الشـرق مـن خطـر داهـم مـن جـانبهم ، وهـذا هـو بعينـه مـا قالـه أوربـان الثـانى فـى كلـيرمونت وصدر بهـا رسـائله التـى أوردناها مـن قبـل .

وبعد ذلك انتقل جريجورى السابع إلى الدعوة لحملة صليبية لأنقاذ مسيحى الشرق فقال : " نحن نثق فى رحمة الله . كما نثق فى قدرته ، وسوف نبـذل كـل مـا فـى وسـعنا لعمـل الاسـتعدادات اللازمـة لتقديـم يـد العـون للإمبراطوريـة المسـيحية [يعنـى الدولـة البيزنطيـة] فـى أسـرع وقـت ممكـن ، ومـن ثـم فنحـن نناشدكم بالإيمـان الـذى ألـف بينكـم فـى المسـيح ، وسـلطة القديـس بطـرس أمـير الرسل، أن تتحركوا بكل الحنـو لدمـل جراحـات ودمـاء أخوانكـم ، وانقـاذهم ممـا يعانون ، ولتتحملوا الصعاب مهما كانت من أجلهـم ، ونبئونـى لمـا سـيهديكم اللـه إلى عمله فى هذا السبيل"(٢) .

وما أن وافى شهر سـبتمبر من العام نفسـه ، حتى بعـث البابا برسـالة إلـى وليم السابع دوق أكويتيـن Aquitaine وكونت بواتو Poitou جاء فيها أن التقاريـر تفيـد بهـدوء الأحـوال فـى الشـرق ، وأن المسـيحيين هنـاك بـدأوا يسـتردون

---

(1) GREGORY VII, Calls for a Crusade, 1074 .

(2) Setton (K), AHistory of the Crusades, 1989, vol. I, PP. 222 - 223 Id. Six vols, Philadelphia, 1955 .

ثقتهـم فـى أنفسـهم ثانيـة(١) ، وأن علينـا الـتريث حتـى نـرى مـا يطالعنـا بـه المستقبل(٢) . ولم تكد تمضى على ذلك أشهر ثلاثة ، حتى كتب البابا إلى هنرى الرابع Henry IV ملك ألمانيا فى الأيام الأخيرة لعام ١٠٧٤ يقول : " أود أن ألفت انتباهكم إلى أن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من اضطهاد وذبح المسلمين لهم كما تذبح الشياه وأنهم كتبوا إلى مستجيرين ... وليكن معلومًا لديـك أن هنـاك خمسين ألف رجل على أتم الاستعداد للقتال هناك تحت قيادتى ... كما اقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا تقدمهم حتى قبر المسيح "(٣) ، ولعل هذا ما دعا المؤرخين Edgar H. Mcneal , Oliver J. Thatcher إلى الاعتقاد بأن ما حدث فـى عام ١٠٩٥ لا يختلف كثيرًا عما دعت إليه البابوية فـى سنة ١٠٧٤ ، وأن البابـا أوربان الثانى عندما وجه الدعوة للحملة الصليبيـة فـى كليرمونت ، لـم يستهدف أكثر مما اشتمل عليه فكر جريجورى السابع حسبما كشفت عنه رسائله هـذه(٤) .

---

(١) لعل جريجورى يشير هنا إلى التحالف المؤقت الذى جرى فـى منتصف عام ١٠٧٤ بين الإمبراطورية البيزنطية وبعض زعماء السلاجقة ، مثل أرتق وسليمان بن قطلمش ، للقضاء على الحركة التى قام بها " روسل باليل " Roussel of Bailleul لإقامة دولة نورمانية مستقلة عن الإمبراطورية فى آسيا الصغرى ، وأدى هذا التحالف المؤقت إلى هدوء الأمور نسبيًا فى المنطقة بين البيزنطيين والسلاجقة . راجع ، أسد رستم ، الروم ، جزءان، بيروت ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، ص ١١٢ - ١١٣ ؛ سيد أحمد على الناصرى، الروم القاهرة ١٩٩٣، ص٣٧٩-٣٨١؛ عبدالغنى محمود عبد العاطى ، السياسة الشرقية للإمبراطورية فى عهد الإمبراطور الكسيوس كزمنوس ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٨٢-٨٧.

(2) Setton, op - cit. Vol. I, P. 223 .

(3) Ibid. P. 224 .

(4) Thatcher (O.) & Mcneal (E.), A Source book of Mediaeval History, New York, P. 512.
Ullmann (W.). The growth of Papal government in the Middle Ages, London 1955, P. 307 .

وإذا كان جريجورى السابع لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ برنامجه الصليبى عمليًا ، نتيجة للصراع الذى نشب مبكرًا بينه وبين هنرى الرابع تحت ستار مشكلة التقليد العلمانى ، فإنه يعد بلا شك صاحب اللبنة الأولى فى بناء صرح الحركة الصليبية ، التى تعهدها أوربان الثانى من بعده ، بالرعاية الكاملة حتى أنه ليعد بحق صاحب الجانب العملى التطبيقى فيها .

واستكمالا لمشروعه الصليبى وجه جريجورى السابع فى السادس عشر من ديسمبر ١٠٧٤ دعوة عامة لرعايا الكنيسة عبر الألب للمشاركة فى حملته المقترحة ، فكتب إلى حليفته الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا Tuscany يدعوها لمصاحبة الإمبراطورة الأم " آجنى " Agnes فى رحلتها إلى الشرق ، كما طلب من هنرى الرابع بأن يقوم الملك الألمانى بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة ومباشرة شئونها ، ويوصيه بها خيرًا أثناء غياب البابا فى الشرق قائدًا للحملة ! ويعتبر " فردريك دونكالف " Frederic Duncalf(١) هذه الدعوة من قبل جريجورى السابع لهنرى الرابع " نوعا من السذاجة " بينما نرى نحن فيها نوعا من خبث " شيطان مقدس " - على حد وصف بطرس الدميانى لها(٢) ذلك أن البابا جعل من نفسه داعية لحملة صليبية تتجه إلى الشرق بهدف انقاذ المسيحيين الشرقيين فى الإمبراطورية البيزنطية ، الذين كان هو نفسه يعتبرهم " خارجين عن عقيدة الكنيسة الجامعة "(٣) ونصب نفسه قائدًا عسكريًا للحملة إلى جانب كونه زعيمًا روحيًا ؛ فكأنه بذلك اختص شخصه بجانب من سلطة الملوك وهم الحكام الزمنيون . هذا إلى أن تفويضه هنرى رعاية شئون الكنيسة الرومانية فى غيابه ، يجعل من هنرى نائبًا عنه ، أو بتعبير أشد تحديدًا ، فصلاً إقطاعيًا تابعًا

---

(1) The Councils of Piacenza and Clermont (in Setton, A History of the Crusades, Vol. I, p. 224).

(2) Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050 - 1300, U.S.A. 1964, p. 46.

(3) Setton, op. cit. I, P. 224 .

له، وهذا هو جانب " الخبث " فى " الشيطان المقدس " مما يجعل الأمر ليس مجرد " نوع من السذاجة " ! ويؤكد قولنا هذا ما يذهب إليه " أو لمان "(١) Ullmann من أن هذه الحملة المقترحة لجريجورى كان صاحبها يستهدف من طرف خفى هدفًا سياسيًا آخر ، وهو إشاعة أن هناك خمسين ألف مقاتلاً رهن إشارة البابوية ، حتى يؤدى إظهار هذه القوة العسكرية المزعومة إلى الحد من حدة هجمات النورمان فى جنوب إيطاليا على الممتلكات البابوية .

وتدعم مجريات الأحداث ما ذكرناه ، ففى الثانى والعشرين من يناير ١٠٧٥ ، وبعد أقل من شهر من رسالته إلى هنرى ، كتب إلى هيو Hugh مقدم دير كلونى ورئيسه السابق ، عندما كان راهبًا يحمل اسم " هليد براند " Hildebrand رسالة لم يخرج فيها أبدا عن نطاق الحديث عن حملة عسكرية ينوى قيادتها لمساعدة البيزنطيين ، وإن كان قد أظهر فى الوقت نفسه تبرمه " لانسلاخ البيزنطيين عن حظيرة الإيمان الكاثوليكى "(٢) . وفى العام نفسه بدأت أولى حلقات الصراع بين البابوية و السلطة الزمنية فى أوروبا عامة وألمانيا خاصة ، وذلك عندما أعلن البابا جريجورى عن برنامجه الإصلاحى بمحاربة السيمونية، أى بيع الوظائف الكنسية ، وعدم التعامل مع رجال الدين المتزوجين ، ثم أعلن رفضه التام للتقليد العلمانى ، مما أثار جرحًا لم يندمل بين البابوية والملوك حتى نهاية العصور الوسطى ، إذ تحول الجرح إلى نزيف مستمر بين القوتين حول السيادة العالمية(٣) .

---

(1) Ullmann (W.), A Short History of the Papacy in the Middle Ages, London 1974, P. 150 .

(2) Setton, op. cit. I, P. 224 .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع ، راجع ، رأفت عبد الحميد ، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٥٧ - ٢٢٥) .

ومما يوضح بجلاء نوايا جريجورى السابع إزاء السلطة الزمنية ، أنه ما أن بدأ الصراع مع هنرى ، حتى أعرض عن السعى لكسب أى تقارب مع بلاط القسطنطينية ، بل على العكس قلب لها ظهر المجن تماما ، فبارك الغزو النورمانى للأراضى الإمبراطورية فى شبة جزيرة البلقان ، فى محاولة لصرف انتباههم بعيدًا عن ممتلكات البابوية فى إيطاليا ، وأصدر قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور البيزنطى نقفور الثالث بوتنياتس Nicephorus III Botaniates تحت دعوى أنه عزل صديقه ميخائيل السابع عن العرش سنة ١٠٧٨ ، وشجع روبرت جويسكارد Robert Guiscard النورمانى عندما أعلن عزمه على إعادة ميخائيل إلى عرشه(١) . ومع أن الإمبراطور الكسيوس كومنينوس بعد ذلك فى محاولة منه إزالة الخلاف بين القسطنطينية وروما ، جدد رغبة ميخائيل السابع فى الاستعانة بجند مرتزقة من الغرب الأوروبى ، إلا أنه لم يجد من جريجورى آذنا صاغية ، فأقدم كرد فعل لغيظه على اغلاق الكنائس الكاثوليكية فى العاصمة الإمبراطورية، ونظر البيزنطيون إلى البابا الرومانى باعتباره متواطئًا مع النورمان ، وأطلقت النكات الساخرة فى القسطنطينية عن غطرسة البابا جريجورى وعجرفته(٢) .

هذه الفعال التى مارسها جريجورى السابع لا يمكن أن تنسب مطلقًا إلى زعيم روحى ، بقدر ما تعبر عن سلوك ملك إقطاعى يمارس شئون السلطة الزمنية ، أو على حد تعبير " ستفن رنسيمان "(٣) Steven Runciman فإن

---

(1) Setton, Op. Cit. I, p. 224 .

وأيضًا . Runciman (S.) , A History of the Crusades, 3 Vol. I, pp. 69, 99

(2) Anne COMNENA, The Alexiead, Translated from the Greek by E. R. A. Sewter, Penguin books 1969, pp. 61 - 65 .

(3) Runciman, Op. Cit. I , p. 92 .

البابوية أمسكت دفة الحرب " المقدسة " - من عرفها - وراحت توجهها كيف تشاء ، فهى التى تدعو إلى هذه الحرب وتعين قادتها . أما الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها فهى تحت سيادة البابوية وحمايتها . ومن هنا لم نكن مبالغين عندما ذكرنا من قبل أن دعوة أوربان الثانى فى كليرمونت ، ورسائله العديدة التى وجهها إلى الأمراء ، دون الملوك ، كانت بمثابة إعلان لحرب صليبية تدور رحاها فى أوروبا بين السلطة الزمنية ممثلة فى الملوك والإمبراطور ، والسلطة الروحية الزمنية مجتمعة فى البابوية !

لقد كانت دعوة الأمراء وحدهم للقيام بهذه المهمة ، تعنى بتعبير دقيق سحب البساط من تحت أقدام الملوك وتجريدهم من أهم دعامتين اعتمدت عليهما عروشهم .. هما المال والجنود . فالملك - فى ظل النظام الإقطاعى - لم يكن يعدو فى كثير من الأحيان " الأول بين أقرانه " Primus inter Pares ، يمتلك مساحات من الأرض ، ربما دون ممتلكات بعض أفصاله ويعتمد دخل خزائنه على ما يقدمه له أمراؤه فى مناسبات محددة ، دون أن تأخذ هذه الهدايا صفة الضريبة . وكان بناء جيشه يعتمد على جيوش الأمراء فى أى حرب يخوضها وبعبارة أخرى كان الأمراء هم مصدر قوة الملك أو سبب ضعفه وفقا لشخصية الملك فى المقام الأول . ولما كان النظام الإقطاعي فى الغرب يعتمد على توريث الابن الأكبر وحده وحرمان بقية الأبناء تجنبًا لتفتت الملكية الزراعية ، فإنه أوجد مجموعة من الأمراء المغامرين بلا أرض([1]) ، ولم يفلح ميدان الاسترداد فى الأندلس فى علاج هذه الظاهرة ولذا أصبحوا على استعداد لبيع ولائهم لمن يقدم لهم أرضًا أو وعدا بأرض ، كما هى الحال مع البابوية . وقد أدركت الأخيرة فى الوقت نفسه أنها إذا نجحت فى استقطاب هؤلاء المغامرين ، وضم غيرهم من

([1]) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٤١ (١٩٧١) .

الإقطاعيين الطامعين أو الطموحين فإنها ستحقق بذلك هدفها المزدوج بضربة واحدة : السيادة فى أوروبا فى مواجهة السلطة الزمنية ممثله فى الملوك ، وامتداد نفوذها عالميًا خارج أوروبا - عن طريق الظهور فى صورة المدافع عن المسيحيين فى الشرق ، واحياء الحلم القديم الذى ظل يؤرق جفنها منذ القرن الخامس الميلادى ويلح عليها بالعمل لاستعادة سيطرتها على كنيسة القسطنطينية.

ولا شك فى أن هذه الخواطر كلها كانت ماثله فى ذهن أوربان الثانى ، كما كانت ماثله أيضًا فى ذهن جريجورى السابع من قبل . ومع أن أوربان لم يكن على درجة من الصلف مثل سلفه ، إلا أنه كان فى الوقت نفسه غير ضعيف وإنما كان يفضل دائمًا أن يتجنب المواجهة السافرة مع خصومه(١) لذلك لم يجد حرجًا فى أن يشارك بكل ما يستطيع فى المؤامرة التى دبرها الأمير الألمانى كونراد Conrad ضد أبيه الأمبراطور هنرى الرابع(٢) ولم يكن ذلك بدعا ، بل كان تقليدًا وضعه أوربان الثانى وسار عليه خلفاؤه من بعد فى علاقتهم بفردريك الثانى وابنه هنرى [السابع] فضلاً عن ابنى فردريك الثانى وهما كونراد ومانفرد Manfred .

ولم تتنازل البابوية أبدًا طيلة صراعها مع السلطة الزمنية عن ادعاءاتها بالسيادة الاقطاعية ، لتشارك الملوك بذلك حقوقهم باعتبارهم قمة الهرم الاجتماعى .

ومن ثم فإن البابا أوربان الثانى كان واعيًا تمامًا لما يفعله عندما وجه خطابه إلى الأمراء فى كليرمونت ، ثم بعث من بعد ذلك برسائله إليهم ، وشض

---

(1) Ibid - I, P. 101

(2) Brooke (Ch.), Europe in the Central Middle Ages 962 - 1154, Longmans - London 1966, PP. 186 - 187 .

الطرف تماما بشكل عمدى عن الملوك ، وبذلك جعل من نفسه – مثلما فعل سلفه جريجورى السابع – سيدًا إقطاعيًا ينافس الملوك سلطانهم الزمنى فى ظل النظام الإقطاعى . واستند بهذه الطريقة إلى قاعدة إقطاعية عريضة من كبار الأمراء ، ليجرد خصومه الزمنيين من سلاحهم الأساسى الذى اعتمدوا عليه ، نعنى الأمراء . لذلك كانت الدعوة التى وجهت فى كليرمونت لحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق لحرب المسلمين ، إعلانًا للحرب على السلطة الزمنية فى أوروبا ممثلة فى الملوك والأمبراطور الرومانى ملك ألمانيا . وكان هذا واضحًا تماما فى السياسة التى اتبعها أوربان الثانى تجاه ملوك أوروبا المعاصرين .

ففى ألمانيا كانت تقوم الإمبراطورية المقدسة ، وعلى رأسها الإمبراطور هنرى الرابع ، صاحب الملحمة الشهيرة مع البابوية ، والذى لم يغفر لها أبدًا إذ لا لها له فى كانوسا Canossa عام ١٠٧٧ ذلك الإذلال الذى أصبح مضرب الأمثال حتى قيل : " أذل من كانوسا " ومن ناحية أخرى فإن البابوية لم تغفر له مهانتها التى عانتها على يديه طيلة ثلاث سنوات سويا (١٠٨١ – ١٠٨٤) ظل طوالها البابا جريجورى السابع أسير حصاره داخل روما لا يستطيع منها حراكا. فلما ارتحل البابا مع حلفائه النورمان جنوبًا صار أسير هؤلاء الحلفاء حتى مات عام ١٠٨٥ – ولذا أخذ البابا أوربان الثانى يؤلب على الأمبارطور ولده كونراد سنة ١٠٩٣ ، حتى جاء البابا باسكال الثانى ليثير ضده ابنه هنرى [الخامس فيما بعد] سنة ١١٠٤ .

أما إنجلترا فكان على عرشها آنذاك وليم الثانى روفوس William II Rufus (١٠٨٧ – ١١٠٠) ، ولم تكن علاقته بالكنيسة الرومانية تختلف عن تلك التى وضع قواعدها أبوه وليم الفاتح ، الذى رفض أى صورة من صور التبعية للبابوية ، وخاصة اعتبار انجلترا إقطاعًا بابويا ، وضرب عرض الحائط

بالمساعدات التى قدمها له جريجورى السابع فى أول عهده . وقد أضاف وليم روفوس (الأحمر) إلى ذلك إثقال الكنيسة فى أنجلترا بالضرائب الباهظة ، ولم يلتفت مطلقًا إلى برامج الإصلاح الكنسى التى كانت ترفض التقليد العلمانى ، فأخذ يعين الأساقفة ويعزلهم . وفى نوبة من نوبات المرض والخوف من الموت أقدم على تعيين القديس أنسلم Anselm رئيسًا لأساقفة كانتربورى Canterbury ، فلما عادت إليه حيويته اختلف مع أنسلم واضطره إلى الرحيل عن إنجلترا([1]) .

وعلى الشاطئ المقابل كان يجلس على العرش الفرنسى فيليب الأول Philip (١٠٦٠- ١١٠٨) ، وخلال عهده الطويل الذى قارب الخمسين عاما سارت العلاقات بين فرنسا والبابوية من سئ إلى أسوأ . ذلك أن فيليب أصم أذنيه تمامًا أمام حركة الإصلاح الكلونى ، والإجراءات الجريجورية الخاصة بالسيمونية والتى كان فيليب الأول يمارسها علانية غير عابئ بالتهديدات التى وجهها إليه البابوات طوال عهده المديد!([2]) .

وقد جرت عليه سياسته هذه غضب البابا جريجورى السابع . ذلك أن فيليب، شأن ملوك زمانه جميعًا كان يؤمن بأن سيطرة الملك الفرنسى على كل الأساقفة تمثل حجر الزاوية بالنسبة للملكية الفرنسية ، خاصة أن الأساقفة ورؤساء الأساقفة كانوا يسيطرون على مساحات واسعة فاقت أراضى الملك أحيانا . وقد اعتقد فيليب الأول ، ولم يكن ذلك بعيدًا عن الصواب ، كما اعتقد وليم الفاتح وسميه الثانى فى أنجلترا ، وملوك ألمانيا جميعًا ، أن إذعانهم للسيادة البابوية سوف يقضى على مكانتهم بشكل لا يمكن معه استعادتها بعد ذلك مطلقًا.

---

(1) Barlow (F.), The Feudal Kingdom of England 1042 - 1216, London 1974, pp. 156 - 161 .

(2) Ullmann, A Short History of the Papacy, p. 150 .

وإزاء هذه السياسة التى مارسها فيليب الأول اتخذ المجمع الذى عقد فى بياكنزا Piacenza فى مارس سنة ١٠٩٥ فى شمال إيطاليا عدة قرارات ضد السيمونية وزواج رجال الدين ، إلا أن البابا تدخل شخصيًا ليحول دون أتخاذ أى قرار ضد فيليب الممارس العام لهذه الأمور ، وذلك حتى يمكن البابا من زيارة فرنسا فيما بعد([1]) وهو ما حدث بعد ذلك بقليل عند عقد مجمع كليرمونت . ولذا كان على فيليب أن يقف موقف المتفرج الذى ينتظر قرارا بالحرمان الكنسى ، وهو يشاهد أوربان الثانى يدعو لخروج الحملة الصليبية الأولى من فوق الأرض الفرنسية ، ولا يستطيع المحروم أو من هو فى موقعه أن يحمل الصليب . ولم يكن منتظرًا من البابوية أن تقدم أى عون للملكية الفرنسية إذا حاولت أن تحاكى هنرى الرابع أو أن تحذو حذوه([2]) .

هذا هو الحال الذى كانت عليه الملكيات الثلاث فى غرب أوربا عشية الدعوة للحملة الصليبية مما كان يمثل فرصة سانحة لم يكن منتظرًا أن تجد البابوية توقيتًا أكثر مناسبة منه لتنفيذ خطتها وتحقيق أهدافها فى الداخل والخارج فالملوك الثلاثة السابق ذكرهم كانوا ذوى شخصيات غريبة ، فمع عدائهم المشترك للبابوية وقدرتهم على تحدى برنامجها الإصلاحى ، وهى سمة جمعت بينهم فى حينها ، إلا أنهم فى الوقت ذاته لم يحظو بتقدير أمرائهم وأفصالهم فى الداخل لسياستهم العامة الرامية إلى أحكام سيطرتهم كملوك يمثلون رأس النظام الإقطاعى ، وهو النظام الذى يستهدف إضعاف السلطة المركزية وإزدياد نفوذ الأمراء . ومن ناحية أخرى لم تكن علاقاتهم مع بعضهم البعض توحى بأى نوع من المودة أو التقارب ، فالنزاع بين فرنسا وإنجلترا قائم على قدم وساق ، يتخذ

---

(1) Runciman, op. Cit. I, P. 104 .

(2) Scott (M.) Medievel Europe, London 1975, P. 160 .

شكلاً قانونيًا وأشكالاً عسكرية ، منذ أقدم وليم دوق نورمنديا ، على غزو إنجلترا عام ١٠٦٦ وإعلان نفسه ملكًا عليها ، مع عدم تخليه عن مقاطعته فى فرنسا ، وبذلك أصبحت القضية : من يتبع من ؟!

والعلاقة بين فرنسا وألمانيا لم تكن أحسن حالا من قرينتها ، فالعداء التقليدى قائم بين المملكتين منذ إنسلخت المناطق الألمانية التى كانت تكون الأجزاء الشرقية من إمبرطورية شارلمان عن السيادة الكارولنجية بعد وفاة آخر أفرادها لويس الطفل سنة ٩١١ ، وكانت ألمانيا تعتبر اللورين أراضى ألمانية بينما يدين دوقها بالتبعية الإقطاعية لملك فرنسا .

أما البابا أوربان الثانى فلم يكن بغافل عن كل هذه الأمور ، فى الوقت الذى ساقت إليه الظروف السياسية فى الإمبرطورية البيزنطية المسوغ الذى يتمناه ليضرب ضربته والحديدة محماة . ذلك أنه فى المجمع الذى عقده فى بياكنزا فى مارس عام ١٠٩٥ ، ألتقى برسل الإمبرطور الكسيوس كومنين الذين قدموا لتجنيد ما يمكنهم تجنيده من المرتزقة للعمل فى الجيش البيزنطى . وكانت الإمبرطورية البيزنطية قد لجأت إلى هذه السياسة بعد الضربة التى أنزلها بها السلاجقة فى موقه مانزكرت سنة ١٠٧١ ، إذا أخذ الكسيوس يجيش جيوشه من أعداد كبيرة من المقاتلين الأوربيين ، خاصة الإنجليز الذين تم تسريح جيوشهم بعد دخول النورمان إنجلترا بقيادة وليم الفاتح ، بالإضافة إلى بعض عناصر البوشناق Petchenegs وقبائل الأستبس الذين عرفوا بـ " الورنك " Varangian ، وعرف الطريق الذى يسلكونه من أقصى شمال غرب أوروبا إلى القسطنطينية بالتسمية نفسها . وأصبحت هذه القوات تشكل الحرس الإمبرطورى والقوة الضاربة فى الجيش البيزنطى . وقد لجأ الكسيوس إلى الأسلوب نفسه

فى بناء بحريته ، إذ عهد إلى جمهـورية البنـدقية بإنشاء أسطوله مقابل حصولهم على امتيازات تجارية هائلة فى الموانئ البيزنطية والعاصمة الإمبراطورية .

وكان أن أحسن البابا أوربان الثانى استقبال الوفد البيزنطى ، وأصغـى إليـه باهتمام زائد ، بل لقد دعا مندوبى الإمبراطور للحديث مباشرة وحضور المجمـع. ومع أن شيئًا من حديثهم لم يبق لنا ، إلا أنه من المتوقع أن يكون قد دار حول ما يتعرض له المسيحيون فى الشرق من ويلات ، وهو ما استخدمه البابـا بعـد ذلـك فى كليرمونت والمنـاداة بضـرورة الدفـاع عـن الإمبرطوريـة البيزنطيـة باعتبارهـا درع المسـيحية الشـرقى . ومـع أن ذلـك الحديـث تـرك تـأثيره البعيـد فـى نفـوس السامعين إلا أن أحدًا لم يحرك ساكنا ، وإن كان الأمل يحدوهم فى أن يُنَفِّر بعض رعاياهم للاشتراك مع إخوانهم الشرقيين فى حماية المسيحية(١) غـير أن أوربـان الثانى أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم واستعاد فى ذاكرتـه ذلـك المشـروع الضخـم الذى كان قد عـزم عليـه وهـو القيـام بحـرب مقدسـه تتجـه إلـى الشـرق ، يقودهـا بنفسه. وراح أوربان الثانى يقلـب الأمـر علـى كافـة وجوهـه طـوال سـبعة أشـهر وعدة أيام حتى وصل إلى كليرمونت .

وكـان البابـا يعلـم جيدًا أن فرنسـا هـى التربـة الصـالحـة فـى أوروبـا لنشـر دعوته، فالرجل كان فرنسيا ويعلم تمامـا الأحـوال الاقتصاديـة والاجتماعيـة التـى يتردى فيها المجتمع الفرنسى ، بالإضافة إلى أن فرنسا تعد أشد الدول الأوروبيـة تعصبًا للكاثوليكية ، باعتبارها أسبق الممالك الجرمانية التـى اعتنقتهـا فـى أواخـر

---

(1) Vasiliev (A.A), AHistory of the Byzantine Empire, Madison and Milwaukee, 1964 V. I, pp. 401 - 402 Runciman, Op. Cit : I, PP. 104 - 105 & Setton,.

وراجع أيضًا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جزاءن. القاهرة ١٩٦٣ ، الجزء الأول، ص ١٣١ - ١٣٢ .

القرن الخامس الميلادى والسنوات الأولى من القرن السادس على عهد ملكها كلوفيس Clovis . لذا أقنع المؤتمرين فى بياكنزا بتأجيل اتخاذ قرار الحرمان ضد فيليب الأول ملك فرنسا ، حتى لا ينتقل الحرمان بالتالى إلى رعيته فلا يستطيع الفرنسيون تلبية دعوته . هذا من ناحية ، ومن الأخرى كان يريد أن يبقى على خيط رفيع بينه وبين الملك فيليب يمكنه من خلاله أن يستتيبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وإذا كانت البابوية قد شهرت سلاح الأمراء فى وجه السلطة الزمنية ، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير جدا طيلة نصف القرن الأول من عمر الحركة الصليبية التى امتدت فى الشام قرنين من الزمان ، فإنها غيرت خططها من بعد تغييرا جذريا ، وقلبتها رأسا على عقب ، حيث أضحت الحملات الصليبية التالية كلها ، باستثناء الرابعة ، حملات ملوك . وإذا كانت البابوية قد نجحت فى الدور الأول من الحروب الصليبية فى الاعتماد على الأمراء دون الملوك ، واستخدامهم سلاحا ضد سادتهم الإقطاعيين - الملوك ، أصحاب السلطة الزمنية - فإنها نجحت أيضًا فى الدور الثانى من أدوار هذه الحرب التى نعتتها بـ " المقدسة " نجاحًا منقطع النظير ، بينما فشل الملوك فشلا ذريعًا فى مواجهة السلطة البابوية المتزايدة على امتداد ما يزيد عن مائة وخمسين عاما تالية ، أى إلى ما بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

ويبدو هذا الأمر واضحًا من مجرد الاستقراء السريع لأحداث التاريخ خلال تلك الفترة ، فالنجاح الوحيد الذى تحقق للصليبيين فى الشرق كان ما تم على يد الحملة الأولى التى تكونت كلها من أمراء أوروبا . وتمثل ذلك فى تكوين الإمارات الصليبية فى الرها وإنطاكية وطرابلس فضلا عن مملكة بيت المقدس. هذا فى حين أخذ الفشل يطارد الملوك فى كل حملاتهم التى تلت ذلك باتجاه الشام

أو مصر حتى إذا أفلحت إحداها وهى الحملة السادسة التى لا يمكن أن نعتبرها حملة حربية بالمعنى العسكرى الصليبى للحملات ، وحقق قائدها فردريك الثانى بالمفاوضات ما فشل فيه الملوك بالحرب ، أعلنت البابوية تبرؤها مما فعل ، ووصمته بالهرطقة والتجديف ، وحرمته من رحمة الكنيسة ، وقيدته بقيود اللعنة، وألبت عليه أوروبا كلها ، ولم تزل به وبأبنائه وبأحفاده حتى أودعتهم جميعًا بطن الثرى !!

والأدهى والأمر من ذلك أن البابوية فى حومة صراعها مع الإمبراطور فردريك الثانى راحت تخاطب ملوك بنى أيوب فى الشام تنفر إليهم شخص فردريك الثانى ، بل كتبت إلى الكامل الأيوبى فى مصر تطلب منه عدم تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور . ويعلق " كانتروفتش"(١) Ernst Kantorowicz على ذلك بقوله : " إن البابا قد انحط إلى هذا الدرك نتيجة اقتناعه بأن أى نجاح يحققه ذلك الإمبراطور المحروم سوف يعنى أن حكم الله ليس فى صالح البابوية!! وهذه الحقيقة لم تفت على المؤرخ الإسلامى ابن واصل(٢) الذى ذكر أن البابا كان يكن كراهية ومقتا شديدين لفردريك وبنيه ، وإن كان قد علل ذلك بميلهم إلى المسلمين.

هذه الأحداث تفرض على الباحث سؤالاً لا مندوحة من طرحه ، هل كانت البابوية سعيدة بالإخفاق الذى أصاب الملوك فى حملاتهم الصليبية إلى الشرق ؟ وهل كانت تتمنى لهم فى نفسها الفشل حتى ولو كان ذلك على حساب الحركة نفسها ؟ هذا ما يجيب عنه " كانتروفتش " إذ يقول بالحرف الواحد : " لقد كان أى

---

(1) Frederick The Second, London 1931, P. 184 .

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٤٨ - ٢٥١ .

نجاح يحققه الإمبراطور يمثل أسوأ كارثة يمكن أن يتوقعها البابا"(1) ، ذلك أن الحركة الصليبية لم تعد سوى مجرد ورقة فى يد البابوية ضمن أوراق اللعبة السياسية التى تلعبها(2) ، بعد أن فقدت قوتها الروحية منذ زمن ليس بالقصير!

أما أن البابوية كانت سعيدة بما حاق بحملات الملوك من فشل ، فذاك شئ يحتاج إلى وقفة طويلة نتدارس فيها كيف سارت العلاقات بين البابوات والملوك منذ منتصف القرن الثانى عشر ، أى منذ تولى الملوك قيادة الحملات الصليبية ، وكيف حرصت البابوية على أن تستغل خروج هذه الحملات لبلوغ كل أهدافها السياسية التى كانت تسعى إلى تحقيقها .

ذلك أن الأسلوب الذى لجأت إليه البابوية فى تلك المرحلة الجديدة من مراحل الحركة الصليبية كان أسلوب الغزل السياسى الذى أخذت تداعب به ملوك أوروبا فتتودد إلى هذا وتهجر ذاك ، وتؤثر واحدًا بقربها وتظهر للآخر عين الجفاء !! ففى عام ١١٤٤ تمكن المسلمون بزعامة عماد الدين زنكى أتابك الموصل من استرداد إمارة الرها بعد أن كانت رأس جسر غرس فى جسم العالم الإسلامى . وكان الفعل الأوروبى إزاء ذلك عنيفًا ، بحكم المكانة الدينية التى تحتلها الرها فى الروايات المسيحية المبكرة(3) وتولى القديس برنارد St.

---

(1) Frederick the Second, P. 187 .

(٢) زابوروف (ميخائيل) ، الصليبيون فى الشرق ، موسكو ١٩٨٦ ، ص ٣٠٢ .

(٣) ترتبط مدينة الرها فى ذاكرة المسيحيين دائمًا بعلاقتها المبكرة مع المسيحية ، وبما فيها من آثار القديسين ، ومن هذه الروايات أن الرجال الأربعة المجوس الذين قدموا على المسيح ليلة مولده مهتدين بنجم فى السماء ، قدموا من الرها ! ومنها أيضًا أن أبقر Abgar ملك الرها كتب إلى المسيح يطلب إليه - وقد علم بالمعجزات التى جرت على يديه - أن يبرئه من مرضه ، فكان من بين ما بعث به المسيح إليه على ما تذكر الأسطورة - منديلا طبع عليه وجه المسيح عندما جفف به ذات يوم عرقه " وقد شاعت

Bernard مقدم دير كليرفر Clairvaux الدعوة لحملة صليبية جديدة بتوجيه من البابوية لاسترداد الرها([1]) واستجاب كثرون لهذه الدعوة حتى خلت قرى كثيرة من سكانها، وهبوا للمشاركة فى تلك الحملة التى عرفت بالحملة الصليبية الثانية.

على أن البابوية وجدت نفسها عند الدعوة لهذه الحملة فى موقف لا تحسد عليه ، إذ كان عليها أن توزع أوراق لعبتها السياسية بذكاء شديد حتى لا تخسر شيئًا ، فأنجلترا كانت تطحنها آنذاك الحرب الأهلية التى دارت حول العرش بعد وفاة ملكها هنرى الأول فى عام ١١٣٥ ، الذى لم يكن هو نفسه على وفاق مع الكنيسة جريا على سياسة سلفية وليم الأول الفاتح وسميه الثانى . وكان اصرار القديس أنسلم Anselm أسقف كانتربورى على استقلال الكنيسة والأراضى التابعة لها عن سلطان الملكية أمرًا يرفضه ملوك أنجلترا . وقد استمرت الحرب الأهلية التى أعقبت وفاة هنرى تسعة عشر عاما (١١٣٥ - ١١٥٤) حتى كان النجاح فى النهاية من نصيب هنرى الثانى الذى كان كونت أنجو([2]) .

أما فى صقلية فإن روجر الثانى Roger II نجح فى توحيد النورمان جميعًا فى جنوب إيطاليا وأعلن نفسه ملكا فى عام ١١٣٠ ، وكان هذا فى حد ذاته عملاً غير ودى تجاه البابوية التى كانت تعتبر صقلية إقطاعًا تابعًا كما اعتبرت ملكها فصلا يدين بالولاء للجالس على عرش القديس بطرس . هذا إلى أن روجر نفسه

الأساطير حول هذا المنديل وقدرته على شفاء المرضى وإتيان المعجزات . وقد أحضر القائد البيزنطى يوحنا كوركواس هذا المنديل فى سنة ٩٤٤ من الرها إلى القسطنطينية ، فى موكب مهيب . راجع ، هسى (ج . م) ، العالم البيزنطى ترجمة رأفت عبد الحميد، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، حاشية رقم ١٥ .

(1) Runciman, op. Cit . I, PP. 251 - 256 .

(2) Barlow, op - Cit. PP. 201 - 234 .

لم يبد أى مظهر من مظاهر الطاعة أو التوقير تجاه البابوية(١) ومن ثم لم تكن البابوية على استعداد لإبداء أى ترحيب به عندما أعلن عزمه على حمل الصليب مشاركًا فى الحملة الصليبية الثانية .

وهكذا وجدت البابوية الفرصة سانحة لتأكيد سيادتها على الجميع ، مستغلة ظروف الدعوة لهذه الحملة الجديدة ، ففى الوقت الذى أعلنت بصورة ما امتعاضها من تصرفات النورمان فى الجنوب الإيطالى تحت زعامة روجر ، أدخلت فى روع الملك الألمانى لوثير Lothair (١١٢٥ - ١١٣٧) وخليفته - الجالس عندئذ على العرش كونراد الثالث Conrad III (١١٣٧ - ١١٥٢) ، أن أى شخص يعلن نفسه ملكا على صقلية ، يكون قد أعلن بذلك هجومه على الإمبراطور ! (٢) وكان هذا فى جوهره يعنى استعداء ملوك ألمانيا باعتبارهم الأباطرة الرومان - على ملك صقلية روجر الثانى ، وهذه قضية لم يكن الأباطرة الرومان فى ألمانيا فى حاجة إلى من يغذيها لديهم . غير أن كونراد الثالث كان عازفًا عن الدخول فى المشكلة الإيطالية التى كانت جرحا داميا فى جسم ألمانيا ظل ينزف طيلة العصور الوسطى(٣) هذا بالإضافة إلى أن نفوذ البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣) لم يكن مستقرًا فى روما ، من جراء الثورة التى أشعلها أرنولد البريشى Arnold of Brescia وأعلن بها مدينة روما قومونا مستقلا مما اضطر البابا إلى الهروب من المدينة فى عام ١١٤٧ .

---

(1) Haskins (ch . H), The Normans in European History, New York 1966, pp. 210 - 211 .

(2) Runciman, op- Cit . I, p. 231 .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه المشكلة راجع ، رأفت عبد الحميد ، المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية ، المجلة التاريخية [الجمعية المصرية للدراسات التاريخية] .

وفى ظل هذه الظروف دعت البابوية كونراد الثالث للقيام بحملة صليبية ، لا إلى الشرق ، بل إلى إيطاليا لا خماد الثورة المشتعلة فيها ، وإعادة البابا إلى كرسيه الأسقفى ، والتصدى لتهديدات النورمان فى الجنوب . وقد حاولت إغراء كونراد باللقب الإمبراطورى ، الذى جرى وراء سحره كل ملوك ألمانيا ، لكن كونراد كان فى شغل عن ذلك بالصراعات الداخلية فى ألمانيا بينه باعتباره أول ملوك أسرة الهو هنشتاوفن ، وبين هنرى الأسد زعيم حزب الولفيين Welfs المنافسين التقليديين . وقد أدرك كونراد أن الذهاب إلى إيطاليا يعنى الغرق فى مستنقع كبير لا سبيل إلى الخروج منه ، خاصة إذا فتح على نفسه باب الصراع مع النورمان لذا كان الوحيد من بين ملوك ألمانيا منذ أوتو الأول (٩٦٢) حتى وفاة فردريك الثانى (١٢٥٠) الذى لم يحمل لقب الإمبراطور . ولكنه آثر ذلك، كما آثر المشاركة فى الحملة الصليبية المتجهة إلى الشرق لاسترداد الرها ، على القيام بحملة صليبية داخلية توجهها البابوية لخدمة مصالحها الخاصة .

وكان أن استشعرت البابوية الخطر من القيام حملة صليبية إلى الشرق يتزعمها ملك علمانى دون دعوة منها ودون مباركة لها من جانبها ، فسارع البابا يوجنيوس الثالث إلى مراسلة لويس السابع Louis VII ملك فرنسا ، ونصبه قائدًا عامًا للحملة الصليبية المنتظرة ، مذكرًا إياه بماضى الإسلاف المجيد ، مثنيا على شجاعة فرسان الفرنجة فىالحملة الأولى "...إن كثيرين عبر جبال الألب، خاصة فرسان فرنسا الأشداء وقرنائهم الإيطاليين،استجابة لنداء سلفنا طيب الذكر أوربان الثانى ، قد التقوا على المحبة وكونوا جيشًا ضخمًا واستردوا تلك المدينة المقدسة .. وبنعمة الله وحماسة أبائك الذين جاهدوا لإعلاء كلمة المسيح على الأرض ، سادت المسيحية على مناطق واسعة بعد أن تم تخليصها من سيطرة الوثنيين"(١).

---

(1) EUGENIUS III, Letter to King Louis VII of France and his Subjects, proclaims the Second Crusade on God's behalf, 1 March 1146 .

وقد رحب لويس السابع بهذه الدعوة واعتبرها تكريمًا له دون بقية ملوك أوروبا . وكانت نفسه مهيأة لذلك تماما تحت تأثير القديس برنارد ، وشوجر Suger مقدم دير القديس دنيس St. Denis ، والذى كان مستشارًا للملك ولأبيه من قبل. كذلك كانت هذه الدعوة فرصة له للتكفير عن الخطيئة التى ارتكبها باحراق كنيسة فترى Vitry فى مقاطعة شمبانى Champagne عام ١١٤٧ وبها جموع كثيرة من المصلين وما أن أعلن كونراد الثالث عزمه على قيادة جيشه حاملاً الصليب ، حتى قابلت البابوية ذلك ببرود كامل ، ورفض يوجنيوس الثالث طلب كونراد بالسماح له بلقائه فى الثامن عشر من إبريل ١١٤٧ فى ستراسبورج Strassburg . وغادر الملك الألمانى بلاده دون الحصول على مباركة البابا له أو لحملته ، بينما التقى مع لويس السابع وباركه خلال الأيام الأولى من إبريل(١) . هكذا قرب البابا إليه ملك فرنسا فى نفس الوقت الذى أعرض عن ملك ألمانيا ، فى حين أظهر استياءه البالغ بل وعداءه للملك النورمانى روجر الثانى فى صقلية . ولا شك فى أن هذه السياسة البابوية كانت سببًا فى زيادة الجفاء بين ملكى فرنسا وألمانيا قبل أن تخرج الحملة من أوروبا ، بالإضافة إلى العداء التقليدى بين الشعبين الفرنسى والألمانى . وعلى هذا النحو ساهمت البابوية بنصيب كبير جدًا فى الفشل الذى لحق بالحملة الثانية فى الشرق، عن طريق سياستها الصليبية التى بذرت بذور الفرقة والانقسام بين قائدى الحملة منذ مولدها فخرج كل منهما بمفرده يقود جيشه ، ودب بينهما الخلف فى الشرق ، ثم عاد كل منهما وحده يجر أذيال الخيبة والانكسار !

وتعليقا على ذلك يقول المؤرخ " زابوروف " ، " هكذا قدمت الحملة الصليبية الثانية البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الإقطاعيين

---

(1) Runciman, op - Cit - 1, P. 257 .

الغربيين، وأخذت الاعتبارات الدينية ... تفقد أهميتها أكثر فأكثر : حتى تذمر مدونو الأخبار فى القرن الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية إبان الحملة الصليبية الثانية ، ولم تحمل هذه الحملة أكاليل الغار إلى الكنيسة الكاثوليكية . ثم إن التناقضات التى تفاقمت بين دول أوروبا الغربية بسبب التطلعات ، والمطامع التوسعية فى منطقة البحر المتوسط ، أخذت تعارض بعضها بعضًا ... وأسهم إنعدام الوفاق والوئام بين زعماء الحملة وخلافاتهم مع بارونات بلاد الشام بقسط كبير فى فشل الحملة الصليبية الثانية(١) . وإذا كانت البابوية لم تحقق نجاحًا سياسيًا فى الشرق ، بسبب الفشل العسكرى للحملة ، إلا أنها احتفظت لنفسها بالمكانة فى أوروبا ،بقدرتها على تحريك ملوك أوروبا وجيوشها باتجاه الشرق فى حرب صليبية كانت هى الوحيدة التى خرجت منها فائزة !

* * *

وللمرة الثانية مارست البابوية الدور نفسه بعد أن روعتها أنباء استرداد المسلمين للقدس على يد صلاح الدين الأيوبى ، فى أعقاب معركة حطين الشهيرة عام ١١٨٧ ، إذ مات البابا المسن أوربان الثالث كمدا فى ٢٠ أكتوبر من العام نفسه ، ولم يلبث أن لحق به خلفه جريجورى الثامن فى ديسمبر ، بعد أن قام بتوجيه دعوة عامة إلى " كل الدينين فى الغرب " يستثير فيهم حماسة مسيحية كانت قد خبت ، ويعدهم وعدا حسنا بالغفران فى الآخرة ، وحماية ما يملكون فى الدنيا أثناء رحلتهم ، غير أن القدر لم يمهله حتى يرى قطوف دعوته .

وكان قد مضى عندئذ على الحملة الصليبية أربعون عاماً ، شهدت فيها أوروبا تغييرات جذرية فيما يتعلق بالعلاقة بين البابوية والسلطة الزمنية ، إذ

---

(١) زابوروف : الصليبيون فى الشرق ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

أخذت الملكيات الأوروبية تعمل لتدعيم مراكزها فى الداخل ، يساعدها على ذلك خروج الأمراء فى الحرب الصليبية وعدم عودة كثير منهم إلى أوروبا ثانية ، إما نتيجة لموت بعضهم ، أو لتفضيل بعض آخر البقاء فى الشرق وكان هذا يعنى تحول مساحات واسعة من الأراضى إلى ملكية التاج . ورغم أن الكنيسة أعلنت بعد الحملة الأولى أنها سوف تضع تحت وصايتها كل ما يتعلق بالمحاربين المتجهين إلى الشرق ، مؤكدة أن " نساء وأطفال وممتلكات أولئك الذين يحملون الصليب دفاعاً عن المسيح ، سوف يحظون بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة منذ حملهم الصليب وطوال رحلتهم إلى الشرق ومكثهم هناك وعودتهم أوموتهم "(١) وذلك فى محاولة منها لطمأنة المحاربين ، وفى الوقت نفسه لممارسة سيادتها الإقطاعية ، إلا أنها لم تستطع أن تتصدى للملوك فى ممارسة حقوقهم الإقطاعية تجاه الأمراء وهم أفصالهم الإقطاعيون .

يضاف إلى ذلك أن تلك الفترة شهدت أيضًا إزديادًا فى نشأة المدن ونموها وتطورها ، وتجلى ذلك بصورة واضحة فى شمال إيطاليا فيما يعرف بمدن العصبة اللومباردية إلى جانب مدن كل من ألمانيا وفرنسا(٢) ، حتى أن فيليب الثانى أوغسطس ملك فرنسا عهد إلى ستة من تجار باريس برعاية شئون مملكته أثناء غيابه فى الحملة الصليبية الثالثة . وكان أن أصبحت المدن تمثل سلاحا تتسابق البابوية والسلطة الزمنية فى استخدامه أثناء صراعها الطويل . وبينما

---

(1) EUGENIUS III, Letter to king louis VII of France, GREGORY VIII , Summons christians to repentance and describes the crusade as a test imposed by God , October - November 1187, GREGORY VIII accords the church's protection to the crusader Hinco of zerotjn 21 October, 17 December 1187 .

(2) Pounds (n. J. G.), An Economic History of Medieval Europe, London 1974, PP. 223 - 2611; Pirenne (H.), Economic and Social History of medieval Europe, PP. 26 - 39, 50 - 57; Hodgett (G. A. J.), A Social and Economic History of Medieval Europe, London 1979, PP. 48 - 58, 88 - 105 .

نجح ملوك فرنسا وإنجلترا فى هذا التسابق ، فشل ملوك ألمانيا وتركوا هذا السلاح لتستخدمه البابوية ضدهم ، خاصة فى ساحة مدن الشمال اللومباردى فى إيطاليا .

وبازدهار المدن وإزدياد النشاط التجارى وانتشار التعليم والثقافة من جراء الاحتكاك بالمسلمين فى الأندلس وصقلية والشام ، ظهرت الجامعات فى أوروبا ، وتسابقت البابوية والملكيات الأوروبية أيضًا لاحتضان هذه الجامعة أو تلك([1]) وقد حظيت بعض الجامعات برعاية الكنيسة مثل جامعة باريس التى عملت بدورها على تكريس السيادة البابوية ، فى حين نمت جامعة بولونيا تحت رعاية السلطة الإمبراطورية ودعت بدورها إلى سموها . وهكذا لعبت الجامعات دورًا كبيرًا فى التأكيد على مفاهيم معينة فى جانب كل من البابوية أو الإمبراطورية حتى قيل : " إن الجامعة هى إحدى قوى ثلاث سيطرت على الفكر المسيحى ووجهته فى العصور الوسطى ، البابوية والإمبراطورية والجامعات"([2]) .

ونتيجة لكل ذلك دخل الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى طور جديد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين إذ اتخذ صبغة قانونية ، وغدا أبطاله فى المقام الأول من رجال القانون ، ففى الجانب الكنسى نرى الراهب جراتيان Gratian البولونى يجمع شتات المجموعات القانونية الخاصة بالكنيسة كالقرارات المجمعية والمراسيم البابوية وشذرات من مؤلفات الآباء الأوليين ومقتطفات من مجموعة قوانين جوستنيان ، وفى هذه الموضوعات أورد جراتيان

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجامعات ودورها ، راجع ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الأسكندرية ١٩٧١ .

(٢) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ص ١٧٤ .

النصوص المؤيدة والمعارضة على حدة وقد عرفت هذه المجموعة باسم المبادئ القانونية Decretum وصدرت حوالى عام ١١٤٠([1]) وعليه فليس من الغريب أن نجد معظم بابوات هذين القرنين من كبار القانونيين مثل اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩ - ١١٨١) وإنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦) وجريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧ - ١٢٤١) وإنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣ - ١٢٥٤) . وقد فسر هذه المجموعة بعد ذلك القانونى البولونى بولينوس Paulinus بأن محورها الرئيسى يدور حول وجود إمبراطورية سماوية وأخرى أرضية ، واقترح أن تكون الإمبراطورية السماوية هى الاكليروس ، بينما الإمبراطورية الأرضية تضم العلمانيين ، مؤكدًا أن البابا يمتلك السيادة فوق الإمبراطوريتين معا ، الاكليروس والعلمانيين ، أو بتعبير آخر ، الروحية والزمنية([2]) . وكان هذا تقنينا للنظريات العديدة التى أذاعتها البابوية لاثبات سموها وعلو كعبها فوق السلطة الزمنية ، مثل نظرية السيفين الروحى والزمنى ، والنظرية البطرسية، وما أصر عليه البابا إنوسنت الثالث من نظرية الشمس والقمر .

وفى الوقت نفسه وجدت الإمبراطورية من ينبرى أيضًا للدفاع عن مكانتها فى مواجهة البابوية ، وكان من بين هؤلاء رجل القانون الرومانى الأشهر إرنريوس Irnerius الذى ارتبط اسمه بجامعة بولونيا فى إيطاليا والتى اكتسبت شهرة واسعة فى الدراسات القانونية ، وخلف وراءه مجموعة من التلاميذ المشهورين عرفوا باسم " الدكاترة الأربعة " وهم

---

(١) كرامب (ج) وجاكوب (إ) تراث العصور الوسطى ، جزءان ، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية بإشراف محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٥ ، الجزء الثانى ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

(2) Tierney, Op. Cit PP. 98 - 117 .

بـو لجـاروس Bulgarus ومـارتينوس Martinus وهوجـو Hugo ويعقـوب Jacobus([1]). وقد حرص الإمبراطور فردريك بربار وسـا (١١٥٢ - ١١٩٠) أن يضمهم إلى هيئة مستشاريه للإستعانة بهم فى تدعيم مركـز السـيادة الإمبراطورية . وقد أولى هذا الإمبراطور وحفيده وسميه الثانى جامعة بولونيا عناية فائقة ، لا باعتبارهم ملوكًا لألمانيا بل لكونهم الأبـاطرة الرومـان، وكـان هذا فى المقام الأول - على حد تعبير أولمان([2]) من أهم العوامل فـى ازدهـار جامعة بولونيا .

هكذا أخذ الفكر البابوى الصليبى يتخذ أبعادًا جديدة فى مواجهة السلطة الزمنية التى لم تعدم هى الآخرى مثيلاً لهذه الأبعـاد ، وقرنـت البابويـة ذلـك بأسلوبها العام الذى يقوم علـى وجـود وفـاق دائـم بيـن ملـوك أوروبـا حتـى لا يشـكلو ضدهـا جبهـة واحـدة . وإذا كـان لا بـد مـن قيـام هـذه الجبهـة الزمنيـة المتحدة - وهو مالم تسع إلى إيجاده مطلقًا - فلتكن وجهتها إلى الخارج فقط ، أى باتجاه الشرق - دون الداخل ، وتسخير طاقتها لتحقيق مصـالحها الخاصـة، كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وهنا ، عندما ألحت الضرورة على توجيه الدعوة لحملة صليبيـة جديـدة بعد عودة بيت المقدس إلى أيدى المسـلمين ، رأينـا كيـف خـاطب جريجـورى الثامن " كافة المخلصين فى الغرب " دون أن يخص بالذكر أحدا من الملوك ، فلما اعتلى خليفة كلمنت الثالث Clement III العـرش البـابوى ، ولـى وجهـه ، مباشرة باتجاه أعظم عواهل أوروبا آنذاك .. الإمبراطور فردريك بربـاروسـا، بينما ترك لجوسياس Josias أسقف صور مهمة لقاء ملكى فرنسا وإنجلترا([3]).

---

(1) Ullmann (W.), Law and Politics in the Middle Middle Ages, London 1975, pp. 85 - 98 .

(2) Ibid. p. 85 .

(3) Runciman, Op. Cit III, p.5 .

والذى يلفت الانتباه للوهلة الأولى أن سلفه الأسبق يوجنيوس الثالث أرسل إلى ملك فرنسا لويس السابع لقيادة حملة صليبية باتجاه الشرق - كما علمنا - وأبدى تأففه من مشاركة الملك الألمانى كونراد الثالث ، بينما كلمنت هذا يسارع بدعوة الإمبراطور الرومانى فردريك بربروسا ، غاضا الطرف عن كل من ملكى فرنسا وانجلترا ! أليست هذه السياسة البابوية فى التودد إلى واحد دون آخر ، والسعى لدى ملك دون غيره قد تمت بحسابات دقيقة لمصالحها الخاصة فى عالم المسيحية ؟!

ففى فرنسا كان يقوم ملك قوى هو فيليب الثانى أو غسطسPhilip II Augustus (١١٦٥ - ١٢٢٣) الذى امتد حكمه لفترة طويلة من الزمن نجح خلالها فى إقامة ملكية قوية([1]) كان من أهم جوانب قوتها أنه شدد قبضته على الكنيسة ، وأخذ يعمل جاهدًا للحد من تدخل البابوية فى شئون الكنيسة ، وألزم الاكليروس بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات([2]) . هذا بالاضافة إلى أنه سعى لإقامة علاقات ودية مع فردريك بربروسا فى عام ١١٨٧ ، أى قبيل الدعوة للحملة الصليبية الثالثة بأشهر قلائل . وكان الهدف من ذلك توحيد الجهود ضد كبار الأمراء الإقطاعيين . ولم يكن هذا التقارب الألمانى الفرنسى مما يسعد البابوية فى شئ ، رغم أنها سعت بنفسها من بعد إلى إحياء هذا التقارب ووصلت به إلى مرحلة التحالف بين الملك الفرنسى فيليب أوغسطس وسليل أسرة الهوهنشتاوفن فردريك الثانى المنافس على العرش، بدعم من البابوية ضد أوتو الرابع دوق برنسويك وابن هنرى الأسد الولفى ، الذى كان على عداء مع البابوية !

---

(١) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ص ٢٥٩ - ٢٧٢ .

(٢) نفسه ، ص٢٦٩ - ٢٧٠ .

أما إنجلترا فكان على عرشها هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩) الذى لم يكن يقل عن فيليب أوغسطس قوة وذكاء وطموحًا ، ولذا نجح هو الآخر فى أن يجعل من الملكية الإنجليزية فى عهده الطويل ملكية قوية وتمثل ذلك للوهلة الأولى منذ إقدامه من اول عهده على هدم ألف ومائة وخمس عشرة قلعة عسكرية مرة واحدة ، كان الأمراء الإقطاعيون قد أقاموها منتهزين فرصة الحرب الأهلية (١١٣٧ - ١١٥٤) ، مخالفين بذلك النظام الذى كان قد وضعه وليم الأول الفاتح بعدم بناء أى قلعه إلا بإذن خاص من الملك، حتى غدت القلاع الإقطاعية كلها فى إنجلترا قلاعًا ملكية . كذلك حاول أن يستعيد نفوذ الملكية على الكنيسة بعد أن تعرض للضعف على عهد ستفن أيام الحرب الأهلية ، وأمل فى أن يكون صديقة الحميم توماس بيكيت Thomas Becket الذى عينه أسقفًا لكنيسة كانتربورى ، دعما له فى سياسته المستقلة الرامية إلى التخلص من النفوذ البابوى . غير أن " بيكيت " أخذ الإتجاه العكسى تماما وأثبت أنه ابن مخلص للكنيسة وراعيها البابا تماما ، وليس لسيده الملك الإنجليزى. وقد أثارت هذه السياسة جفوة واسعة بين الرجلين انتهت فى أخر الأمر بمقتل توماس بيكيت أمام مذبح الكنيسة فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ على يد أربعة من فرسان هنرى الثانى ، انتدبوا أنفسهم لمهمة اغتياله، بعد أن أبدى سيدهم عدم ارتياحه من معارضته المستمرة له(١). ورغم أن هنرى أقسم على براءته من دم " بيكيت " ، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى تقديم تنازلات مهينة للبابوية وإن حاول بعد ذلك فى سنوات حكمه التالية أن يخفف من غلوائها.وعند وفاته خلفه ابنه ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩ - ١١٩٩) الذى أعلن على الفور عقب توليه السلطة

---

(١) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى . Barlow, Op. Cit. PP. 290 - 304

عزمه على حمل الصليب والاتجاه إلى الشرق على مسئوليته الخاصة ، دون دعوة أو مباركة من البابوية. ولما كان قد أمضى عمره السابق كله دوقا لأكويتين Aquitaine فإنه بدا غريبًا عن إنجلترا ، التى لم يقض فيها من سنوات حكمه العشر إلا سنة واحدة فقط . ولما كان فى حاجة ملحة إلى الأموال للانفاق على مشروعه الصليبى الذى كان متحمسًا له تمامًا ، فإنه أمسى على استعداد لبيع كل الوظائف الإدارية والكنسية على السواء لمن يعرض أعلى الأسعار ثمنا للمنصب(١) ولذا فإنه رغم جسارته التى خلعت عليه لقب " قلب الأسد The Lionhearted " ، لم يلق قبولاً حسنا من البابوية.

ولم يكن الملك الألمانى فردريك بربا روسا (١١٥٢ - ١١٩٠) ليرضى بأن تكون دولته أقل من الأخريتين ، فرنسا وإنجلترا . هذا إلى أنه هو الأخر لم يكن أقل من معاصريه طموحًا وقوة ، ولذا سعى ليجعل ألمانيا فى عهده الطويل أقوى الدول الأوروبية . وبوصفه الإمبراطور الرومانى فقد حرص تماما على أن يكون هذا اللقب له مدلوله العملى وليس مجرد شعار يزدان به مفرق الملوك الألمان . والواقع أن فردريك آمن إيمانًا كاملاً بأنه ليس فقط خليفة الأوتويين والسكسون وإنما هو ايضًا خليفة قسطنطين وثيودوسيوس وجوستينان . .

واتضح ذلك جليًا عند إصداره لائحة تنظيم جامعة بولونيا ، إذ أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستنيان(٢) وقد وجد ضالته فى القانون الرومانى باعتباره إمبراطورًا رومانيًا ، وعثر فى الدايجستا

---

(1) Ibid. PP. 353 , 355 .

(2) Davis (R. H. G.) A History of Medieval Europe, From Constantine to St Louis, London 1957, P. 322; Bryce (J.), The Holy Roman Empire, London 1950, P. 169.

Digesta التى اصدرها جستنيان على الإجابة الفلسفية التى ترد علـى المزاعم البابوية ، فهى تعطى القانون السيادة الكاملة، وليس للدين ورجاله ، جاء فيهـا: " القانون هـو الملك لكل شئ - لما هوسماوى ولما هو إنسانى ، إنـه هـو الضابط والحاكم والقائد للخير والشر " . وتملكه الفخر بمركزه الإمبراطورى بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة ميلانـو ، أن إرادته هـى القـانون(١) لذلـك لـم يكـن غريبًا أن يوصف فردريك بربارُوسا بأنـه " هليدبراند " Hildebrand الإمبراطورية(٢) .

وقد دعم اتجاهاته هذه عندما وقف موقفًا متشددًا إزاء محاولة البابا هادريان الرابع Hadrian IV (١١٥٤ - ١١٥٩) أن يجعل من الإمبراطورية مجرد " إقطاع " Beneficiun بابوى ، وما نتج عن ذلك من حرص فردريك على أن يخلع لقب " القداسة " على الإمبراطورية ، شأن البابوية ، لتصبح منذ ذلك التاريخ ١١٥٧ " الامبراطورية الرومانية المقدسة"، كما أسلفنا القول من قبل .

واتساقا مع هذا الفكر الإمبراطورى غدا إمبراطور الرومان هو " سيد العالم "(٣) Dominus mundi وهذا ما لا يمكن أن يستقيم مع الفكر البابوى القائل بسيادة البابوية على العالم ولما كان العالم لا يتحمل من وجهة نظر كل منهما وجود سيدين ، كان لابد أن تسير العلاقات بين الطرفين من سئ إلى

---

(1) Davis. Op. Cit. P. 325 .

(2) Tout (T. F.), The Empire and Papacy, London 1924, P. 247 وللوقوف على تفاصيل الصراع البابوى الإمبراطورى ، راجع ، رأفت عبد الحميد السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، ص١٥٧ - ٢٢٥ .

(3) Ullmann, A Short History of the Papacy, P. 194 .

أسوأ . ولقى الإمبراطور فردريك إذلالا فى عام ١١٧٧ فى ميلانو على يد البابا اسكندر الثالث ، يكاد يقترب إلى حد ما من إذلال كانوسا الذى سبقه بمائة عام . ورد الإمبراطور على الصفعة بأقوى منها عندما خطب لإبنه هنرى [السادس] الأميرة كونستانزا Constance وريثة عرش النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية سنة ١١٨٤ ، وتم الزواج فى احتفال مهيب شهدته مدينة ميلانو سنة ١١٨٦ . ولما رفض البابا أوربان الثالث (١١٨٥ - ١١٨٧) أن يتوج هنرى ، أعلن فردريك إبنه إمبراطورًا شريكا وخلع عليه لقب " القيصر " .

وشاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعتلى كرسى القديس بطرس بعد وفاة اسكندر الثالث الذى يعد مرحلة وسطى بين جريجورى السابع وإنوسنت الثالث . ولذا لم يكن أمام البابا الضعيف كلمنت الثالث ، إلا أن يخاطب الإمبراطور فردريك فى أمر قيادة حملة صليبية باتجاه الشرق لاسترداد بيت المقدس ثانية ، رغم أن برباروسا كان قد جاوز عندئذ السبعين من عمره ، بينما كان قريناه فيليب أوغسطس الفرنسى وريتشارد قلب الأسد الإنجليزى فى ريعان شبابهما . ورغم أن الملكين الآخرين لم يكونا أيضًا على وفاق مع البابوية ، إلا أن التهديد الأكبر والخطر الجاثم كان يتمثل لها فى الإمبراطور الرومانى ولذا كان من المفيد جدًا للبابوية إبعاده عن الساحة الأوروبية ولو إلى حين .

ولم يكن فردريك منتظرًا لمثل هذه الدعوة من البابوية ، وإن اعتبرها بادرة طيبة فى سياسة وفاق مستحيلة الحدوث ، وهو ما لم يكن يدور بذهن البابوية ، لكن الأثنين رغم العداء الشديد بينهما وجدا فى هذه الحرب الصليبية فرصة لتحقيق ما يسعى إليه كل منهما . وكانت هناك أرضية مشتركة بينهما

رغم هذه الكراهية ، تمثلث في فكرة العالمية الرومانية التي كانت تعني بالنسبة للبابوية وجود كنيسة عالمية واحدة هي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهذا يقتضي فرض السيادة على كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية . وكان هذا هدف أساسي للبابوية اشتمل عليه فكرها الصليبي وسعت إلى تحقيقه منذ الدعوة للحملة الأولى . وفي المقابل كانت العالمية الرومانية بالنسبة لفردريك بربار وسا تعني وجود إمبراطور روماني واحد ، وتمثل ذلك في الرسالة شديدة السخرية التي بعث بها إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل كومننوس Manuel Comnenos (١١٤٣ - ١١٨٠) على أثر هزيمة الأخير في موقعة ميريوكيفالوم Myrocephalum عام ١١٧٦ على يد سلطان قونية السلجوقي ، تتضمن خضوع " ملك اليونان " Rex Grecorum [يعني الإمبراطور البيزنطي] ومملكته اليونانية Regnum Greciae للإمبراطور الروماني [يعني شخصة](١) .

وعلى هذا النحو تبدو العالمية الرومانية عند كل من البابا وفردريك هي النقطة التي يمكن أن يحدث عندها تناغم بين البابوية والإمبراطورية ، حيث أنها تحتم إجهاض الإمبراطورية البيزنطية ، إن لم يكن تدميرها ، وإخضاع كنيسة القسطنطينية إن لم يكن القضاء عليها(٢) . غير أن هذا التناغم لم يكن له وجود على الإطلاق في علاقاتهما على الأرض الأوروبية . وليس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة فردريك بربار وسا في حملته الصليبية سنة ١١٩٠، واعتلاء ابنه هنري السادس العرش ، لم يلق هذا الأخير أي عون أو تشجيع من البابوية في إعداده للحملة الصليبية التي كان ينوي القيام بها ضد

---

(١) هسي ، العالم البيزنطي ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ١٩٦ .

(2) Ullmann, A Short History of the Papacy, PP. 186, 202 - 203 .

القسطنطينية ، لا لشئ إلا أنه كان أعنف من أبيه فى سياسته مع البابوية . ولذا عد موته المفاجئ المبكر فى سبتمبر ١١٩٧ فى صالح البابوية تماما(١)، والتى لم تلبث أن حظيت فى العلم التالى مباشرة بشخصية من أقوى الشخصيات التى عرفها كرسيها فى العصور الوسطى هو البابا إنوسنت الثالث.

وبنفس الشاكلة التى جرى بها خروج الحملة الثانية ، خرجت أيضًا الحملة الثالثة إذا سلك الإمبراطور الألمانى الطريق البرى عبر وسط أوروبا ليلقى حتفه غرقًا فى أحد أنهار قيليقية Cilicia بآسيا الصغرى ، وليتفرق جيشه الضخم فى غير انتظام ، بينما امضى ملكا فرنسا وانجلترا شتاء ١١٩٠ - ١١٩١ م فى صقلية ، ثم إرتحل كل منهما علىانفراد بجيشه فى اتجاه عكا، وهكذا عملت الخلافات السياسية والعسكرية والمصالح الشخصية المتنافرة على عدم التقاء زعماء الحملة على عمل واحد .

وكانت عاقبة أمرهم خسرًا ، إذا لم تحقق الحملة أى نجاح يذكر فى الشرق . ولم تكن البابوية راغبة ولا حتى قادرة آنذاك على تحقيق الوفاق بين الزعماء الثلاثة . ولسنا مبالغين إذا ذهبنا إلى القول بأن البابوية لم يكن لها دور جدير بالاعتبار فى هذه الحملة ، فجريجورى الثامن لم يفعل أكثر من إذاعة دعوة عامة واهية تتناسب وأيامه الأخيرة وهو فى نهاية العمر ، وكلمنت الثالث لم يذهب أبعد من إرسال نداء إلى فردريك بربااروسا . وهكذا لم تتيسر للبابوية - رغم أن الحادث جلل ، أعنى ضياع بيت المقدس ، شخصية مثل شخصية أوربان الثانى فى الحملة الأولى ، أو يوجنيوس الثالث فى الحملة الثانية ، ولم يتوفر لها داعية موهوب مثل بطرس الناسك فى

(1) Ibid. P. 206 .

الأولى أو القديس برنارد فى الثانية . ولهذا يمكن وصف الحملة الثالثة بأنها حملة علمانية بحتة ليس لها من الصبغة الدينية شئ ولا من الرعاية البابوية نصيب. وهذه الأخيرة جاءت برضى الطرفين ، فلا الملوك كانت عندهم الرغبة فى مثل هذه الرعاية ، ولا البابوية كانت قادرة على أن تهبها !

* * *

وهذا الموقف يفسر لنا ما حدث بعد ذلك على عهد البابا إنوسنت الثالث، الذى شهد عهده (١١٩٨ - ١٢١٦) الدعوة إلى حملتين صليبيتين هما الرابعة التى حققت حلم البابوية البعيد الخاص باسقاط الإمبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وتحويل كنيستها إلى كنيسة كاثوليكية ، والحملة الخامسة التى استهدفت مصر ، " رأس الأفعى " كما اعتبرها الصليبيون ، وقد منيت هذه الحملة بالفشل الذريع ، وإن كان إنوسنت قد مات قبل أن يرى ثمرة دعوته لهذه الحملة .

ويبدو أن إنوسنت الثالث حرص على أن يجعل من الفكرة الصليبية سلاحه الفتاك الذى يستخدمه فى الداخل والخارج فى مواجهة السلطة الزمنية حتى يحقق للبابوية أعلى منزلة بحيث تكون لها السيادة العليا . وقد أفصح هذا البابا عن سياسته دون مواربة فى رسالة بعث بها إلى نبلاء تسكانيا Tuscany إذ قال : " كما أن القمر يستمد نوره من الشمس ، كذلك فإن السلطة الزمنية تستمد سلطانها ومكانتها من البابوية "(١) . وفى إحدى عظاته وصف نفسه بأنه "أدنى من الله وأعلى من البشر،قاضى القضاة الذى لا يقاضيه أحد "(٢). وفى دعوته للحملة الصليبية الخامسة(٣) فى إبريل ١٢١٣ قال " نحن نتكلم

---

(1) INNOCENT III, Letter to the prefect of Acerbus and the Nobles of Tuscany .

(2) INNOCENT III, Sermon on Consecration of aPope .

(3) INNOCENT III, Proclaims the fifth Crusade 19 - 29 April 1213 .

باعتبارنا نائب المسيح Vicarius Christi . وبذلك لم يعد مجرد خليفة بطرس كما كان أسلافه .

وكان إنوسنت الثالث على اقتناع كامل بأنه " سيد العالم " Dominus mundi بلا منازع ، ولم يسمح لأى شئ أن يعوقه عن تحقيق هذا الهدف. ومن ثم أقحم نفسه بشكل عملى فى كل المسائل السياسة والدبلوماسية ، وكذا الإقطاعية والعائلية فى كل أوروبا . وامتزج الفكر الصليبى عنده بفكرة السمو، بحيث أصبحت الفكرتان لديه جوهرًا واحدًا . واتضح هذا الاتجاه بصورة جلية فى موقفه تجاه الإمبراطورية البيزنطية فى الحملة الرابعة عندما هنأ زعماء الحملة بالانتصار على " دولة متمردة وكنيسة مارقة " . وكذا فى سياسته تجاه الألبجنسيين الهراطقه Albigensians فى جنوب فرنسا ، وغيرهم من الجماعات الهرطقية ، والشعوب الوثنية ، إذ كان ينظر إلى سلوك هؤلاء جميعًا باعتباره جريمة تحاك ضد السيادة الإلهية ، وتتدرج بذلك تحت تهمة الخيانة العظمى للبابوية . ويبدو وكأنه كان يهتدى فى هذا بهدى سلفه الأسبق جريجورى السابع الذى كان يردد دائمًا : " من ليس مع الكنيسة الرومانية فليس بكاثوليكى "(١).

ولم يقف دوره فى النزاع الذى دار حول العرش الألمانى بعد وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ عند حد القيام بدور الحكم فحسب ، بل تعداه إلى التدخل السافر بين أطراف هذا النزاع الذى استمر من سنة ١١٩٧ حتى سنة ١٢١٤(٢) وظل متقلبًا فى تأييده بين هذا الجانب وذلك دون مراعاة لابسط

---

(1) Ullmann, A Short History of the Papacy, P. 220 .

(٢) فى عام ١٢٠١ وبعد ثلاث سنوات من اندلاع الحرب الأهلية فى ألمانيا صراعا حول العرش ، أصدر إنوسنت الثالث وثيقة تعد من أخطر الوثائق البابوية فى مطلع القرن

القواعد الأخلاقية أو التزام بالعهود باعتباره " نائب المسيح " ، بل لقد استخدم مكانته ليفعل ما يحلوله تماما ، وحصل من كل طرف من الأطراف الثلاثة ، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى ، وأوتو الرابع الولفى دوق برنسويك ، وفردريك الثانى ابن هنرى السادس ، على وعود بحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق ، بالإضافة إلى تنازلات كبيرة لصالح الاكليروس على حساب سلطة الملك(١) .

كذلك تدخل إنوسنت الثالث فى السياسة الفرنسية(٢) .

وبلغ سلطانه فى فرنسا أقصاه عندما وجه الدعوة إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين فى جنوب فرنسا . ورغم أن فيليب أوغسطس رفض الاشتراك فى هذه الحرب ، وأبدى استياءه من التدخل البابوى السافر فى شئون دولته ، إلا أن البابا مضى قدمًا فى خطته ، ووعد الأمراء الفرنسيين فى الشمال بالحصول على الأراضى الخاصة بالالبجنسيين فى الجنوب ، إقطاعا خاصا لهم(٣) ، مما اضطر فيليب فى النهاية إلى المشاركة فى هذه الحملة حتى

- الثالث عشر الميلادى ، للفصل فى هذا النزاع . ورغم أنه قال فى ديجاتها أنه سوف يفصل فى القضية بمقتضى الشرعية والصلاحية ، إلا أن حكمه فى النهاية جاء بعيدًا تماما عن هذين المبدأين ، ومطابقًا كلية لمصالح البابوية للمزيد من التفاصيل راجع ، رأفت عبد الحميد ، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٠٨ - ٢١٢ وأيضًا رأفت عبد الحميد ، الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب (فى ندرة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثانى ١٩٨٣ ، ص ١٤٣ - ١٣٦

(1) Tierney, Op. Cit. PP. 127 - 129

(2) Ibid. PP. 134 - 135 .

(3) INNOCENT III, Letter to King Philip II of France, 17 November 1207, on the Proclamation of the Albigensian Crusade; Letter to the Faithful in the Provinces of Narbone, Arles, Embrum, Aix and Vienne, 10 March 1208 on the Proclamation of the Albigensian Crusade .

لا يخرج الأمر من بين يديه داخل بلاده ، وحتى لا يترك المسألة برمتها للبابوية. وفى عام ١٢١٥ ، فى مجمع اللاتيران الرابع ، الذى دعا فيه لحملة صليبية جديدة ، أعلن البابا توقف الحرب الألبجنسية - وكان قد تحقق النصر له - وانتهاؤها لمصلحة الحرب فى الأراضى المقدسة .

وفى إنجلترا ، على عهد ملكها حنا (١١٩٩ - ١٢١٦) تدخل البابا إنوسنت فى شئون كنيستها . فلما رفض الملك حنا هذا التدخل السافر فى شئون مملكته لقنه البابا درسا قاسيًا ، إذ أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى ووضع شعبه تحت اللعنة عام ١٢٠٨ ، مما دفع كثيرًا من الرهبان للهروب إلى روما يتضرعون إلى البابا أن يرفع عن إنجلترا هذه اللعنة . وهكذا حتى اضطر ملك إنجلترا إلى الرضوخ للبابوية ، بل أنه قبل أن يكون فصلا إقطاعيا تابعًا للبابوية فى عام ١٢١٣(١) .

ويمكن القول باختصار أن النشاط البابوى شمل أوروبا كلها ، وأصبح البلاط البابوى هو المركز الحكومى المشغول دائمًا فى العالم آنذاك(٢) . وهكذا فإن البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر أصبحت تضم تحت سلطانها أكبر عدد من الأفصال الإقطاعيين قل أن تمتعت به أى سلطة زمنية أخرى فى أوروبا(٣) .

وللوقوف على تفاصيل الحركة الألبجنسية راجع ، سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٩ .

(1) JOHN KING OF ENGLAND, Concession of the Kingdon to the Pope 1213; INNOCENT III , Letter to King John of England accepting his Feudal homage, April 1214 Ullmann,

وراجع تفاصيل هذه الأحداث فى . A Short history of the Papacy, p. 214

(2) INNOCENT III grants the title of king to the Duke of Bohemia 1204 .

(3) Ullmann, A short history of the Papacy, P. 215 .

على أن الشغل الشاغل لإنوسنت الثالث منذ اليوم الأول لاعتلائه كرسى القديس بطرس ، كان الحملة الصليبية التى يجب أن تتجه إلى الشرق لاسترداد القدس ، واعتبر ذلك أولى مهامه المقدسة بعد أن فشلت الحملة الثالثة " العلمانية " التى قادها ملوك أوروبا الثلاثة " العظام " فى تحقيق أى نجاح .

وقد هيأ الصراع الداخلى الذى نشب حول العرش الألمانى عقب وفاة هنرى السادس الفرصة للبابوية فأهتبلتها دون توان(١) .

ذلك أن فيليب السوابى قدم وعدًا قاطعًا على نفسه فى وثيقة رسمية(٢) صدرت عنه فى عام ١٢٠٣ ، بحمل الصليب دفاعًا عن الأراضى المقدسة ، جاء فيها : " ... من أجل السلام مع الكنيسة ، فقد نذرت للرب والقديسين أن أعبر البحر لأحرر الأراضى الموعودة من قساوات الوثنيين . ولما جاءنى رسول البابا يعرض علىّ السلام مع الكنيسة فإنى نذرت ثانية ، وعدت الله وقديسيه وممثلى البابا بكل الإيمان ، ودون أى نفاق ، القيام بحملة صليبية من أجل دعم الكنيسة والإمبراطورية ، وسوف أبذل كل ما فى وسعى من أجل تحرير هذه الأرض ... وإذا قدر الله لى السيادة على الإمبراطورية اليونانية [البيزنطية] فإنى سوف أخضع الكنيسة اليونانية للكنيسة الرومانية " .

---

(1) PHILIP OF SUABIA, Concessions of philip to Innocent III 1203 .

(٢) عن الحملة الصليبية الرابعة وظروفها ودور البابوية والبنادقة والألمان فيها ، راجع كلادى (روبرى) فتح القسطنطينية على يد الصليبين ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ ، فيلها زدوان ، مذكرات ، ترجمة حسن حبشى ، جده ١٩٨٢ إسحق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، القاهرة ١٩٧٠ .

وتظهر هذه الوثيقة مدى استخدام البابوية للفكرة الصليبية- كما قدمنا - سلاحا فتاكا ترهب به خصومها أصحاب السلطة الزمنية ، وتلوح لهم به لقاء مساندة عروشهم ! هذا بالإضافة إلى أنها تبين أيضًا أن البابوية كانت عازمة تماما على بسط سلطانها على الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية وإدخالهما ضمن حظيرة الكاثوليكية . ولم يكن فيليب السوابى ليعلن عن ذلك فى وثيقته هذه إلا بوحى من رسل البابا ، خاصة وأنه مرتبط بعلاقة مصاهرة مع الكسيوس [الرابع] الذى عزل عن عرش الإمبراطورية البيزنطية هو وأبوه إسحق الثانى أنجليوس Isaac II Angelus على يد الكسيوس الثالث Alexius III . حتى لو أدخلنا فى اعتبارنا أن فيليب السوابى قد أعلن ذلك بناء على استنجاد صهره به ، فلم يكن من الحصافة التصريح بأنه سوف يخضع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما . ومن ثم فليس هناك شك فى ان هذه العبارات أملاها عليه رسل البابا بوحى من حبرهم الأعظم .

هذا مثال واحد من أمثلة أخرى جرى تطبيقها مع أتو الرابع والشاب فردريك الثانى الذى أخذت عليه العهود والمواثيق مرة عند تتويجه ملكا سنة ١٢١٢ والأخرى عند تتويجه إمبراطوراً عام ١٢٢٠ .

ومن الجدير بالذكر أن البابوية دخلت فى تجربة قاسية نتيجة الظروف التى أحاطت بالحملة الصليبية الرابعة . ذاك أن كل الجهود المضنية التى بذلها إنوسنت الثالث منذ إعتلائه العرش البابوى ، وجهود كلمنت الثالث من قبله ، لم تسفر فى النهاية إلا عن حملة تضم مجموعة من الأمراء يتزعمهم بلدوين التاسع أمير الفلاندرز ، وأخوه هنرى ، وبونيفاس دى مونتفرات ، وثيبوت الثالث أمير شامبنى ، ولويس كونت بلوا . ولم يقم أحد من الملوك بالاشتراك فىتلك الحملة ، فملوك ألمانيا كانوافى شغل شاغل بنزاعهم الداخلى

عن الالتفات إلى الأرض المقدسة ، وفيليب أوغسطس لم يكن راغبًا فى إعادة التجربة الصليبية مرة أخرى فانصرف إلى تقوية مركز الملكية فى الداخل ، وحنا ملك إنجلترا كان يعانى من عداوة أمرائه ورجال الكنيسة والرهبان والبابوية حتى عام ١٢١٥ ؛ والبابوية نفسها كانت تدير حربًا صليبية خاصة بها فى ألمانيا بين المتصارعين على العرش ، وتشعر بالقلق فى الوقت نفسه من جراء الثورة التى تسير قدمًا فى الجنوب الفرنسى من جانب الإلبجنسيين. أما البنادقة الذين لجأ إليهم أمراء الحملة لنقلهم بسفن البندقية إلى مصر ، وجهة الحملة ، فلم يكن يعنيهم من أمر الصليب إلا ما يحقق مصالحهم التجارية . وكان أن أمضى جنود الصليب ما يزيد على عامين كاملين مقيمين فى البندقية بلا عمل ، لا يجدون من الملوك من ينفق عليهم وعلى مشروعهم الصليبى ، ولا يجدون فى البابوية نفسها التى دعتهم إلى هذا المصير ما كانوا يأملون فيه من رعاية . على أن البابوية والبنادقة اقتطفوا فى نهاية الأمر الثمرة كلها ، باخضاع الكنيسة الشرقية للكاثوليكية ، وابتلاع الأراضى البيزنطية فى القسطنطينية وشبه جزيرة المورة ومنطقة البلوبونيز(١) وبذلك حققت البابوية حلمها البعيد الذى كانت تهدف إليه ، وتحققت أمنيات فيليب السوابى التى أملتها عليه البابوية .

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة بالنتيجة التى انتهت إليها من تدمير زارا واسقاط القسطنطينية قد جاءت لتؤكد بما لايدع مجالاً للشك إنحراف الفكرة الصليبية عن أهدافها المعلنة على لسان أوربان الثانى ، فإنها فى الوقت نفسه تمثل نقطة فاصلة فى تاريخ الحركة الصليبية . وقد اتصفت المرحلة الجديدة فى تاريخ تلك الحركة بالطابع الفردى ، فلم تعد أوروبا تخرج عن

(1) INNOCENT III, Proclaims the fifth Crusade, April 1213 .

بكرة أبيها بملوكها وأمرائها وأقنانها، وإنما اقتصرت الحرب على ملك بعينه ، يقود جيشه، وباتجاه الشرق قاصدًا مصر بصفة خاصة. ويرجع هذا فى المقام الأول إلى أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعدهى أوروبا القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، فقد آذن النظام الإقطاعى فى إنجلترا وفرنسا بصفة خاصة بالرحيل ، وإن بقى فى ألمانيا طويلا فما بعد ، ونشطت حركة التجارة الداخلية والخارجية ، وإزداد عدد المدن الجديدة ، وانشئت الجامعات وتغيرت الأفكار السائدة فى المجتمع الأوروبى بصفة عامة إلى حد ليس بالقليل . ومع أن هذه الظواهر كلها قد بدأت تلوح فى الأفق منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، إلا انها راحت تمكن لنفسها بعد ذلك فى الأرض الأوروبية .

وإزاء هذا الموقف الجديد الذى بدا واضحًا من خلال ضعف الحماسة للمشاركة فى الحملة الرابعة ، كان على البابوية أن تغير هى الأخرى من أسلوبها لتضمن بقاء الفكرة الصليبية قائمة ، ولتظل فى الوقت نفسه ممسكة بأوراق اللعبة كلها فى أيديها كما أرادت دائماً . بل إن البابوية فى فكرها الصليبى فى هذه المرحلة ، جعلت الحرب الصليبية مسألة شخصية بحتة ، تمس مكانة البابا وقدسية الكنيسة ، وبذلك تحولت من حرب مقدسة - كما كانت تسميها - إلىعداء شخصىبين البابا وكل من يجرؤ على عصيان أمره.

وكان أن أخذ البابا إنوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة هى الحملة الخامسة ، فحاول أن يحشد لها كل طاقات أوروبا ، مؤملاً أن يعود زمان أوربان الثانى من جديد ، لكن دون جدوى . وقد وضع أمله كله فى فردريك الثانى ، ولكن عبثاً . وفى خطابه للمخلصين من أتباعه ، قال(١) "إن الأمل ليحدونى أن تكون المساعدة التى تقدم إلى الأراضى المقدسة الآن تفوق

---

(1) INNOCENT III, Letter to Conrad, dean of Speyer, September 1213 .

بكثير كل ما قدم لها مـن قبـل ... يجـب أن يعلـم الجميـع أننـا نتكلـم باعتبارنـا "نائب المسيح على الأرض" ، وأن كل من يتقاعس عن خدمـة المخلص فـى هذه الساعات الحرجة ، يستوجب اللوم كل اللوم ... لا تترددوا فى أن تقدمـوا أنفسكم وأموالكم فداء لمن قدم روحـه فـداء لكـم" . كذلـك أعلـن حمايتـه لكـل المشاركين فى الحملة مع التعهد بحماية أسرهم وممتلكاتهم إلى حين عودتهم ، ودعا إلى إسقاط فوائد الديون المتراكمة على المشـتركين فـى الحملـة ، وألـزم السلطة الزمنية بـأن تتخـذ مـع اليهـود الإجـراءات الكفيلـة بعـدم تحصيـل هـذه الفوائد ، بل ورد ما دفع منها . وكتب إنوسنت الثالث بهذا المعنى رسائل إلـى إسـاقفة كـل مـن "سـبايرSpeyer "(١) وأوجـز بـرج(٢) Augsburg ، وريـنزبرج(٣) Regensburg . كذلك وجه الدعوة لعقد مجمع اللا تيران الرابـع فى عام ١٢١٥ ، وهيأ له من أسباب النجاح كل ما يمكنه ، كما حـرص علـى أن يدعـو إليـه أيضـاً العلمـانيين تـأكيداً لفكـره الصليبـى فـى مواجهـة السـلطة الزمنية . وكان من بين الحضور يوحنا التورى John of Tours مندوبـاً عـن ملـك بيـت المقـدس جـان دى برييـن Jean de Brienne ومنـدوب عـن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وممثلون لملوك فرنسا وإنجلـترا وأسـبانيا ، ورسول من الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وملك هنغاريا .

وفى ذلك المجمع حدد البابا مصادر تمويل الحملة ، حتـى لا يحـدث مـا حدث من قبل للحملة الرابعـة ، وأوجـه الإنفـاق الضروريـة ، وكـل مـا يتعلـق

---

(1) INNOCENT III, Letter to the abbot of Salem, the Fromer abbot of Neubury, the dean of Speyer and the Provost of Augsburg, May 1213 .

(2) INNOCENT III, Letter to Conrad bishop of Regensburg September 1213 .

(3) INNOCENT III, Legislates at the fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215 .

بإجراءات مسارها ، وضرورة اتجاهها إلى مصر لتحطيم " رأس الأفعى " . ومن بين التعليمات التي أقرها بنفسه أنه " يجب على المشاركين أن يطلعونا على خططهم حتى يتسنى لنا أن نمدهم بمندوب بابوى يقدم المشورة لهم . وعلى البطاركة ورؤساء الأساقفة وجميع الكهنة أن يحثوا الملوك والدوقات والأمراء والماركيزات والكونتات والبارونات وعلية القوم الآخرين ، بالتعاون مع العواصم والمدن والقلاع ، ... أن يوفروا عدداً ملائماً من الجنود بأسلحتهم وعتادهم ومؤنهم التي يحتاجون إليها طيلة ثلاث سنوات قادمة ، عوضاً عن الذين لا يستطيعون الذهاب إلى الأراضي المقدسة بأنفسهم "(١) . وهذه كلها امور تنبىء عن رغبة البابا في أن يدس أنفه في كل أمور الحملة ، بعد أن انتهى من مشاكله في أوروبا ودانت له كلها بالطاعة ، حتى لا تتكرر مأساة المحاربين الصليبيين وما جرى لهم في البندقية من قبل ، وحتى يضمن نجاح الحملة في الخارج فيكتمل الشق الأخير من سيادته على أراضي الشرق، بعد أوروبا والقسطنطينية .

ويبدو أن الأقدار كانت رحيمة بانوسنت الثالث ، إذ مات في عام ١٢١٦ ، قبل أن يشهد النهاية المأساوية التي آل إليها أمر الصليبية الخامسة في مصر ، والتي نتجت عن صلف وغطرسة المندوب البابوى نفسه(٢) . وكانت حلقة في سلسلة الفشل المتلاحق لحملات الملوك . أما الإمبراطور فردريك الثاني فكان قد قطع على نفسه عهوداً ، لكن فردريك كان رافضاً لفكرة الحرب الصليبية كلها من البداية ، غير مؤمن بأسبابها ، غير مقتنع

---

(١) عن الحملة الصليبية الخامسة راجع ، محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥ .

(2) Frederick the Second, P. 185 .

بجدواها ، خاصة وأن نشأته كانت فـي صقلية ، حيث وقـف علـى الحضـارة الإسلامية المتميزة التى خلفها المسلمون هناك ، وتضلع فـى علـوم كثيرة مـن ميادين المعرفة الإنسانية ، وأجاد الحديث بست لغـات ، كـانت العربيـة واحـدة منها . كذلك اتصف بالتسامح فى عصر طفح بالتعصب ، حتـى عـرف بأنـه " أعجوبة الدنيا " أو " محير العالم " Stupor mundi ولم يكن يقارنه فى ذلك فـى زمانه إلا سلطان مصر الكامل الأيوبى حتى شبههما كـانتروفنش بأنـه وجهـان لعملـة واحـدة ، معبراً عـن ذلـك بقولـه : " كـان الكـامل هـو الوجــه الشــرقى للإمبراطور ، بينما كان فردريك هو الوجه الغربى للسلطان " .

على أن فردريك ظـل يسـوف فـى أمـر الخـروج حـاملاً الصليـب علـى امتداد خمسة عشر عاماً كاملة (١٢١٢-١٢٢٧) ، رغم ما قدمتــه لـه البابويـة من إغراءات مثل تزويجه من يولاند Yolanda ووريثة عرش بيت المقدس سنة ١٢٢٥ . وأخيراً أصـدر البابـا جريجـورى التاسـع Gregory IX ضـده قـرار الحرمـان الكنسـى فـى عـام ١٢٢٧ وعندئذ لـم يجـد بـداً مـن الخـروج حـاملاً الصليب بيمينه واللعنة على كتفيه !

وإذا كان فردريك قـد نجـح عـن طريـق المفاوضـات مـع نظـيره الملـك الكامل ، فيما فشل فيه ملوك أوروبا عن طريق الحرب ، وذلك رغـم الجهـود المضنية التى بذلتها البابوية فى أوروبا لدى ملوك الأيوبيين فى مصر والشام، لتحول دون تحقيق أى نجاح يمكن أن يحـرزه الإمـبراطور فردريـك ، إلا أن البابوية اعتبرت نجاحه فى استرداد القدس ثانية كارثة " صليبية " حلـت بهـا ، إذ عادت المدينة المقدسة على يد إمبراطور محروم من رحمة الكنيسة . لذلـك أعلنتها البابوية حرباً صليبية طاحنة ضد فردريك الثــانى . لقد تصـورت يـوم وفاة أبيه هنرى السادس أنها ودعت ذلك الكابوس الإمـبراطورى المتمثـل فـى

شخصه بذراعيه المبسوطتين ، أحداهما فى ألمانيا والثانية فى جنوب إيطاليا وصقلية . وتبسمت ضاحكة يوم وقع فردريك على وثيقة انفصال صقلية عن ألمانيا وإعطائها لابنه هنرى (السابع) ، وظنت أنها نجحت فى ذلك بعد أن اصطنعت فردريك لنفسها وربته تحت عينيها . لكن ذلك كله بدا سراباً عندما رأت فكرة العالمية الرومانية التى أرساها فردريك الأول تطل برأسها من جديد فى شخص حفيده وسميه الثانى . وزادت قناعتها عندما أقدم فردريك على تزويج ابنه " إنزيو" Enzio من وريثة عرش سردينيا .

وكان هذا الزواج لطمة قاسية للبابوية ، أعاد إلى الأذهان زواج هنرى السادس من كونستانزا وريثة عرش النورمان فى صقلية . وكانت البابوية - بغض النظر عن الاعتبارات الاستراتيجية - تنظر إلى سردينيا على أنها جزؤ من ممتلكاتها ، طبقاً لهبة قسطنطين المزعومة ، وليست شيئاً يخص الإمبراطور(1) ولذلك كله صممت البابوية على تدمير الهوهنشتاوفن جميعاً وليس فردريك وحده ، وأعلنتها حرباً صليبية ضد كل أفراد هذه الأسرة ومن ينتمى إليها ، حتى لقد شبهت هذه المرحلة من الحرب بين فردريك وابنائه من ناحية والبابوية من ناحية أخرى بأنها " حرب إبادة " Guerre a qutrance لأن المنتصر فيها لن يرحم المهزوم ، وهو ما حدث بالفعل من بعد .

ولم تكن معاهدة سان جرمانو San-Germano التى وقعت بين الطرفين إلا إجراء مؤقتاً لالتقاط الأنفاس(2) ففى عام ١٢٣٨ كلفت البابوية أساقفة فيرزبرجج Wurzburg وورمز Worms وفرسالى Vercelli وبارما Parma بتدبيج اتهامات معينة ضد الإمبراطور ، وامتثل الأساقفة للأمر ،وقدموا ما عهد

---

(1) Ullmann, A Short History of the Papacy, P. 257 .

(2) TREATY of San. GERMANO, 1230 .

به إليهم فى أربعة عشر اتهاماً تـدور كلهـا حـول هرطقـة الإمـبراطور وفسقه وفجوره وانتهاكه للمقدسات ، وحنثه باليمين ، وتجديفـه ، وعـدم وفائـه بنـذره أكثر من مرة . وتناول فردريك كل هذه الاتهامات بالرد والتفنيد([1]) ولكن دون جدوى .

وكان مما يزعج روما عندئـذ إلـى حـد الفـزع ، أن الإمـبراطور أرسـل بالأسرى اللومبارديين والمرتزقة التابعين للبابويـة ، إلـى رومـا بعـد انتصـاره عليهم عنـد كورتنوفـو Cortenovo ومعهـم أعلامهـم وأبواقهـم ، باعتبـاره إمبراطورياً رومانيا ، جرياً على عادة الأسلاف الأقدمين . وأعلن فـى الوقـت نفسه عن مشروعات كانت تعد بعيدة المنال ، وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان ، وبعث الحياة فـى رومولـوس Romulus مؤسـس رومـا . واعتزم تقسيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرهـا حكـام رومـان حتـى يعيـدوا لهـا بهاءهـا المندثر([2]) ، وصدقت البابوية ، أو لنقل أنها أرادت أن تصدق ذلك خاصة أنها كانت من وجهة النظر القانونية الرومانية العاصمة الفعلية للإمبراطورية التـى يرأسـها إمـبراطور رومـانى . وكـان هـذا تصـوراً طبيعيـاً بعـد اختفـاء الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق . وهكذا وجـدت البابويـة أن الإيديولوجيـة التى صنعتها بنفسها فـى خلـق إمبراطور فـى الغـرب ، قد ارتدت الآن إلـى نحرها ، ولم تكـن تملـك إلـى ذلـك دفعـاً ، فهـى التـى توجـت فردريـك بيدهـا إمـبراطوراً . ولـم يكـن ليـلام إذا مـا حـاول أن يجعـل مـن هـذه الإيديولوجيـة البابوية حقيقة واقعة([3]) .

---

(1) GREGORY IX & FREDERICK II, Papal charges and Imperial Defence 1238 .

(2) Thompson & Johnson, Op . Cit. P. 423 .

(3) Ullmann, A Short History of the Papacy, P. 257 .

لذلك ما أن وضع البابا يده على الاتهامات التى طلب من قبل إعدادها، ورفض السماع لدفاع فردريك عن نفسه ، حتى أصدر على الفور فى عام ١٢٣٩ قرار الحرمان الكنسى من جديد ضد الإمبراطور ، وقرنه باللعنة ، وتضمنت حيثيات القرار ستة عشر بنداً([1]) تناولت كل الاتهامات السابقة ، وكان من بينها أنه استولى على أراضى الداوية والاسبتارية ، وأنه كان عائقاً فى استعادة الأراضى المقدسة . وهذا الإتهام الأخير تزييف صريح للحقائق .. ولكن البابوية كانت تنظر للأمور من وجهة نظر شخصية ، وبفكر صليبى خاص بها .

وطفقت البابوية تطلق أساقفتها ورجال أكليروسها فى أوروبا كلها ليحرضوا ناسها وملوكها ضد فردريك . وكانه مجمع ليون المنعقد فى عام ١٢٤٥ مظاهرة لتأييد البابوية ، تقرر فيه التأكيد على حرمان فردريك ، ورغم أن الإمبراطور لم يلجأ إلى تعيين بابا منافس ، فقد كان صريحاً فى حربه شريفاً فى ممارستها . ولكن البابوية استخدمت كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على فردريك ، فدبرت مؤامرة لاغتياله فى إيطاليا ، ودفع البابا الجديد إنوسنت الرابع خمسة وعشرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان ، وهو هنرى أمير ثورنجيا ليقبل التاج بدلاً من فردريك ، ودفع ستة آلاف مارك أخرى لشراء أصوات الأمراء الناخبين ، إلا أن الموت عاجل هنرى ، فاختار البابا خلفاله وليم كونت هولندا([2]) .

---

(1) GREGORY IX. Excommunication of Frederick II 1239 .

(2) Thompson & Johnson, Op Cit. PP. 247 - 248 .

كل الوثائق التى ورد ذكرها فى الحواشى السابقة ، موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية :

وفى عام ١٢٥٠ مات فردريك الثانى ، فتنفست البابوية الصعداء ، لكن الحرب البابوية ضد ولديه كونراد فى ألمانيا وما نفرد فى صقلية ، ثم حفيده كونرادينو Conradino ظلت قائمة ، لأن البابوية رأت أن مجرد بقاء أى فرد من أسرة الهوهنشتاوفن على قيد الحياة يعنى أن الحرب الصليبية التى أعلنتها ضدهم لم تنته بعد . وحتى تصل إلى نهاية لهذه الحرب ، تم القبض على كونرادينو من جانب جيوش البابوية وعملائها فى إيطاليا ، وسيق إلى نابولى وهو صبى صغير حيث تم إعدامه عام ١٢٦٨ .

* * *

هكذا كان الفكر البابوى الطموح ركناً هاماً من أركان النشاط البابوى فى ساحة الحروب الصليبية فى العصور الوسطى . ذلك أن البابوية حرصت على أن تجعل من الحرب الصليبية أداة طيعة لتحقيق كل ما كانت تصبو إليه من علو شأن وسمو فى مواجهة السلطة الزمنية .

=

- Bettenson (H.), Documents of the Christian church, London 1956 .
- Contor (N.), The Medieval world 300 - 1300, London 1968 .
- Care (R.) & Coulson (H.), A source book For Medieval Econmuic History, New york 1965 .
- Hinderson (E. F.) Select historical documents of the middle Ages, London 1925 .
- Riley - Smith, The Crusades, Idea and Realty 1695 - 1274, Documents of Medieval History, London 1981 .
- Thatcher (O. J.) & Mcneal (E. H.), A source book for Medieval History, New york.
- Tirney (B.), The Crisis of church and state, 1050 .
1300, U. S. A. 1964 .
- The Middle Ages, Vol. I, Sources of Medieval History, New york 1978 .

الدوافع الدينية للحركة الصليبية

د. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعى*

تباينت الآراء حول تقدير أثر العامل الدينى فى توجيه الحركة الصليبية. وربما كان مرد هذا الخلاف تباين وجهات نظر المؤرخين الغربيين والشرقيين نحو " الدين " ودوره كمحرك للشعوب ، فبعضهم استبعد أثر هذا العامل مطلقاً، وآخرون قللوا من شأنه ، وفريق ثالث اعترف به ولم يعطه حقه من الدراسة .

فالمؤرخون الشيوعيون والاشتراكيون يقولون إن " **المؤرخين الكاثوليك يعتقدون أن هذه الحروب كانت تعبيراً عن شعور دينى عميق شمل المسيحيين فى الغرب ، وأيقظهم واستحثهم فتمنطقوا بالسيوف واندفعوا ، بإشارة من يد بابا روما لإنقاذ المقدسات فى الأرض المقدسة** ". أما أهل التخصص من المفكرين ، غير المتحيزين دينياً وطائفياً فيرون " **أن الدين ليس إلا غلافا للحروب الصليبية وأن السيد المسيح ليس إلا قناعاً "(١) ولا شك فى أن هذا الرأى للمؤرخ الروسى زابوروف ، إنما يعبر عن فكره** اللادينى الذى يرى أن المفاهيم والتعابير الدينية تعبر عن نداءات المتهوسين المتعصبين ، والمدافعين عن الأفكار الرجعية (٢) . .

(*) أستاذ مساعد – قسم التاريخ والحضارة – كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام – الرياض .

(١) زابوروف ، الصليبيون فى الشرق . ص ٤

(٢) زابوروف ، المرجع السابق ، ص ٥ .

وهكذا فإنه يفسر الظواهر التاريخية وفق ما فسرها به ماركس وانجلز ولينين(١) . وثمة مؤرخ شيوعى آخر هو بونداريفسكى ينتقد ما يضفيه البعض من أهمية على العامل الدينى فيقول : **" وحتى الآن يحاول المؤرخون الغربيون أن يشيروا فى المقام الأول إلى " الغيرة الدينية " التى كانت – على حد زعمهم – تدفع الصليبيين إلى محاولة استعادة القدس و" قبر المسيح " من المسلمين(٢) .**

أما المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه فقد اعتبر الحروب الصليبية عملاً تاريخياً نهضت به الأمة الفرنسية ، فلا غرو أن يكون معظم القادة والمشاركين فى الحروب فرنسيين(٣) .

وقد شايع هذا الرأى بعض الباحثين المحدثين ، وأكد أحدهم رأيه حول العامل الدينى بقوله : **" لقد بالغ كثير من المؤرخين فى تقدير أهمية العامل الدينى وأثره المباشر فى قيام الحروب الصليبية ، ولكن الباحث المدقق** يدرك أن هذه الشواهد [**الدينية**] . . . لم تكن إلا **حركات مسرحية القصد منها إثارة الغرب الأوربى ضد العالم العربى فى المشرق ، وأنها وضعت لبث الحماس بين الصليبيين فى الغرب ضد العرب " (٤) .**

وهناك عدد آخر من المؤرخين العرب المحدثين ، حاولوا أن يخفوا أثر العامل الدينى للحروب الصليبية خلف عوامل أخرى ، تأثراً بمبادئهم القومية التى تنأى بالدين عن أن يكون سبباً رئيساً من الأسباب التى أدت إلى الحروب الصليبية (٥) .

---

(١) نفسه ص ٥

(٢) بونداريفسكى ، الغرب ضد العالم الإسلامى ص ٧.

(٣) جروسيه ، رصيد التاريخ . جـ٢ ص١١٢ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ص٧٠ .

(٥) حتى ، تاريخ العرب ، ص١٢٣ – ١٢٤ .

وبالإضافة إلى العامل الديني ، هناك عوامل أخرى حاول بعض الباحثين تفسير الحروب الصليبية في ضوئها . من ذلك أن المؤرخ الإنجليزى باركر يرى أن الحروب الصليبية يمكن أن تصنف ضمن حروب الاسترداد التي شنها الغرب الأوربي على مسلمي صقلية والأندلس حتى انتقلت إلى الشام وفلسطين (١) .

وهناك من يرى أن هذه الحروب تعبر عن حركة توسع استعماري غربي ، حركتها عوامل مادية ودنيوية . ومن أنصار هذا الرأى المؤرخ الفرنسي راى ، مؤلف كتاب " **المستعمرات الفرنجية في سوريا** " (٢)

ومهما يكن في هذه الآراء المتعددة من تباين في وجهات النظر ، فإن جمهرة المؤرخين الغربيين والمعاصرين والمحدثين يميلون إلى اعتبار العامل الديني سبباً مباشراً ومهماً للحرب الصليبية : فالمؤرخ الصليبي وليم الصورى استهل كتابه عن الحروب الصليبية بالحديث عن انتصار هرقل على الفرس واسترجاعه صليب الصليبوت منهم عام٦١٤ م (٣) . . وقد علق جروسيه على ذلك بقوله : **إن هذا المنحى من وليم الصورى يؤكد أن الحروب الصليبية التي شنها الغرب الأوربي على الشرق في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، فصل من فصول الحرب المقدسة التي بدأها هرقل لاسترداد فلسطين** (٤) .

وأصدق تعبير عن دور الدين في هذه الحروب ، ماقاله المؤرخ الفرنسي ميشو الذي مات عام ١٨٣٩ م : " **هذه المشاعر التي حركت**

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ص١٧ .

(٢) انظر : المقدمة Rey : Colonies Franques de Syrie

(٣) انظر : وليم الصورى ، الحروب الصليبية ص٦٣ .

(4) Grousset , Histoire des Croisades. t. I. p. 57 .

النصرانية للقيام بالحروب المقدسة ، لم يكن هدفها القتال من أجل ممالك أرضية بل في سبيل مملكة السماء " (١) .

كذلك قال المؤرخ الفرنسي الكونت ريان واصفاً الحروب الصليبية بأنها: " حملة دينية مباركة ، ومشروع استرداد مباشر وغير مباشر للأماكن المقدسة " (٢) .

وينحى مثل هذا المنحى ، المؤرخ الإنجليزي ول ديورانت الذي ينعت هذه الحروب بأنها : " ... الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى ، ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير في تاريخ أوربا والشرق الأدنى ، ففيها عمد الدينان العظيمان – المسيحية والإسلام – ، آخر الأمر ، وبعد قرون من الجدل والنقاش ، إلى ... محكمة الحرب العليا "(٣) .

أما المؤرخ اليهودي ، يوشع براور Prawer فقد أكد أهمية الدافع الديني بقوله : " لقد ولدت الحركة الصليبية من واقع الدين ، كما أن الدين استعاد توقده بفضل الحروب الصليبية . ذلك أن محاربة الكفار ، وتحرير الضريح المقدس أو الدفاع عنه لم يكن مجرد شعار ، أو مجرد تبرير للحرب والقتال، وإنما كان جانباً من جوانب الحياة الروحية وشعوراً بالالتزام داخل كل إنسان "(٤) .

* * *

---

(1) Michaud , Histoire des Corisades . t . Vl. p. 4

(2) Riant , "Inventaire critique des lettres historiques des croisades "dans Archives de l'Orient Latin , t. l . p. 2 Paris , 1880

(٣) ول ديورانت ، قصة الحضارة .جـ ٤/ ص.١١.

(٤) براور ، عالم الصليبيين ص ١٨٧ .

وإذا كنا فى دراستنا هذه نركز على العامل الدينى ، فليس معنى ذلك أن نجعله السبب الوحيد وراء هذه الحروب . لكن كما قال أحد الباحثين : "**حقيقة إن الدافع الدينى كان له تأثيره الكبير فى بعض الحملات الصليبية ، وخاصة الحملة الأولى ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن الدافع الوحيد**"(١) .

وبعبارة أخرى فإننا عندما نعطى الدافع الدينى جل اهتمامنا ، فلا يعنى ذلك أن نستبعد أهداف بعض القادة الصليبيين ذوى المطامع السياسية والمطامح العسكرية ، لأن هذه الأهداف ظهرت قبل اجتيازهم البسفور إلى آسيا الصغرى فى الحملة الصليبية الأولى ، حيث تلكأ بعضهم عن أداء القسم أمام الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول كومنين Alexis Comnene (١٠٨١-١١١٨م) الذى اشترط عليهم الالتزام بإعادة كل ما سيحررونه من الأراضى البيزنطية الواقعة تحت نفوذ السلاجقة . هذا فضلا عما حدث من تنافس بين زعماء الصليبيين حول أنطاكية ، وما قام به بلدوين البولونى Baudouin De Boulogne من قتل ثوروس الأرمنى Thoros صاحب الرها بعد أن أشركه معه فى الحكم ....وغير ذلك من الأمور التى تعبر عن مصالح شخصية لا أهداف عامة . ونحن لا ننكر أن هناك من الصليبيين من خرج من دياره طمعاً فى حياة اجتماعية واقتصادية أفضل ، أو هرباً من السيطرة الإقطاعية ، وهؤلاء كانوا فئات كثيرة ، ذات أهداف عديدة ، على أننا مع اعترافنا بكل ذلك ، نضع العامل الدينى فى مكان الصدارة بالنسبة لكافة العوامل التى حركت الحروب الصليبية ، وفى ضوء هذا العامل الرئيسى أخذت تلك الحركة طابعها العام فى التاريخ . ولنبدأ هذه الدراسة بتتبع المكانة الدينية للأرض المقدسة فى فلسطين من واقع جذورها التاريخية.

---

(١) حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ ١ ص ١١٦ .

الحج الغربى :

بعد رفع المسيح - عليه السلام - لم يعد للقدس دور واضح فذبلت وخبا نورها ، إلى أن أعاد بناءها الإمبراطور هادريان Hadrien (١١٧-١٣٨م) . وفى القرن الرابع الميلادى عاد الحنين إلى أرض المسيح فى جبل الزيتون وبيت لحم . وقد قامت **هيلانة** Helena أم الإمبراطور **قسطنطين** بزيارة فلسطين، وأمرت بالبحث عن بقايا الصليب ورفات المصلوب. وفى الموضع الذى ظنه المكان المقدس شيد ابنها قسطنطين كنيسة القيامة ، وتم العثور على الخشبة التى صلب عليها المسيح كما يدعون ، وهى المعروفة بـ " **صليب الصلبوت** " ، وبدأ أفراد قلائل يفدون من أوربا ، منهم رجل من بوردو فى غرب فرنسا ، قام بالحج إلى فلسطين عام٣٣٣ ، تلته امرأة من إقليم أكوتانيا جنوب غرب فرنسا تدعى **سيلفيا** Silvia (١) .

أما الشخصية التى زارت فلسطين فى القرن الرابع وكان لها أثر فى تنظيم الحج الغربى فهو **جيروم** ، الذى تلقى تعليمه فى روما ، ودرس الكتب اللاتينية القديمة ، ثم توجه إلى الشرق ، فأقام فى دير قرب أنطاكية ، واعتكف فى الصحراء، ثم عاد إلى أنطاكية سنة ٣٧٩ حيث رسم فيها قسيساً. وفى عام ٣٨٢ رجع جيروم إلى روما فعينه البابا **دماسوس الأول** Damassus I (٣٦٦-٣٨٤) أميناً له وكلفه بترجمة العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية . وظل فى منصبه لايمتلك سوى ثوبه ، ويعيش زاهداً ويلقى مواعظه بانتظام . وبعد موت دماسوس لم يرق لجيروم البقاء فى روما فقرر الذهاب إلى الشرق ترافقه الراهبة بولا وأختها ، وأنشأ فى بيت لحم ديراً للرهبان

---

(١) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ص٦٤ -٦٦ .

ترأسه بنفسه ، وآخر للراهبات تولت بولا رياسته ، وبنى كنيسة للجميع ، ومضافة للحجاج ، ثم انزوى فى كهف أربعاً وثلاثين سنة إلى أن مات حوالى سنة ٤٢٠م (١) .

كان لنشاط جيروم ومن جاء بعده ، أثر على انتشار الملاجئ الخيرية ، التى أقيمت فى مدن فلسطين لإيواء الحجاج الغربيين . وقد بلغ عدد الأديرة والنزل أكثر من مئتين فى مستهل القرن الخامس الميلادى . وفى منتصف هذا القرن وفدت على القدس الإمبراطورة أودوكسيا Eudoxie زوجة الإمبراطور البيزنطى تيودور الثانى Theodore II (٥٣٨-٥٩٤م) التى اعتزلت الحياة العامة وقررت البقاء فى القدس تجمع بقايا القديسين ، وترسلها إلى القسطنطينية ، ومنها الصورة المزعومة لمريم عليها السلام التى يقال إن لوقا رسمها . وماتت هذه الإمبراطورة فى القدس عام م٤٦٠ (٢) .

ولم يلبث أن تقاطر الناس من الغرب ، يتلهفون على رؤية مخلفات القديسين مثل جثمان يوحنا المعمدان فى السامرة ، ورأسه فى دمشق ، كما وفدت سفارات غربية لجمع أعضاء من رفات القديسين ، وتوزيعها على كنائس أوربا ، حيث سميت كل كنيسة باسم القديس صاحب الرفات . وأثار هذا الحنين إلى الشرق الأخبار التى كان يتناقلها التجار والمسافرون العائدون من هناك ، وما دونه المؤرخون من قصص أثار العواطف الدينية ، تجاه هذه الأماكن ذات الذكريات المقدسة . من ذلك أن المؤرخ الفرنجى جريجورى التورى Gregoire de Tours (٥٣٨-٥٩٤م) نقل الحديث الذى دار بين

---

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ١/ ص١٠٦-١١٣ .

(٢) رانسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ١ ص٧٥ -٧٦ .

القديس سمعان العمودى ، وبين التاجر السريانى إذ سأله سمعان عن القديسة جنيفييف Genevieve فى باريس ، وأرسل معه رسالة إليها (١) .

ولم تكن الرحلة إلى فلسطين أمراً سهلاً وإنما كانت تستغرق عدداً من السنين . ففى سنة ٦٧٠ سافر الأسقف الفرنجى أركولف Arculf إلى الشرق عبر مصر إلى فلسطين وسوريا ، ثم عاد إلى أوربا عن طريق القسطنطينية ، واستغرقت رحلته سنوات ، وواجهته عقبات (٢) .

وفى القرن الثامن الميلادى ، كثر الحجاج الذين يسافرون إلى القدس ، منهم من جاء من إنجلترا ، مثل ويليبالد Willibald الذى مر بروما ، وغادرها سنة ٧٢٢ م ، ولم يعد من فلسطين إلا عام ٧٢٩ م (٣)

وربما قام الحاج بتكرار حجه عدة مرات ، رغم المشقة مثلما فعل أسقف كونستانس St. Constance الذى حج ثلاث مرات، الأولى عام ٩٢٠م، وقد يكون الهدف من الحج زيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين لجمع بقايا القديسين ووضعها فى كنائس أوربا تبركا بها . ففى سنة ٩٣٧م قدم إلى المنطقة راهب يدعى فولك Foulque من أجل أخذ آثار دينية ، يحفظها فى ديره(٤).

ويطلق بعض المؤرخين الغربيين على القرن العاشر الميلادى " عصر الحج الكبير " إذ تدفقت فيه أفواج الحجاج على الشرق . ويعللون ذلك بانتزاع معظم جزر البحر المتوسط من أيدى المسلمين ، الأمر الذى سهل - عملية

---

(١) رانسيمان ، المرجع السابق ، ٧٧ -٧٨ .

(2) Brehier , Les Croisades . p. 21 .

(3) Ibid .

(4) Brehier : Les Croisades . P .32 .

إبحار الحجاج إلى سواحل فلسطين . غير أن كثيراً من الحجاج كانوا يفضلون السفر براً عبر القسطنطينية ، ليواصلوا منها طريقهم إلى الشرق . ويؤكد رانسيمان أن السلطات الإسلامية عباسية كانت أو فاطيمة لم تضع العراقيل أمام الحجاج الغربيين ، بل سهلت لهم الأمور (١).

ومنذ مستهل القرن الحادى عشر سيطرت على عقلية الأوربى فكرة مفادها أن القيامة ستحدث عام ١٠٣٣م أى فى الذكرى الألفية لموت المسيح . ويصف لنا المؤرخ المعاصر جلابير مشاهد الرعب التى استولت على الناس، حتى سرت بينهم الرغبة فى السفر إلى فلسطين ، من أجل الموت قرب قبر المسيح وصحبت ذلك مجاعة عارمة فهرب الناس إلى الكنائس ، ولجأوا إلى رجال الدين (٢) .

وأحياناً كان الحجاج يضطرون إلى ركوب البحر ، رغم ما يتطلبه ذلك من أجور باهظة ، ولكن حدث عندما تتصر إتيين Etienne (٩٧٩-١٠٣٣م) ملك المجر ، أن فتح طريقاً برياً يحاذى الدانوب ويخرق البلقان حتى القسطنطينية وعندئذ أخذ الحجاج يسلكون هذا الطريق بأعداد كبيرة ، رغم ما كانوا يتعرضون له من مخاطر الطريق . واستمر الوضع على ذلك حتى عام ١٠١٩م عندما سيطرت بيزنطة على البلقان وعندئذ أصبح السبيل آمناً ، والسفر أقل تكلفة وإن كان أكثر بطئاً . وكلما التزم الحجاج النظام والهدوء ، كلما حظوا بثقة الناس فى المدن التى يمرون بها فضلاً عن الإفادة من مضافات الإمبراطورية البيزنطية على طول الطريق ، والمنازل التى شيدها أتباع ديركلونى ، الذين أقاموا فى القسطنطينية أيضاً داراً للحجاج الغربيين

---

(١) رانسيمان ، المرجع السابق . جـ١ ص٨١ .

(2) Pognon , L 'An Mille . P . 116 -117 .

كما بنى التجار الإيطاليون مساكن فى القدس ، وبخاصة تجار أمالفى الذين أسسوا " مستشفى القديس يوحنا " (١) .

والواقع أن منظر الحجاج على امتداد الطرق إلى الشرق صار مألوفا يبعث على الشفقة ، وأينما ساروا فى أوربا كانوا يلقون مساعدة من الناس ، وبخاصة بعد عودتهم من فلسطين وعلى أثوابهم شارة فى شكل الصليب من خوص النخل جاءوا به من هناك (٢).

وكان الحجاج لايحملون معهم - عادة - إلا ما يرد عنهم غائلة الطريق كالعصا ونحوها . وإذا كان الحجاج يؤلفون مجموعة من السادة والنبلاء فإنهم كانوا يصطحبون حرساً مسلحاً لحمايتهم . وما قيل عن سوء معاملة المسلمين لحجاج الغرب ، أمر مبالغ فيه . أما الضرائب التى كان تجبى منهم أثناء مرورهم ، فلم تكن مقصورة عليهم ، بل أحياناً كانت تؤخذ من المسلمين . وهذا يعتمد على الظروف السياسية والإقتصادية لكل إمارة أو سلطنة . وليس صحيحاً أن انتصار السلاجقة فى معركة مانزكرد عام ١٠٧١م واحتلالهم الشام وفلسطين أدى إلى اضطراب الأمن فى المنطقة ، مما انعكس سلباً على وضع الحجاج الأوربيين . وهكذا حتى كانت الدعوة للحروب الصليبية ، وكان من وراء هذه الدعوة عدد من كبار رجال الدين المعاصرين مما يؤكد أهمية الدافع الدينى لعجلة الحروب الصليبية .

شخصية بطرس الناسك :

ارتبطت الحملةالصليبيةالأولىبشخصية بطرس الناسك Pierre l'Ermite الذى رأه المؤرخ المعاصر جيبيردونوجان Guibert de Nogent فقال عنه :

---

(١) رانسيمان ، المرجع السابق جـ١ ص٨٧ -٨٨ .

(٢) ول ديورانت ، المرجع السابق جـ ٤/٤ .

" رأيت المدن والقرى ، وقد تعلقت بهذا الرجل ، الذى حظى بقبول شعبى ، لم يحظ به غيره من قبل ، ونظروا إليه بإعتباره قديساً ، كان كريماً يحث على التعاون والسلام ، سلوكه ينم عن شخصية دينية لها قداستها بل إن حماره أحيط بإهتمام خاص ، فقد كان الناس يسيرون خلفه ، وينزعون شيئاً من شعره تبركاً " (١) .

أما وليم الصورى فقد قال عنه إنه قسيس من كنيسة Amiens فى فرنسا ، كان رجلاً ضئيل الجسم بليغاً ، لايؤبه لمثله . ذهب إلى الشرق ، وحل على أحد النصارى فى القدس ، والتقى به بطريرك القدس سمعان Simeon (١٠٤٨-١١٠٦م) الذى شرح له ما يعانيه النصارى من المسلمين - كما يزعم وليم الصورى - فاقترح بطرس أن يكتب البطريرك رسائل إلى البابا فى روما . وحدث أن بطرس سقط ذات يوم مغشياً عليه فى كنيسة القيامة " وخيل إليه أنه يرى عيسى المسيح واقفاً أمامه كالطيف وهو يقول له: انهض يا بطرس واسرع وانجز ماعهد به إليك من المهام غير خائف ولا وجل لأننى سأكون معك لقد جاء الوقت لتطهير الأماكن المقدسة ولمساعدة أتباعى " (٢) .

ولكن آن كومنين Anne Comnene (١٠٨٣-١١٤٨م) ابنة الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنين قالت : إن بطرس فشل فى الوصول إلى القدس ، لما لاقاه من مخاطر ومشاق ، فقرر العودة إلى أوربا ، ليعود إلى الشرق ومعه أنصار كثيرون يستعين بهم ضد قطاع الطريق . وأخذ يشيع فى أوربا أن هاتفاً من السماء طلب منه أن يعلن لجميع أمراء فرنسا أن عليهم الرحيل

---

(1) Pernoud , Les Hommes de La Croisade . P .49 -50

(٢) وليم الصورى ، الحروب الصليبية . ص٩٠ -٩٤ .

إلى القدس " لتحرير القبر المقدس من أبناء هاجر " وتضيف آن أن هذه الدعوة لاقت قبولاً شعبياً " حتى لكأن قلوب الجميع قد اقتنعت بها عن طريق وحي رباني "(١) .

وقد تحدثت عنه ملحمة أنطاكية ، وورد فيها أن بطرس زار كنيسة القيامة عام ١٠٩٠م وتجلى له المسيح في المنام " وقد طلب منه يسوع المسيح أن يذهب إلى الغرب ويقابل ملوك النصارى ويبلغهم دنو الساعة التي لأجلها ضحى بنفسه في سبيل البشر ، فالكفر سائد في البلاد التي ولد وترعرع وعاش وصلب ودفن فيها ، وهذه البلاد بلاده ، فنهض بطرس الناسك فوراً ، ورجع إلى فرنسا ، وجمع جيوشاً عظيمة وزحف إلى الشرق "(٢) كذلك تحدثت الملحمة عن دور بطرس في حصار أنطاكية ، ومقابلته لكربوغا أمير الموصل الذي جاء نجدة لمسلمي أنطاكية ، وكيف بدا بطرس بأسماله شجاعاً ذا كبرياء ، ولكنه فشل في إقناع كربوغا بفك الحصار ، فعاد إلى المعسكر الصليبي يستنهض الهمم ، ويذكي روح القتال في نفوس المحاصرين (٣) .

وقد شك عدد من المعاصرين الغربيين في وجود هذه الشخصية مثل المؤرخ الألماني هاجنماير Hagenmeyer الذي أنكر دور بطرس الناسك في الحملة الصليبية الأولى (٤).

ولكننا نميل إلى وجود هذه الشخصية لتردد اسمه على أقلام المؤرخين المعاصرين له ، كما أسلفنا . ويبدو أن المشككين في هذه الشخصية

---

(١) زكار ، الحروب الصليبية ص ١١٢ .

(٢) حاتم ، شهود العيان على فتح الصليبيين أنطاكية . ص١٩٠ .

(٣) نفسه . ص١٩٨ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف ، دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب . ص٢٢-٢٣.

يستكثرون عليها أن تؤثر مثل هذا التأثير الضخم على الجموع الأوربية . وقد ناقشت هذه النقطة المؤرخة الفرنسية بورنو Pernoud في كتابها عن "رجال الحروب الصليبية " ، وقالت : لماذا نستغرب هذا النجاح من بطرس في التأثير على الجماهير في عصر الإيمان والمعجزات " العصور الوسطى " ولا نستغرب ذلك من خطباء " الهايدبارك " والمتجولين في الطرقات يدعون الناس " و"الشعراء " ، فضلاً عن الحرب الخطابية بين المرشحين في الانتخابات ، حيث تتأثر الشعوب بأقواهم حجة ، وأكثرهم قبولاً جماهيرياً ؟"(١).

أما الذين يقولون إن وجوده كان في فرنسا ، ولم يواصل الطريق إلى القدس ، فنرد عليهم بأن المؤرخ المجهول صاحب كتاب " أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس " ذكره منذ البداية ، وفي حوادث آسيا الصغرى وحصار أنطاكية ، واحتلال القدس . ولكن يبدو أن المؤرخ المجهول قد بالغ في الكلام عن دور بطرس الناسك في المفاوضات مع كربوغا ومعه ترجمان وذلك يوم ٢٧ يونيو ١٠٩٨ م حيث ألقى بطرس على أسماع أمير الموصل رسالة الصليبيين : " لقد عجب زعماؤنا وساداتنا كل العجب من أن يدفعكم التهور والحمق إلى اقتحام أرض النصارى ...فهل لنا أن نظن أنكم قدمتم إلى هنا لاعتناق النصرانية ، أم ترون أن الدافع لكم من المجئ هو إنزال شتى ضروب السوء بمختلف الطرق ؟ أن زعماءنا جميعاً ليسألونكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين ...وأن زعماءنا ليأذنون لكم بأخذ كل مالكم من الخيول والبغال والحمير والإبل والماشية والثيران وجميع ما تملكون، كما يأذنون لكم بنقل ذلك كله معكم حيث شئتم " . فأجابهم كربوغا أن " ليس

---

(1) Pernoud ,Op . Cit . p. 50

أمامكم سبيل سوى الإسلام أو الإستسلام ، أو القتل بحد السيف فعاد بطرس وترجمانه إلى معسكره ليخبر قومه بما حصل "(١) .

وزاد وليم الصورى أن جودفرى دى بوايون أبرز القادة الفرنسيين انفرد ببطرس ورجاه أن لايفصل كل ما قاله كربوغا ، مخافة أن يثبط ذلك من عزائم الصليبيين . وهذا يدل على أن القيادة العسكرية اعتمدت فى تعبئة الروح القتالية على رجال الدين وعلى رأسهم بطرس (٢) .

قال المؤرخ الفرنسى فانديرى Alphandery فى كتابه "النصرانية وفكرة الحروب الصليبية " : " خلال حصار القدس الذى بدأ يوم ١٥ يونيو ١٠٩٩م كان لبطرس الناسك دور حماسى ، وكان لمواعظه على جبل الزيتون أثر فى نفوس الصليبيين ، الذين أصابهم هوس دينى ، قواه قربهم من آثار المسيح ، مما شجعهم على اقتحام أسوار المدينة المقدسة فى ١٥ يوليو من العام نفسه " (٣).

أما المؤرخ المجهول فقد ختم حديثه عن احتلال القدس ، بقوله : " أما بطرس فقد بقى فى بيت المقدس لاتخاذ ماتطلبه الحال من التدابير والاستعدادات اللازمة ، ولدفع البيزنطيين واللاتيين والكهنة إلى تمجيد الرب وإقامة الصلوات وتوزيع الصدقات حتى يؤتى الرب شعبه ما وعده به من نصر(٤) .

---

(١) أعمال الفرنجة . ص٩٠ -٩١ .

(٢) وليم الصورى ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٠٢ .

(3) Alphandery , La Chretiente et l'idee de Croisade . t. i. p . 121-122

(٤) أعمال الفرنجة . ص١٢١ -١٢٢ .

البابا أوربان الثانى :

لـم يكـن بطـرس الناسـك هـو الرمـز الوحيـد المحـرك للحملـة الصليبيـة الأولى ، وإنما هناك عدد من رجال الدين تبنوا الدعوة لتلك الحركة وارتبطـت أسماؤهم فـى التـاريخ بـالحروب الصليبيـة . ومـن هـؤلاء كـان البابـا أوربـان الثاني. وقد ذكرنا أن بطرس الناسك بعد أن تراءى له المسيح عاد إلى أوربـا، وقابل البابا أوربان الثانى Urbain II (١٠٨٨-١٠٩٩م) فـى رومـا . ويصـف وليم الصورى هذا اللقاء بقوله : " وعلى الرغم مما كان عليه البابـا مـن بـلاء عظيـم [بسـبب صراعـه مـع الإمـبراطور الألمـانى هـنرى الرابـع] ، إلا أنـه أحسن لقاء الموقر بطـرس الـذى شـغل نفسـه مُنـذ رجوعـه مـن القـدس بتنفيـذ المهمة التى ألقيت على عاتقه ، فوعده أوربان وعداً من الرب الذى هو خادمه بـأن يبـادر إلـى مسـاعدته فـى مسـعاه الـذى جـاء من أجلـه متـى لاحـت لـه الفرصة"(١) .

وكان أن استغل البابا الفرصة ، وراح يخطط لاسـتثمار شـعبية بطـرس الذى كان لمواعظه أثر كبير " ذلك لأن كلام بطرس كان يفتح قلـوب سـامعيه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة فى دعوتهم إلـى نفس الأمـر الـذى يـؤدى إلـى تحقيق هدفه تحقيقاً يجعله قادراً على التأثير فيهم " (٢) .

وبـادر البابـا بعقـد مجلس فـى ٧ مـارس عـام ١٠٩٥م فـى بلـيزانس Plaisance فى إيطاليا . وبعد انتهاء المجلس ، مكث البابا فـى إيطاليـا بضعـة أشهر ، ثم توجـه إلـى فرنسـا ، وزار مدينـة بـوى Puy حيث التقـى بأسـقفها

---

(١) وليم الصورى ، المصدر السابق . جـ١ ص ٩٦ .

(٢) نفسه . ص٩٦ .

ادهيمار دى مونتى Adhemar de Monteil الذى أصبح مندوب البابا فى الحملة الصليبية الأولى . وفى مدينة بوى ، وجه البابا فى ١٥ أغسطس من العام ١٠٩٥م الدعوة لحضور مجمع كليرمونت Clermont فى نوفمبر من السنة نفسها(١) .

وقد حضر اجتماع كليرموت ، المؤرخ الصليبى فوشيه دو شارتر Foucher de Chartres (١٠٥٨-١١٢٧م) وسجل خطاب البابا أوربان ، الذى استهله بهذه الكلمات :

" أيها الإخوة الأحباء يا خدام الرب فى هذه الديار ، لقد أتيتكم أنا أوربان، بإذن من الرب حبر الأعظم ، بإذن من الرب حبر العالم أجمع ، فى هذه الفترة العصيبة الحرجة ، نذيراً من العناية الإلهية " ثم وعظهم ، وأمرهم بإخلاص النية والإقلاع عن الذنوب ، ونبذ الحقد والإقتتال فيما بينهم، واحترام الكنيسة ورجال الدين ، واستعدى الأمة النصرانية ضد السلاجقة المسلمين **" هذا الجنس اللعين "** وحرضهم على " الحرب المقدسة " بقوله : **"المسيح يأمر بما يلى : كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له كل خطاياه إذا ما واجه حتفه ، زاحفا فى البر أوعابراً فى البحر ، أو مقاتلاً الكفار ، إننى أمنح ذلك لكل من يذهب مستمداً القوة من السلطة التى وضعها الرب فى يدى " .**

ويقول فوشيه : **" وبالفعل فإن كثيراً من الناس ، من مختلف المراتب ، ما إن سمعوا بغفران الذنوب إلا وأقسموا على أن يذهبوا بأرواح طاهرة ، سواء أمروا بالذهاب أم لا . "**

---

(1) Brehier , Les Croisades . p.61 -64 .

ويصف حال الناس بعد سماعهم خطبة البابا فيقول : "أواه ، كم أسعد نفوسنا وأثلج صدرونا ، أن نرى هذه الصلبان المصنوعة من الحرير ، ومن الجوخ المذهب ،وقد حاكها هؤلاء الحجاج ، فرساناً وعامة على أكتاف أرديتهم . لقد فعلوا ذلك طاعة لأمر البابا أوربان حال أدائهم القسم بالذهاب"(١) .

وكان لبطرس الناسك وأوربان الثانى أثر فى خروج الناس من ديارهم، فى رحلة مضنية إلى الشرق ، وكلما أشرفوا على مدينة جديدة هتفوا ظانين أنها " أورشليم " .

* * *

القديس برنارد والحملة الثانية ٥٤٢هـ/١١٤٧م :

ومن أبرز دعاة الحروب الصليبية كان القديس برنارد قرابة منتصف القرن الثانى عشر الميلادى. ذلك أنه حدث عندما استعاد عماد الدين زنكى الرها عام ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م أن تغيرت موازين القوى فى الشرق لصالح المسلمين ، وخشيت أوربا أن يكون ذلك بداية النهاية للوجود الصليبى فى الشام ، حيث بلغ قلق الفرنج على مصيرهم مبلغاً كبيراً . وكان أن سافر إلى روما هوج Hugues أسقف جبلة ومعه كثير من الرهبان ، والفرسان ، لشرح حجم التهديدات الإسلامية بعد سقوط الرها . وهكذا نشطت الدعوة لحملة صليبية ثانية ، وبرز على رأس الدعاه لإنقاذ القدس القديس برنارد ، الذى وصفه المؤرخ ميشو بأنه " كان الروح والضوء لأوروبا ، بل اعتقد الناس ملوكاً وأمراء ورجال دين وعامة أن الرب يتحدث

---

(١) انظر نص الخطاب فى: فوشيه الشارترى ، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص٣٢ –٣٨ .

بلسانه "(١) ولد برنارد فى ديجون Dijon عام ١٠٩١ م ، من أسرة من طبقة الفرسان ، ودخل الحياة الديرية منذ طفولته ، واستطاع أن يجذب إليه عدداً من رفاقه ، حتى أقنع أباه وأمه وأخته أن يترهبوا فى عام ١١١٥ م ، ثم اشترك مع ثلاثة عشر راهباً فى بناء دير كليرفو Clairvaux ، **ونظر إليهم قائلاً " أعظم أتباع المسيح كمالاً ،لا ينقصون عن الملائكة ، ولكنهم أرقى كثيراً من الآدميين** " وازداد رهبان هذا الدير حتى بلغوا سبعمائة راهب . وكان برنارد يعظ الملوك والبابوات ، ولكنه يتسامح كثيراً مع الفلاحين والرعاة ، ويغض النظر عن أخطائهم . وقد انتقد الكنيسة على بذخها ، فقال : **إن الكنيسة تتلألأ جدرانها وتغل يدها عن فقرائها ، وتطلى حجارتها بالذهب وتترك أبناءها عراة ، وتفتن الأغنياء بالفضة التى تأخذها من البائسين** "

وقد جاء لزيارته الأمير هنرى كونت شامبانى Henry / de Champagne أخو الملك الفرنسى ، ووعظه برنارد ، فمكث الأمير ذلك اليوم يغسل الصحاف فى الدير . وهكذا أثبت برنارد قدرة فائقة على الساحتين الدينية والإجتماعية ، وقام بأكثر من اثنتى عشرة مهمة دبلوماسية ، معظمها بتكليف من البابوية . وكان لخطبه الحماسية ، وبلاغته ، عمل السحر فى نفوس السامعين الذين كانوا يقبلون قدميه ، ويتخذون من ثيابه قطعاً مقدسة حتى شاع عند العامة أنه يشفى المرضى(٢).

وعندما اعتلى لويس السابع Louis VII (١١٣٧ - ١١٨٠) عرش فرنسا ، دخل فى صراع مع عدد من الاقطاعيين ، فحاربهم ، وذهب المئات ضحايا حروبه ، مما أثار البابوية ضده . وقام القديس برنارد بكتابه رسالة

---

(1) Michaud , Op . Cit . t.II . p. 119 -121 .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ ٤/٥ ، ص ١١١ - ١١٨ .

(١٠٨١ -١١٥١ م) رئيس دير سان Saint - Denis وهنأ البابا أوجين الثـالث Eugene III (١١٤٥-١١٥٣م) ملك فرنسا بتوبته ، واقترح عليه بأن يتوج اعترافه بحملة صليبية نحو القدس(١).

وقد حظى القديس برنـارد دو كليرفو بتأييد البابا أوجين الثـالث الذى ساعدته الظروف على الدعوة لحملة جديدة إلى الشرق . وكان أن جاس خلال الديار الفرنسية ، يستثير بخطبه ومواعظه الحماسة الدينية لدى الفرنسيين ، حتى قابل الملك الفرنسى لويس السابع والح عليه بالذهاب إلى فلسطين . وعقد برنارد مجمعاً فى كنيسة فيزيلاى Vezelay فى ٣١ مارس ١١٤٦ حيث ألقى خطابه ، الذى دعا فيه النـاس للمشـاركة فى الحرب المقدسة ، فتطوع الكثيرون، وحملوا شارات الصليب بل لقد مزق برنـارد ثوبه ليصنع منه صلباناً . ثم انتقل إلى ألمانيا ليقنع الإمبراطور كونراد الثالث Conrad III (١١٣٨ - ١١٥٢ م) (٢) بجدوى مشروع الحرب المقدسة ضد المسلمين. وفى ألمانيا ، تجول برناردبين المدن والقرى ، يحث الناس على الخروج فى سبيل الرب يسوع ، فتبعته جموع غفيرة هجروا قراهم . وقد لخص برنـارد فى رسالة له إلى البابا النجاح الذى لاقته دعوته بين الألمان بقوله : " أقفرت القرى والقلاع ، فلا يرى فيها سوى أرامل ، وأيتام ، لهم أزواج وآباء أحياء ، ولم يبق سوى رجل واحد مقابل سبع نساء " (٣) .

وقد تأثر بدعوة برنارد راهب ألمانى يدعى رودولف Rodolph ، جمع الألمان وحرضهم على قتال المسلمين ، ودعاهم إلى اغتيال اليهود بوصفهم

(1) Michaud , Op . Cit . t. II . p . 124 .

(٢) ول ديورانت ، الورجع السابق ، جـ٤/٤ ، ص٣٠ .

(3) Michaud , Op . Cit .. t. II . p . 130 -132

حلفاء للمسلمين ، بل إنه اعتبرهم أكثر خطراً وعداءً للنصرانية . ولكن برنارد قدم على عجل ليمنع وقوع مجزرة ضد اليهود ، معلناً أن على النصارى أن يرحموا الضعفاء (١).

يقول أودودى ديل Odon de deill (المتوفى عام ١١٦٢ م) والذى رافق الملك لويس السابع ، وسجل رحلته فى كتابه " رحلة لويس السابع إلى الشرق " :" إن الملك لويس تعهد بحمل الصليب ، فور سماعه خطبة برنارد، وبادر ببعث رسالة إلى البابا أوجين فى روما ، فأرسل إليه البابا مباركته وإشارة الصليب . وفى مجمع فيزيلاى ، ظهر لويس أمام الناس وعلى ثيابه الصليب ، فتنادوا بوضع الصلبان ، حتى اضطر القديس برنارد إلى تمزيق ردائه ، وصنع صلبانامنه . وحضر البابا أوجين إلى سان دنيس واحتفل بعيد الفصح فى الكنيسة ، والتقى بالملك الفرنسى لويس ، الذى تسلم راية الحرب واستأذن بالرحيل إلى الشرق "(٢) .

وفى المصاف بين الفرنج وأهل دمشق ، كان لرجال الدين دور فى رفع الروح المعنوية لدى الفرنج . يقول ابن الجوزى :" وكان فيهم قسيس بلحية بيضاء فركب حماراً أحمر ، وترك فى حلقة صليباً وفى حلق الحمار صليباً ، وأخذ فى يده صليبين ، وقال للإفرنج : إنى قد وعدنى المسيح أن آخذ دمشق ولايردنى أحد ، فاجتمعوا حوله وأقبل يطلب دمشق ، فلما رآه المسلمون غاروا للإسلام وحملوا عليه بأجمعهم فقتلوه وقتلوا الحمار وأخذوا الصلبان فأحرقوها "(٣) .

---

(1) Ibid p . 132 .

(2) Castries , La Conquete de la Terre Sainte . p. 355 - 356 .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٨ ص٦٣ -٦٤ .

وكان أن عاد لويس السابع إلـى موطنـه ، دون أن يحقق شيئاً ، ولكنـه اكتسب محبة شعبه بفضل دعاية رجال الدين المرافقين لـه ، ولـم تخـل حملتـه من شخصيات تاريخيـة ، مثـل الكونـت فنـدوم Vendome الـذى كـان فارسـاً مغروراً ، اشترك فى جيش الملك لويس ، وفُقد فـى فلسـطين ، ولـم يعد مـع الحملة ، وأعتبر فى عداد الموتى . ولكنه عاد بعد خمس عشرة سنة ، فخلدت ذاكره فى تمثال يبدو فيه مرتدياً أسمالاً ، والصليب يتدلى على صدره ، ومعـه عصا الحاج (١)

ولشدة تعلق الغربيين بالقديس برنارد ، كـانوا يعولـون عليـه فـى نجـاح هذه الحملة ، ولكن بعد وصول أنباء فشلها إلى أوربا ، إتهم الناس برنارد بأنه أرسل النصارى إلى الموت فى الشـرق ، فـرد عليهـم بـأن هـذا حكـم الـرب ، وليس شرطاً أن ينتصر قوم دائماً لأن الخطايا تقود إلى الهزيمة ، وعلل فشـل الحملة بسوء نوايا المشاركين فيها ، رغم إعدادها إعداداً جيداً (٢) .

وإذا كان القديس برنارد قد فشل فى هذا المشروع الصليبى ، فإنه نجـح فى تنظيم فرسان " الداوية " أو الهيكليين Les Templiers وهـى طائفـة مـن الرهبان الملسحين ، أسسها فى القدس ، فارس فرنسى ، صديق لبرنارد يدعى هوج دى باين Hugues de Payns (١٠٧٠ - ١١٣٦ م) كـان قـد قـدم إلـى فلسطين زمن الحملة الأولى ، وقام بالحج ثلاث مرات . وفـى عـام ١١١٩م ، شجعه القديـس برنـارد علـى تكويـن هـذه المنظمـة فـى مكـان قيـل أنـه **"هيكـل سليمان "** فى القدس ، وسعى برنارد إلى الحصول على اعتراف بها مـن قبـل البابوية عام ١١٢٨ م(٣) .

---

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٨٦ .

(2) Michaud , Op . Cit . t. II . p. 199 -100.

(3) Demurger , Vie et mort de L' ordre de Temple .p. 21 -22 .

وقد ركز برنارد وهو يضع نظام الداوية على التربية الدينية الجماعية ، ومحاربة الأثرة ، وترك لنا وصفاً " لفرسان الرب" جاء فيه : " كل واحد منهم يغدو ويروح وفقاً لمشيئة قائده ، وكل منهم يرتدى الملابس المعطاه له ، ولا يبحث أحد عن طعام أو ملابس إرضاء لنزواته ففى مسائل الطعام أو اللباس يقنع الواحد منهم بما هو ضرورى متجنباً كل ماهو زيادة عن الضرورى . وهم يعيشون فى جماعة ، ينعمون بالسرور فى رزانة دون زوجة أو ولد . ولكى يصلوا إلى الكمال الإنجيلى عليهم أن يعيشوا فى البيت نفسه وبالطريقة نفسها دون أن يدعوا ملكية شئ ، حريصين على الحفاظ على وحدة الروح فى ظل روابط السلام ...يكرهون الشطرنج والنرد ، ولايحبون الصيد ...ويحتقرون الممثلين..والأغانى الماجنة..وهم نادراً ما يستحمون فهم لذلك قذرون قد لفحت جلودهم الشمس وطول السفر "(١) .

* * *

دعاة الحملة الثالثة : ٥٨٦هـ/١١٩٠م :

ثم كان أن أنزل صلاح الدين ضربته بالصليبيين فى حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وبذلك سقط صليب الصلبوت بيد المسلمين ، وعادت القدس إلى المسلمين وانتخب الصليبيون ملكًا عليهم كونرا دمونفيرات Conrad de Montferret (مات سنة ١١٩٢) الذى أرسل بطريرك بيت المقدس ومعه رهبان وقسس "لبسوا السواد وأظهروا الحزن " ليطوفوا أرجاء أوربا " وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربى يضربه بعصا ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح ، وقالوا : هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله " وتأثر بهذا المشهد رجال كثير ونساء ، "

---

(١) براور ، المرجع السابق ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

ومن لم يستطع الخروج استأجر من خرج عوضه، أو يعطيهم مالاً على قدر حاله"(١) .

ويقول ابن شداد : إن المركيس كونراد مونفيرات : " **صور القدس في ورقة عظيمة ، وصور فيه صورة [كنيسة] القيامة التى لهم يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذى يعتقدون نزول النور عليه كل سنة فى عيد من أعيادهم ، فصور القبر وصور عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطئ قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصورة وراء البحر فى الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ، ورؤوسهم مكشوفة ، وعليهم المسوحة ، وينادون بالويل والثبور وللصور عمل فى قلوبهم ، فإنها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلائق لايحصى عددهم إلا الله تعالى"(٢) .**

وكان أن حاول صليبيو الشرق أن يلموا شعثهم ويحافظوا على مابقى لهم على الساحل . وتجمعت فلول الهاربين فى صور ، وبعث سادتهم وليم الصورى Guillaume de Tyre (١١٣٠ -١١٩١م) رئيس أساقفة صور ليستصرخ إخوانهم فى أوربا ، فبدأ بصقلية حيث قابل ملكها وليم الثانى Guillaume II (١١٦٦ -١١٨٩) الذى حزن لما حدث ، وارتدى ثوباً خشناً وانزوى عن الناس أربعة أيام ، إلا أنه لم يستطع القيام بحملة إلى فلسطين لانشغاله بحرب ضد البيزنطيين . ومع ذلك فقد تمكن من إرسال سفن أقلت ثلاثمئة فارس إلى طرابلس . كذلك بعث بكتب إلى نظرائه فى غرب أوربا

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ص٢٨٨- ٢٨٩ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

يحثهم على الحرب المقدسة . ووصل وليم الصورى إلى غرب أوربا وأخذ يؤثر ببيانه وبلاغته ، وفقراته المقتبسة من العهدين القديم والجديد ، حتى قيل إن الملكين هنرى الثانى Henry II (١١٥٤- ١١٨٩) وفيليب أوغسطس Philippe Auguste (١١٨٠ - ١٢٢٣) ، بكيا حين سمعا مواعظه . وقد اعتمد على موهبته كرجل دين ومؤرخ فبذل جهوداً لتنقية الأجواء السياسية العدائية بين إنجلترا وفرنسا ، وتوصل إلى عقد صلح بين هذين الملكين (١).

وعندما بلغ البابا أوربان الثالث Urbain III (١١٨٥ -١١٨٧ م) نبأ سقوط القدس خر صريعاً حال سماعه هذا النبأ ، وقام البابا الجديد جريجورى الثامن Gregoire VIII بنشر رسائله فى الغرب الأوربى يستحث الناس على تخليص القدس وصليب الصلبوت ، وطالبهم بتكفير خطاياهم ، ونيل الغفران ، وهذا لا يتحقق إلا بالمشاركة فى هذه الحرب . كذلك أمرهم بالصيام كل يوم جمعة لمدة خمس سنوات ، وتحريم أكل اللحم يومى الأربعاء والسبت ، وفرض على أمراء أوربا هدنة فيما بينهم لمدة سبع سنوات. ولكن البابا لم يلبث أن مات فى ١٧ ديسمبر ١١٨٧ فخلفه البابا كليمنت الثالث Clement III (١١٨٧ -١١٩١ م) الذى كلف عدداً من الدعاة بأن يجوبوا أوربا ، ويدعون الناس إلى محاربة المسلمين ، كما أرسل عمورى Amaury بطريرك أنطاكية رسالة إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا يصف فيها أوضاع الصليبيين فى الشرق ويسأله المجئ إلى فلسطين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه(٢) .

---

(1) Michaud , Op . Cit .. p. 301 - 304.

رانسيمان ، المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٢١- ٢٢ وقد ذكر رانسيمان أن رئيس أساقفة صور هو جوسياس خليفة وليم الصورى .

(٢) رانسيمان ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣ .

وكـان أن تـابع وليـم الصـورى جولتـه فـى أوربـا حيـث قـابل فريدريـك بربروسا Frederic de Barberousse I (١١٢٢-١١٩٠ م)ووعده الإمبراطور بتوجيه حملة ألمانية . وهذا الإمبراطور كما وصفه معاصروه كـان متديناً ، حريصاً على أداء طقوسه الدينية فى وقتها ، يحترم رجال الدين ،وقد خصص عشر دخله للمشروعات الدينيـة ، وظلت صورتـه فـى الأدب الألمـانى تحـاط بالقداسة . وهناك أسطورة قديمة ، تزعم أن فريدريك بربروسا" **نام ولم يمت ، وسوف ينهض يوماً ما ليملأ الأرض عدلاً وسلاماً ، ويصبح ظل الرب فـى أرضه !**" (١) .

ويبدو أن الإمبراطور الألمانى كان يؤمـن كغيره بـالرؤى والتكهنـات ، فالمؤرخ الأرمنى سمباد ذكر أن فريدريك سلك الطريق البرى لأن كاهنـاً تنبـأ له بالموت غرقاً . ومع ذلك ، فقد غـرق فـى بحيرة فـى أرمينيـة الصغـرى ، وتولى ابنه قيادة الجيش ، ووصل إلى عكا فى أسـوأ حـال ، وعـاد إلـى أوربـا فاشلاً(٢).

أمـا مـن جهـة هنرى الثـانى فقـد استعد للتحـرك نحـو القـدس ، واتخـذ إجراءات لجمع التبرعات اللازمة للحملة ، وفرض ضريبـة سميت بــ" **عشر صلاح الدين**" وهى عشرة فى المئـة مـن ضريبـة الدخـل والأمـوال المنقولـة . كذلك قام بلدوين Baldwin رئيس أساقفة كنتربرى بالدعوة للحرب الصليبية ، وتجهز الملك الإنجليزى للذهاب إلى الشرق ولكن المنية عاجلتـه فـى ٦ يوليـو

---

(١) انظر : حامد زيان غانم ، الإمبراطور فريدريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ص١١ -١٤ .

(٢) انظر : بحثنا عن : العلاقات السياسية ، ص٢١.

١١٨٩م ، وتولى عرش إنجلترا ابنه ريشارد الذى أراد أن يفى بنذر أبيه ، فاتفق مع الملك الفرنسى فيليب على القيام بالحملة الثالثة (١) .

وكان الملك الفرنسى متحمساً للمسير إلى فلسطين ، متأثراً برسالة وصلته نهاية سنة ١١٨٨ م من القسطنطينية ، تذكر نبوءة أذاعها دانيال القديس الزاهد ، مفادها أن الفرنج سيستعيدون الأرض المقدسة فى السنة التى يحل فيها عيد البشارة فى يوم أحد القيامة وسوف يحدث اقتران العيدين فى سنة ١١٩٠ م .

وأثمرت جهود رجال الدين فى جمع الملكين ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس فى فيزيلاى فى ٤ يوليو ١١٨٩ . وبعد هذا الاجتماع انطلق كل ملك إلى الشرق . غير أن الظروف السياسية والعسكرية اضطرت الملك الفرنسى إلى العودة إلى بلاده بعد سقوط عكا بيد الصليبيين فى ١٢ يوليو ١١٩٢م(٢) . أما وليم الصورى فقد استجاب لدعوته عدد من الفرسان **"فالحرب من أجل الدين ومن أجل قبر المسيح المقدس أو الدفاع عنه صارت جزء لايتجزأ من قانون الفروسية "** بل أصبح الفارس يضحى بمحبوبته من أجل أن يجيب داعى الحرب المقدسة ، هاهو الفارس كانون دى بيتون Canon de Bethune يغادر مع الحملة الثالثة ، ويلتفت إلى محبوبته قائلاً : .

" وأسفاه أيتها الحبيبة الجميلة،ياله من فراق يمزق القلب...يجب على أن أذهب إلىسوريا متنهداً عاشقاً لأنه لاينبغى لأحد أن يخذل خالقه...فهناك يربح المرءالفردوس والشرف،والمكافأة والثواب كما ينعم بحب الحبيب"(٣).

---

(١) رانسيمان ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ٢٣-٢٤ ، ٢٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ -٢٩ .

(٣) براور ، المرجع السابق ، ص١٨١ -١٨٢ .

ولم يكن الحماس الدينى حكراً على الرجال ، فإنه ثمة نساءً نذرن أنفسهن لخدمة النصرانية ، وحملن الصليب وقد تحدث مؤرخون مسلمون عن وصول إمرأة : " **جليلة المقدار ، وفى صحبتها خمسمئة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم ، وهى متكفلة بجميع ما يحتاجون إليه من المؤونة"** ويبدو أن هذه المرأة كانت من ثريات الغرب ، قدمت لإنقاذ القدس ؛ بل جاءت إلى فلسطين ، مقاتلات ، مقنعات ، لم يعرفن إلا بعد أن سباهن المسلمون ، كما أسهمت عجائز فى تحريض الرجال على القتال .

وكان أن استطاع كل من ريتشارد قلب الأسد والملك الفرنسى فيليب أوغسطس احتلال عكا وعندئذ قرر الأخير العودة إلى فرنسا ، وتولى مهمة المواجهة مع المسلمين الملك الإنجليزى . غير أن الظروف العسكرية لم تمكن أياً من الطرفين من إحراز نصر حاسم فلجأ كل طرف إلى إطالة أمد المفاوضات. وأخيراً توصل الطرفان بعد جهد جهيد إلىصلح الرملة الذىأبرم بين ريتشارد والسلطان صلاح الدين فى٢٤شعبان سنة٥٨٨هـ/٢سبتمبر ١١٩٢.

دعاة الحملة الخامسة : (١٢١٨-١٢٢١م/٦١٥-٦١٨ هـ)

لم يستطع نصارى الغرب استرداد بيت المقدس ، وفشلت الحملة الثالثة فى تحقيق ذلك ، كما أن الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤ انحرفت عن مسارها الذى رسمته لها البابوية ، فاتجهت إلى القسطنطينية . وكان أن بذل البابا أنوسنت الثالث Innocent III جهوداً مضنية فى الدعاية لحملة خامسة . ويذكر ابن الأثير أن البابا كتب إلى السلطان العادل فى عام ٦١٢هـ / ١٢١٥ م ، يطالبه برد القدس ، ولكن العادل لم يكترث بهذه الرسالة ظناً منه أنها تهديد لايرقى إلى درجة التنفيذ(١).

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ص٢٠٩ .

وكان أن نشر البابا عدداً من الدعاة فى فرنسا لبث الدعوة من أجل القيام بحملة صليبية خامسة ، وأرسل مندوباً عنه هو الكردينال روبير دى كورسون Robert de Courson ، فانضم إلى الحملة عدد كبير من العامة ، وأذن الكاردينال بخروج النساء والأطفال والمسنين(١) .

من جهة أخرى أعلن البابا أنوسنت الثالث أنه سيقود هذه الحملة بنفسه ، وتم عقد مجمع اللاتيران الكنسى فى ١١ من نوفمبر عام ١٢١٥ م . ويعتبر هذا الإجتماع من أعظم المجامع النصرانية إذ لم ينعقد مثله منذ سبعة قرون ، وكان الهدف الرئيسى منه الإعداد للحملة الخامسة ، إضافة إلى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . وحضره رجال دين من الشرق ، على رأسهم جاك دى فيترى Jacques de Vitry وأوليفييه دى بادربورن Olvier de Paderborn ، وبوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا فى قبرص ، وراؤول دى ميرنكور Raoul de Merencourt بطريرك القدس ، وبودوان Baudouin أسقف أنطرطوس نائباً عن جرماس بطريرك أنطاكية الذى لم يتمكن من الحضور لمرضه ، كما حضر بطريرك القسطنطينية . هذا فضلا عن عدد كبير من رجال الدين والسياسة ، شرقيين وغربيين حتى بلغ عدد الحاضرين حوالى ألف وثلاثمائة (٢) .

وقد حرص البابا فى خطابه على استثارة جموع الحاضرين ، فادعى أن المسلمين ينتهكون حرمة كنيسة القيامة ، ويسخرون من الصليب . كذلك تحدث جان دى تور Jean de Tor مندوب ملك بيت المقدس جان دى بريين Jean de Brienne عن أوضاع المملكة ، وأن الهدنة مع المسلمين ستنتهى

---

(١) محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة . ص١٤٣.

(٢) محمود سعيد عمران ، المرجع السابق ، ص١٤٤– ١٤٦ .

صيف عام ١٢١٧م ، وأن مركز القوة والقيادة الإسلامية فيمصر. لذلك تقرر غزو مصر . وتمهيداً للحملة قرر المجلس مقاطعة المسلمين بتحريم الإتجار معهم، ووعد كل من يسهم أو يشارك في هذه الحملة بغفران الخطايا(١).

على أن البابا إنوسنت الثالث لم يلبث أن مات في ١٦ يناير ١٢١٦ م ، فخلفه البابا هونريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ - ١٢٢٧م) واسترضى البابا الفرنسيين الذى شكوا من تصرفات نائبه روبير ، بأن عين مكانه جاك دى فيترى ، الذى سبق له أن دعا إلى حملة صليبية ضد الألبيجنسيين الهراطقة ، الذين ناهضوا الكنيسة في ألبي جنوب فرنسا . لذلك كان اختيار جاك دى فيترى للدعاية لهذا الحملة يعبر عن استراتيجية دينية مدروسة . وقد ظل يدعو حتى صدر قرار بتعينه أسقفاً لعكا التى وصل إليها في ٤ نوفمبر ١٢١٦ م ، وحل محله في فرنسا سيمون أسقف صور . ولكن سيمون لم يكن على مستوى سلفه(٢) ، كذلك أسهم القديس دومينيك (١١٧١- ١٢٢١م) في حث الناس في فرنسا على الذهاب إلى فلسطين . أما في إنجلترا فقد بذل ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربرى جهده في توجيه الناس نحو الشرق وانتشر الوعاظ كذلك في إسكتلندا وإيرلندا . وفي ألمانيا نجح أوليفييه أسقف بادنبورن في جمع أكثر من خمسين ألف متطوع ، فحاز بذلك رضا البابا الذى عينه كاتباً للمندوب البابوى في الحملة (٣) .

وقد صاحب هذه الحركة الإعلامية ، كثرة الرؤى والتصورات ، منها مازعم عام ١٢١٧م من أن المسيح بدا في الأفق مصلوباً ثلاث مرات خلال

---

(١) نفسه ، ص١٤٧ -١٤٨ .

(٢) نفسه ، ص١٥٢ - ١٥٣ .

(٣) محمود سعيد عمران ، المرجع السابق ، ص١٥٤ -١٥٥.

شهر مايو فى ثلاث مناطق من كولونا فى ألمانيا وفى فرنسا كان لنشاط جاك دى فيترى أثر فيجمع الناس تحت راية الصليب. وأمتاز هذا الداعية الصليبى بأنه رجل دين ، مؤرخ مطلع ، ادعى أنه يتلقى عوناً من المسيح وحكى أنه **"قبل أن يركب البحر إلى فلسطين خلال الحملة الخامسة ، كان يسير فى طريق فى إيطاليا ، وهبت عاصفة ثلجية كادت أن تلقى به وبحماره فى النهر ، لولا بقية رفات من القديسين كان يصطحبه معه أينما غدا أو راح ، وكانت معجزة أن يحمل هو وحماره بمنأى عن العاصفة ويسلم دون أن يفقد شيئاً من متاعه الذى تبعثر ثم عاد إلى أوعيته كما كان " (١)** لقد شرح جاك دى فيترى مهمته فى هذه الحملة ، وبادر بدعوة أهالى جنوة إلى حمل الصليب، واستطاع حسب قوله – أن يؤثر على آلاف الرجال . ومن جنوة استأجر سفينة كبيرة ، وشحنها بالعتاد ، والأموال والرجال ، دعماً للمشروع الصليبى ؛ ثم توجه إلى عكا حيث واصل تحريض الرجال على تحرير القدس، وجال بين الناس ، يلقى عليهم مواعظه، ويحذر شباب عكا من نسيان واجبهم المقدس ، ويخوفهم إن هم تهاونوا أن يزول كيانهم من الشرق إلى الأبد(٢) .

وفى عكا ، انتقد جاك دى فيترى المجتمع الصليبى ، واتهمه بالفساد ، واتهم الإيطاليين بالحرص على الربح الوفير ، ونسيان الروح الصليبية ، وقال إن نصارى الشرق جواسيس للمسلمين . واستغل جاك منصبه الدينى كرئيس لأساقفة عكا لينتقد المجتمع الصليبى ويحارب الفساد الأخلاقى الذى استشرى بين شبابه وطبقاته ؛ وألقى جاك باللائمة فى ذلك على الاختلاط بالمسلمين

---

(1) Pernoud , Les Hommes de La Croisade . p. 206 .

(2) Pernoud ,Op .Cit . Ibid , p.214- 215 .

وقال: " إن الأوربيين الذين كانوا يزورون مملكة بيت المقدس ، كانوا يعودون إلى أوربا بانطباع أن مجتمعاً مخنثاً قد خلف أبطال الحملة الصليبية الأولى ، الذين أصبحوا قدوة أسطورية تتمثل فيها كل صفات الفروسية وقيمها "(١) .

وكان مندوب البابا فى هذه الحملة هو بيلاج Pelage، يعاونه الكاردينال d'Albano . كذلك وصل مع جيش الصليبيين شخصية مقدسة تدعى فرانسوا الأسيزى ، وقد صحب هذه الحملة ليمارس التنصير فى مصر. وذات يوم توجه نحو جيش المسلمين ، وطلب مقابلة الملك الكامل وقال له : لقد بعثنى إليك الرب لأهديك سبيل السلام ! وأمسك فرانسوا بالإنجيل ، واقترح على الكامل أن يأمر بإشعال نار ، ليدخلها المنصر ، فإن نجا كان ذلك علامة صدقه ، وإن مات لقى جزاءه ولكن السلطان الكامل رحم هذا الرجل ، وعرض عليه هدايا ، فرفضها ، فقال له الكامل : إذن أعطها الفقراء والرهبان وأعاده إلى معسكر الصليبيين (٢).

ولاشك فى أن فشل بيلاج فى قيادة الجيش الصليبى ، أدى إلى أن يبتكر رجال الدين وسيلة أجدى من أجل نشر عقيدتهم ، وتنصير أعدائهم . ولم يجد بيلاج بدًا من السماح لفرانسوا بالذهاب إلى معسكر المسلمين ، علماً بأن القادة العسكريين وبخاصة من صليبى الشرق ، أدركوا سلفاً استحالة التأثير على المسلمين . ولكن يبدو أن شخصية فرانسوا اختلفت فى تكوينها عمن عداها من رجال الدين المشاركين فى الحملة فقد نشأ خيالياً ، يتصور أن المسيح يحدثه أحياناً بل كان الناس يعزون إليه معجزات ، ويظنون أن المسيح وأمه

---

(١) براور ،المرجع السابق ، ص١٤٨ .

2) Michaud ,Op .Cit .. T.lll. P .335 -336 .

يظهران له فافتتنوا به ، وزعموا أنه عُلم منطق الطير حتى مات عام ١٢٢٦م وكان عدد أتباعه عند وفاته آلاف ، انتشروا فى المجـر وألمانيا ، وانجلـترا ، وأسبانيا ، وبلغ عددهم عام ١٢٨٠ م ، مائتى ألف راهب يقيمـون فـى ثمانيـة آلاف دير (١) .

لويس التاسع ، الملك القديس :

وفى ختام الربع الأول من القرن الثالث عشر ظهر على مسرح الحركة الصليبية لويس التاسع ملـك فرنسـا الـذى قيـل إن البابويـة رفعتـه إلـى مرتبـة القديسيين بعد وفاته ، ومن ثم فقد عـرف بلقـب (القديـس لويـس) . وقـد قـام لويس التاسع بحملتين صليبيتين الأولى على مصر سنة ١٢٤٨ ، والثانية على تونس سنة ١٢٧٠م . وتفيض حوادث هاتين الحملتيـن بالمشـاعر الدينيـة التـى تؤكد أهمية الدافع الدينى فى مسيرة الحركة الصليبية . أما عـن لويـس التاسـع فقد نشأ نشـأة دينيـة ويقـال أنـه ولـد يـوم ٢٥ أبريـل عـام ١٢١٥ م وهـو عيـد القديس مرقص " **فخرج الناس على هيئة مواكب فى كثير من مناطق فرنسـا رافعين الصلبان السوداء ، فكان هـذا أشبه بنبوءة بـالجموع الكثيفـة الذيـن كتب عليهم أن يموتوا فى الحربين الصليبيتين اللتين قام بهما الملك لويس ، وأعنى بهما الحملة على مصر ، والأخـرى التـى مـات فيهـا هو ذاتـه وهـى الحملة على تونس "(٢).**

ومات أبوه لويس الثامن ، وعمره إثنا عشر عامـاً ، فتولـت تربيتـه أمـه الملكة بلانش المعروفـة بالتزامهـا الدينـى ، واخلاصهـا الدينـى ، وتفانيهـا فـى

---

(١) للمزيد : انظر : ول ديورانت ، المرجع السابق ، جـ ٥/٤ ،ص١٢٠ -١٣٦ .

(٢) جوانفيل ، القديس لويس ، ص٤٤-٤٥ .

خدمة الكنيسة ، وكانت تردد على أسماعه قولها : " **إنه ليهون على موتك من أن أراك فريسة لخطيئة تغضب الرب** "(١).

وتوج يوم الأحد ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦م ، فى عيد البشارة . وحدث عام ١٢٤٤م أن مرض ، وظن أهله أنه قد فارق الحياة ، ولكنه أفاق وطلب من الخدم أن يأتوا إليه بالصليب ، فوضعه على صدره(٢).

ولما شفى من مرضه ، أقسم أن يحمل الصليب ، لأن الرب ماشفاه إلا ليعده لحرب مقدسة . وكثيراً ما يؤكد على التزامه بعقيدته ، مردداً : "**إن الإيمان والعقيدة المسيحيتين أمران يجب أن نعتقد فيهما اعتقاداً جازماً حتى ولو لم نكن متأكدين منهما إلا بالسماع** "(٣) .

أما الحملة الصليبية الأولى التى قادها لويس التاسع فكانت سنة ١٢٤٨ عندما خرج نحو الشرق ، ليحقق هدفاً صليبياً ، هو القضاء على قوة مصر ، ليتسنى له تحرير القدس ، وهدفاً تنصيرياً يتمثل بإدخال أكبر عدد من البشر فى عقيدته . وحرص على استقطاب قوة المغول لتحقيق هذه الغايات . وقد عرفت هذه الحملة فى التاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة . ويحدثنا عنها الفرنسى جوانفيل Jean de Joinville (١٢٢٤ - ١٣١٧م) ، الذى كان مرافقاً للملك لويس فى حملته فيقول : " **بينما كان الملك مقيماً فى قبرص أنفذ إليه ملك التتار العظيم رسلاً يحملون له رسائل طيبة كريمة ، وكان من بين ماذكره ملك التتار استعداده لمعاونة الملك فى غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين. ولقد بالغ الملك فى**

---

(١) جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص٣٤ .

(٢) جوانفيل ، نفسه ، ص٧٤ -٧٥ .

(٣) نفسه ، ص٤٢ .

إكرام وفادة الرسل ، وأنفذ بالتالى سفارة من لدنه إلى ملك التتار وعادت بعد عامين " (١).

وعندما وصل لويس على رأس حملته إلى مصر نجحوا فى احتلال دمياط ، ولكن الهزيمة لم تلبث إن حلت بهم فى معركة المنصورة ، وتم أسر الملك لويس فى الثانى من محرم ٦٤٨هـ / ٦أبريل ١٢٥٠م . وبعد إطلاق سراحه ، اتجه إلى الشام ، ووجه إلى الأمة الفرنسية ، رسالة ، شرح لهم فيها ظروف فشل حملته ، وملابسات أسره ، ختمها بقوله : " **إنى لآمل منكم ومن كل نصرانى غيور أن تعملوا بإخلاص لاسترداد الأرض المقدسة ، باعتبارها أرضكم ، وإنا وإن كنا السابقين إلى ذلك ، فأنتم اللاحقون ، وستنالون الأجر نفسه الذى نلناه ... أيها الإخوة رجال الكنيسة ، أيها الإخوة المخلصون ساعدونا ، وصلوا من أجلنا ، وادعوا لنا الرب أن يحقق غايتنا** " حرر فى عكا ، فى شهر أغسطس عام ١٢٥٠م(٢).

وكان لويس حريصاً على تربية أتباعه تربية نصرانية محضة فأعلن فى أكثر من مناسبة أن الدين ماضى وحاضر ومآل ، وساءه أن يتفشى بين قومه الكذب وبخاصة فى اليمين(٣).

وأما الحملة الصليبية التالية التى قام بها لويس التاسع ، فتعرف فى مسلسل الحملات الصليبية باسم الثامنة ، وكانت على تونس سنة ١٢٧٠ م ويقال أن هذه الحملة جاءت رد فعل لما قام به المنصر الدومنيكانى ريمون مارتان Raymond Martin من ترويج إشاعة مفادها أن المستنصر بالله

---

(١) جوانفيل ، المصدر السابق ، ص٨٤ -٨٥ .

(2) Michaud . Op .Cit . T. IV . P. 419 -420 .

(٣) نفسه ، ص٢٩٥ .

سلطان تونس يريد أن يتنصر ! وكان ريمون صديقاً للسلطان ، ومدرساً للغتين العربية والعبرية فى دير الدومنيكان فى تونس ، فقيل إن هذه الأكذوبة بلغت سمع لويس التاسع فتحمس لزيارة تونس ومنح السلطان فرصة لتغيير دينه ، وحمايته من انتقام قومه . وكان للجنويين أهداف سياسية واقتصادية ، فزينوا للملك الفرنسى غزو تونس ، من أجل كثلكتها ، بمثابة خطوة أولى نحو تنصير أفريقيا، مقتفياً آثار القديس أوغسطين(١).

ويبدو أن الحفصيين علموا من مصادرهم بنية لويس التوجة إلى بلادهم، فأرادوا رصد تحركه ، وسبر غوره ، فأوفدوا إليه سفارة ، التقته فى باريس يوم الأربعاء ٩ أكتوبر ١٢٦٩م /١٠ من صفر ٦٦٨ هـ . يقول ابن خلدون : " **وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسيس لاختبار حاله ومشارطته على مايكف عزمه ، وحملوا إليه ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه إلى أرضهم . فلما طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه** "(٢) .

والواقع أن المؤرخين الغربيين والمسلمين اختلفوا فى تحديد أسباب هذه الحملة : " **والرأى الراجح – كما يقول الدكتور سعيد عاشور – أن لويس حاول أن ينشر المسيحية فى شمال أفريقيا ، واعتقد أن تسامح أبى عبد الله المستنصر سيساعد على تحقيق هذه الغاية** " (٣).

ويعضد هذا الرأى ، مباركة البابوية هذه الحملة وقيامها بتمويل المشروع الصليبى من موارد دينية تتمثل فيما يلى :

---

(١) مصطفى الكنانى ، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ، ص ١٥١ -١٥٣ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخية ، جـ ٦ ص٢٩١ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص٩٨٠ .

(أ) هبات البابوية وأعطياتها ، الممنوحة إلى لويس وغيره من الملوك والنبلاء .

(ب) ضريبة العشر المفروضة على الكنائس الغربية .

(ج) اقتطاع نسبة واحد من عشرين من دخل رجال الكنائس والأبرشيات(١) .

وقبل أن يتحرك الملك نحو تونس انقسم أتباعه إلى ثلاث مجموعات : الأولى تفضل الاتجاه إلى مصر " **لقطع رأس الأفعى أولا** " والثانية تحبذ التحرك إلى عكا ثم إلى مصر ، والثالثة كان رأيها مع الملك الذى قرر الإبحار إلى تونس . وقد أقنع المعارضين بفكرته مدعياً أن **ملك تونس كتب عدة رسائل إليه ، وأبدى رغبته فى ترك الديانة المحمدية ، واعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى**(٢) .

ولكن لويس أصيب بمرض وهو يحاصر تونس ، فلزم الفراش ، حتى توفى يوم الأثنين ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م /٦ من محرم ٦٦٩هـ وهو يتمتم " **أورشليم أورشليم** " وبموته فقد الجيش الفرنسى رمزاً دينياً كان يذكى الروح الدينية فى نفوسهم ، فاستولى عليهم الملل ، وأنهتكم الأمراض ، والأوبئة ، فاضطر قادتهم إلى التفاوض مع المسلمين ، وتم عقد الصلح بين ملك تونس أبى عبد الله محمد المستنصر بالله وفيليب الثالث ملك فرنسا Philippe III de France وشارل ملك صقلية Charles de Cicile ، وتيبو ملك نافار Thibout de Navarre فى تونس يوم ٢١ نوفمبر ١٢٧٠م . وورد فى بنود

---

(١) مصطفى الكنانى ، المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٢) نفسه ، ص١٩٥ .

الصلح " وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكاناً فى بلاد أمير المؤمنين ، وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه ديارة وبيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم ، والرهبان والقسوس المذكورون يعظون ويصلون جهراً فى كنائسهم ، ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون فى بلدهم"(١).

خاتمة البحث :

هكذا نستطيع أن نستشف من مسيرة الحركة الصليبية ، أن العامل الدينى ، كما مؤثراً فى سير وحوادث تلك الحركة ، سواء فى صورة مظاهرات شعبية ، تدفعها الحماسة الدينية إلى القتال ، أو عن طريق رجال الدين من رهبان وقسس وكرادلة وبابوات ، ممن كانوا يحسنون استثارة الغيرة الدينية فى نفوس الشعوب الأوربية ، أو عبر خطب مباشرة تلقى على منابر الكنائس ، أو من خلال مجامع كنسية ، يحضرها جمع من زعامات دينية ومواطنون ، أو على مستوى قرارات يصدرها البابوات . وقد يثار سؤال مؤداه هل كان هناك تواطؤ بين رجال الكنيسة والساسة الأوربيين لاستغلال المشاعر الدينية لدى الناس فى تحقيق أهداف سياسية وعسكرية وتوسعية ؟ نحن لاننفى وجود مثل هذا التواطئ فى بعض حالات لأن المصالح كانت تقتضى عقد اتفاقيات سرية بين الطرفين ، ولكن هذا الجانب لايدخل فى إطار بحثنا الذى ينحصر فى إبراز العوامل الدينية الكامنة وراء قيام الحملات الصليبية ، بمعنى أننا اقتصرنا على المظاهر الشعبية التى كانت ترتبط بالدين، وتتحرك فى دائرته . ومن الواضح أن بعض الحكام ورجال السياسة كانت لهم مشاعرهم وأهدافهم الدينية الخالصة مثل لويس التاسع .

---

(١) مصطفى الكنانى ، المرجع السابق ، ص٢٩١ .

ومن عرضنا السابق ، يتضح أن جماهير غرب أوربا كانت تضع ثقتها في دعاة الحملات الصليبية ، إلى حد ضمان النصر . ولكن عندما تفشل حملة، تسقط قيمة رجل الدين الذى قام بالدعاية لها . وأدى تكرار هذه الظاهرة مع الزمن إلى أن يفكر الكنسيون فى أسلوب آخر للوصول إلى هدفهم عن طريق التنصير ، وهذا مارأيناه فى الحملة الخامسة عندما مثل القديس فرانسوا الأسيزى أمام الكامل سلطان مصر ، يحاول تنصيره ، بإذن من بيلاج مندوب البابا ، الذى تسبب فى هزيمة الصليبيين فى هذه الحملة . هذا إلى أن لويس التاسع اهتم بعد هزيمته فى الحملة السابعة بتنصير المغول وجماعة الحشيشية، وبذل خلال أربع سنين أقامها فى عكا جهوداً لتكريس الكاثوليكية فى الشرق اللاتينى . وقد رأينا أن حرصه على نشر النصرانية فى تونس ومن ثم فى أفريقيا كان عاملاً مهماً وراء حملته الثامنة . إن الدين بما له من سلطان على القلوب يمثل قوة دافعة لكثير من الحركات التى يفيض بها التاريخ ؛ ومن هذه الحركة الصليبية .

المصادر والمراجع

المصادر العربية :

- **ابن الأثير** (عز الدين على بن محمد . ت ٦٣٠ هـ)
  الكامل فى التاريخ
  دار صادر بيروت ، بيروت ١٩٦٦.
- **ابن تغرى بردى** (جمال الدين أبو المحاسن يوسف . ت٨٧٤ هـ)
  النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
  دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٣.
- **ابن الجوزى** (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد .ت ٥٩٧)
  المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك
  تحقيق محمد ومصطفى ابنى عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٢.
- **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد .ت ٨٠٨ هـ)
  كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر
  مؤسسة الأعلمى ، بيروت ١٩٧١ .
- **أبو شامة** (شهاب الدين أبىمحمد عبدالرحمن المقدسىالشافعى ت٦٦٥هـ)
  كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
  دار الجيل . بيروت ب. ت.
- **ابن شداد** (بهاء الدين .ت. ٦٣٢هـ)
  النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
  تقديم محمد درويش . مطبعة وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٩ .

• **ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم .ت ٦٩٧ هـ)**
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
(الجزء الثالث) تحقيق جمال الدين الشيال . دار القلم . القاهرة ١٩٦٠
(الجزء الرابع) تحقيق حسنين ربيع. مطبعة دار الكتب . القاهرة ١٩٧٢.

المراجع العربيية :

• **جوزيف نسيم يوسف**
- دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، مؤسسة شباب الجامعة الأسكندرية ١٩٨٣.
- العدوان الصليبى على مصر . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨١ .
- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى . دار النهضة العربية بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١ .

• **حامد زيان غانم**
الإمبراطور فريدريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة .
دار الثقافة القاهرة ١٩٧٧.

• **حامد غنيم أبو سعيد**
الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية القاهرة ١٩٧٣ .

• **زكار (سهيل)**
الحروب الصليبية . دار حسان . دمشق الطبعة الأولى ١٩٨٤

• **عاشور (سعيد عبد الفتاح)**
الحركة الصليبية . جزءان ، مكتبة الإنجلو المصرية القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٨٦

• **الغمراوى (على)**
مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط
مكتبة سعيد رأفت القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٧٧.

• **فائز اسكندر**

المقاومة الإسلامية فى مواجهة العدوان الصليبى على تونس سنة ٦٦٨ - ٦٦٩هـ / ١٢٧٠ م على ضوء حولية بريما

مطبعة الجبلاوى القاهرة ١٩٨٧.

• **محمود سعيد عمران**

الحملة الصليبية الخامسة

دار المعارف القاهرة ١٩٨٥م.

• **مصطفى حسن الكنانى**

حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ٦٦٨ - ٦٦٩هـ/١٢٧٠ م

منشأة المعارف الأسكندرية ١٩٨٥

مصادر ومراجع مترجمة :

• **آينهارت (ت ٨٤٠م)**

سيرة شارلمان ترجمة عادل زيتون

دار حسن دمشق . الطبعة الأولى ١٩٨٩ .

• **باركر (آرنست)**

الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العرينى

دار النهضة . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

• **براور (يوشع)**

عالم الصلبيين

ترجمةقاسم ومحمد خليفةحسن.دار المعارف القاهرة الطبعة الأولى١٩٨١.

• **بونداريفسكى**

الغرب ضد العالم الإسلامى من الحملات الصليبية حتى أيامنا

ترجمة الياس شاهين . دار التقدم موسكو١٩٨٥ .

• **جروسيه (رينيه)**

رصيد التاريخ

ترجمة محمد خليل الباشا المنشورات العربية ب . م ، ب .ت .

• **جوانفيل (جا ن دو)**

القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام

ترجمة حسن حبشى . دار المعارف القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٨ .

• **حتى (فيليب) ، وإدوارد جرجى ، وجرائيل جبور**

تاريخ العرب

دار غندور . بيروت الطبعة السابعة ١٩٨٦ .

• **رانسيمان (ستيفن)**

تاريخ الحروب الصليبية

ترجمة السيد الباز العرينى . دار الآفاق بيروت الطبعة الثانية ١٩٨١ .

• **زابروف (ميخائيل)**

الصليبيون فى الشرق

ترجمة الياس شاهين . دار التقدم موسكو ١٩٨٦

• **فوشيه الشارترى**

الحملة إلى بيت المقدس

ترجمة زياد العسلى . دار الشروق عمان . الطبعة الأولى ١٩٩٠

• **مجهول**

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس

ترجمة حسن حبشى . دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٨ .

• ول ديورانت

قصة الحضارة

ترجمة محمد بدران . مطابع سجل العرب . القاهرة ١٩٧٦

• وليم الصورى

الحروب الصليبية

ترجمة حسن حبشى . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة جـ١/١٩٩١، جـ٢ /١٩٩٢ .

المراجع الفرنسية :

- **ALPHANDERY (Paul),**

  La Chretiente et l'idee de Croisade, Albin Michel, Paris, 1954.

- **AUBE (Pierre).**

  Godefroy de Bouiion, Fayard, 1985.

- **BORDONOVE (Georges) .**

  Saint-Louis, France Loisirs, Paris, 1984.

1. **BREHIER (Louis).**

   Les Croisades. Librarie Lecoffre., Paris, 1928.

- **CASTRIES (Le Duc de..).**

  La Conquete de la Terre sainte par les Croises, Albin Michel, 1973.

- **DEMURGER (Alain).**

  Vie et Mort de L'Ordre du Temple, Seuil, . Paris, 1985.

- **ROUSSET (Rene).**

  Histoire des Croisades et du Royaume de Jerusaleme, Tallandier. Paris, 1981.

- **MICHAUD (J.F.).**

  Histoire des Croisades, Furne, Paris, 1841.

- **PERNOUD (Regine).**

  - Alienore d'Aquitaine. Albin Michel. Paris. 1965.

  - Les Hommes de la Croisade. Fayard/Tallandier. Paris. 1982.

- **POGNON (Edmond).**

  L'An Mille. Gallimard. Paris. 1947.

- **REY (E).**

  Les Colonies Franques de Syrie. Alph. Picard. Paris. 1883.

- **RIANT,**

  " Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades " dans Archives de l'Orient latin, t.l. p.2 Paris, 1880.

البابوية وفرنسا

على مسرح الحروب الصليبية فى الأندلس

(القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر للميلاد)

د/ محمد محمود أحمد النشار(*)

اعترض بعض المؤرخين المحدثين على إدراج الحروب التى دارت فى شبه الجزيرة الإيبيرية بين المسلمين والمسيحيين فى قائمة الحروب الصليبيـة، بدعوى إن هذا المصطلح يطلق فقط على تلك الحروب التى دارت فى الشـرق الأدنـى منـذ أن دعـا إليهـا البابـا أوربـان الثـانى فـى مؤتمـر كليرومونت عـام ١٠٩٥م واستمرت حتى استعاد المسلمون مدينة عكا على يد الأشـرف خليل عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ(١) .

ولكن الباحث يرى أنه ليس هناك فـرق بيـن الحـروب التـى دارت ضـد المسلمين فى الشرق وتلك التى شـنها الغـرب الأوربـى ضـد مسلمى الأندلس أوائل القـرن الحـادى عشـر الميـلادى بدعـوى مسـاعدة الأسـبان فـى اسـترداد أراضيهم ، بمعنى أن كلها حروب صليبية ، حركتها فى المقـام الأول مشـاعر دينية . وبعبارة أخرى فإن الحروب التى شنها المسيحيون ضـد المسلمين فـى الأندلس ليست إلا حلقة من حلقـات الحركـة الصليبيـة ، تدخـل فـى سلسـلة مـا

(*) مدرس تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة طنطا .

(١) أشار الأستاذ الدكتور سعيد عاشور إلى أن المؤرخين اختلفوا فى تحديد المدى الزمنـى للحروب الصليبية فمنهم من اعتبرها من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١م فى حين قـال آخـرون أن لهـا مقدمـات وذيـول تجـاوزت هـذا التحديـد (الحركـة الصليبيـة جـ١ ، القـاهرة سـنة ١٩٧٨م، ص ٢٦) .

أسماه الأوربيون باسم " الحروب المقدسة " أو " رحلة الحج " أو " تخليص القبر المقدس" .

وكان المؤرخ ابن الأثير أول من فطن إلى تلك الحقيقة فاعتبر الحروب الصليبية فى الشرق امتداداً للحروب التى قامت فى الأندلس إذ ذكر فى حوادث عام ٤٩١هـ :

" وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج واستبداد أمرهم وخروجهم إلى الإسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها سنة ٤٧٨هـ فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ، وقد تقدم ذكر ذلك . ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها – وقد ذكرته أيضاً – وتطرقوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم ثم ملكوا غيره على ما نراه . فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام "(١) .

هذا وينبغى القول أن المؤرخين قد تناولوا بالدراسة فلسفة الحروب الصليبية فى الشرق بالإسهاب ، وتعددت وجهات نظرهم لتقييم تلك الحركة فى العصور الوسطى(٢) وجعلوا للحروب الصليبية فى الشرق صفاتها ومعالمها الخاصة . وإذا ما تناولنا الحروب التى دارت فى نفس الحقبة فى الغرب الإسلامى وعلى وجه الخصوص فى شبه جزيرة إيبيريا نجد لها نفس

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ، بيروت سنة ١٩٧٩م ، ص ٢٧٢.

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ١٩ – ٤٢ ، جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين الأسكندرية ١٩٨٩ ، ص٣٧ – ١١٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ١ ، بيروت سنة ١٩٦٩ الفصل الأول والثانى، باركر الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، القاهرة سنة ١٩٦٠م، ص ١ – ٢٠ .

البواعث والأسباب التى حركت الحروب الصليبية فى المشرق الإسلامى والتى تتلخص فى عوامل دينية أخفت وراءها بواعث اقتصادية وسياسية واجتماعية .

وكان أن أثيرت قضية هامةحول ماهية الحروب التىدارت ضد مسلمى الأندلس ، هل تدخل ضمن ما يسمى حركة الاسترداد (La Reconquista) أو ينطبق عليها مفهوم الحروب الصليبية (Las Cruzadas) ؟ وقبل الإجابة على هذا التساؤل ينبغى أن نحدد مفهوم حركة الاسترداد ، إذ يرى فريق من المؤرخين أن هذه الحركة تعبر عن مقاومة الإيبيريين لأى قوات أجنبية غزت شبه الجزيرة الإيبيرية منذ الفينيقيين والإغريقيين والرومان والقوط الغربيين وحتى فتح المسلمين للأندلس(١) ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن المقصود بحركة الاسترداد تلك الحروب التى قام بها المسيحيون ضد المسلمين فى الأندلس واستمرت زهاء ثمانية قرون منذ الفتح الإسلامى عام ٧١١م / ٩٢هـ حتى سقوط آخر معاقل المسلمين فى غرناطة عام ١٤٩٢م / ٨٩٨هـ(٢) .

وبعبارة أخرى فإن أصحاب الرأى الأول يرون أن حركة الاسترداد تعنى مقاومة كل غازى شبه جزيرة إيبيريا ، فى حين يرى ، أصحاب الرأى الثانى إن المقصود بتك الحركة محاربة المسلمين بالذات وطردهم من شبه الجزيرة الإيبيرية . هذا مع ملاحظة أن حركة الاسترداد بالنسبة للممالك المسيحية الأسبانية هى فى الواقع حركة التوسع ، وجهتها أسباب مادية

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة سنة ١٩٥٩م ، ص ٣١٠ .

(2) Martin. J.L.La Peninsula en la Edad Media, Barcelona 1978, P. 229.

وسياسية أكثر منها روحية ، وكانت تستهدف قبل كل شيء مد ممتلكاتها وممالكها والاستيلاء على أرض دون أن يهتموا إذا كان ذلك على حساب المسلمين أو المسيحيين(١) وبعبارة أدق فإن حركة الاسترداد استهدفت تحقيق المكاسب والمغانم أكثر من استهدافها خدمة المسيحية وحمل لواء الجهاد ضد المسلمين.

أما نحن فنميل إلى الرأى القائل بأن مصطلح حركة الاسترداد يعنى الحروب التى دارت فى شبه الجزيرة الإيبيرية ضد المسلمين . ولا شك فى أن هذه الحركة وجهتها خلال قرنين من الزمان من منتصف القرن الحادى عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر بواعث جديدة جعلت منها حرباً صليبية بوصفها مواجهة بين المسيحيين الأسبان ومسلمى الأندلس . وبعبارة أخرى فإن الحروب الصليبية التى جرت فى شبه الجزيرة الإيبيرية لم تكن إلا إحدى حلقات حركة الاسترداد .

وجدير بالذكر أن الحروب الصليبية فى شبه الجزيرة الإيبيرية التى دارت منذ بداية النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى لها جذور ومقدمات ، ترجع إلى الصحوة التى بدأت فى غرب أوربا بزعامة البابوية عندما نادى البابا حنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨) بطرد المسلمين من الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط بدءاً بجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط وجنوب غرب فرنسا ثم من أسبانيا(٢) .

والواقع إنه لم يكن هناك اتصال بين الأسبان وبقية دول أوربا المسيحية قبل القرن الحادى عشر الميلادى فيما عدا الجزء المقابل لجبال البرانس

---

(1) Ibid.

(2) Lomax.D. W: La Reconquista, Barcelona 1984,p. 81.

والمعروف باسم (قطالونيا)(١) ، وذلك نتيجة للمصادمات المستمرة مع مسلمي الأندلس والتي كانت تستنفد كل قواهم وتهدد كيانهم مما حال بينهم وبين المساهمة في الأحداث الأوربية الكبرى(٢) ومع ذلك ، فإن الأحداث التي كانت تمر بها شبه الجزيرة الإيبيرية في أواخر القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر الميلادي(٣) شجعت الفرنجة على استئناف العلاقات مرة

---

(١) سبق للأسبان أن تلقوا بعض المساعدات من فرنسا في عهد شارلمان بعد أن استولى على بعض المدن في قطالونيا وعلى رأسها مدينة برشلونة ٨٠١م / ١٨٥هـ وأسس منهم ثغراً لحماية حدود فرنسا الجنوبية . وكان ملوك الفرنج يختارون حكام هذا الثغر وإمداده ، فأعلن حينئذ حكام الثغر استقلالهم وانقسموا إلى عدة إمارات وكونتيات صغيرة أهمها إمارة برشلونة (محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، القاهرة سنة ١٩٨٨م ، ص ٤٠٧ ، محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين في الأندلس ، الأسكندرية سنة ١٩٨١م ، ص ١٦٩) راجع أيضاً :

Antonio de la Torre: La Reconquista en el pirineo, La Reconquista Espanola Y, La Antigja. Media Y Moderna, Historia de Espana XI (sLd), pp. 239-241.

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، جـ١ ، القاهرة سنة ١٩٤٠م، ص ١٢٥ . ولم تنقطع هذه العلاقات تماماً وإنما تمثلت في زيارة قبر الراعي شانت ياقب (القديس يعقوب) وحضور الحجاج المسيحيين من أوربا لهذه الزيارة التي تحولت إلى ظاهرة دينية واقتصادية لها أهمية عظيمة مما دفع الملوك الأسبان إلى تكريم الحجاج وتمهيد طريق الحج لشانت ياقب (القديس يعقوب) .

Lacarra.J.M.La Repoblacion del camino de santiago,La Reconquista, Espanola Y La Repoblacion del pais, zaragoza 1951, pp. 223 - 224; Dufourcq Y Gautier, Historia Economica Y Social de la Espana cristiono en la Edad Media, Barcelona 1983, p.85.

كاسترو ، حضارة الإسلام في أسبانيا ، ترجمة وتعليق سليمان العطار القاهرة سنة ١٩٨٣، ص٦١-٦٧ .

(٣) تتمثل تلك الأحداث في ضعف الدولة الأموية في الأندلس وسقوطها عام ١٠٣١م / ٤٢٢هـ .

أخرى مع الممالك المسيحية الأسبانية ، وخاصة مع كونتية برشلونة ، ومملكتى أرجون Aragon ونافار Navarra . وتمثلت هذه العلاقات فى التبادل التجارى بينهما فضلاً عن المصاهرة وتوطيد أواصر الصداقة . ولما تعرضت هذه الممالك الأسبانية لغزوات المنصور ابن أبى عامر الذى ألحق بها عدة هزائم متكررة(١) اضطرت إلى طلب النجدة من الفرنج . وكان لسقوط الدولة الأموية فى الأندلس سنة ١٠٣١م / ٤٢٢هـ فى تلك الآونة وقيام ما يسمى بعصر ملوك الطوائف أثره فى تمزق وحدة مسلمى الأندلس ، مما أدى إلى ازدياد نفوذ الممالك المسيحية الأسبانية(٢) وهكذا كثر المترددون على شمال إيبريا وخاصة من فرنسا طمعاً فى غفران ذنوبهم والبحث عن الثروة والمجد والمغامرة(٣) . وإذا أضفنا إلى ذلك علاقات المصاهرة التى ربطت بين

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٢ ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢٦٤ - ٣٠١ ، وانظر : أيضاً المنصور وغزواته ، المقرى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ٣ ، القاهرة سنة ١٩٣٦م ، ص ٢٩٥ - ٣٤٩.

Mackay, A:La Espana de la Edad Media, Madrid 1985, P. 25.

وعلى سبيل المثال أدى هجوم المنصور ابن أبى عامر على برشلونة (٩٨٥م/٣٧٥هـ) إلى دفع كثير من الفرنسيين للحضور دفاعاً عن برشلونة ومساندة ريموند بوريل.

Defourneaux, M. Les Francias en Espagne aux XI et XII Siecles, Paris 1949, pp. 128-129.

(٢) وأحسن تصوير لتلك الحادثة ما أورده ابن الكرديوس " وعند ذلك انقطع اسم الخلافة من الجزيرة ودارت الدوائر المبيرة وفسد حال الرائس والمرؤس وارتفع كل خامل وخسيس وثار الثوار واشتعلت بكل مكان النار وظهر العدو غاية الظهور ولا سيما على الأطراف والثغور " تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق دكتور أحمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٧١م ، ص ٦٨.

(٣) وكان من بينهم بعض النبلاء الثانين (الابن الثانى) الذين يفتقرون إلى الممتلكات والسلطة حسب النظام الإقطاعى Marques, O: History of Portugal, vol 1, New York 1972, p. 34.

قطالونيا وجنوب فرنسـا أدركنا العوامل التـي شـجعت علـى وفـود كثير مـن الفرنسيين للعمل فى الممـالك المسيحية الأسـبانية وبخاصـة منـذ أوائـل القـرن الحادى عشر الميلادى .

أما عن علاقة البابوية فى روما بالممـالك المسـيحية الأسـبانية فـى شـبه الجزيرة الإيبيرية فلم تتوثق إلا قبيل منتصف القرن الحادى عشر الميـلادى[١] ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن الكنيسة الأسبانية ظلـت منـذ خضـوع شـبه الجزيرة الإيبيرية لحكم القبائل الجرمانية ثم بالفتح الإسـلامى (٧١١م /٩٢هـ) مستقلة عن البابوية ولا تعترف لها بالسيادة . ولكن عندما بدأت البابوية تسعى إلى القوة وزيـادة سلطتها وسـطوتها تحـت زعامـة بـابوات بـارزين ، اهتمـوا بإصلاح الكنسة وتأكيد نفوذها ، فأخذت تسعى لفرض نفوذها على كنائس شبه الجزيرة الإيبيرية . ولكـى تحقـق ذلـك اتبعـت ثلاثـة طـرق يـأتى فـى مقدمتهـا الاعتماد على الرهبان الكلونيين ليكونوا حلقة الوصل بين البابوية والأسـبان ، وهؤلاء انتشروا فى شرق أسبانيا المسيحية ثم انتشـروا فـى بقيـة أنحائهـا[٢] .

---

(1) Kehr,P.El Papado Y Los Reinos de Navarra Y Aragon,Estuddios dc Edad Media de la corna Aragon, Vol 2,Zaragoza 1946, pp. 77-78.

أشباخ ، جـ١ ، ص١٢٥.

(٢) ينتسب الرهبان الكلونيون إلى دير كلونى فـى برجندياً (فرنسـا) حيـث نهضـت منـه حركة الإصلاح الكلونية فى أوائل القرن العاشـر الميـلادى وقـد نـادت بالاسـتقلال عـن السلطات الدينية والدنيوية لتصبح المنظمة الديرية الكلونية تحت سيطرة البابـا مباشـرة ولها عديد من القوانين والأنظمة التى كان لها أكبر الأثر فى الغرب الأوربى . ولمزيـد من التفاصيل انظر :

Tout, T.E. The Empire and the papacy, London 1924, pp. 96-99.

وانظر كذلـك : سـعيد عاشـور ، أوربـا فـى العصـور الوسـطى ، جـ٢ ، القـاهرة سـنة ١٩٧٧م ، ص٢٤٢ – ٢٤٣ واتسع نشاط الرهبان الكلونيين فى شبه الجزيرة الإيبيريـة وأرسوا دعائم الأديرة الكلونية بها وعملوا على إذكاء الـروح الصليبيـة ضـد المسـلمين .

وثانيها سفارات البابوية إلى ملوك أسبانيا المسيحية لمطالبتهم بضرورة إلغاء الصلاة القوطية(١) ، وتعميم النظام الكاثوليكى(٢) وثالثها الدعوة لطرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية مستغلين تلك الروح التى انبعثت فى القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر فى أوربا لطرد المسلمين من مراكزهم الأوربية(٣) .

وكان البابا إسكندر الثانى (١٠٦١-١٠٧٣م) أول من دعا الأوربيين فى عام ١٠٦٣ - ٤٥٥هـ إلى نجدة إخوانهم المسيحيين فى مملكة أرجون ، وبناء على تلك الدعوة تشكلت حملة صليبية لمساندتهم(٤) .

- بإرشاد من البابوية وتحمسهم المستمر لقتال المسلمين ، ولمزيد من التفاصيل عن دورهم فى شبه الجزيرة انظر :

Bishko, c.j: The cluniac priories of Galicia and portugal, their acquisition and administration 1075-1239 studio Monastico, Abadia de Montserrat, 1965; Rivera Recio. J.E: Reconquista Y pobladores del antigua Reina de Toledo, Anales Toledanos, Toledo 1967,pp. 45-46.

(١) كان اعتماد البابوية قبل إرسال السفارات إلى ملوك أسبانيا على الرهبان الكلونيين الذين كان أول أهدافهم لدخول شبه الجزيرة الإيبيرية هو الدعوة إلى إلغاء نظام وطقوس الصلاة القوطية واستبدالها بالصلاة الرومانية .

Kehr, Op.Cit, p.84; Atkinson, A History of Spain and Portugal, London 1934,p.69.

(٢) كان القوط الغربيون فى شبه الجزيرة الإيبيرية قد اعتنقوا المسيحية على مذهب أريوس المخالف لمذهب روما (مذهب أثناسيوس) ولذلك مارست الكنيسة القوطية طقوساً تختلف عن طقوس روما لاختلافهما فى المذهب وظلت الكنيسة تطبق نظم القوط فى ظل الفتح الإسلامى.

(3) Chapman.C.:A History of Spain, New York 1931, p. 67.

(٤) كان البابوات مثل كل المسيحيين يعتقدون أن الحرب ضد المسلمين حرب عادلة لأن هؤلاء المسلمين اغتصبوا بالقوة الأراضى التى كانت من قبل ملكاً لمسيحيين وأسروا كثيراً من المسيحيين واستعبدوهم وسلبوا ممتلكاتهم ودمروهم . Lomax, Op. Cit,pp.81-82.

أما عن البواعث المباشرة لإعداد هذه الحملة الصليبية فهى الأحداث التى كانت تمر بها مملكة أرجون Aragon والتى تتلخص فى أن ملكها راميرو الأول غزا أراضى مملكة سرقسطة فاستنجد المقتدر بن هود بملك قشتالة فرديناند الأول (أخو راميرو) الذى أرسل إليه مدداً عسكرياً بقيادة ابنه سانشو . وكان أن التقى الجيشان فى معركة بجوار أسوار مدينة جراوس (Graus) (جرادوس Grados)(١) انهزم فيها الجيش الأرجونى ولقى الملك راميرو الأول مصرعه(٢) وخلف راميرو الأول على عرش أرجون ابنه سانشو راميرز Sancho Ramirez (١٠٦٣ - ١٠٩٤م) .

وقد تأثرت البابوية سريعاً بالأوضاع السيئة التى كانت تمر بها مملكة ارجون ، خاصة وأن ملكها راميرو الأول كان أول ملوك الممالك المسيحية الأسبانية الذين اعترفوا بالبابا وكنيسته . ذلك أنه عقد اجتماعا فى جاقة Jaca ١٠٦٠ م /٤٥٢هـ وقرر فيه :

أن يرسل إلى روما عشر ايراد دولته سواء من المال أو المحاصيل ، وعشر الجزية التى يحصل عليها من مسلمى سرقسطه وتطيلة (٣) وأن يلتزم

---

(١) مدينة صغيرة تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة بربشتر .

(2) Primera Cronica general de Espana, T2, Madrid 1955, p. 475; CF. also: Saurez, L.F, Historia de Espana,Edad Media,Madrid 1970,p.175; Lomax, Op.Cit,p.80.

(٣) تطيلة : هى أحدى مدن مملكة أرجون وتقع على وادى نهر أبرو(ابره) على بعد ٧٨ ك شمال غربى سرقسطه وكانت فى العهد الإسلامى من مدن الثغر الأعلى وقد بناها الأمير الحكم الربضى ، ثم تكرر استيلاء المسيحيين على هذه المدينة ولكن المسلمين كانوا يتمكنون من استردادها ثانية ولهذا لا نعرف بالضبط تاريخ سقوطها نهائياً فى يد الأسبان ، هامش ٣ ، ص٩٩ تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ، ولمزيد من

=

أبناؤه من بعده بذلك مع الوعد باستبدال طقوس الصلاة القوطية بالطقوس الرومانية(١). وهكذا أصبحت مملكة أرجون تتبع البابوية إقطاعياً ، مما جعل البابا إسكندر الثانى يقرر تقديم المساعدة لها،خاصة وإن البابا ومستشاريه رأوا أن أشبه الجزيرة الإيبيرية ميدان خصب للمواجهة بين المسيحية والإسلام ، ومن ثم دعم المحاربين الأسبان وحث الأوربيين على التطوع للدفاع عن الأراضى الأسبانية وطرد المسلمين منها . وكان لنشاط البابوية فى الدعوة لتجهيز هذه الحملة دوره فى إذكاء الروح الصليبية ضد مسلمى الأندلس .

وكان أن دعا البابا الأوروبيين لنجدة مملكة أرجون عقب مصرع راميرو الأول وأعلن أن كل من يشترك فى تلك الحملة الصليبية ضد المسلمين سوف يمنح الغفران(٢) وهناك جدل كبير حول الفئات التى اشتركت فى تلك الحملة ، وحول تسمية قائدها(٣) ، فالمؤرخ الأسبانى زوريتا Zurita يشير إلى أن بلدوين كونت فلاندورز (الوصى على فيليب الأول ملك فرنسا)

- التفاصيل الحميرى ، المصدر السابق ص ٦٤ ياقوت الحموى ، نفس المصدر جـ٢ ، ص ٣٣ .

(1) Zurita Op . Cit , PP . 68 -69 , Ballesteros , Op . Cit , Loc Cit .

وأن كان أشباخ برر تصرف راميرو هذا بتخوفه من أخيه فرديناند وأنه بوضع مملكته تحت حماية البابوية حمى استقلالها من عدوان قشتاله ، نفس المرجع، جـ، ص ١٩.

(2) Ledesma, R, Templarios Y Hospitalarios en el Reino de Aragon, Zaragoza 1982,PP. 27 - 28 .

(٣) الجدير بالذكر أن ابن حيان هو أول من أشار بالتفصيل لتلك الحملة وأوردها عنه ابن بسام الشنتريني فى الذخيرة وتبعه ابن عذارى وبعض المؤرخين المسلمين . أما معظم المصادر الأسبانية فقد تجاهلتها وأن كان ثورينا فى حولياته قد أشار إليها إشارة مقتضبة .

أول من استجاب لدعوة البابا إسكندر الثانى لنجدة مملكة أرجون بعد وفاة ملكها راميرو الأول ، ولكن ظروفاً قاهرة دفعته إلى العدول عن ذلك لمواجهة أحداث داخلية فى فرنسا(١) ، مما اضطر البابوية إلى الاستعانة فى تجهيز الحملة بإحدى الفرق الإيطالية من النورمان ، وعلى رأسها جالرمو دى مونترويل Guillermo de Montreuil (جيوم دى مونترى Guillaume Montreuil) حامل الراية البابوية وقائد جيوشها(٢) وقد توجهت تلك الفرقة إلى نورومنديا(٣) حيث انضمت إليها قوات النورمان(٤) الفرنسية بقيادة روبرت كرسبين Robert Crespin(٥) كما انضمت إليهما أيضًا قوات جى

---

(١) Zurita, Op.Cit, P. 72; CF. also : Ballesteros, Op. Cit, P. 443 .

(٢) هذه الفرقة كانت من النورمان القاطنين فى جنوب إيطاليا أما النورمان الذين انضموا من إقليم نورمنديا فكانوا بقيادة روبرت كرسبين .

David, P, Etudes Historiques sur la Galica et le Portugal du VI au XII Siecle, Paris 1947, P.371 .

أحمد مختار العبادى ، هوامش ص ٧٠ ، تاريخ الأندلس ، لابن الكرديوس .

(٣) إقليم نورمنديا يرجع اسمه إلى النورمان الذين سمح لهم ملك فرنسا شارل (البسيط) Charles Le Simple (٨٩٣ - ٩٢٣م) بالإقامة به وذلك بموجب إتفاقية سانت كلير ٩١١م ٢١٩ ، عبد الرحمن الحجى ، تاريخ الأندلس ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٣٦٠ ، سعيد عاشور : أوربا العصور ، جـ١ ص٢٣٣ _ ١٩٩١) .

(٤) أطلق عليهم كل من ابن حيان وابن عذارى ، اسم " الأردمانيين " ابن بسام الشنتريني، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة تحقيق دكتور إحسان عباس القسم الثالث من المجلد الأول ، بيروت ١٩٧٩ م ، ص ١٨١ ، ابن عذارى البيان جـ٣ ص ٢٢٥ ، أما الحميرى فاشار إليهم باسم " الرونمانون ط ، ص ٤٠ .

(٥) ومما يدل على أن تلك الحملة تجمعت فى نورمنديا وتوجهت إلى شبه الجزيرة أن المؤرخين المسلمين أشاروا صراحة إلى أن هذه الحملة خرجت من فرنسا فابن الكردبوس يقول " وخرج أيضاً من الأرض الكبيرة جيوش كثيرة " والأرض الكبيرة =

جيوفروى Gui Geoffroi كونت بواتيـه وبـوردو واكويتانيـا(١) بالإضافـة إلـى قوات أخرى متباينة(٢) .

وكذلك حـدث اختـلاف كبير بيـن المؤرخيـن حـول تسـمية قـائد الحملـة فأشار ابن حيان إلى أنها كانت بقيـادة قـائد خيـل رومـه ، وفـى إشـارة أخـرى يسميه ملك الروم(٣) ويقصد به قائد جيوش البابوية جالرمو دى مونتريل ؛ فى حين يسميه البكرى وابن عذارى وابن الكردبوس بالبيطيين (البيطين)(٤) بينمـا يسـميه الحـميرى البيطـش(٥) بينمـا يـرى آخـرون أن قـائد الحملـــة هــو جــى جيوفروى(٦) ، كونت بواتييه وبوردو واكويتانيا(٧) .

- تطلق على فرنسا، أما الحميرى فيقول " قد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعـدة أهل غاليش والروذمانون " وغاليش تطلق على فرنسـا والروذمـانون علـى النورمـان ، ابـن الكردبـوس ، نفس المصـدر ص٧١ الحلـل الموشـية ، الـدار البيضـاء ١٩٧٩م ، ص٧٦ الحميرى ، نفس المصدر ، ص٤٠ ، البكرى ، جغرافية الأندلس وأوربا تحقيق دكتور عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٨ ص ٩٢ - ٩٣ .

(1) Defourneaux, Op. Cit, P. 132; Ballesteros, Op. Cit , Loc. Cit; Suarez, Op. Cit., Loc. Cit; Pidal R.M. Espana del Cid, Buenos Aires 1939, P. 97 .

(2) Pidal, OP. Cit, Loc. Cit Ballesteros, Op. Cit, p. 443 .

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول ، ص ١٨٢ - ١٨٥ ، عنان ، دول الطوائف ، ص٢٧٤ .

(٤) البكرى ، نفس المصدر ، ص٩٣ ، ابن عذارى ، نفس المصـدر والجـزء ص ٢٢٥ ، ابن الكردبوس ، نفس المصدر ص ٦٩ .

(٥) الحميرى ، نفس المصدر ، ص ٤٠ . وقد أفرد أستاذنا الدكتور أحمد مختـار العبـادى فى تحقيقه لهذا الاسم دراسة مطولة فى هوامشه واستعرض أراء المؤرخين فى تفسـير هذا الاسم انظر ، هوامش ص ٦٩ ، ٧٠ فى ابن الكردبوس .

(6) Defourneaus, Op. Cit, p. 132; David, Op, Cit, P.370.

نورالدين حاطوم،تاريخ العصر الوسيط فىأوربا،جـ١، القاهرة سنة ١٩٦٧م، ص٨٢٥.

(7) Pioal, Op Cit, Loc, Cut; Lomax, On. Cit, P. 80.

والحقيقة أن جوى جيوفروى هو ابن جالرمو الثامن والذىاشترك هو جوى جيوفروى.

Defourneaux, Op. Cit, Loc. Cit; Suarez, Op. Cit, Loc. Cit.

وطالما أن هذه الفرق مجتمعة كان هدفها الرئيسي هو مساندة الملك سانشو راميرز في الدفاع عن مملكة أرجون فمن المقبول القول أنها عندما وصلت إلى مملكة أرجون صارت تحت قيادة ملكها سانشو راميزر(١) .

وتذهب المصادر الأندلسية في تقدير عدد الجيش الصليبي بنحو أربعين ألف فارس(٢) ومما لا شك فيه أن هذا العدد يضم الفرق الأوربية بالإضافة إلى قوات مملكة أرجون .

ومهما يكن الأمر فقد تجمعت الحملة الصليبية في نورمنديا ، ومنها تحركت إلى قطالونيا . وقد اختلف المؤرخون في خط سير الحملة ، فالبعض يقول أن الحملة اتخذت طريق البحر حتى وصلت إلى شواطيء قطالونيا ، بينما يرى البعض الآخر إنها اتخذت الطريق البرى عبر جبال البرانس(٣) ونؤيد هذا الرأى الأخير لأسباب منها ، أنه أثناء عبور الحملة انضم إليها عدد من سكان جبال البرانس وفرسان من شمال قطالونيا مثل خيرونا Gerona والعديد من المناطق ، فضلاً عن صعوبة تدبير سفن لنقل هذا العدد الكبير. ويؤيد ما ذهبنا إليه أن صاحب الحلل الموشية يذكر أن الصليبيين انتشروا على ثغور سرقسطة "واثخنوا وقتلوا وسبوا"(٤) في حين يذكر ابن عذارى أنهم

---

(١) لم تشر المصادر صراحة إلى اشتراك سانشو راميرز .

(٢) البكرى ، نفس المصدر ، ص ٩٤ ، الحلل الموشية ، ص ٧٦ ، الحميرى ، نفس المصدر ، ص ٤٠ وإن كان ابن عذارى قد أشار إلى أن عددهم عشرة آلاف ، نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) عنان ، دولة الطوائف ، ص ٢٧٥ .

(٤) الحلل الموشية ، ص ٧٦ .

توجهوا مباشرة إلى مدينة وشقة(١) فحاصروها أياماً ثم رحلوا عنها إلى مدن المسلمين بالثغر(٢) ويبدو أن هذا الرأى أقرب إلى منطق الأحداث حيث أن مدينة وشقة من المدن الهامة الكبيرة فى مملكة سرقسطة . وعندما تأكد الصليبيون من حصانتها وقوتها صعوبة الاستيلاء عليها ، قرروا مهاجمة مدن أخرى . وقد أشار المؤرخ بيدال Pidal صراحة إلى إنهم هاجموا مدينة لاردة Lerida(٣) ، فى حين يذكر ابن الكردبوس(٤) أن الحملة الصليبية وصلت إلى بلنسية(٥) ومنها إلى وادى

---

(١) مدينة وشقة يصفها الحميرى بقوله " مدينة بالأندلس لها سوران من حجر بينها وبين سرقسطة خمسون ميلاً ووشقة مدينة حسنة لها أسواق عامرة وصنائع قائمة وأحوازها تتصل بأحواز بريطانية ، ووشقة بشرقى مدينة تطليلة وهى مدينة كبيرة أولية قديمة ، رائعة البنيان " المصدر السابق ، ص ١٩٤ - ١٩٥ وتقع على مسافة ٧٣ كم شمال شرقى سرقسطة .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٣) لاردة : مدينة قديمة مرتفعة حصينة على وادى شقر Segre شرقى سرقسطة فى منتصف الطريق بينه وبين برشلونة وكانت القاعدة الثانية بعد سرقسطة فى منطقة الثغر الأعلى حينما استقل بنو هود بهذه المنطقة وكانت سرقسطة ولاردة من أهم المناطق التى تنازع عليها ملوك هذه الأسرة وسقطت لاردة فى أيدى المسيحيين نهائياً ٥٤٣هـ / ١١٤٨م عندما استولى عليها ريموند برنجتر الرابع ملك أرجون (ارجع الحميرى) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٨ ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، تحقيق أحمد مختار العبادى ، هامش ١ ، ص ٩٨ . Pidal, Op. Cit, Loc.Cit.

(٤) ابن الكردبوس ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٥) بلنسية : تقع فى شرق الأندلس بينها وبين البحر المتوسط ثلاثة أميال وهى قاعدة من قواعد الأندلس المشهورة ، وهى فى مستوى الأرض عامرة القطر كثيرة التجار بها أسواق وتجارات وحط وإقلاع وهى على نهر جار ينتفع بها ويسقى المزارع ولها عليه

-

الحجارة(١) وحققت انتصاراً على القوات الإسلامية . ونرى أن هذه الرواية فيها خلط كبير ومبالغة واضحة(٢) .

وجدير بالذكر أن رواية صاحب الحلل الموشية وما فعله الصليبيون فى منطقة ثغور سرقسطة تدل على أن هدف معظم المشتركين فى الحملة كان السلب والنهب والحصول على الغنائم . وعلى آية حال فقد وصلت الحملة إلى مدينة بربشتر Barbastro(٣) أول أغسطس سنة ١٠٦٧م /

- بساتين وجنات وعمارات متصلة "الإدريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، امستردام ١٩٦٩ ، ص ١٩١ ، الحميرى ، المصدر السابق ، ص ٤٧ – ٥٥ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ وحضارة الأندلس ، الأسكندرية سنة ١٩٨٥ ، ص ٨٩ – ٩٤ .

(١) وادى الحجارة Guadalajara فى شمال شرق مدريد وكانت تعرف أيضاً بمدينة الفرج ويشير إليها الحميرى بقوله " وهى مدينة تعرف بمدينة الفرج وهى بين الجوف والشرق من قرطبة وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً وهى مدينة كثيرة الأرزاق. جامعة لاشتات المنافع والغلات ولها أسوار حصينة " المصدر السابق ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) انظر : تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى لهذه الحادثة فى هوامشه لابن الكردبوس، ص ٧١ – ٧٢ .

(٣) بربشتر : مدينة حصينة على بعد ٦٠كم شمالى سرقسطة وتقع على أحد فروع نهر الأبرو Ebro ، بين مدينتى لاردة وسرقسطة عمودى الثغر الأعلى وهى الآن مدينة ومركزاً إدارياً فى مدينة وشقة " ابن الكردبوس، المصدر السابق ، هامش ٢٦ ، ص ٧٢. وقد أشار إليها الحميرى بقوله " هى مدينة من بلاد بربطانية بالأندلس وهى حصن على نهر مخرجه من عين قريبة منها . وبربشتر من أمهات مدن الثغر الفائقة فى الحصانة والامتناع " انظر : ٣٩ ، وقد ضبط ياقوت الحموى بربشتر " بضم الباء الثانية وسكون الشين المعجمة وفتح التاء المثناة من فوق .. " ولها حصون كثيرة منها

-

رمضان عام ٤٥٦هـ . وتتمتع هذه المدينة بموقع استراتيجى هام لوقوعها بين وشقة Huesca فى الشمال الغربى ولاردة Lerida فى الجنوب الشرقى ، وبذلك تتطابق مع المثلث الذى تقع فى طرفه مدينة سرقسطة ، مما جعل الصليبيين يهتمون بحصارها لاتخاذها قاعدة للوثوب على بقية المدن الإسلامية المجاورة التى تقع فى الطريق إلى سرقسطة ، وسلب ونهب القرى المجاورة لها(١) .

وقد أشارت المصادر إلى أن الحصار استمر أربعين يوماً تعرض المسلمون خلالها لأشد المحن . وأدى طول الحصار وأحكامه وقلة المؤن إلى سوء وضع المسلمين داخل المدينة مما أفقدهم توازنهم فكثر تشاحنهم وتنازعهم فيما بينهم بعضهم وبعض . وفى المقابل ضاعف الصليبيون جهودهم فأمطروا أسوار المدينة بقذائف المجانيق لأحداث ثلمات فى الأسوار تساعدهم على اقتحام المدينة حتى نجحوا فى مسعاهم فاقتحمت فرقة من الصليبيين مكونة من خمسة آلاف فارس المدينة . ورغم المقاومة العنيفة التى لقوها من مسلمى المدينة الذين استطاعوا قتل خمسمائة منهم ، إلا أن القوات الصليبية نجحت فى الاستيلاء على ظاهر المدينة مما دفع المسلمين إلى التحصن بالقصبة وقلب المدينة(٢) ولكن على الرغم من نجاح المسلمين فى

- حصن القصر وحصن الباكة ، وحصن قصر منيوش " معجم البلدان ، بيروت ، المجلد الأول ١٩٧٧ ، ص٣٧٠ ، شكيب إرسلان ، الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، جـ٢ ، بيروت ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(١) كانت مدينة بربشتر تمر بمشاكل ونزاعات وإهمال من سكانها . ويشير ابن حيان إلى ذلك ويهاجم سلوك وسوء تصرف المسلمين بداخلها (ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول ، ص ١٨١ ، المقرى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب م٤ بيروت سنة ١٩٦٨ ، ص ٤٥٣) .

(٢) ابن بسام،نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٢،عنان،نفس المرجع ، ص٤٧٥ .
Pidal, Op. Cit, pp. 97-98; Defourneaux, Op. Cit,PP. 134-135.

الدفاع عن قلب المدينة برغم ما تعرضوا له من قلة الأقوات وشدة المحن إلا أن قطع المياه عنهم كان الكارثة الكبرى . ذلك أن الحصن كان يزود بالمياه عن طريق قناة تحت الأرض متصلة بالنهر (إحدة فروع نهر ايرو) . وقد نجح الصليبيون عن طريق أحد الخونة(١) ، في معرفة مكان القناة فهدموها وألقوا فيها صخرة ضخمة ؛ مما أدى إلى انقطاع المياه عن المحاصرين الذين اشتد بهم العطش ، ولم يكن أمامهم إلا طلب الاستسلام على أن يؤمنهم الصليبيون في أنفسهم وأولادهم،وأن يخرجوا من المدينة دون أية أموال يصحبونها ، فوافق الصليبيون والأرجونيون على ذلك(٢)وفي رواية أخرى يذكر ابن عذارى أن الصليبيين وحلفائهم لم يوافقوا على هذا العرض واقتحموا المدينة عنوة(٣) والواقع أن الروايتين قريبتين إذ إنهم وافقوا على العرض ثم نقضوه بعد ذلك.

ويذكر ابن حيان في هذا الصدد أن الصليبيين نكثوا عهدهم مع المسلمين ، ونكلوا بهم ، وقتلوا كثيرًا من المسلمين ، ولم يتركوا إلا قائدهم ابن الطويل وقاضيهم ابن عيسى . ويقدر صاحب الحلل الموشية عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة بأربعين ألف ، غير ما سبوه من النساء والأطفال(٤) بينما يقدر ابن عذارى عدد النساء اللاتي تم سبيهن بمائة ألف(٥) ويرى الباحث أن هذا العدد مبالغ فيه إلى حد كبير وغير منطقي لأن المدينة لم يكن

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن بسام ، نفس المصدر والجزء، ص١٨٢ ، عنان: نفس المرجع ، ص٢٧٥-٢٧٦.
Pidal, Op. Cit; Defourneaux, Op. Cit, Loc Cit.

(٣) ابن عذارى ، نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٥ .

(٤) الحلل الموشية ، ص ٧٦ .

(٥) ابن عذارى ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

بها هذا العدد الكبير ، خاصة وأنه يحدد النساء فقط دون باقى سكان المدينة من أطفال وشيوخ وشباب . ولعل ما يؤكد هذه المبالغة الهائلة قول الحميرى فى إشارته إلى اقتحام الصليبيين بربشتر " غزاها على غر وقلة عدد من أهلها وعدة أهل غاليش والروذمانون "(١) ، مما يفهم منه أن عدد سكان المدينة كان قليلاً بالنسبة لعدد القوات الصليبية والأرجونية . وإذا كان ابن حيان يشير إلى أن عدد سكانها مئة ألف نسمة - فإن هذا أيضاً مبالغة . ومهما يكن الأمر فإن عدداً كبير من النساء قد هلك نتيجة لاندفاعهن على الماء للارتواء فأطبق عليهن العدو قتلا واستخدم معهن أساليب تتسم بالوحشية(٢) .

ويستفاد أيضاً من الرواية الإسلامية أنه بعد أن منح القائد الصليبى الأمان لسكان المدينة المسلمين ، (عادوأدرك) كثرة عددهم ، فخشى أن تتجمع هذه الأعداد مرة أخرى بعد مغادرتهم المدينة لمعاودة الهجوم واستخلاص مدينتهم. لذلك أعمل السيف فيهم وقتل منهم ما يقرب من ستة آلاف ، فتزاحموا على الأبواب طلباً للنجاة ، بل لقد فضل كثيرون الخروج عن طريق التدلى بالحبال من على الأسوار فراراً من سوء المصير. أما من بالقصبة وكانوا زهاء سبعمائة نسمة فمات عدد كبير منهم عطشاً(٣) وهناك فريق من أهل المدينة بقوا داخلها بعد أن ردوا من على الأبواب ، وهؤلاء أمرهم

---

(١) الحميرى ، نفس المصدر ، ص ٤٠ .

(٢) يصور ابن حيان ذلك الموقف بقوله " وبلغنى أنه كانت المرأة تطلع من فوق سور المدينة فتنادى من يدنو إليها من الكفرة عن جرعة ماء لنفسها أو لطفلها فيقول لها : هاتى ما معك ، ألقى إلى ما يرضينى أسقك ، فتلقى إليه ما عندها من كسوة أو حلية أو مال ، وتدلى نحوه ما حضرها من قربة أو آنية ، فتغيث به نفسها أو طفلها " ابن بسام، نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٣ .

(٣) ابن بسام ، نفس المصدر والجزء ص ١٨٣ - عنان ، نفس المرجع ، ص ٢٧٦ .

الصليبيون بالرجوع إلـى منـازلهم مـع أولادهـم حيث تعرضـوا لشتى أنـواع التنكيل والمهانة فضلاًعن هتك أعراض النساء هم وبناتهم أمام أعينهـم أمعانـاً فىتعذيب قلوبهم(١) .

ويواصـل ابـن حيـان روايتـه فيذكـر أنـه بعـد ثلاثـة أيـام مـن اسـتيلاء الصليبيين والأرجونيين على مدينة بربشتر طلب المتحصنون فى قمة القصبـة الأمـان والسـماح لهـم بـالخروج مـن جـراء العطـش ، فاسـتجاب الصليبيـون لندائهم ، فخرجوا من المدينة وتوجهوا إلى مدينة منتشـون Manzon(٢) أقـرب المدن الإسلامية إليهم . ولكن سرية من الأرجونيين صادفتهم . ولم تكـن هـذه السرية قد شاركت فى حصار وفتح بربشتر ولم يعلموا بالآتفاق بين الصليبيين ومسلمى المدينة ، فقتلوهم جملة ولم يستطع سوى القليل منهم الفرار(٣) .

---

(١) ويشير ابن حيان إلى ذلك بقوله " يعذبه أنواعاً من العذاب حتى يبلغ نفسه عذرها منه، فربما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح ، وربما انظره أجله إلى أسـوأ مـن ذلـك ، فإن عداة الله كانوا يومئذ يقومون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم وعلـى أعينهم إبلاغاً فى تعذيب قلوبهم يغشون الثيب ويفضون البكر وزوج تلك وأبو هذه موثق بقيد أساره ، ناظراً إلى سخنة عينه فعينه تدمع ونفسه تقطع ، ومن لم يرض ذلـك منهـم أن يفعله فى خادم أو ماهنة أو وخش أعطـاهن خولـه وغلمانـه يعبثـون بهـن عبثـه ، فبلـغ الكفرة فيهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقـة " ابـن بسـام نفـس المصـدر والجـزء ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) منتشون Manzon تقع فى الثغر الأعلى على مسـافة قصـيرة مـن بربشـتر وقـد أشـار إليها ياقوت الحموى بأنها حصن من حصون مدينة بربشتر ، ومملكـة الفرنـج ، معجـم البلدان ، المجلد الأول ص ٣٧٠ وكانت مركزاً من مراكز الداوية حيث منحهم ريمونـد برنجـتر هـذه القلعـة ١١٤٣م (انظـر محمـد النشـار ، نشـأة جمـاعتى الرهبـان الفرسـان الاسبتارية والداوية فى الممالك المسيحية الأسبانية والبرتغاليـة ودورهمـا فـى الصـراع الصليبى الإسلامى ؛ منشور بمجلة آداب طنطا) .

(٣) ابن بسام ، نفس المصدر والجزء ، ص١٨٥ .

وكان نصيب قائد الحملة الصليبية (قائد خيل رومة) عدة آلاف من بنات المسلمين الأبكار وعدد من الصبيان والغلمان(١) ويقدر ابن عذارى عدد بنات المسلمين الأبكار بأربعة آلاف يتراوح سنهن ما بين ثمانية وعشرة أعوام(٢) أما البكرى والحميرى فقد ذكرا أن عددهن خمسة آلاف من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن(٣) وإن كان ابن حيان قد أشار إلى أنهن قدمن هدايا إلى بعض زعماء العالم المسيحى ، وبخاصة صاحب القسطنطينية على قول البكرى وياقوت الحموى والحميرى . ولا نميل إلى الأخذ بهذه الرواية ، لأن فرقة روما كانت من النورمان المعادين للإمبراطورية البيزنطية(٤) .

وقد أفاضت المصادر الأندلسية فى وصف الأسلاب والمغانم التى استولى عليها الصليبيون والأرجونيون من أموال وأمتعة مما يجل وصفه ، وحدد ابن عذارى نصيب قائد الحملة بخمسمائة حمل(٥) .

وهكذا حققت الحملة الصليبية أهدافها باستيلائها على قاعدة بربشتر الإسلامية ، وغنمت وسلبت فحققت أهدافها السياسية والاقتصادية ، وعاد

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٣) البكرى ، نفس المصدر ، ص ٩٤ - ويشير ياقوت الحموى إلى أنهم سبعة آلاف ، معجم البلدان ، م١ ، ص ٣٧٠ .

Ballesteros, Op. Cit, P. 443.

(٤) كان العداء بين النورمان والبيزنطيين شديداً عندئذ حيث أقام النورمان بقيادة روبرت جويسكارد دولة جديدة مستقلة فى الممتلكات البيزنطية بجنوب إيطاليا وهددوا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الدولة البيزنطية من الداخل والخارج ، حسنين محمد ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة سنة ١٩٩٣م، ص١٧٧ .

Ballesteros, Op. Cit, Loc. Cit.

(٥) ابن عذارى ، نفس المصدر والجزء والصفحة. .Ballesteros,Op.Cit,Loc. Cit

أفرادها إلى بلادهم محملين بالثروات بعد أن تركوا حامية للدفاع عن المدينة ، حددها ابن حيان بألف وخمسمائة من الفرسان وألفين من المشاة(١) فى حين حددها ابن عذارى بألف فارس وأربعة آلاف راجل(٢) وتولى أرمنجول الثالث(٣) Ermengol III كونت أورخل(٤) De Urgel رئاسة الحامية وحكم المدينة بتفويض من الملك سانشو راميرز(٥) هذا وقد أفاض الشعراء والكتاب فى وصف ما ارتكبه الصليبيون من فظائع وأهوال ضد المسلمين فى تلك الحملة لدرجة أن ابن عذارى يشير فى صراحة إلى أنه " لم يكن للنصارى قبل هذه الفعلة مثلها فى بلاد المسلمين "(٦) .

---

(١) ابن بسام ، نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٦ .

(٢) ابن عذارى ، نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣) هذا وأن كان ابن الكردبوس قد أشار إلى أن قائد الحملة الذى يدعوه بالبيطين قد عاد إلى بلاده وترك ردمير فى تلك النواحى فاستوطن مدينة بربشتر ، (ابن الكردبوس، نفس المصدر ص ٧٢) والواقع أن هذا خلط كبير من ابن الكردبوس . وكما يشير الدكتور أحمد مختار العبادى فى هامشه ، فأن باسكوال جاينجوس يرى أن المقصود بردمير هنا هو راميرو الأول ملك أرجون وهذا غير صحيح لأن راميرو قتل كما أشرنا ١٠٦٣م ولعل المقصود ابنه سانشو راميرز ، هامش ٥ ، ص ٧٢ .

(٤) أشار المؤرخ توريتا Zurita صراحة إلى أن الذى تولى إدارة هذه المدينة هو أرمنجول الثالث والذى أطلق عليه .Armengol de Barbastro; Zurita, Op. Cit, p. 74

(٥) والمؤرخ بيدال أشار إلى أن سانشو قد عين أرمنجول حاكماً على المدينة وأعلن أرمنجول خضوعه للملك سانشو.Pidal, Op.Cit, P.99; Suarez Op.Cit,P.197

(٦) ابن عذارى ، نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٧ وقد نظم الفقيه الزاهد ابن العسال قصيدة كاملة منها :

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الصماء

هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاء

وكان لهذه الحملة الصليبية على بربشتر صدى عظيم الأثر. فبالنسبة للجانب الصليبي أحدثت رد فعل كبير وخاصة في أنحاء فرنسا إذ أن ما غنموه وحملوه معهم إلى منازلهم أثارت دهشة عظيمة في كل أنحاء فرنسا(١) وذلك على الرغم من أن مدينة بربشتر لم تكن ذات أهمية أو من المدن المشهورة بغناها وثرواتها في الأندلس - كما أشرنا - مما أدى إلى استنهاض روح المغامرة والبحث عن الثروة ، فاتجهت أنظارهم إلى الأندلس لقتال المسلمين وجمع الغنائم والثروات منها ، وأدى ذلك إلى تدفق المتطوعين الفرنسيين يلتحقون بجيوش الممالك النصرانية الأسبانية لقتال المسلمين وإحراز الغنائم مما ترك أثره في مستقبل الأحداث .

أما بالنسبة للأرجونيين فأن سقوط بربشتر التي كانت بمثابة قاعدة أمامية للدفاع عن سرقسطة شكل وخطوة كبرى أمام سانشو راميرز للاستيلاء على مدينة سرقسطة ذاتها ، خاصة وأن مملكة قشتالة كانت ترنو بنظرها

- جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كل يوم غارة شعواء
باتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتنا في حربهم جبناء
كم موضع غنموه لم يرحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوا من أمه ... فله إليها ضجة وبغاء
ولرب مولود أبوه مجدل ... فوق التراب وفرشه البيداء
وعزيز قوم صار في أيديهم ... فعليه بعد العزة استخذاء
لولا ذنوب المسلمين وإنهم ... ركبوا الكبائر ما لهن خفاء
ما كان ينصر للنصارى فارس ... أبداً عليهم فالذنوب الداء
فشرارهم لا يختفون بشرهم ... وصلاح منتحلي الصلاح رياء

انظر الحميري ، ص٤٠ .

(1) Lomax, Op. Cit, P. 80.

للاستيلاء عليها(١) . هذا فضلاً عن أن الأسبان أدركوا أهمية الاستعانة بالصليبيين وتشجيعهم على النزوح إلى مملكة أرجون .

أما بالنسبة للمسلمين فإن سقوط بربشتر وما صاحبه من أحداث ونكبات كان له صدى كبير في الأندلس؛ خاصة وأن مسلمي الأندلس لم يسرعوا إلى نجدتها. حقيقة أن مدينة بربشتر كانت تتبع يوسف المظفر أخو المقتدر بن هود، أي أنها تتبع دولة بني هود في شمال شرق الأندلس ، مما يلقي مسئولية الدفاع عنها على عاتق أسرة بني هود . ولكن وضع المقتدر بن هود عندئذ كان سيئاً ، حيث كان في خط المواجهة مع الممالك المسيحية الثلاث أرجون ونافار وقشتالة مما عرضه مراراً لهجماتهم(٢) ويبدو أنه خاف على مملكته إذا هو توجه إلى مدينة بربشتر أثناء حصارها ، وخشي أن ينتهز الملوك الأسبان الفرصة ويهاجمون قاعدة ملكة سرقسطة التي كانت مطمع الجميع . لذلك اعتمد على كفاية القوات التي بها وقدرتها على الدفاع عنها بجدارة، خاصة وأن المدينة كانت مشهورة بحصانتها وقوتها بدليل أن الصليبيين لم ينجحوا في الاستيلاء عليها ، إلا عن طريق الخيانة كما سبقت الإشارة – وربما رأى المقتدر أن الحملة الصليبية التي حاصرت مدينة بربشتر كثيرة العدد وأنه يصعب عليه مواجهتهم؛ وإن كان هناك رأى أورده المقري بأن

---

(١) كان فرديناند الأول ملك قشتالة وليون قد قام في عام ١٠٦٠م/٤٥٢هـ بالزحف على حدود مملكة سرقسطة الجنوبية والغربية واستولى على حصن غرماج وبعض حصون أخرى فاضطر المقتدر أن يدفع له الجزية . ثم حاول ابنه سانشو ملك قشتالة الذي تولى بعد وفاة أبيه ١٠٦٥ – في سنوات متقدمة (عام ١٠٦٧م) التدخل في شئونها وبعث قواته لمحاصرتها وتحصيل الجزية مما اضطر المقتدر إلى تقديم مقادير كبيرة من الهدايا كجزية.ابن عذارى،البيان ، جـ٣،ص٢٢٩،عنان،دول الطوائف ص٢٨٠ .

(٢) ابن عذارى،نفس المصدر والجزءوالصفحة،عنان،نفس المرجع،ص٢٧٩– ٢٨٠ .
Pidal, Op.Cit, PP. 195-196.

سبب عدم إسراع المقتدر بن هود لنجدة المدينة هو ميل أهلها إلى أخيه يوسف المظفر(١) على أية حال ، فإن المقتدر عندما علم بسقوط مدينة بربشتر ، وعلم بما وجهه إليه ملوك الطوائف في الأندلس من تهمة التقصير أخذ في الاستعداد لاسترداد المدينة .

والواقع أن مدينة بربشتر عانت كثيراً تحت حكم الصليبيين . ويصور ابن حيان هذه الحالة في رواية تتعلق بتاجر يهودى أراد دفع فدية لتحرير بعض الفتيات من الأسر ، ووصف القائد الذى لديه هؤلاء الفتيات والمنزل الذى كان من نصيبه بالثراء وكثرة ، الخدم لدرجة أنه عندما عرض عليه فداء هؤلاء الفتيات سخر منه لأنه لديه كل ما يشتهيه من الملابس والدنانير والدراهم والخز والديباج ..إلخ(٢) .

وأثناء الحكم الصليبى الأرجونى لمدينة بربشتر قاموا بشن حملات على القرى والقلاع الإسلامية القريبة بغرض السلب والنهب . وتألفت إحدى هذه الحملات من ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة(٣) بقيادة حاكم المدينة أرمنجول الثالث كونت أورخل ، غير أنها باءت بالفشل ولقى قائدها مصرعه(٤) .

أما المقتدر بن هود أمير سرقسطة فقد راسل أمراء الطوائف فى الأندلس يدعوهم للمشاركة فى تحرير المدينة فتجمع لديه عدد من

---

(١) " وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها والمتهم على أهلها لانحرافهم إلى أخيه " المقرى ، نفح الطيب ، م٤ ، ص٤٥٤ .

(٢) ابن بسام ، نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٨ .

Pidal, Op.Cit, P98; Ballesteros, Op.Cit, P. 443 .

(٣) يتضح من عدد أفراد هذه الحملة أن مدينة بربشتر بعد الاستيلاء عليها جذبت كثيراً من الصليبيين المغامرين والأرجونيين طلباً للثراء والاستيطان بها .

(4) Zurita, Op.Cit, P. 74; CF. also: Suarez, Op.Cit, P.197; Ballesteros, Op.Cit,LOc.Cit.

المتطوعين(١) واستجاب لدعوته أمير إشبيلية المعتمد بن عباد الذى أمده بنجدة مكونة من خمسمائة فارس . وفى جمادى الأول سنة ٤٥٧هـ (ربيع سنة ١٠٦٥م) توجهوا جميعاً بعد أن اكتملت استعدادات المقتدر إلى مدينة بربشتر وحاصروها ، فى حين تحصن الصليبيون داخلها . وكان أن نجح المسلمون فى إحداث ثغرة فى سور المدينة واقتحموها فعلاً ، ولكن الصليبيين خرجوا من الأبواب ونظموا قواتهم وهاجموا المسلمين . وكانت معركة حامية الوطيس انتصر فيها المسلمون ، وفر من الصليبيين من استطاع الفرار(٢) ، فى حين وقع الباقون ما بين أسير وقتيل . وقدر ابن حيان عدد القتلى من الصليبيين والأرجونيين بألف فارس وخمسمائة راجل ، فى حين قدرهم ابن عذارى بألف فارس وخمسة آلاف راجل ، بينما استشهد من المسلمين خمسون رجلاً فقط(٣) ويبدو أن الرواية الإسلامية تتصف بالمبالغة فى تقدير عدد القتلى والأسرى . من ذلك القول بأن المقتدر أرسل من أسرى الصليبيين والأرجونيين إلى سرقسطة خمسة آلاف ، فضلاً عن عدة وسلاح وأموال كثيرة . هذا مع العلم بأن حامية المدينة التى تركها الصليبيون لم تصل إلى تلك الأرقام . حقيقة أنها قد جذبت إليها أعداداً من الأرجونيين ولكن تبقى الأرقام مبالغاً فيها إلى حد ما . ومهما يكن من أمر ، فإن سقوط المدينة فى أيدى المسلمين فى ٨ جمادى الأول عام ٤٥٧هـ / إبريل سنة

---

(١) قدر ابن عذارى عدد المتطوعة بستة آلاف من الرماة العقارة ، نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٧ .

Ledesma, Op.Cit, P. 28.

(٢) استطاع بعض أفراد الحامية وخاصة من الفرنسيين الفرار من المدينة .

Ballesteros, Op. Cit, Loc. Cit.

(٣) ابن بسام نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن عذارى نفس المصدر والجزء والصفحة .

١٠٦٥م(١) كان نصراً كبيراً لابن هود، عزز من مكانته بين أمراء الأندلس وبرأ نفسه مما اتهم به من الإهمال والتقاعس عن نجدة المدينة(٢) .

أما عن البابوية فى تلك المرحلة ، فقد دأبت على الاتصال بملوك أسبانيا المسيحية . من ذلك سفارة البابوية إلى الملك سانشو راميرز ملك أرجون والتى ترأسها الكاردينال هو جو Hugo Candida سنة ١٠٦٥م . وقد استقبله الملك بحفاوة وتباحث معه فى كثير من الأمور الكنسية(٣) ولم تأت المصادر بمعلومات مؤكدة عن هذا اللقاء وإن كان هدفه الرئيسى محاولة إحلال الصلاة الرومانية بدلاً من الصلاة القوطية .

ومما لا شك فيه أن تعزيز العلاقات الرسمية بين أرجون والبابوية كان له دور كبير فى تقوية مملكة أرجون وتمكينها من الاستفادة من مساعدات البابوية لملكها فى قتاله ضد مسلمى الأندلس ولتأكيد هذه العلاقات وتعزيزها قرر الملك سانشو راميرز السفر إلى روما فى ربيع عام ١٠٦٨م / ٤٦٠هـ للحج(٤) وهناك أعلن خضوعه للكرسى البابوى ، وإن لم توجد معلومات

---

(١) اتفق معظم المؤرخين على شهر إبريل سنة ١٠٦٥م ;Pidal, Op.Cit,P.99
Defourneaux, Op.Cit,P.197. ولكن المؤرخ لوماكس وضعها ديسمبر سنة ١٠٦٥م .
LOmax, Op.Cit, P. 80 ووفقاً للرواية الإسلامية فإن جمادى الأول يقابل شهر إبريل .

(٢) انظر : تفاصيل استيلاء المقتدر على بربشتر ، ابن بسام ، نفس المصدر والجزء ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ابن عذارى نفس المصدر والجزء ص ٢٢٧ ، الحيرة نفس المصدر ص ٤١ ، الحلل الموشية ص ٧٦ ، المقرى نفس المصدر والجزء ص ٤٥٤ .
Zurita Op . Cit , P.74; Cf.also: Pidal, Op.Cit,Loc Cit;Defourneaux, Op. Cit, Loc.Cit, Suarez Op.Cit,Loc. Cit; Lomax, Op.Cit, Loc. Cit.

(3) Zurita Op . Cit , P.88; Cf.also: Kehr, Op.Cit, P.84-85;Lacarra, Op.Cit,P.352.
أشباخ ، نفس المرجع والجزء ، ص ١٢٦ .

(4) Kehr, Op.Cit,P.88; Lacarra, Op.Cit, P.294; Ledesma, Op.Cit, P.28.

مؤكدة عما تم فى لقائه بالبابا عندئذ . وأسفر هذا اللقاء كذلك عن الأعداد لحملة صليبية جديدة ، دعا إليها البابا إسكندر الثانى ضد مسلمى الأندلس بقيادة صهر الملك سانشو،الكونت أبلز الثانىدىروكى Ebles II de Roucy(١) وكانت فى نفس عام ١٠٦٨م(٢) .

ثم أرسل البابا إسكندر الثانى مبعوثه الكاردينال هوجو مرة أخرى إلى أرجون عام ١٠٧١م من أجل تقرير الصلاة الرومانية ، وبذلت أول محاولة لتحقيق ذلك . وفى نفس الوقت أكد سانشو راميرز تبعية مملكة أرجون للكرسى البابوى(٣) ولا شك فى أن هذه الاتصالات وما نجم عنها من دعم العلاقات بين البابوية وملكة أرجون كان لها أثرها ، إذ غدت هذه المملكة من أولى الممالك التى اعترفت بسلطان البابوية عليها ، وما تبع ذلك من مساندة البابوية لها بتشجيع الفرسان والجند الفرنسيين والإيطاليين على النزوح إلى إرجون للمشاركة فى قتال المسلمين وطردهم .

ثم كان أن تولى البابا جريجورى السابع العظيم منصب البابوية(٤) عام ١٠٧٣م / ٤٦٥هـ خلفاً لإسكندر الثانى ، فأخذ يخطط لإخضاع الممالك المسيحية الأسبانية تحت نفوذ البابوية ، فدعا الملوك إلى ضرورة العمل لطرد

---

(١) اشترك Ebles II de Roucy بعد سنوات قليلة فى القتال فى إيطاليا مع النورمان للدفاع عن البابا جريجورى السابع ضد الإمبراطور هنرى الرابع - .David, Op.Cit, P.376

(2) Lomax,Op.Cit, P.82.

(3) Zurita, Op. Cit, P. 77; CF. also: Kehr, Op.Cit,PP.93-94 .

(٤) يعتبر جريجورى العظيم الذى كان اسمه قبل توليه المنصب هيلد براند من أعظم البابوات الذين تولوا هذا المنصب ، وقد أخذ على عاتقه معالجة كل المشاكل الكنيسة وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين ولكنه عندما حاول أن يتمسك بتعيين الأساقفة وقع فى صدام مشهور مع الإمبراطورية بسبب تلك المسألة المعروفة باسم التقليد العلمانى . ولمزيد من التفاصيل عن أعماله وصراعه المشهور مع الإمبراطورية انظر: سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٣٣٤ - ٣٤٨ .

المسلمين ولذلك تعددت سفاراته إلى الممالك المسيحية الأسبانية ، وخاصة سانشو ملك أرجون ، كما أرسل الأسقف خيرالدو دى أوستيا Grialdo de Ostia والشماس ريموبولد Raimbaldo مبعوثين من قبله إلى أمراء جنوب فرنسا فى ٣٠ إبريل ١٠٧٣م / ٤٦٥هـ يحملون رسائل بابوية تدعو الفرنسيين إلى مساعدة الممالك المسيحية الأسبانية فى قتالها ضد مسلمى الأندلس(١) .

ويبدو أن ما أقدم عليه البابا جريجورى السابع كان مقدمة لحملة صليبية جديدة دعا إليها البابا نفسه،إذ أن الكونت أبلز الثانى Ebles II de Rouc تلقى إشارة من البابوية بضرورة التوجه لقتال المسلمين فى الأندلس ومشاركة ملك أرجون سانشو راميرز الذى وعد بأن كل الأراضى التى سوف يفتحها ستخضع للبابوية(٢) . وكانت ذكريات ما حققه الصليبيون فى بربشتر ما زالت عالقة بالأذهان عندما عبرت حملة Ebles جبال البرانس لغزو الأراضى الإسلامية وأعلن مرة أخرى نفسه تابعًا إقطاعياً للبابا ، واتجه إلى وادى نهر إبيرو (إبره)(٣) . ومع إننا لا نعلم نتيجة أو أحداث هذه الحملة إلا أننا نستطيع القول بأن المساعدات الفرنسية لم تنقطع عن مملكة أرجون وخاصة من برجنديا وشمبانى ونورمنديا .

وقد انشغل البابا جريجورى السابع بالصراع مع الإمبراطور هنرى الرابع حول مسألة التقليد العلمانى حتى هدأت الأمور بينهما إلى حين(٤) ،

---

(1) Kehr, Op.Cit,P.98; Pidal, Op.Cit,P. 158; David, Op.Cit, PP. 373-374; Rivera Recia, Op.Cit, P. 45; Defourneaux, Op.Cit, P. 138; Mackay, Op. Cit, P. 34.

(2) David, Op.Cit,P. 374; Kehr,Op.Cit,Loc.Cit, Pidal,Op.Cit,P. 159.

(3) David, Op. Cit, P. 379; Ballestores, Op.Cit,P. 443.

(٤) كان هنرى الرابع قد توجه إلى قلعة كانوسا طلباً لغفران البابا بعد أن تمرد عليه أتباعه وكان أن صعد الجبل وبقى ثلاثة أيام واقفاً على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى

-

وعندئذ اتجه جريجورى السابع إلى قضية أسبانيا من جديد فوجه فى ٢٨ يونيو ١٠٧٧م المحرم ٤٧٠هـ دعوة إلى الملوك والكونتات والأمراء فى أسبانيا لإعلان خضوعهم لسلطة البابا الكنسية طبقاً للتراث القديم منذ أيام القديس بطرس(١) ولكن بعضهم ماطل فى الاستجابة للبابوية .

على أن المساعدات العسكرية الفرنسية إنهالت على مملكة أرجون مما مكنها من الاستيلاء على بضعة مواقع من المسلمين (١٠٧٨ - ١٠٨٤)(٢).

وقد تم هذا النشاط العسكرى من جانب سانشو راميرز ضد المسلمين بمساعدة الفرق والمتطوعة الفرنسيين ، مما دفع حركة الاسترداد الأرجونية دفعاً كبيراً إلى الأمام . والواقع أن البابا جريجورى السابع أشعل الروح الصليبية لدى الأوربيين وخاصة الفرنسيين إلى حد كبير(٣) .

كذلك أخذ المغامرون الفرنسيون يتوجهون إلى مملكة قشتالة بعد أن استتب الأمر للملك ألفونسو السادس. وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه فى عام ١٠٧٨م / ٤٧١هـ قام هوجو كونت شالون Hugues de Chalon من البارونات البرجنديين الفرنسيين بحملة لمساعدة الملك ألفونسو السادس(٤) وهكذا غدت الجيوش الأسبانية لا تخلو من مغامرين فرنسيين شكلوا فرقاً من

- وجهه حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه على شرط التسليم للبابوية بكل ما تطلبه دون قيد (يناير ١٠٧٧م) ووافق هنرى على ذلك وسامحه البابا . لمزيد من التفاصيل انظر ، سعيد عاشور ، أوربا جـ١ ، ص٣٤٤ - ٣٤٥ .

(1) Pidal, Op. Cit, PP. 159-160.

(2) David, Op.Cit, P.383; Ballesteros, Op.Cit,P 444.

(3) Zurita, Op.Cit, PP.91-92; CF.also: Ballesteros, Op.Cit,Loc. Cit, Lomax, Op.Cit, P. 87.

أشباخ ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص٦٢ .

(4) Defourneaux, Op.Cit,P.141; David, Op.Cit,P.384.

المتطوعة . وعندما اتضح لألفونسو مدى مساندة الفرنسيين لـه فـى حروبـه قرر توثيق علاقته بفرنسا فتزوج من الملكة كونستانس البرجندية ١٠٨٠م(١) وهى التى كان لها دور كبير فـى جلب الكثير مـن الفرنسيين حتـى أن بـلاط ألفونسو السادس عج بهم ؛ وكان على رأسـهم الراهـب الكلونـى برنـارد الـذى أصبح سكرتير الملكة الجديدة . وكان له دور كبير مع الملكة فـى دعـم النفـوذ الفرنسى(٢) حتى أصبح بلاط ألفونسـو السـادس بلاطـاً فرنسـيا . وفـى الوقـت نفسه أولى البابا جريجورى السابع العلاقات مـع مملكـة قشـتالة - التـى تعتبـر كبرى الممالك الأسبانية(٣) عناية خاصة ، ولذلـك أرسـل إلـى ألفونسـو رسـالة خاصة مع المبعوث البـابوى هوجـو يلقبـه (بملـك أسـبانيا) موقعـة بتـاريخ ٧ يونيو ١٠٧٨م / ٤٧١هـ ويطالبه بتغيير الصـلاة القوطيـة بالرومانيـة(٤) وقـد بدأت الصلات تقوى بين الطرفين بعد قبـول ألفونسـو السـادس تعميـم الصـلاة الرومانية ، وعندئذ أرسل البابا جريجورى السابع ريكارد Ricardo رئيس دير سان فيكتور ليشرف على تعميم الصـلاة الرومانيـة(٥) وكـان أن توالـى نـزوح

---

(١) وهى ابنة روبرت دوق بورجونيا وحفيـدة ملـك فرنسـا روبـرت الثـانى (التقى) والتـى تزوجت أولاً من هوجو الثـانى Hugo II كونـت شـالون Chalon ولكـن ترملـت ، انظر: لمزيد من التفاصيل وعن دورها فى قشتالة .

Rodrigo,Op.Cit,P.245; Sandoval,F.P., Historia de los Reyes de Castilla Y de Leon, pampclona 1634,p.50; Florez, H,Memorias de las Reynas catholicas, T1,Madrid 1790,pp.170-180, CF.also: Reilly, B.F., The Kingdom of Leon-castilla under queen urraca, 1109-1126 Uni press 1982,p.20.

(2) Pidal,Op.Cit, PP. 168-169.

(٣) كما أشرنا من قبل إلى مبعوث جريجورى السابع فى عام ١٠٧٤م إلى كل ملـوك شبه الجزيرة الإيبيرية لطلب تعميم الصلات الرومانية .

(4) David, Op.Cit,P. 355.

(5) Cronicon de los Reyes Leoneses,C.L.R.T1, Valencia 1913, PP.227-229; Rodrigo, OP.Cit, PP.250-251; Cronica ddel obispa de ovieda don pelaya, C.R.A.L., Leon 1985, P. 179. CF. also: Pidal, Op.Cit, PP. 165-166.

الفرنسيين إلى بلاط الملك ألفونسو السادس الذى استعان بهم فى جيشه لمقاتلة المسلمين ، وشاركوا فى حروبه حتى تمكن من الاستيلاء على مدينة طليطلة عام ١٠٨٥م / ٤٧٨هـ مما شكل نقطة تحول خطيرة لصالح الممالك المسيحية الأسبانية . ذلك أن الروح الصليبية اتضحت فى أشد صورها بعد أن استسلم المسلمون بشروط منها حفظ مسجدهم . ولكن برنارد - الذى عين رئيساً لأساقفة طليطلة - انتهز فرصة غياب الملك وتعاون مع الملكة واقتحموا المسجد وحولوه إلى كنيسة ، مما أغضب ألفونسو السادس(١) .

وتشير إحدى المدونات الأسبانية إلى أنه عقب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة أرسل إلى البابا جريجورى السابع يخطره بما تم ، وبوضع المدينة تحت حماية روما وفرنسا(٢) ويعتبر هذا دليلاً على متانة الصلات بينه وبين البابوية،مما مكن البابوية من تنمية الروح الصليبيةضد مسلمىالأندلس .

ومن ناحية أخرى فإن سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس كان له أعمق الأثر فى نفوس مسلمى الأندلس ، فاستنجدوا بالمرابطين الذين لبوا النداء ، فخرج يوسف بن تاشفين أمير المسلمين المرابطى على رأس جيشه وعبر إلى الأندلس ، مما أفزع الملك ألفونسو السادس عندما بلغه خبر عبور المرابطين إلى الأندلس وهو يحاصر سرقسطة فى أواخر يوليو أو أوائل أغسطس ١٠٨٦م (جمادى الأول ٤٧٩هـ) وعندئذ ترك الملك حصار المدينة وبعث إلى سانشو راميرز يستنجد به(٣) ، كما أرسل إلى بقية ملوك

(1) Pidal, Op.Cit, P.211-214.

عنان ، دول الطوائف ، ص ١١٢ - ١١٦ .

(2) Primera cronica general de Espana, T2, Madrid 1955, P. 540.

(٣) ابن الكردبوس ، نفس المصدر ، ص ٩١ ، ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط ١٩٧٢ ، ص١٤٥-١٤٦، عنان دول الطوائف ص ٣٢١ - ٣٢٢.

Herculano, A, Historia de portugal,T1, Lisbau 1980, P. 239.

أسبانيا المسيحيين . ولم يكتف بذلك بل أرسل يستنجد بالفرنسيين . وبذلك تم حشد قوات عظيمة من جليقية وليون واشتوريس ومعهم الكونت ريموند برنجتر الثالث . وأشارت مدونتا القوط ولوزيتانيا إلى اشتراك الفرنسيين وحضور فرق عسكرية ، وخاصة من ولايات فرنسا الجنوبية ، جوين وبرجنديا وبروفانس(١) للاشتراك فى الصدام المنتظر . وكثير منهم حركتهم الأطماع وشهوة الغنائم التى يحصلون عليها من جراء مقاتله المسلمين . وكان أن دارت بين الطرفين موقعة الزلاقة(٢) فى أكتوبر سنة ١٠٨٦، وفيها حلت الهزيمة بالملك ألفونسو السادس . ويميل كثير من المؤرخين فى وصفهم لتلك المعركة إلى إدخالها ضمن دائرة الحروب الصليبية لأنها لم تكن فى حقيقة الأمر سياسية أو اقتصادية وإنما اصطبغت بصبغة دينية واضحة .

وكان لهذه الهزيمة أكبر الأثر على ألفونسو السادس الذى أرسل إلى العالم المسيحى فى أوربا وخاصة فرنسا يستنجد بهم ضد المرابطين ، ويشرح

---

(1) Cronica dos Godos, A pendice Brandoa, Cronica de conde D.Henriqu, Da. Tresa E Infante D.Alfonsa, Porto 1944,P.265; Chronican Lusitano, E.S., T14, Madrid 1905, P. 405; Davidd, Op.Cit,P. 384; Deourneaux, Op.Cit, P.143; Herculano, Op.Cit, PP. 268-269; Dozy,Historia de los Musulmanes Espanoles, TIV,Mdrid 1878, P.244.

عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٠٠ - أشياخ ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص١٤ .

(٢) انظر : تفاصيل موقعة الزلاقة فيما يلى : ابن بلقنين ، مذكرات الأمير عبد الله ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص١٠٤ - ١٠٦ ، المراكشى المعجب ، القاهرة سنة ١٩٦٣، ص١٩٢ ، الحلل الموشية ، ص ٥٢ - ٦٢ ، سحر عبد العزيز سالم ، التاريخ السياسى لمدينة بطليوس الإسلامية ، رسالة ماجستير آداب أسكندرية ١٩٨٤ ، ص٤٢٣-٤٧٤ .

Rodrigo, Op.Cit, PP. 259-260; Sandoval, Op.Cit,P.74; Cronicon del cerratense, C.L.R., T1,P.37 Anales Compostelanos, C.L.R. T1, P.41, CF.also: Rivero, Op.Cit,P.17; Makay,Op.Cit,PP.21-22.

لهم كيف أن القوى الإسلامية تحالفت ضده ، وأنه لا بد من تحالف القوى النصرانية . وقد بعث برسل وخطابات إلى الملوك والأمراء فيما وراء جبال البرانس يحذرهم من الخطر الداهم وأنه يدافع عنهم بقتاله ضد المسلمين ويشرح لهم خطورة التكتل الإسلامى عليهم(١) .

وكانت الاستجابة سريعة إذ تجهز جيش كبير فى جنوب فرنسا شمل عناصر الجيش من بورجنديا ونورمنديا وشامبانى وأكويتانيا وجاسكونى ولانجدوك وبروفانس ، ومعهم العديد من الأمراء والنبلاء(٢) ، وعبرت الحملة جبال البرانس للتوجه إلى مدينة طليطلة للدفاع عنها . ولكن حدث بعد دخولهم أراضى قطالونيا أن علم يوسف بن تاشفين بوفاة ولده فقرر الرجوع إلى المغرب(٣) . ولما علم ألفونسو السادس بذلك أرسل إلى قادة الحملة يشكرهم ويخبرهم برحيل المرابطين(٤) طالباً منهم العودة إلى بلادهم .

وكان أن أصيب الجميع بخيبة أمل عندما استغنى ألفونسو السادس عن خدماتهم فى مقاتلة المسلمين ، لأنهم كانوا يتطلعون إلى الغنائم والثروات(٥)

---

(1) Pidal, Op.Cit, PP. 239-240 .

(2) Brandao, Op.Cit,PP.20-21; Silva,Op.Cit,P.6; CF,also: Davidd, Op.Cit,PP.385-386; Defourneaux, Op.Cit,PP.143-144; Livernore, H. V, The Origins of spain and portugal, London 1971,P.391, Lomax, Op.Cit,PP.101-102.

عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣١ .

(٣) ابن الكردبوس ، نفس المصدر ، ص٩٥ ، الحلل الموشية ، ص ٦٦ ابن أبى زرع نفس المصدر ص ١٥٢.

(4) Sandoval, Op.Cit,Loc.Cit; CF.also· Pidal, Op.Cit,P.239.

(٥) يشير المؤرخ ساندوبال أنه عندما أرسل ألفونسو السادس يشكر الفرنسيين من أجل حضورهم وأن الخطر زال فكروا لماذا يعودون بدون أن يفعلوا شيئاً ضد المسلمين فى الأراضى القريبة من فرنسا .

Sanddoval, Op. Ct, Loc. Cit.

وكان أن اتجه كثيرون من رجال تلك الحملة إلى الملك سانشو راميرز الذى رأى الاستفادة منهم لتحقيق مشروعاته فى الاستيلاء على مدن تطيلة Tudela ووشقه وطرطوشة(١) تحقيقاً لامله الكبير فى الاستيلاء على مدينة سرقسطة ولكن الحملة فشلت فى الاستيلاء على تطيلة نتيجة لحصانتها وقوة حاميتها آنذاك ولذلك قرر رجال الحملة العودة إلى فرنسا ، وأن كان قد بقى بعض أفرادها للخدمة فى جيش سانشو راميرز(٢) .

أما الملك سانشو راميرز ملك أرجون فقد استطاع الاستيلاء على قلعة منتشون Manzon ١٠٨٩ (٤٨١ / ٤٨٢هـ) ثم سار لحصار مدينة وشقة أمنع قواعد مملكة سرقسطة الشمالية ، وحاصرها ولكنها صمدت لحصاره واخيراً توفى سانشو راميرز فجأة فى يونيه ١٠٩٤م / جمادى الأول ٤٨٧هـ(٣) - فخلفه ابنه بدرو الأول الذى سار على سياسته . ومن الملاحظ أن سانشو حقق ما حققه من مكاسب بعون الفرنسيين الذين غدوا جزءاً من

---

(١) طرطوشة Tortosa تقع فى شمال شرقى أسبانيا بالقرب من ساحل البحر المتوسط عند مصب نهر أبرو (أبره) وعلى بعد ٨٤ كم جنوبى مدينة طركونة التى تعتبر طرطوشة من أعمالها . وفى العصر الإسلامى اشتهرت بدار صناعتها الضخمة التى بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٣٣هـ / ٩٤٥م وكذلك مسجدها الجامع الذى أمر الناصر ببنائه سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م ، وكانت تتبع مملكة بنى هود فى سرقسطة ، هامش ١ ، ص١٠٠ ، ابن الكردبوس ولمزيد من التفاصيل انظر الحميرى ، المصدر السابق ، ص١٢٤ .

(2) Galvao, D,Chronica del Rej D.Alfonso Henriques,Lisboa 1906,P.41; CF.also: Peres, D, Como nasceu Portugal, Parta 1931; Livermore,H,A new history of portugal, cambridge, 1976,P.42; Defourneaux,OP.Cit., P.144; Peilly,Kingdom of Leon-cartilla under Alfonso.., P.191.

(3) Cronica de la corona de Aragon,PP.9-10; Zurita,Op.Cit.,PP.100-101; CF.also: Kehr,Op Cit,P.120.

جيشه وقد أشار ثوريتا Zurita بأن هذا الملك مهد الطريق لخلفائه حتى ينجزوا الأعمال التى بدأها ، وأهمها الاستيلاء على المدن الإسلامية(١) وتوطيد العلاقات والارتباطات بين مملكة أرجون والفرنسيين .

أما ألفونسو السادس ملك قشتالة فإنه وثق علاقاته بفرنسا ؛ وبالإضافة إلى زواجه من الملكة كونستانس البورجونية فإنه زوج ابنتيه الأولى دونيا أوراكا وهى الابنة الشرعية من ريموند البورجونى ١٠٩٣م / ٤٨٦هـ والثانية - وهى الابنة تريزا غير الشرعية بهنرى البورجونى ١٠٩٤م / ٤٨٧هـ واعتمد عليهما فى قيادة الجيوش ومنحهما كونتيتى جليقية والبرتغال ، وبذلك تم تأسيس الأسرتين الحاكمتين فى قشتالة والبرتغال(٢) .

وجدير بالذكر أنه عندما دعا البابا أوربان الثانى ١٠٨٨- ١٠٩٩م فى مؤتمر كليرمونت ١٠٩٥م للحروب الصليبية فى الشرق فإنه أصدر فى الوقت نفسه مرسوماً يحرم على الأسبان الاشتراك فى الحروب الصليبية فى الشرق، وأرسل إليهم رسالة ينصحهم بالبقاء فى ديارهم لمواصلة الكفاح ضد المسلمين، وتتابعت أوامره بذلك(٣) . وعلى الرغم من ذلك فإن برنارد رئيس أساقفة طليطلة جمع فرقة من الجنود واتجه بها إلى الشرق ، ولكنه عندما مر وهو فى طريقه بروما ، منعه البابا وأمره بالعودة فوراً ، وأصدر مرسوماً

---

(1) Zurita, Op. Cit, P. 74 CF.also: Ballesteros, Op.Cit,Loc. Cit .

(٢) انظر : محمد النشار ، نفس المرجع ، ص٢٢ - ٤٤ .

(3) Beiroa, C, Historia breve de portugal, Lisbao (sLd), P. 8.

أشباخ ، نفس المرجع والجزء ، ص ١٣١ - عبد القادر اليوسف ، نفس المرجع ، ص ٤٨ - عنان ، دول الطوائف ، ص٤٢ .

جديداً يحرم فيه على رجال الدين والفرسان الأسبان المساهمة فى الحروب الصليبية فى الشرق(١) .

ويوضح هذا أن البابوية أدركت تماماً أن الحروب الصليبية فى شبه الجزيرة الإيبيرية لا تقل أهمية عن نظيرتها فى الشرق ، وإنها تدور على أرض أوربية مسيحية استولى عليها المسلمون .

* * *

وبعد ، فإنه يستفاد من هذا البحث أن فكرة الحروب الصليبية نبتت فى بداية الأمر فى شبه الجزيرة الإيبيرية متمثلة فى المواجهة بين المسيحيين الأسبان ومعاونيهم من الجنود الفرنسيين من جهة وبين مسلمى الأندلس ومعاونيهم من المرابطين من جهة أخرى . وهكذا فإنها كانت بداية ومقدمة للحروب الصليبية فى الشرق .

---

(1) Herculana, Op.Cit,T1,P.279; Lafuente,M.Historia general de Espana, T1,Barcelona.

أشباخ ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص١٣١ - ١٣٢.

قائمة المصادر والمراجع

بيان بالمختصرات الوارد ذكرها فى الحواشى :

C.R.A.L.	Cronicas de los Reinos de Asturias Y Leon.
Mon. Lus	Monarquia Lusitana.
C.L.R.	Las Cronicas Latinas de la Reconquista.
E.S.	Espana Sagrada.

أولاً المصادر الأجنبية :

- Basta: A.M:
  Cronica de cinco Reis de portugal. Vol.1,Porto (s/d).
- Brandao, A. :
  Monarquia Lusitana. Parte 3,Lisfoa 1973.
- Carlos: Principe de Viana:
  Croncia de los Reyes de Navarra. Pamplona 1843.
- Chronicon Lusitano:
  Espana Sagrada, T14, Preparar por Henrique Florez, Madrid 1905
- Cronica dos Godos.
  A Pendice Brandao, Cronica de conde D.Henrique, D.Teresa E.infante D. Alfonso, Porto 1944.
- Croncia de la corona de Aragon.
  Ano 1919.
- Cronica del obispo de oviedo Don pelayo.
  Cronicas de los Reions de Asturias Y Leon, Leon 1985.
- Cronicon de cerratense.
  Las cronicas Latinas de la Reconquista, T1,Valencia 1913.
- Cronicon de los Reyes Leoneses.
  C.L.R. T.T1, Valencia 1913.
- Duarte yunes, de Leao.
  Croncia dos Reis de portugal. Porto 1975.

- Florez,H:
Memorias de los Reynas catholica.T1, Madridd 1790.
- Galvao, D:
Chronica del Rej D Alfonso Henriques. Lisboa 1906.
- Primera Cronica general de Espana.
Publicado por Ramos Menendez pidal,Madrid 1955.
- Rodrigo, Jimenes de Rada:
Historia de los hechos de Espana, Madrid 1982.
- Sabddoval,F.P.:
Historia de los Reyes de castilla Y de Leon. Pamplona 1634.
- Siva. G.T. :
Cronicas dos sete primeiros Reis de portugal. Vol.1,Lisboa 1952.
- Textos Y Documentos de Historia Antigua, Media Y Hoderna.
Historia de Espana XI,(s/d).
- Zurita,J:
Anales de la corona de Aragon.T1, zaragoza 1976.

ثانياً : المصادر العربية :

ابن الأبار : (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى.

- " الحلة السيراء " الجزأن تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، الأول القاهرة سنة ١٩٦٣م والثانى سنة ١٩٨٥م .

ابن أبى زرع : (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) أبو الحسن على بن عبد الله

- " الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس الرباط سنة ١٩٧٢.

ابن الأثير : (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) عز الدين أبو الحسن على بن محمد.

- الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً ، بيروت سنة ١٩٧٩م .

ابن بسام : (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) أبو الحسن على الشنتريني .
- " الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة " ، المجلد الأول ، القسم الثالث تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩م .
ابن بلقين : (ت ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م) الأمير عبدالله الزيرى .
- " مذكرات الأمير عبد الله المسماه بكتاب التبيين " نشر وتحقيق ليفى بروفنسال القاهرة سنة ١٩٥٥م .
ابن عذارى : (٧١٢هـ / ١٣١٢م) أبو عبد الله محمد المراكشى
- " البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب " جـ٢ ، بيروت سنة ١٩٨٣م ، جـ٣ بيروت سنة ١٩٨٠ ، جـ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت سنة ١٩٨٠م .
ابن الكردبوس : (عاش فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس .
- " تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط " تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٧١م .
أبى عبيد البكرى : (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) عبيد الله الأندلسى
- " جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك " تحقيق دكتور عبد الرحمن الحجى ، بيروت سنة ١٩٦٨م .
الادريسى : (ت ٦٥٠ هـ/١٢٥٥م) الشريف محمد بن عبد العزيز
- " صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ووصف افريقية وأسبانيا " تحقيق دوزى ، امستردام ١٩٦٩ م .
الحميرى : (عاش فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى) أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم .
- " صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار " تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ م .

عبدالواحد المراكشي:(ت٦٦٩هـ/١٢٧١م)محى الدين عبدالواحد بن على
- " المعجب فى تلخيص أخبار المغرب " تحقيق سهيل زكار الدار البيضاء سنة ١٩٧٩م .

المقرى : (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى
- " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " جـ٣ ، القاهرة سنة ١٩٣٦م، جـ٤ ، القاهرة سنة ١٩٦٨م .

مؤلف مجهول :
- " الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية " الدار البيضاء سنة ١٩٧٩م .

ياقوت الحموى : (ت ٦٣٦هـ / ١٢٢٩م) شهاب الدين الرومى
- " معجم البلدان " المجلد الأول ، بيروت سنة ١٩٧٧م .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- Antuno de la Torre:

  La Reconquista en el pirineo, "La Reconquista Espanola Y la Repoblacion del pais. " Zaragoza 1951.
- Atkinson, W.C:

  A History of spain and portugal, London 1960.
- Ballesteros Y Beretta:

  Historia de Espanan Y su influencia en la Historia universa, T2, Barcelona 1944.
- Beirao; caetano:

  Historia breve de portugal, Lisboa (s/d).
- Bishko; C.J.:

  The cluniac priories of Galicia and portugal Their Acquistion and Administration 1975-1230, Studia Monastica, Abadia de Montserrat 1965.

- Chapman; L.A. :

A History of spain, New York 1931.

- David,P.:

Etudes Historques sur la Galica et le portugal du BI au XII seicle, Paris 1947.

- Defourneaux,M.:

Les Francias en Espagne aux XII siecles, Pais 1949.

- Dozy:

Los Musulmanes Espanoles, T4Madrid 1867.

- Dufourcq Y Gautire:

Historia Economicay social de la Espana cristiana en la Eded Media,Barcelona, 1983.

- Kehr,P.:

El papado Y los Reinos de Navarra Y Aragon, Estudios de Eddad Media de la corona de Aragon, Vol.2,Zaragoza 1946.

- Lacarra; J.M.:

1 - Historia Politica del Reino de Navarra, Vol.3, Editorial Aranzodi 1979.

2 - La Repoblacion del camino de santiago, La Reconquista Espanola Y La Replacion del pais. Zaragoza 1951.

- Lafuente, M.:

Historia general de Espana. T1, Barcelona 1879.

- Ledesma, R.:

Templarios Y Hospitalarios en el Reino de Aragon, Zaragoza 1982.

- Livermore:

1 - The Origins of spain and portugal,London 1971.

2 - A new History of portugal, Cambridge 1976.

- Lomax; D.W.:

La Reconquista. Barcelona 1984.

- Macky,A.:

Spain in the Middle Ages. New York 1977.

- Marques,O.:

History of portugal. Vol.1,New York 1972.

- Martin,J.L.

La peninsula en la Edad Meddia,Barcelona 1978.

- Navarrete; M.F.:

Espanoles en los cruzados. Madrid 1986.

- Payne;S.G.:

A History of spain and portugal. Wisconsin press, 1943.

- Peres, D.:

Como nasceu portugal. Porto 1931.

- Pidal;R.M.:

Espana del cid. Buenos Aires 1939.

- Reilly; B.F.:

1 - The Kingdom Leon-castilla under king Alfonsa VI,1065-1109, London, (n/d).

2 - The kingdom of Leon-castilla under queen uraraca 1109-1126 princeton university press 1982.

- Rivera Recia,J.F.:

Reconquista Y pobladores del antigup Reino de Toledo, AnulesToledonos, Toledo 1967.

- Suarez;L.F.:

Historia de Espana. Edad Media,Madrid 1970.

- Tout;T.F.:

The Empire and the papacy 918-1273. London 1924.

رابعاً : المراجع العربية والمترجمة :

أشباخ يوسف :

- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، جـ١ ، القاهرة سنة ١٩٤٠ ، جـ٢ ، القاهرة سنة ١٩٤١ .

باركر

- الحروب الصليبية

ترجمة السيد الباز العرينى ، القاهرة سنة ١٩٦٠م .

جوزيف نسيم يوسف أ. دكتور :

- العرب والروم واللاتين ، القاهرة سنة ١٩٨١م .

حسنين محمد ربيع أ. دكتور:

- دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة سنة ١٩٩٣م .

حسين مؤنس أ. دكتور :

- فجر الأندلس - القاهرة سنة ١٩٥٩م

رنسيمان :

- تاريخ الحروب الصليبية ، جـ١ ، بيروت سنة ١٩٦٩م

سحر السيد عبد العزيز سالم دكتور :

- التاريخ السياسى لمدينة بطليوس الإسلامية منذ تأسيسها سنة ٢٦١هـ (٨٧٤م) حتى سقوطها فى أيدى الليونيين ٦٢٧هـ/١٢٣٠م رسالة ماجستير بآداب الأسكندرية سنة ١٩٨٤ وتم نشرها .

سعيد عبد الفتاح عاشور أ. دكتور :

- أوربا فى العصور الوسطى - جزءان القاهرة سنة ١٩٧٧م .
- الحركة الصليبية ، جـ١ القاهرة سنة ١٩٧٨م .

السيد عبد العزيز سالم أ. دكتور :

- فى تاريخ وحضارة الأندلس ، الأسكندرية سنة ١٩٨٥م

شكيب إرسلان :

- الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية جـ٢ بيروت سنة طبع

عبد الرحمن الحجى أ. دكتور :

- التاريخ الأندلسى ، القاهرة سنة ١٩٨٣م .

كاسترو أمريكو :

- حضارة الإسلام فى أسبانيا ، ترجمة وتعليق دكتور سليمان العطار لقاهرة سنة ١٩٨٣م .

محمد عبد الله عنان : أ.

- دول الطوائف ، القاهرة سنة ١٩٨٨م .

محمد محمد مرسى الشيخ أ. دكتور :

- دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين فى الأندلس الأسكندرية سنة ١٩٨١م.

محمد محمود أحمد النشار دكتور :

- السياسة الخارجية لألفونسو هنريكز ملك البرتغال سنة ١١٢٨ - ١١٨٥م رسالة دكتوراة جامعة طنطا سنة ١٩٩٢م لم تنشر بعد .

نور الدين حاطوم أ. دكتور :

- تاريخ العصر الوسيط ، جـ١ ، القاهرة سنة ١٩٦٧ .

الحركة الصليبية والغرب الإسلامى في القرن الحادى عشر للميلاد (دور البابوية)

أ .د. رجب محمد عبد الحليم(*)

ارتبط ذكر الحروب الصليبية فى التاريخ بالصراع الذى اندلع على أرض الشام بين المسلمين وبين الجيوش التى وفدت من غرب أوربا فى عام ١٠٩٧ استجابة للدعوة التى أطلقها البابا أوربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت قبل ذلك بعامين ، بهدف إنقاذ الأرض والمقدسات المسيحية فى فلسطين من أيدى المسلمين الذين أساءوا إلى الحجاج الأوربيين ، ومنعوهم أو ضيقوا عليهم فى رحلاتهم للحج ، حسبما زعم بعضهم فى ذلك العصر . والحقيقة أن هذا الفهم ليس صحيحاً من الناحية التاريخية ، سواء من حيث الزمان أو المكان أو العلل والأسباب . فمن ناحية الزمان بدأت الحروب الصليبية قبل ذلك بأكثر من قرن من الزمان ، ومن ناحية المكان لم تكن بلاد الشام هى الميدان الأول الذى اندلعت فيه هذه الحروب ، ومن ناحية العلل أو الأسباب لم يقطع المسلمون طريق الحج إلى الأراضى المقدسة على الحجاج المسيحيين ولم يضيقوا عليهم فى الأماكن المقدسة . وكان هذا هو نفس الوضع بالنسبة للغرب الإسلامى الذى يضم عدداً هاماً من أماكن الزيارة الدينية المسيحية المقدسة . والواقع إن هناك من العلل والأسباب الكامنة وراء كل قوة من القوى التى شاركت أو ساهمت فى الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ما

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة

هو جدير بالدراسة والتحليل . وبعبارة أخرى فإن الحروب الصليبية أول ما قامت لم تبدأ فى عام ١٠٩٧ ولا على مسرح بلاد الشام التى استهدفتها حملات صليبية متتالية منذ ذلك العام واستمرت طوال قرنين من الزمان ، وإنما بدأت قبل ذلك بعشرات السنين على أرض أخرى ومسرح آخر ، بعيدا تماما عن بلاد الشام ، ويلتصق التصاقا مباشراً بالغرب الأوربى . وهذا المسرح كان أرضا أوربية تتمثل فى بلاد الأندلس وصقلية والجزر الأخرى ثم اتسع المسرح بعد ذلك ليشمل أنحاء أخرى فى حوض البحر المتوسط (١) .

وبطبيعة الحال فإن الوجود الإسلامى على أرض الأندلس كان جديراً بشد مشاعر الأوربيين إليه أكثر من أى مسرح آخر ، وكان قمينا باسترعاء انتباه البابوية وملوك غرب أوربا أكثر من أى مكان آخر ، نظراً لإحساسهم بأن هناك خطراً على أرض أوربية يهددهم مما استثار مشاعرهم لاسترداد هذد الأرض القريبة من قلب العالم الكاثوليكى فى غرب أوربا . وبدافع هذه الأحاسيس اتجه المسيحيون فى غرب أوربا وعلى رأسهم البابوية نحو العمل لطرد المسلمين من الأراضى والجزر التى احتلوها وسادوها ، مما أدى إلى حرب صليبية مبكرة فى غرب أوربا ضد المسلمين ، أعنى فى شبة جزيرة إيبريا وجزر البحر المتوسط . ولم تتوقف هذه الحروب بطرد آخر البقايا الإسلامية من الأندلس فى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد ، وإنما استمرت ذيولها عدة قرون بعد ذلك فى شمال أفريقيا وغرب حوض البحر المتوسط .

وعلى ذلك فالحروب الصليبية فى الغرب الإسلامى تمثل الصفحة الأولى فى تاريخ الحروب الصليبية وكان حرياً أن تلقى هذه الصفحة مزيداً

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت سنة ١٩٦٦ حـ١٠ ص٢٧٢ ، ٢٧٤ .

من العناية والاهتمام حتى يمكن تفسير موقف الغرب الأوربى من العالم الإسلامى تفسيراً تاريخياً صحيحاً وسليما . وفى دراستنا لهذه الصفحة - أعنى بداية الحروب الصليبية فى الغرب الإسلامى - تواجهنا عدة تساؤلات :

ما هى القوى الأوربية التى شاركت أو ساهمت فى هذه الحروب فى الغرب الإسلامى ؟ وما ذا كانت دوافعها؟ وكيف أضفت الصفة الصليبية على هذه الحروب؟ وكيف كانت هذه الحروب تجربة استفاد منها الغرب المسيحى فى شن حرب صليبية جديدة فى ميدان آخر هو بلاد الشام ؟ أما القوى الأوربية الفاعلة فى الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الغرب الإسلامى فإنها تتمثل فى أربع ، أولها : البابوية ، وثانيها : الكنائس والأديرة المحلية ، وثالثها : ملوك أوربا الغربية وأمراؤها وشعوبها ، ورابعها : القوى البحرية الأوربية التى تتمثل فى المدن البحرية الإيطالية . ويهمنا فى هذا البحث من هذه القوى الأربع ، البابوية .

وإذا اعتبرنا البابوية أولى القوى المؤثرة فى الحركة الصليبية وفى تحريك الحروب ضد المسلمين فى الغرب الإسلامى ، فإن مرجع ذلك إلى مجموعة من الظروف السياسية والدينية التى مرت بها البابوية فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وأدت إلى ازدياد نفوذها وسلطتها الدينية الزمنية ، وخاصة فى عصر البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ -١٠٨٥م) أعظم بابوات العصور الوسطى . وترتبط هذه الظروف بحركة إصلاح قوية فى الكنيسة تعرف باسم حركة الإصلاح الكلونية ، وهى حركة قامت فى النصف الأول من القرن العاشر للميلاد فى حوض الرون الأعلى بفرنسا ، حيث أسس وليم الأول المعروف باسم وليم التقى دوق اكيتانيا ديراً جديراً فى كلونى عام ٩١٠ م ولم يلبث هذا الدير أن أصبح مركزا لمؤسسات دينية ضخمة وثيقة

الصلة بالدير الأصلى الذى لا يدين بالطاعة إلا للبابوية(١) . وسرعان ماغدا الرهبان الكلونيون أداه هامة من الأدوات التى استخدمتها البابوية فى تنفيذ أهدافها الخاصة بفرض سيادتها الدينية على الكنيسة الغربية من جهة ، وسيادتها الزمنية على كافة الملوك والحكام والأمراء من جهة أخرى . وبعبارة أخرى فإنها اختارت من الكلونيين مندوبيها ورسلها إلى زعماء العلمانيين والدينيين جميعاً(٢) ، كما أصبحوا رجالها فى إثارة الشعور الدينى ضد المسلمين فى الغرب الإسلامى وخاصة فى بلاد الأندلس .

وقد نجم عن هذه الأهداف التى خططت لها البابوية أمران : نزاع مع ملوك وحكام غرب أوربا لإثبات حق البابوية فى السيادة العليا على العالم ، وهذا ما لا يعنينا فى بحثنا ، وحروب عدائية ضد القوى الإسلامية فى الغرب الإسلامى لاستعادة الأرض التى انتزعها المسلمون من المسيحية . والسؤال هنا ماهو دور البابوية فى هذه الحروب التى اتسمت بالصفة الدينية والتى اكتسبت فى التاريخ اسم الحروب الصليبية ؟

الواقع أن الكلونيين وديرهم الرئيسى فى كلونى أخذوا منذ عهد مبكر يرجع إلى أواخر القرن العاشر للميلاد (٩٩٤ -١٠٠٩) يوجهون اهتماما

---

(١) العرينى (السيد الباز) : الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ١ دار النهضة العربية، جـ١ سنة ١٩٦٣ ، ص٩٢ ، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ،جـ١، الأنجلو المصرية ، ط٢ ، سنة ١٩٦١ ، ص٣٤٢ - ٣٤٣ ، وعن حركة الإصلاح الكلونية انظر :

سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ١ ص٣٤٢ - ٣٤٩ ،جـ٢ ط٢ سنة ١٩٦٣ ص٣٠ -٢٣٣ ،

العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية سنة ١٩٦٠ م ،ص٦٦١ ، ٦٦٢ .

(٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ١ ص٣٥٣ .

خاصا لأمور أسبانيا ، واستهلوا هذه السياسية بالعمل على توفير أسباب الراحة والأمن للحجاج المترددين على ضريح القديس شانت ياقب (القديس يعقوب) فى كومبوستيلا فى شمال غرب أسبانيا . وبعد ذلك بدأت الدعوة لمساعدة الأسبان على التخلص من الحكم الإسلامى فى بلادهم . ويوضح ذلك ماحدث عام ٤٠٩ هـ /١٠١٨ م من قدوم النورمان لمساعدة كونتية برشلونة ضد المسلمين ، وهو اتجاه يرجع إلى الأثر الكلونى فضلاً عن حب النورمان للمغامرة والارتحال (١).

ولم يكتف الكلونيون بحث نبلاء فرنسا على محاربة المسلمين بالأندلس منذ أوائل القرن الخامس للهجرة/ الحادى عشر للميلاد ، وإنما أخذو أيضاً يعملون لنشر نظامهم الديرى فى أسبانيا ودعمه ماديا ومعنويا مما يخدم أهداف البابوية ، مثلما يحقق أهداف كثير من الأمراء والمغامرين الذين نزحوا إلى أسبانيا فى موجات متتالية ، منها موجة فى عام ٤٠٩هـ/١٠١٨م ، وموجة أخرى فى عام ٤٢٤هـ /١٠٣٣م كانت بقيادة بعض أمراء برجنديا ، وقد تكرر تدفق هذه الجموع الصليبية على أسبانيا بعد ذلك (٢) .

ويمكن القول أن الحركة الكلونية لعبت دوراً كبيراً فى غرس الروح الصليبية فى أسبانيا ، كما كانت وراء الكثير من مآسى اضطهاد المسلمين والقضاء عليهم فى بلاد الأندلس (٣) وفى جزر حوض البحر المتوسط بصفة عامة . هذا بالإضافة إلى أن هذه الحركة كانت وراء ذلك القتال الذى نشب

---

(١) العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية حـ١ ص١٠٥ -١٠٦

(٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ١ ص٥٦٠ .

(٣) ملحمة السيد ، دراسة وتقديم د. الطاهر مكى ، دار المعارف ط٢ ، سنة ١٩٧٩ ، ص١٣٤.

بين القوى البحريــة المسـيحية وخاصــة بيزة وجنـوة ، والمسـلمين فـى الجـزء الغربى من حوض البحر المتوسط (١). ومما ساعد الكلونيين على القيـام بهذا الـدور ، اتساع دائـرة سيطرتهم علـى الكنـائس الغربيـة ، وخاصــة الكنيسـة الأسبانية منذ عهـد شـانجة (شانسـو) الكبـير ملـك نـبرة (نافـار) (٣٩١ - ٤٢٦هـــ / ١٠٠٠ -١٠٣٥ م) وخلفائــه . وكــان أن لقــى ملـوك الأسـبان النصارى كل تشجيع لمقاتلة المسلمين حتى اتخـذ القتـال ضـد المسلمين صفة الحروب الدينية لسبب بسيط ، هو أن البابوات والمنظمات الدينية شاركوا فـى توجيه هذه الحروب بكل ما وسعهم من قوة (٢) .

وفـى إطــار سياسـة البابويـة لفـرض زعامتهـا علـى العـالم الغربـى الكاثوليكى، أدركت أنه كلما انحسـر المد الإسـلامى فـى أسبانيا كلمـا وجـدت فرصتها وبسهولة فى توطيد نفوذها على الكنائس القائمة بالبلاد التـى اسـتولى عليها المسيحيون ، فضلاً عن الكنائس الموجودة فى أسبانيا النصرانيـة والتـى دانـت لهـا بـالولاء . وكـانت البابويـة تـرى أن هبـة قسطنطين التــى روجـت لصحتها فى الغرب تحقق للبابا السيادة الزمنيـة علـى بـلاد الغـرب الأوربـى، ومن جملتها شبه جزيرة أيبيريا ، فى الوقت الذى لم توجـد فـى أسبانيا سلطة كنسية يمكنها أن تتحداه(٣) ، ولم يوجـد فيهـا مـن السـلطات الزمنيـة - أقصـد الملوك الأسبان - من ليسوا فى حاجة إلى عـون البابويـة ودعمهـا فـى قتـالهم للمسلمين فى الأندلس .

---

(١) العرينى : الحضارة والنظم الأوربية فى العصـور الوسـطى ، دار النهضـة العربيـة ، سنة ١٩٦٣ ، حـ١ ص١١٢ .

(٢) العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية حـ١ ،ص١٠٦ .

(٣) المرجع السابق ، جـ١ ص١٠٨ .

وهكذا ساعدت هذه الآراء على دعم نفوذ البابوية فى أسبانيا ، خاصة وأن شانجة (سانشو) الكبير (٣٩١ -٤٢٦ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٣٥م) ملك نبرة (نافار) وصاحب الكلمة على شمال أسبانيا كله بأكمله بما فيه من ممالك مسيحية عديدة ، أعاد فتح غرب شبه الجزيرة الأيبيرية أمام التيار الأوربى ، ففتح أبواب مملكته أمام الإصلاحات البندكتية ، وتدفق الآباء الكلونيون ليبثوا آراءهم فى ممالك قشتالة وليون وجليقية واشتريس ، حتى اكتظت بهم أديرة أسبانيا ، ووصلوا إلى اسمى المناصب الكنسية فصار أحدهم مطرانا لطليطلة بعد استعادتها من المسلمين ، ورئيساً للكنيسة المسيحية فى أسبانيا كلها . وهؤلاء الآباء والرهبان الكلونيون عملوا على توطيد النفوذ البابوى فى أسبانيا، ودفعوا حركة الاسترداد خطوات كبيرة للأمام (١) .

وقد سار أبناء شانجة على درب أبيهم فى الاستعانة بالبابوية والتحالف معها ضد المسلمين فى الأندلس ، تحقيقاً لأهدافهم وأهداف البابوية فى نفس الوقت . من ذلك أن إبنه فرديناند ملك قشتالة وليون (٤٢٦ - ٤٥٨هـ/١٠٣٥ - ١٠٦٥م) استعان بالبابوية فضلاً عن ملوك أوربا لشد أزره فى قتاله للمسلمين فى الأندلس ، فاستجاب له البابا أسكندر الثانى (سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤م) ونظم حملة صليبية اشترك فيها أمراء فرنسيون ونورمانديون وإيطاليون ، حاصرت مدينة بربشتر الإسلامية واقتحمتها وأسرت وقتلت الألوف من أهلها (٢) كما سيلى فى هذا البحث .

---

(1) Chapman : AHistory of Spain , U . S . A . , 1931 , p. 66 .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ط القاهرة ١٣٠٢ هـ ، جـ٢ ص٥٤٧،

ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٣ ص٢٢٥ ، جـ٤ ص١٤٥ ،

ابن الأبار : الحلة السيراء ، القاهرة ط١ سنة ١٩٦٣ ، جـ٢ ص٢٤٧ ،

الحميرى : الروض المعطار ، بيروت ط٢ سنة ١٩٨٤ ، ص ٩٠

أما ابنه الثانى ردمير (راميرو) الأول ملك أرغونة (٤٢٦ - ٤٥٥هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٦٣م) فقد اتجه هو الآخر شطر البابوية والكنيسة الأسبانية فى صراعه ضد أخيه فرديناند ملك قشتالة وليون ، وضد المسلمين فى الأندلس ، فعقد مؤتمرًا فى مدينة جاقة عام ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م تقرر فيه اعتبار جاقة مركزا أسقفياً ، كما تقرر إرسال عشر إيرادات الدولة وعشر الجزية التى يحصل عليها من مسلمى سرقسطة وتطيلة إلى روما ؛ وبذلك وضع هذا الملك نفسه تحت حماية زعيم الكنيسة العالمية وهو البابا . ولكى يؤكد هذه التبعية زار روما عام ٤٦٠هـ /١٠٦٨ م وأعلن نفسه فارس القديس بطرس . وكان أن أرسل البابا أسكندر الثانى سفيره إلى أرغونة ليعمل على وضع جميع الأديرة تحت سلطة البابوية ، وعلى أن تحل الطقوس الرومانية محل الطقوس الأسبانية أو القوطية . وفى مقابل ذلك حصل ردمير على إذن من البابا بأن يستغل دخل الكنائس الواقعة فى مناطق كانت تابعة للمسلمين فى محاربة المسلمين الآخرين الذين لم تحل بهم ضرباته بعد(١) .

وكذلك سار حفيده أذفونش (ألفونسو) السادس بن فرديناند (٤٥٨ - ٥٠٢هـ /١٠٦٥ -١١٠٩م) هو الآخر على درب أبيه وعمه وجده ، فاتجه إلى البابا جريجورى السابع الذى أرسل سفيره إلى أسبانيا فى عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥ م لكى يقرر حق البابا فى تعيين الأساقفة وفرض الطقوس الرومانية فى الصلاة ، وهى أمور قبلها الفونسو السادس ، ونتج عن ذلك أن قام الملك بإلغاء الطقوس القوطية من الكنيسة الأسبانية وأحل محلها الطقوس الرومانية،

---

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة سنة ١٩٤٠ ، ص١٨ ، ١٩ ، ١٢٧

حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ط١ سنة ١٩٥٩ ، ص٤٩٨ ،

Livermore : AHistory of Spain , London , 1958 , p. 106

ووضع الكنيسة الأسبانية تحت لواء روما . ثم توالت بعثات الكرسي الرسولى في ذلك العهد تسعى لفرض وتأكيد نفوذ البابوية على أسبانيا والملكية الأسبانية ، وذلك مقابل مساندة الفونسو السادس في صراعة ضد المسلمين ، ونظير موافقة البابوية على طلاقه من زوجته أجنيسيا وزواجه من الأميرة كونستانس الفرنسية الأصل(١) .

وبزواج ألفونسو السادس من الأميرة كونستانس عام ٤٧١هـ/١٠٧٩م اتسع نطاق الحركة الكلونية في أسبانيا ، وإزداد وفود الرهبان الفرنسيين على تلك البلاد إزديادا كبيراً ، وأبدى دير سهاجون في قشتالة ورهبانه البندكتيون غيرة وحماسة شديدة في تحقيق أهداف البابوية والملكية الأسبانية في القضاء على مسلمي الأندلس(٢) ، فضلاً عن تأكيد نفوذ البابوية في أسبانيا . وعين لتحقيق هذا الغرض الراهب برنارد الفرنسي الأصل رئيس الدير المذكور مطرانا لطليطلة عقب سقوطها بقليل ، وذلك بتأثير من الملكة كونستانس زوجة الفونسو السادس الفرنسية الأصل أيضاً . ولتأكيد نفوذ البابوية حصل هذا المطران على مرسوم بابوى بتعيينه في ذلك المنصب الخطير ، مما مكنه من تعيين رجال من مواطنيه الفرنسيين في معظم الأسقفيات الأسبانية ، كما ملأ دير ساهاجون بالرهبان الفرنسيين . وهكذا تمكنت البابوية من فرض سيطرتها الروحية على الكنيسة الأسبانية ، وبذلك تفرغ الجميع لاستئناف الصراع ضد المسلمين(٣) .

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ، ص٣٨٧، ٣٨٨

يوسف أشباخ : مرجع سابق ، ص١٢٧

حسين مؤنس : مرجع سابق ص٤٩٨ .

(٢) يوسف أشباخ : مرجع سابق ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣) محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ص ٣٨٣ ، ٣٨٨ .

والواقع أن فتح المسلمين لأسبانيا واستقرارهم فيها على حساب الشعوب المسيحية كان أمرا لا يمكن أن ترضى عنه البابوية والكنيسة الغربية ، وشعوب أوربا المسيحية ، فأسبانيا كانت من أولى بلاد غرب أوربا التى وصلتها المسيحية وأصبحت تمثل مكانة بارزة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما أصبح فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء أوربا(١).

ولذلك ظلت القوى المسيحية في غرب أوربا تعمل منذ وقت مبكر على استرداد هذا الجزء المفقود من الوطن المسيحى(٢) ، وغيره من جزر البحر المتوسط التى كانت تشكل أجزاء من العالم المسيحى الأوربى ثم استولى عليها المسلمون فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد .

---

(١) من أهم الأماكن المسيحية المقدسة التى توجد فى أسبانيا منذ فجر العصور الوسطى مدينة كومبوستيلا التى فى أقصى الشمال الغربى لشبه جزيرة أيبريا توجد بها كنيسة تضم رفات القديس يعقوب (شانت ياقب) ، وهو حوارى قتل فى فلسطين ونقل اتباعه رفاته إلى هذا المكان حيث أنه كان قد ذهب إلى أسبانيا قبل قتله ودعا فيها إلى المسيحية . ولذلك اكتسبت هذه المدينة أهمية كبيرة لدى المسيحيين سواء فى أسبانيا أم فى خارجها . ويعبر ابن عذارى عن ذلك بأنها " أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وراءها " أنظر ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ص٢١٤ ، ٢٩٦ وعن شانت ياقب وأقوال المؤرخين الآخرين فيهاوعن أهميتها ، أنظر : الأدريسى : نزهة المشتاق ، جـ١ ص٧٢٨
الحميرى : الروض المعطار ص٣٤٨
ابن خلدون : تاريخة ، دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٦٨ ، جـ٤ص٣٩٢ دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٣ ص٣٩٢ ، دوزى : المسلمون فى الأندلس ترجمة حسن حبشى جـ٢ ص١٣٨ .

(٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ١ ص٥٥٨ ، ٥٥٩ .

ومما ساعد البابوية على تحقيق هذا الهدف أن النظام الاقطاعي الذى كان يمر به المجتمع الأوربى واكتمل فى الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر للميلاد(١) - وهى الفترة التى اشتد فيها دوار الحروب الصليبية - هذا النظام لم يكن قاصراً على المجتمع المدنى من أمراء وفرسان ، أى سادة الاقطاع وما يتبعهم من فلاحين وأقنان ورقيق ، بل ضم إليه أيضاً الكنيسة الغربية ، بمعنى أنها دخلت فى إطاره ، وذلك بحيازتها إقطاعات تستعين بها فى مباشرة الشعائر والطقوس الدينية . وهكذا صار رجال الدين اتباعا لمانح الاقطاع الذى يمكن أن يطلب منهم الخدمات الحربية المتعلقة بمنح الاقطاع ، فى حين أن القانون الكنسى يحرم ذلك . غير أن الأساقفة ورؤساء الأديرة رضوا بهذا الوضع وتغاضوا عما ينص عليه هذا القانون فى تلك الناحية ، ومن ثم فقد شاركوافى القتال شأنهم فى ذلك شأن سائر الأتباع . وأشادت أنشودة رولان(٢) بما لقيه رئيس الأساقفة تيربين من الاستشهاد فى ساحة القتال ، كما أشادت بذلك أيضاً ملحمة السيد حينما تحدثت عن مطران بلنسية دون خرونيمو الذى كانت أمنيته قتل المسلمين ، وأصر على أن تكون الطعنات الأولى الموجهة إليهم من سيفه هو عندما أتوا لاستخلاص بلنسية وأعادتها لديار الإسلام . وتقول الملحمة أنه كان يقاتل فى المعركة بكلتا يديه . ولكثرة ما قتل من جند المسلمين فقد ضاع من ذاكرته عدد من صرع منهم فى ميدان الوغى(٣) .

---

(١) العرينى : الحضارة والنظم الأوربية ، ص٣٥ وعن النظام الإقطاعى فى فرنسا خاصة وأوربا عامة ، أنظر : العرينى : الحضارة والنظم الأوربية جـ١ ص٩ - ٧٤، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ص٤٣ -٩١ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ص٤٣ .

(٣) ملحمة السيد ، ص٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨

ومهما يكن من أمر فقد أقرت الكنيسة الغربيـة فكـرة قيـام الحـروب مـن أجل مملكة الله ، وسعت إلـى أن توجـه القتـال مـن أجـل مصلحتهـا ، فـاعتبر البابوات كل من يموت فى سبيل الدفاع عن الكنيسة شهيداً ، وقرر البابا نيقولا الأول أن كل من ارتكب ذنبا وخضع لحكم الكنيسـة ينبغـى ألا يحمـل السـلاح إلا من أجـل قتـال (الكفـرة) ، وقـررت الكنيسـة أن الفـورة التـى حدثـت فـى الغرب الأوربـى مـن أجل الرغبـة فـى القتـال يجـب أن توجـه لقتـال غـير المسيحيين(١) وأن هنـاك هدفـاً واحـداً يجـب أن يسـتأثر بجهـود أمـراء أوربـا وفرسانها ، هذا الهدف هو الحرب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس ثم فـى بلاد الشام(٢) .

وقد لجأت البابوية فى تحقيق هذا الهدف إلى التحالف مع القوى الأوربية المختلفة ، لاسيما دولة الفرنجـة فـى غالـة (فرنسـا) . ويرجـع هـذا التحـالف الذى عقدته البابوية مع هذه الدولة إلى ذلك الربـاط الوثيـق الـذى ربـط ملـوك فرنسا بالبابوية منذ عهد بيبيـن القصـير (٧٤١ - ٧٦٨م) ، والـذى قـام علـى أساس مساعدة هذا الملك للبابا ضد اللمبارديين والبيزنطيين . وفى مقابل ذلـك توج البابا بيبين بيده ، كمـا تـوج زوجتـه وولديـه شـارل وكارلومـان ، وأنـزل اللعنة على كل من يحـاول اغتصـاب عـرش الفرنجـة مـن بيـت هـذا الأمـير . وبذلك دخلت دولة الفرنجة فى غالة دورا جديدا من تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية فى غرب أوربا بفضل تحالفها مع البابوية ، وهو التحـالف الـذى كـان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوربا فى العصـور الوسـطى(٣) ، وأيضـاً

---

(١) العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٠١ ، ١٠٣ .

(٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ص٦٠ .

(٣) المرجع السابق ، جـ١ ص١٨٧ .

بالنسبة لقيام الحروب الصليبية فى هذه المنطقة من العالم على يد الفرنجة الذين بذلوا جهودهم منذ وقت مبكر فى هذا المضمار تأييداً للبابوية وتنفيذا لأهدافها من ناحية ، وتحقيقا لأهداف الفرنجة أنفسهم من ناحية أخرى . والأدلة على ذلك كثيرة ، منها تلك الحملة التى قادها شارلمان عام ١٦١هـ/٧٧٨م ضد الثغر الأعلى الأندلسى(١) ، والحملة التى قادها بعد أن توجه البابا فى عام ١٨٤هـ /٨٠٠م إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، غازيا نفس المنطقة الأندلسية التى قُتل فيها قائد من قادته يدعى رولان ظهرت بسببه أغنية نسبت إلى اسمه . وظهرت هذه الحرب فى طابع صليبى واضح ، رغم أن رولان هذا قتل على يد الباسك وليس على يد المسلمين أثناء انسحاب جيش شارلمان وعودته إلى بلاده(٢) . ولم يهدأ لشارلمان بال حتى تمكن من الاستيلاء على ثغر برشلونة الهام من المسلمين عام ١٨٥هـ/ ٨٠١م بعد حصار دام سبعة أشهر ، وجعله عاصمة لإمارة تسمى قطلونية يحكمها أمراء يعينهم ملوك فرنسا مباشرة وبذلك خسر الإسلام أمنع ثغوره فى قاصية أسبانيا، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى (سرقسطة) بعد أن كانت قد تجاوزت جبال البرتات (البرانس)(٣) وعادت الصلة بين الثغر القوطى القديم وجنوب فرنسا ، مما مهد لنزوح الفرسان الفرنج المغامرين الذين تحدوهم روح صليبية ويحدوهم البحث وراء طالعهم

---

(١) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مجهول المؤلف ، دار الكتاب المصرى واللبنانى ، القاهرة سنة ١٩٨١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

Dozy : A history of the Moslems In Spain , London 1913 , pp . 204 - 206 .

(٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ١ ص٥٥٩ ، جـ٢ ص٦٥ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، القاهرة سنة ١٩٨٠ ، جـ٣ ، ص٣٦٢

أبو الفدا : تاريخة : القسطينية سنة ١٢٨٦ هـ ، جـ٢ ص٢٦ ،

Chapman : Op . Cit . pp . 55 - 56 .

جموع كبيرة منهم بالجيوش النصرانيــة التـى كـانت تقـاتل المسـلمين فـى شـبه الجزيرة الإيبيرية(١) .

وقد سار لويس التقى ملك الفرنجة على درب أبيه فـى غـزو بـلاد المسلمين فـى الأندلس وغيرهـا ، محققـا فـى ذلـك أهداف البابويـة المتحـالف معها، ومتحالفا أيضاً مع نصارى الأسبان والنصــارى المعـاهدين الذيـن كـانوا يعيشون فى بلاد الأندلس الإسلامية والذين كانوا يبطنـون ضغنـاً وحقـداً علـى الإسلام والمسلمين ، رغم السـماحة(٢) التـى عاشـوها فـى ظـل دولـة الإسـلام هناك . لذلك نراهم يبذلون العون لكل غاز لهذه الدولة . ونضـرب مثـلا علـى ذلك بنصــارى مدينـة مـاردة الإسـلامية الذيـن تحـالفوا مـع لويـس التقـى كمـا تحالفوا مع أبيــه شارلمان من قبل فى حملة فى عـام ١٦١هـ /٧٧٨م ، بعــد أن وعدهم لويس بأنهــم إذا ثـاروا علـى المسـلمين ودخلـوا فـى طاعتـه أعـاد إليهم حريتهم وتركهم يسيرون وفق أعرافهم وقوانينهم ، وأنه مستعد لإرســال جيش لقتــال حـاكم الأندلـس عبد الرحمـن الأوسط إذا مـا توجـه إليهم لقمـــع ثورتهم ؛ كما أكد لهم أن كل من يرغب فى الهجرة إليه فإنـه ســيجد الأمـان والملجأ عنده . وكـان أن ثـار هـؤلاء النصــارى وقتلـوا حـاكم مدينـة مـاردة المسلم ، ولم يخلدوا للهدوء إلا بعد أن سير إليهم الأمير عبد الرحمن الأوسـط جيشاً كان هو علـى رأسـه، وضيـق عليهـم الحصـار حتـى استسـلموا وسـكنت

---

(١) محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ، ص٣٩٣ .

(٢) عن مظاهر سماحة المسلمين مع النصارى المعاهدين فى الأندلس ، أنظـر : كتابنـا : العلاقات بيـن الأندلـس الإسـلامية وأسبانيا النصرانيـة فـى عصـر بنـى أميـة وملـوك الطوائف ، صـ ٦٩ - ٧٦ ، السيد عبد العزيز سالم : تـاريخ المسلمين وأثـارهم فـى الأندلس ، ص ١٣٠ -١٣١ .

أسعد حومد: محنة العرب فى الأندلس ، بيروت ط٢ سنة ١٩٧٨، ص ١٨١ -١٩٤.

الفتنة(١) وكما تحالفت البابوية مع دولة الفرنجة ضد المسلمين فى الغرب الإسلامى منذ ذلك الوقت المبكر، فإنها كذلك فعلت مع القوى البحرية الإيطالية . وكانت هذه المدن قد تعرضت لغزوات من قبل المسلمين منذ القرن الثامن للميلاد ، كما أن مصلحتها في تحقيق السيطرة البحرية والتجارية وفتح منافذ تجارية لها فى حوض البحر المتوسط كله شرقه وغربه ، جعلتها تساهم إلى حد كبير فى شن حرب صليبية ضد المسلمين فى الغرب الإسلامى وتتحالف فى ذلك مع قوات القوى المعادية لهم(٢) .

ولما كانت المدن الإيطالية فى الجنوب قريبة من مراكز النفوذ الإسلامى وقواعده فى شمال أفريقيا ، فإنها كانت تتحالف أحياناً مع المسلمين . ولكن البابوية لم تتركها تسير فى هذا السبيل . وعلى سبيل المثال بذل البابا يوحنا الثامن كل ما فى وسعه من وعد ووعيد للقضاء على تحالف كان قد قام فى عام ٢٦٢هـ /٨٧٥م بين أمراء سالرنو ونابلى وجائيتو وأمالفى من ناحية ، وبين العرب من ناحية أخرى ، لتحقيق أهداف تجارية تخص هذه المدن التى قامت حياتها على النشاط التجارى فى المقام الأول . ولم ينجح البابا يوحنا الثامن فى القضاء على هذا التحالف إلا بإخراج سالرنو من هذا الحلف ، وتوقيع قرار الحرمان من الكنيسة على الآخرين ، فى حين هدد أهالى أمالفى بأنه إضافة إلى ذلك سيغلق فى وجه سفنهم التجارية كل الموانى التى اعتادوا الدخول فيها . وتمكن أخيراً فى عام ٩١٦م من حشد جيش من البيزنطيين والإيطاليين قضى على نفوذ العرب فى جنوب إيطاليا بعد أن تحول فى اللحظة المناسبة دوقات نابلى وجائيتو وأمالفى إلى صفوف المسيحيين(٣) .

---

(١) عبادة كحيلة : تاريخ النصارى فى الأندلس ، القاهرة ط١ سنة ١٩٩٣ ، ص٢٤٣ ، Chapman : Op . Cit ,. p. 44 .

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٢٥ .

(٣) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، القاهرة سنة ١٩٨٥م ، جـ١ ص١١٤ ، ١١٥ .

وكان أن استهدف هذا النشاط البابوى معاونة المدن الإيطالية البحرية، خاصة بعد أن تعرضت روما ذاتها للهجمات الإسلامية مما أجبر البابا (حنا الثامن) فى عام ٢٦٥هـ/٨٧٨ م على دفع جزية سنوية مقدارها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة . لذلك بذل البابا جهده فى توحيد وتوجيه قوة المدن الإيطالية ضد هذا النشاط الإسلامى ، واستجابت تلك المدن لهذا التوجيه. وعندما تعرضت لغارات من قبل المسلمين تحالفت فى عام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م ليس فقط مع البابا ، ولكن أيضاً مع بيزنطة بهدف الاستيلاء على آخر معقل لهؤلاء المسلمين فى جنوب إيطاليا(١) .

أما المدن البحرية الإيطالية الشمالية مثل جنوة وبيزة فكانت ذات ثروة وتجارة وقوة حربية ، فاستغلتها البابوية أيضاً فى محاربة المسلمين فى غرب البحر المتوسط ثم فى شرقه بعد ذلك . ويصف الأدريسى على سبيل المثال قوة جنوة فيقول أن " أهلها تجار مياسير يسافرون براً وبحراً ويقتحمون سهلاً ووعرا ، ولهم أسطول مخيف ، ولهم معرفة بالحيل الحربية والالآت السلطانية ولهم بين الروم عزة أنفس"(٢) وكان أن اندفعت جنوة وبيزة فى الهجوم على ما قرب من القواعد البحرية الإسلامية تحقيقاً لأهدافها وأهداف البابوية فى نفس الوقت . ولم يكتف البيازنة والجنويون بذلك بل أغاروا فى القرن الحادى عشر للميلاد على الساحل الشمالى الأفريقى – كما سنرى – واشتركوا فى كل نشاط صليبى ضد المسلمين فى الغرب الإسلامى كله حتى انتقلت السيطرة على البحر المتوسط من العرب إلى المدن

---

(١) العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٢٥

عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب وأوربا ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٣ ، ص١٩٥ .

(٢) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق جـ٢ ص٧٥٠ .

الإيطاليـة(١) ، ومـن ثـم اشتد عداؤهـا الصليبـى ضـد المسلمين والرغبـة فـى القضاء عليهم فى هذه المنطقة من العالم .

ولم يتحقق هذا الهدف بتحـالف البابويـة مـع الفرنجـة والمـدن الإيطاليـة فحسب ، ولكن أيضـاً بالتحـالف والتنسيق مـع الإمبراطوريـة البيزنطيـة ومـع النورمان ، رغم العـداء القـائم بينهـا وبيـن هـذه القـوى . ففضـلاً عمـا قـام بـه البيزنطيون من جهود للقضاء على المسلمين فى صقلية وجنوب إيطاليا ، فقد انحازوا أيضاً إلى هيوأمير بروفانس فى شن الهجوم على قلعـة المسـلمين فـى فريوس، وعلى قلعتهم القائمة علىنهر جاريجليانو فى إيطاليا ، وذلك بالتعـاون مع البابا يوحنا الثامن فى القرن التاسع للميلاد ، ثم مع البابـا حنـا العاشـر فـى القرن العاشر ، ذلك التعاون الذى مكن البابوية من حشد جيش من البـيزنطيين والإيطاليين خلص أرض إيطاليا من الغزاه العرب كما سبق القول(٢) .

أما التعاون والتحالف مـع النورمـان فسنراه واضحـاً عنـد الحديـث عـن الحرب الصليبية التى وجهتها البابوية ضد جزيرة صقلية الإسلامية فى القـرن الحادى عشر للميلاد . ومن الواضح أن هذه الجهود التى بذلها المسيحيون فى الغرب الأوربى ضـد المسـليمن فـى القرنيـن التاسـع والعاشـر للميـلاد اتسمت بالطابع الدينى ، فقد دعا إليها رجال الدين ، وتعهدها البابوات برعايتهم ، ممـا جعـل فكـرة الحـروب الصليبيـة تنشـأ فـى أول أمرهـا مرتبطـة بمبـدأ محاربـة المسلمين ودفع خطرهم فـى أى مكـان(٣) ، وهـى فكـرة نمـت وازدهـرت فـى

---

(١) العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٢٥ .

(٢) هايد : مرجع سابق ، جـ١ ص ١١٤ ، ١١٥ ،
العرينى : الشرق الأوسط جـ١ ص١٠٤ .

(٣) سعيد عاشور : مرجع سابق جـ١ ص٤٤٨ ، ٤٤٩

القرن الحادى عشر للميلاد ، حيث قامت البابويــة بشـن حـرب صليبيـة مكثفـة ضد المسلمين فـى الجـزء الغربـى مـن حـوض البحـر المتوسـط ، ثـم أتبعتهـا بحـرب صليبيـة أخـرى قـرب نهايـة ذلـك القـرن فـى بـلاد الشــام . وبالنسـبة للحروب الصليبية التى شنتها البابوية فى الغرب الإسلامى فى القـرن الحـادى عشر ، نشير إلى أربعة حروب دعت لها البابوية ضد جزيرة سردانية ومدينـة بربشـتر الأندلسية ، وجزيـرة صقليـة ، ومدينـة المهديـة فـى شــمال أفريقيـا. وسوف نرى دور البابوية واضحاً كل الوضوح فى هذه الحروب الأربعة .

أمـا عـن جزيـرة سـردانية ودور البابويـة فـى إسقاطها فــى يـد القــوى الصليبية ، فأمر يحتاج إلى شئ من التفصيل . وفى البداية لابد وأن نشير إلـى أن القرن الحادى عشر للميلاد الذى جرت فيه هذه الحـروب الصليبيـة سـواء ضد سردانية أوغيرها مما أشرنا إليه وسوف نتحدث عنه ، كان عصر ضعف وتفكك لدولة المسلمين فى الغرب الإسلامى ، خاصة بعد أن ضعفت الخلافـة الأموية فى بلاد الأندلس ثم سقطت فـى عـام ٤٢٢هـ/١٠٣١ م . وجـاء هـذا السقوط إيذانا بظهور عصر جديد جسد التفكك بأوضح مظاهره ، فهـو عصـر ملـوك الطوائـف حيـث انقسـمت الدولـة الإسـلامية فـى الأندلـس إلــى حوالــى عشرين دويلة وقام الصراع بين هذه الدويـلات بعضهـا مـع بعـض ، فضعـف أمرها والتمس حكامها ، الذيـن تلقبـوا بألقـاب الخلفـاء ، العـون ضـد جيرانهم المسلمين من ملوك أسبانيا النصرانية ، مما أفسح المجال أمـام هؤلاء الملـوك كى ينقضـوا علــى دولة الإسلام فى الأندلس ، ويشنـوا عليها حربـاً صليبيـة لا هوادة فيها . هذا إلى أن دولة الإسلام فى شمال أفريقيا كانت هـى الأخـرى تمر بنفس الظروف ، وتعانى حالة من التمزق بيـن ملـوك وأمـراء متطـاحنين متصارعين ، وتقاسى من جراء الغزوة الهلالية لها ، مما أضعفها أمام القـوى

الصليبية الأوربية فى ذلك الحين . وكان هذا هو الحال أيضاً فى جزيرة صقيلة حيث قام الصراع بين أهلها وحكامها .

وفى هذه الظروف وتلك الأحوال القلقة المضطربة فى الغرب الإسلامى ظهر أحد ملوك الطوائف فى شرق الأندلس هو مجاهد بن عبد الله العامرى ، مولى عبد الرحمن شنجول بن المنصور محمد بن عامر وكان هذا المولى قد تغلب على دانية والجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة ويابسة) التى تعرف بجزائر الباليار ، وتسمى بالموفق بالله ، وأقام رجلاً من بنى أمية يسمى عبد الله ويعرف بالمعيطى خليفة فى عام ٤٠٥ هـ/١٠١٤م (١).

وكان مجاهد العامرى هذا فيما يبدو بحاراً مجرباً ، رأى أن مملكته الساحلية وأملاكه البحرية تقتضى أن يكون اعتمادها فى القتال على الأساطيل قبل كل شئ ، فجدد دار صناعة السفن بمدينة دانية مقر حكمه ، واستكثر من السفن والمعدات الحربية ، واستطاع فى فترة قصيرة أن ينشئ أسطولاً كبيراً يرابط فى مياه دانية والجزائر الشرقية ، حتى غدت دانية فى عصره وعصر ولده (على) أعظم مركز للأساطيل الأندلسية ، ومن ثم حان الوقت لتحقيق مشروع فتح جزيرة سردانية التى عرفها البحارة المسلمون من قبل فى كثير من الغزوات المتعاقبة ، حيث غزوها عدة مرات فى أعوام ٩٢هـ/٧١١م، ١٠٣هـ/٧٢١ م، ١٠٦هـ/٧٢٤م،١٠٩هـ/ ٧٢٧م،١١٩ هـ/٧٣٧م ، ١٣٥هـ/٧٥٢م، ٢٠١هـ/٨١٦م،٢٠٢هـ/٨١٧م، ٢٢٣هـ/٨٣٨م، ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م.وفى الغزوة الثانية تمكن العرب من فرض الجزية على الجزيرة وأفلحوا فى استخلاصها من أهلها الضعاف(٢) . ويبدو أن هذا الاستخلاص لم

---

(١) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ٣ ص١١٥ ، ١١٦ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، جـ٣ ص ٢٠٩

الحميرى : ص ٣١٥

محمد عبد الله عنان : ص ١٨٦ ، دائرة المعارف الإسلامية جـ١١ ص٣٥٦ .

يكن ناجزا ولا فعالا ، رغم الغزوات العديدة التى تعرضت لها فيما بعد والتى أشرنا إليها ، ولذلك كانت هذه الجزيرة هدفا لغزوة ناجحة ناجزة ، وجاءت هذه الغزوة على يد مجاهد العامرى صاحب دانية الذى نتحدث عنه .

وكان أن حشد مجاهد العامرى لتنفيذ مشروعه أسطولا قوامه مائة وعشرون سفينة وقوة من ألف فارس . وأقلعت السفن الغازية من دانية والجزائر الشرقية فى ربيع الأول عام ٤٠٦ هـ/ أغسطس ١٠١٥ م تقصد هذه الجزيرة التى كانت تحت سلطان الفرنج ، حتى رست فى خليج كاليارى فى جنوبها . وقد استطاع المسلمون أن يقتلوا قائد جندها وأن يهزموهم هزيمة منكرة وأن يقتلوا منهم عدداً كبيراً وإن يأسروا جموعا غفيرة من الرجال والنساء والأطفال ، وأن يحتلوا معظم أراضيها ، وأن يسيطروا على معظم حصونها ، بالرغم من المقاومة العنيفة التىواجهوها ، وبذلك فتحوا الجزيرة . وكان هذا أول فتح إسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة التى تعد من أكبر الجزر فى حوض البحر المتوسط(١) .

ثم كان أن أخذ مجاهد العامرى ينظم شئون الجزيرة ، فبنى فيها مدينة كبيرة ونقل أسرته إليها ، كما قرر البقاء فيها حتى يوطد مركزه بها . ومن المحقق أنه لبث فيها حتى نهاية عام ٤٠٦هـ ، أعنى نحو عشرة أشهر . ولما كانت تلك الجزيرة قريبة من سواحل إيطاليا فقد أغار مجاهد بسفنه على الشاطئ الإيطالى الممتد بين جنوة وبيزة ، واقتحم مدينة لونى ونهبها ، مما أحدث فزعا كبيراً لدى البابوية والمدن الإيطالية التى اهتزت لهذا الحادث الخطير ، وخاصة جنوة وبيزة اللتين كانتا يومئذ أقوى المدن البحرية فى هذه

---

(١) ابن عذارى : جـ٣ ص١١٦ ، ١٥٥ ، ابن الأثير : جـ٩ ص٢٥٠
النويرى : جـ١٣ ، ص٤٦٧ ، ياقوت : جـ٣ ص٢٠٩
محمد عبد الله عنان ، ص١٨٦ .

المياه ، ولكلتاهما مصالح تجارية عظيمة تحرصان عليهـا . لذلـك أعلـن البابـا بند – كتوس الثامن الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد تحالفـا مـع هـاتين المدينتين على محاربتهم وطردهم من سرادنية . وهكذا عقدت المدن الإيطالية البحرية بزعامة البابا العزم على تحطم الغزاة المسلمين ورد خطرهم عن هذه المياه(١) .

والواقع أن مجاهد العامرى بذل بعد غزوه سردانية جهده فـى تحصينهـا وفى الاستعداد للدفاع عنها . ولكن الأعداء لم يتركوه يهنأ فى مقامه الجديـد ، فقصده الفرنج والروم ، وما لبثت السفن الجنوية والبيزيـة والسفن النصرانيـة من مختلـف الأنحـاء أن قدمـت ودخلـت ميـاه كاليـارى حيـث وقـع القتـال بيـن الفريقين ، وفيه منى مجاهد بهزيمة سـاحقة نظـراً لمقاومـة أهـل الجزيـرة مـن الداخل ، وتمـرد الجنـد المرتزقـة النصـارى فـى أسطوله . وفـى ذلـك الوقـت اشتدت العواصف العنيفة التى أخذت تقـذف بسفن المسلمين ناحيـة الأسـطول البابوى ، فيغتنمها هؤلاء ويفتكون بمن فيها أو يأسرونهم . وهكذا حتى انتهـت المعركة بهروب مجاهد فى قلـة مـن جنـده بعـد أن اسـتولى العـدو علـى أهلـه وحريمه وابنه (علـى) وأمـه النصرانيـة (جـود) وأختهـا ، وذلـك فـى عـام ٤٠٧هـ/ يونية أو يولية ١٠١٦م ، واستطاع مجاهد أن يفتدى زوجته وبناتـه ، وافتدى أحد آل حماد الزيريين ابنه عليا(٢) .

---

(١) الضبى: بغية الملتمس فيتاريخ رجال الأندلس، مدريد سنة ١٨٨٤ ص٤٥٧ ، ٤٥٨.
محمد عبد الله عنان ، صـ١٨٧ ، ١٨٨ ..

(٢) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القاهرة سنة ١٩٤٥ ق٤ جـ١ ص٢٠٦
الضبى : ص٤٠٨ ، ابن الأثير : جـ٩ ص٢٩٠
النويرى : جـ٢٣ ص٤٦٧ ، هايد : جـ١ ص ١٣٦
محمد عبد الله عنان : ص١٨٨ ، ١٩٠ .

وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم ، ولم يتح للمسلمين أن يستقروا طويلا فى سردانية كما أتيح لهم من قبل فى صقلية وكريت ومالطة وغيرها من جزر البحر المتوسط . وكانت الدول النصرانية من روم وفرنجة وعلى رأسهم البابوية تتحفز كلها لحماية هذه الجزر وتخليصها من أيدى المسلمين ، كى تمنع انسياب الأساطيل الإسلامية إلى المياه الإيطالية(١) وتقضى على أسطورة مجاهد العامرى الذى تحدى البابوية والمدن الإيطالية بهذا المشروع الضخم الذى كان أكبر من إمكانياته الذاتية . ولم ينجح إلا فى أنه أثار البابوية أكبر زعامة مسيحية موجودة فى ذلك الوقت . وبعد أن ردعته البابوية وأساطيل حلفائها البحرية قنع بحكم دانية وجزائر البليار حتى وفاته عام٤٣٦هـ/١٠٤٥م فخلفه ابنه (على) فى الحكم . وفى عهده قام صهره سليمان بن شيكان بغزو سردانية مرة ثانية عام ٤٤٨هـ/١٠٥٠ م وتمكن من فتحها ، إلا أن البابا ليو التاسع وجه حملة صليبية أخرى أخرجت المسلمين منها نهائياً(٢) .

وإذا كانت البابوية هى العامل المحرك والمحرض على استرداد جزيرة سردانية من يد المسلمين كما رأينا ، فقد كان لها نفس الدور بالنسبة لجزيرة كورسكا التى كان المسلمون قد وضعوا أيديهم عليها منذ أيام عبدالرحمن الأوسط حاكم الأندلس(٢٠٦-٢٣٨/ ٨٢٢ - ٨٥٢ م) ، وكانت معروفة عندهم باسم قرسقة . جاء إعلان البابا فى عام ٣٩٥/ ١٠٠٤م بأن هذه الجزيرة ملك لأية قوة مسيحية تستطيع أن تنتزعها من المسلمين ، محرضا

---

(١) محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ، ص١٨٩ .

(٢) خليل السامرائى : الثغر الأعلى الأندلسى ، ورسالة ماجستير غير منشورة بغداد سنة ١٩٧٦ ، ص ٧٤ .

ممالك الحلف البيزى الجنوى الذى استطاع بالفعل أن يستردها فى عام ٤٠٦هـ/١٠١٥ م ، حيث أن أراضى هذا الحلف كانت قد تعرضت نفسها للهجمات الإسلامية فى سنوات ٣٢٣هـ/٩٣٥م ، ٣٩٥هـ/١٠٠٤م ، ٤٠٢هـ/١٠١١م وقد تحالفت بيزة وجنوة لصد هذه الغارات أولا ، ثم بذلتا جهودهما للإستيلاء على هذه الجزر التى كانت مصدر هذه الغارات ثانياً ، ووجدت فى البابوية خير معين ومحرض على ذلك (١) .

* * *

وقد ازدادت الحركة الصليبية ضراوة عند منتصف القرن الحادى عشر للميلاد بتأثير البابوية وتبنيها لهذه الحركة . وتتمثل هذه الضراوة فى تلك الحملة الصليبية الهمجية الشرسة التى تعرضت لها أحدى مدن الثغر الأعلى الأندلسى وهى مدينة بربشتر الإسلامية فى عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤ م .

ويرجع السبب المباشر لهذه الحملة التى دعت إليها البابوية إلى مقتل ردمير (راميرو) الأول ملك أرغونة عندما هاجم أراضى مملكة سرقسطة الإسلامية عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، فاستعان ملكها المقتدر بن هود على صده بملك قشتالة فرديناند الأول بعد أن أقر له بالطاعة ودفع الجزية . وكان أن بعث الأخير إليه ولده شانجه فى بعض قواته برفقة القائد رديجو دياز - المعروف باسم القمبيطور - ودارت رحى الحرب عند أسوار حصن جرادوس فانهزم ردمير الأول وقتل فى هذه المعركة . وأثار مقتله الشعور الدينى ضد مسلمى سرقسطة(٢) ، فقدمت هذه الحملة من خارج حدود شبه جزيرة إيبريا لتأديب المسلمين بطريقة تنم عن الوحشية والقسوة والهمجية .

---

(١) الحميرى : ص ٤٥٥ ، عبد العظيم رمضان : ص٢٥٢.

(٢) يوسف أشباخ : مرجع سابق ، ص١٨ - ٢٠ .

ولما كانت أرغونة مملكة مسيحية ، فقد تعاونت القوى المسيحية وعلى رأسها البابا للقيام بهذه الحملة التى غزت مدينة بربشتر . ويعد هذا الغزو أفدح كارثة أصابت المسلمين فى سرقسطة فى عهد المقتدر بن هود ، نظراً لما صاحبها من تدمير وقتل وسفك وانتهاك للحرمات علنا أمام الآباء والأزواج ، ولما كانت تحمله من طابع صليبى واضح . ويؤيد البحث الحديث الصفة الصليبية لتلك الحملة التى قام بها الأسبان الذين قتل ملكهم ، فضلاً عن جنود من غالة (فرنسا) ، والأردمانيون أو الرودمانون أو الأردمليش ، وكلها أسماء للنورمان الذين كان ملك فرنسا شارل البسيط قد سمح لهم بالإقامة فى الأقليم الذى عرف باسمهم فى غالة ، وهو أقليم نورماندى Normandie . كذلك اشترك فى الحملة غليوم دى منترى كبير قواد البابا أسكندر الثانى الذى بشر ودعا لهذه الحملة فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، بالإضافة إلى قوات شانجة راميزر ملك أرغونه ابن الملك الذى قتله ابن هود عند جرادوس عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م(١) .

وقد بلغت جملة الفرسان فى هذه الحملة نحوا من أربعين ألف فارس، كما يقول الحميرى . أما قائد الحملة وهو الفارس جيوم (غليوم) دى مونترى، فكان من أكابر فرسان عصره وكان قد وفد قبل ذلك على إيطاليا فى أواسط القرن الحادى عشر للميلاد ، وخدم الكرسى الرسولى حتى أصبح قائد الجيوش البابوية ، فكلفه البابا بقيادة هذه الحملة التى اصطبغت بصبغة صليبية واضحة ، فى حين كان مقصدها العبث والنكاية والغنم والسبى فى أراضى

---

(١) المقرى : جـ٢ ص٥٧٤ ، ابن عذارى جـ٣ ص٢٢٥ ، جـ٤ ص١٤٥ ، ابن الأبار : جـ٢ ص٢٤٧ ، الحميرى : ص٩٠ ، ابن الكردبوس : الأكتفاء فى أخبار الخلفاء ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مجلد ١٣ عام ٦٥ / ١٩٦٦ ، ص ٧٠ ، دوزى : ملوك الطوائف ص١٧٧ ، . Liverome : OP. cit., P. 111

المسلمين إينما كانوا . وقد جاءتها الصفة الصليبية لكون البابا أسكندر الثانى هو الذى دعا الناس إليها وحرض على إعدادها ، وكان قائدها هو قائد قواته التى تشكلت أساسا من الفرنسيين والنورمان .

والرواية الإسلامية صريحة واضحة فى إن هذه الحملة قدمت من فرنسا المتحالفة مع البابوية منذ عهد بيبين القصير وشارلمان، فهى تقول : " إن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) إلى الأندلس فى جموع كبيرة ليس لها حد ولايحصى لها عدد إلا الله ،وانتشروا على ثغور سرقسطة "(١) ، وعندما انتهى بهم الزحف إلى مدينة بربشتر الحصينة ، لم ينجدها أمراء سرقسطة ، فحاصروها وطال أمد القتال بين الفريقين حتى قام أحد الخونة ودل الصليبيين على مصدر الماء الذى يزود المدينة وأهلها ، فقطعوه عنها . وعندما عرض أهل المدينة الاستسلام ، رفض طلبهم وفضلوا اقتحامها فدخلوها دخول الوحوش المفترسة ، وعملوا فى أهلها قتلا وأسرا وسبيا . وقد بلغ عدد القتلى والأسرى من أهلها ما بين الخمسين والمائة ألف ، وارتكبوا فى حريمها كل رذيلة حتى أنهم كانوا يباشرون الاعتداء عليهن أمام أزواجهن وآبائهن . وظلوا فى المدينة تسعة أشهر ثم رحلوا عنها ومعهم ألوف من سبى المسلمين رجالاً ونساء ، منهم سبعة آلاف فتاة مختارة من أجمل الفتيات أهدوهن إلى صاحب القسطنطينية(٢)، وفى هذا يبدو الطابع الصليبى لهذه الحملة واضحاً كل الوضوح ودور البابوية فيها ظاهراً للغاية .

---

(١) دوزى : ملوك الطوائف ، ص ١٧٧ ، محمد عبد الله عنان : ص٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٢) عن تفاصيل الحملة الصليبية على بربشتر وما احدثوه فيها من دمار ، انظر ابن عذارى : جـ٣ ص٢٢٤ - ٢٢٧ ، ٢٥٣ - ٢٥٥ ياقوت : جـ١ ص٣٧ ، الحميرى ٣٩ ، ٤١ ، المقرى : جـ٢ ص٥٧٤ - ٥٧٧ ، محمد عبد الله عنان : ص٢٦٤ - ٢٦٩ ، دوزى : ملوك الطوائف ، ص١٧٧ ، ١٧٨ ، ملحمة السيد ، ص٣٢ ، ٣٣ .

وقد ظهر الطابع الصليبي ودور البابوية واضحاً أيضاً في حرب صليبية أخرى ، تلك هي الحرب التي استهدفت إخراج جزيرة صقلية من عالم الإسلام وإدخالها عالم النصرانية مرة أخرى . وكانت جزيرة صقلية قد غدت جزيرة إسلامية بل لم يكن هناك للمسلمين جزيرة أجل ولا أعمر ولا أكثر مدنا منها(١). وقد بدأ المسلمون فتحها عام ٢١٢هـ/ ٨٢٧ م واستكملوا هذا الفتح بعد ذلك ، حتى صار أغلب أهلها مسلمين وكان في عاصمتها بلرم وحدها نيف وثلاثمائة مسجد في عام ٣٦٢هـ/٩٧٢ م ، عندما زارها ابن حوقل(٢) ، وفي القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد كانت الجزيرة تابعة للدولة الفاطمية في مصر ، ولكنها كانت تتمتع باستقلال داخلي تحت حكم أسرة الكلبيين التي تداول أمراؤها حكم هذه الجزيرة حتى عام ٤٢٧هـ/١٠٣٦ م عندما أساء أحمد الأكحل ، وهو أحد أمراء هذه الأسرة ، السياسة وأراد أن يضرب أهل صقلية بالبربر الأفارقة الذين كانوا يسكنونها في ذلك الحين ، مما أدى إلى اضطراب الأحوال في الجزيرة . وكان أن ذهب وفد من أهلها إلى المعز بن باديس حاكم ولاية أفريقية الإسلامية وقالوا له : " نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا الجزيرة إلى الروم "(٣) .

إزاء هذا الوضع المتردي أرسل المعز جيشاً إلى الجزيرة ، ولكن أهلها كان قد فشا بينهم الانقسام وروح التمرد ، حتى أنهم طلبوا من القوات

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ليدن ، سنة ١٩٦٧م ، ص٢٣٢ ، وعن صقلية : انظر : الأدريسي : جـ٢ ص٥٨٨ - ٦٢٥ ، ياقوت : جـ٣ ص٤١٦ ، ٤١٧ ، الحميري : ص٣٦٦ - ٣٦٨ ، دائرة المعارف الإسلامية جـ١٤ ص٢٥٧ - ٢٦٢ .

(٢) ياقوت : مصدر سابق ، جـ٣ ص٤١٧ ، ٤١٨ .

(٣) ابن الأثير : جـ١٠ ص١٩٤ ، ١٩٥ ، النويري : جـ٢٤ ص٣٧٨ ، ٣٨٩ .

الأفريقية العودة إلى ديارها ، مما هيأ الفرصة للنورمان لغزو بعض أراضى الجزيرة . وعندما تكرر طلب الاستغاثة بالأمير تميم بن المعز بن باديس أرسل قواته ، ولكن أهل الجزيرة كرروا نفس الطلب بعودة هذه القوات ، فضعف أمراء المسلمين فى الجزيرة واضطربت أحوالها السياسية فى وقت كانت الأحوال السياسية فى أوربا الغربية مواتية تماما للقضاء على الإسلام والمسلمين فى هذه الجزيرة(١).

ذلك أن البابوية فى روما كانت قد أدركت أهمية جنوب إيطاليا ، ومن ثم تعاقدت مع النورمان الذين كانوا قد سيطروا على هذه المنطقة فى ذلك الحين وحالفتهم ، ووقعت إتفاقية معهم فى عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، رغم ما كان هناك من عداء قديم بين الطرفين . ولكن سياسة البابوية فى الإصلاح اقتضت الاتفاق معهم ، لأنها رأت أن المضى فى إصلاح الكنيسة يقتضى أن تكون البابوية مستقلة عن الإمبراطور الألمانى وبعيدة أيضاً عن سيادة ارستقراطية روما فى نفس الوقت . وللتخلص من هذه السيطرة أدركت البابوية أن النورمان هم الأداة التى تمكنها من الوقوف أمام كل من الإمبراطورية وارستقراطية روما . وعلى هذا الأساس تم فى مدينة أمالفى فى أغسطس عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م اللقاء بين البابا نيقولا الثانى والزعيمين النورمانيين ريتشارد كونت كابوا ، وروبرت جويسكارد دوق أبوليا وكالابريا، وتلقى البابا يمين الولاء من هذين الزعيمين واعترف بما أنشآه من أمارات ، فمنح ريتشارد تقليدا بإمارة كابوا ، وبذل لروبرت تقليدا بدوقية أبوليا وكالابريا

---

(١) عن تفاصيل الصراع بين المسلمين بعضهم البعض فى صقلية ، انظر : ابن الأثير : جـ١٠ ص١٩٥ - ١٩٨ ، النويرى : جـ٢٤ ، ص٣٧٩ - ٣٨٢ ، العرينى : الدولة البيزنطية ، ص٧٠٤ - ٧٠٥ .

وصقلية(١) وفى رواية أخرى أنه وعدهما بأن يجعل لهما السيادة على ما يستوليان عليه من صقلية(٢) التى استولوا عليها فيما بعد . ويبرر المؤرخون الأوربيون ذلك بقولهم أن البابا استند فى ذلك إلى ما يعرف بهبة قسطنطين التى شرحها بعد ذلك البابا أوربان الثانى والتى تقضى بأن جميع الجزائر الواقعة فى البحر المتوسط تدخل فى نطاق أملاك القديس بطرس بمقتضى هذه المنحة(٣) .

ويعنينا أن هذا الوفاق الذى تم بين البابوية والنورمان جعل الآخيرين يصبحون حلفاء للكنيسة الرومانية المقدسة . وكان أن تعهد جويسكارد بأن يؤدى للبابا جزية سنوية ، وأن يكون مخلصا لكل من البابا والكنيسة ، وأن يكون حليفاً للكنيسة الرومانية المقدسة ؛ كما تحافظ هذه الكنيسة على حقوق القديس بطرس وممتلكاته وأن يساعد البابا على البقاء على كرسى روما الرسولى ، إلى غير ذلك من الوعود والشروط(٤) .

وبمقتضى هذا التحالف ونتيجة لاعتراف البابا بملكية النورمان لصقلية، وهو أمر لم يكن قد تم بعد كما قلنا ، تحفز هؤلاء النورمان لتحقيق هذه الأمنية . ذلك أن صقلية صارت موضع الأغراء لزعيمهم روبرت جويسكارد وأخيه روجر فد خلاها بجنودهما وتمكنا فى عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م من احتلال مدينة مسينا وكل الجزء الساحلى الذى يواجه الطرف الجنوبى لكالابريا، مستفيدين من الانقسام الذى دب بين المسلمين والذى سبق أن أشرنا إليه.

---

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ، ص٧١٢ ، ٧١٤ - ٧١٦ .

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٣٦ .

(٣) العرينى : الدولة البيزنطية ، ص٧١٧ .

(٤) المرجع السابق ص٧١٦ .

وتحالف النورمان مع ابن الثمنة الذى كان يناصب أمير بلرم العداء ، والذى ساعدهم فى تحقيق هذه الانتصارات والسيطرة على هذه الاجزاء من صقلية وإنزال الهزيمة بجيش إسلامى عند قصريانه ، كما ساعدهم أيضاً المسيحيون الصقليون الذين كانوا يسكنون الجزء الشرقى من صقيلة حيث كانوا يشكلون شطراً كبيراً من السكان فى هذا الجزء من الجزيرة(١) .

غير أن الخلاف الذى نشب بين الأخوين روبرت وروجر عرقل سقوط الجزيرة فى أيديهما فترة من الزمن . ولما عاد الوفاق بينهما استأنفا غزو الجزيرة ، فأنزلا فى عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م الهزيمة بقوات أيوب بن تميم الزيرى الذى كان المسلمون فى صقلية قد استنجدوا بأبيه كما سبق القول . ولما دب النزاع بين الصقليين وأيوب ، عاد الأخير بجيشه إلى إفريقية فى عام ٤٦١هـ / ١٠٦٨م كما سبقت الأشارة ، فاضطربت أحوال المسلمين فى صقلية ، وعزم روبرت وأخوه على إتمام غزوها فأعدا أسطولاً من ست وخمسين سفينة لتحقيق هذا الغرض ، وتمكنا بواسطة هذا الأسطول وبمساعدة بحرية من بيزة وجنوة من مهاجمة بلرم العاصمة فسقطت فى أيدى النورمان عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م ، كما سقطت بقية المدن عدا مدينتى جرجنت وقصريانه . ولم يحفل تميم بن المعز أمير القيروان بما جرى فى صقلية ، بدليل أنه عقد مع روجر معاهدة تحالف وصداقة عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م(٢) .

---

(١) الحميرى : ص ٣٦٦ ، العرينى : الجولة البيزنطية ، ص ٧٥٤ ، الشرق الأوسط جـ١ ص١٣٦ .

(٢) ابن الأثير :جـ١٠ ص١٩٨ ، النويرى : جـ٢٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٣٦ ، ١٣٧ .

غير أن تمرد أتباع روبرت جويسكارد فى أبوليا ، وما كان من الخصومة التى ظهرت من جديد مع البابوية فى عهد البابا أسكندر الثانى (١٠٦١ - ١٠٧٣) وجريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) بسبب حرص البابوية على وقف توسع النورمان فى جنوب إيطاليا ، وهو توسع كان يشكل خطورة على البابوية فى ذلك الحين وتسبب فى إصدار قرار الحرمان ضد هؤلاء النورمان فى عام ٤٧١هـ / ١٠٧٨م ، هذه الأحوال أخرت استيلاء النورمان على هاتين المدينتين . ولم يحدث هذا الاستيلاء إلا بعد عودة الوفاق بين النورمان والبابوية مرة أخرى فى عهد البابا جريجورى السابع الذى سعى إلى الاتفاق مع روبرت جويسكاد خوفًا من أن ينحاز إلى غريمه الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع الذى حرمه البابا هو الآخر من الكنيسة فى عام ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م .وبمقتضى هذا الاتفاق الذى تم فى يونية من نفس العام وعرف باسم اتفاقية شبرانو أقسم روبرت يمين الإخلاص للبابا وحلف بأن يكون رجله أى تابعًا له ، وأن يسانده فى الدفاع عن البابوية . أما البابا فقد أعترف لروبرت بالسيادة على كل البلاد التى فتحها ، فعين الأخير أخاه روجر فى حكم صقلية . وعندما مات روبرت فى عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م انفرد روجر بحكم هذه الجزيرة(١) ، وأخذ يعد العدة لإتمام غزوها فسقطت فى يده مدينة جرجنت عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م ، وقريانه عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد أن حاصرها النورمان "وضيقوا على المسلمين حتى أكلوا الميتى وعدموا ما يأكلونه ، وملك رجار الجزيرة كلها أسكنها الروم والفرنج (النورمان) مع المسلمين ، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا ولا فرنا"(٢).

---

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ، ص٧٥٥ ، ٧٦١ - ٧٦٢ .

(٢) ابن الأثير :جـ١٠ ص١٩٨ ، النويرى : جـ٢٤ ص٣٨٣ ، الحميرى ص٣٦٦ - ٣٦٧.

كان هذا هو موقف البابوية من صقلية حتى سقطت فى أيدى حلفهائها النورمان ، وهى العملية التى بدأت فى عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م ، وأكملت فى عام ٤٨٤هـ ١٠٩١م . وكما رأينا فأن غزوات النورمان فى صقلية فى العامين المذكورين لم تحدث إلا بعد الأتفاق مع البابوية ، وبعد أعتراف البابوية وتشجيعها وتحريضها للنورمان على هذه الغزوات التى انتهت بسقوط الجزيرة وخروجها من عالم الإسلام .

* * *

ولم تكتف البابوية وأتباعها من الملوك والأمراء الصليبيين بالإغارة على البلدان الإسلامية فى غرب البحر المتوسط وأسقاط بعض مدن المسلمين وممالكهم على نحو ما رأينا فى تلك المنطقة ، بل أنها وجهت نظرها أيضًا إلى شمال إفريقيا بعد أن رأت أن المسلمين هناك هم مصدر القوة بالنسبة للمسلمين فى الأندلس وصقلية وغيرها من بلدان الغرب الإسلامى . وقد أتضح ذلك أثناء موقعة الزلاقة التى حدثت عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وهزم فيها الأسبان ومن جاء لمساعدتهم من الصليبيين الآخرين هزيمة منكرة ، بفضل مساعدة المرابطين الأفارقة لأخوانهم مسلمى الأندلس(١) لذلك صممت البابوية على مهاجمة الشمال الأفريقى ، ولكنها لم تجرؤ ومعها الصليبيون على مهاجمة السواحل المغربية التى كانت تحظى بحماية البحرية المرابطية ،

---

(١) عن موقعة الزلاقة وطابعها الصليبى ، انظر : ابن الكردبوس : ص٨٥ ، الحميرى : ص٢٨٧ - ٢٩٢ ، رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية ص٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ - ٤٠٢ ، ٤٤٩ ، محمد عبد الله عنان : ص٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، دوزى ملوك الطوائف ، ص٢٥١ ، ٢٩٦ ، ملحمة السيد : ص١٤٤،١٤٧، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٠ ص٣٧٠.

وفضلوا أن يهاجموا السواحل التونسية البعيدة التى لم تشملها حماية المرابطين أو لم تكن تحت سيطرتهم أو داخلة ضمن دولتهم . وكانت تحكم هذه السواحل أسرة بنى زيرى الصنهاجية ، وهى أسرة كان قد ضعف أمرها وخاصة منذ أن أصطدمت بالخلفاء الفاطميين فى مصر ، وخلعت طاعتهم ودعت لخلفاء بنى العباس ، فبادرها الفاطميون بأرسال عرب سليم وهلال تأديبا له على هذا التمرد وذلك الأنفصال . وقد دخل هؤلاء الغزاه فى حروب عديدة مع هذه الإمارة ، مما أدى إلى تقلص سلطانها حتى صار قاصرا على مدينة المهدية وما يحيط بها ، فى حين تملك العرب بقية المدن والقرى . وهكذا قام حكم شبيه بحكم ملوك الطوائف الذى كان قائمًا فى بلاد الأندلس فى ذلك القرن أعنى القرن الحادى عشر للميلاد ، مما أدى إلى ضعف البلاد وجعلها لقمة سائغة أمام المغيرين من الصليبيين الغربيين(١) الذين دهموا المهدية فى عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م(٢) .

وكان حاكم المهدية عندما دهمها هؤلاء الصليبيون هو الأمير تميم بن المعز بن باديس (٤٥٤ - ٥٠١هـ / ١٠٦٣ - ١١٠٧م) . وكان هذا الأمير قد فقد معظم أراضى مملكته - أفريقية - على يد العرب والبربر الطامعين كما أشرنا ، فتوجه إلى النشاط البحرى لجهاد الفرنج والروم الذين أكثروا

---

(١) ابن عذارى : جـ١ ص٢٨٨ - ٢٤٩ ، ٢٩٦ - ٢٩٧ ابن الأثير : جـ٩ ص ٥٦٦ - ٥٧٠ .

(٢) المهدية مدينة بدأ عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين فى بنائها فى عام ٣٠٣ وأكتمل البناء فى عام ٣٠٨هـ ، وهى مدينة بحرية وحصينة جدًا ، ويجوارها مدينة تسمى زويلة بناها المهدى لسكن الحرفيين والتجار الذين يعملون فى المهدية وعن المهدية ، انظر : البكرى المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، القاهرة ، بدون تاريخ ص٢٩ - ٣١ ، الأدريسى ، جـ١ ص٢٨١ ، الحميرى : ص٥٦١ - ٥٦٢ .

العدوان على بلاد المسلمين فى الغرب الإسلامى(١). وقد اعتبر الكتاب الأوربيون نشاط الأمير تميم فى هذا المجال رغم مشروعيته قرصنة ، وقالوا عن صاحبه أنه " قرصان ذائع الصيت أشاعت هجماته البحرية الرعب فى أنحاء بعيدة من البحر المتوسط ، واستعبد الكثير من الأسرى المسيحيين ، وعامل بقسوة تجار بيزة ، وكان لا بد من الانتقام من هذه الأهانات "(٢) .

ويعنينا فى بحثنا أن البابوية هى التى دعت لشن حرب صليبية ضد المهدية وحاكمها الأمير تميم . وكان البابا فيكتور الثالث (١٠٨٧ - ١٠٨٨م) هو الذى أعطى أشارة البدء لهذه الحرب ، وعين على رأس الحملة قائدًا من رجال الدين هومندوبه البابوى القائد بندكتس Praesul Benedictus أسقف موريتا . واشترك فى الحملة جنود من الجيش البابوى تحت أمرة بانتاليون الأمالفى . وقد قدرت المصادر العربية تعداد الجيش فى هذه الحملة بحوالى ثلاثين ألف رجلا حملهم أسطول بلغ عدد سفنه ما بين ثلاثمائة وأربعمائة سفينة حربية . وكان معظم أفراد هذا الجيش مكونًا من جنود بيزة وجنوة الإيطاليتين(٣) ، بالإضافة إلى القوات البابوية .

ويذكر هايد أن معظم الجند كانوا من جنوة وبيزة فضلاً عن أن أمالفى كانت مشاركه أيضاً فى هذه الحملة(٤) هذا فى حين يذكر النويرى أن الفرنج

---

(١) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ١٠ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) هايد : مرجع سابق ، جـ١ ص١٣٦ .

(٣) ابن عذارى : جـ١ ص٣٠١ ، النويرى : جـ٢٤ ، ص ٢٢٩ ، هايد : جـ١ ص١٣٦ ، العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٣٤ .

(٤) الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ص٢٩٩ .

اشتركـوا بجـانب الـروم(١) ويوجـز ابن الأثير ذلك كله فيقول أن الغزاة " اجتمعوا من كل ناحية " ويخص الروم والجنويين والبيزيين بالذكر ، ويقـول أن الروم اتفقوا على إنشاء الشوانى لغـزو المهديـة ، وأن الجنوييـن والبيزيين أقاموا يعمرون الأسطول أربع سنين(٢) .

وهكذا شاركت فى هذه الحملة جميع القوى الأوربية ذات الفعالية وعلـى رأسها البابويـة . وأتخـذت الحملـة صبغـة دينيـة واضحـة ، لدرجـة أن بعـض القوى ذات الطابع المدنى مثل المدن الإيطالية التى شاركت فى هـذه الحملـة ، كان على رأس قواتهـا رجـال ديـن . فمدينـة بيزة مثـلاً كـان رئيـس أسـاقفتها المدعو إيمبرت هو قائد أسطولها ، من أكـبر دعـاة الحـرب الصليبيـة ، ومـن أقرب الناس إلى البابا أوربان الثانى . ولم يقف دور رئيس أسـاقفة بـيزة هـذا عند حد المشاركة فى الحـرب الصليبيـة التـى قـامت ضـد المهديـة فـى شـمال إفريقيا عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م فحسب ، بل أنه قاد أسطوله أيضًا فى الحـروب الصليبية التى أندلعت فى المشرق الإسلامى بعد ذلك حيث توجـه علـى رأس أسطول بـيزى مؤلـف مـن مائـة وعشـرين سـفينة إلـى الشـام فـى صيـف عـام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م(٣) .

وكان أن انتهز الصليبيون الأوربيون فرصة غياب عسكر الأمـير تميـم عن المهدية فى حرب لـه مـع مدينتـى قـابس وسـفاقس بسـبب خروجهمـا عـن طاعته ، وفاجأوا المدينة قبل عودة هذا العسكر إليهـا . وأراد الأمـير تميـم أن ينهض إليهم عثمان بن سعيد قائد الأسطول بسفنه ليتعرض للغـزاة فـى البحـر

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٤ ص٢٢٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ، ص١٦٦ .

(٣) العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص٢٩٨ ، ٢٩٩ .

ويحول بينهم وبين النزول على البر ، ولكن أحد قواده وهو عبد الله بن منكوت نهاه عن ذلك ، لعداوة كانت بينه وبين قائد الأسطول ، الذى لو تمكن من تحقيق خطته وهزم الغزاه لعلا شأنه . ونتج عن هذه العداوات الشخصية فى ذلك الوقت العصيب أن تمكن الغزاة فعلاً من النزول على البر فنهبوا واحرقوا ودخلوا مدينتى زويلة والمهدية ونهبوهما وقتلوا الناس فيهما واحرقوهم بالنار " مما هو مشهور بالمهدية إلى الآن " كما يقول ابن عذارى(١) ، الذى عاش بعد ذلك بحوالى قرنين من الزمان .

أما الأمير تميم فقد اعتصم داخل قلعته حتى صالح الغزاه على دفع ثمانين ألف دينارًا على أن يردوا ما حازوه من أسرى المسلمين(٢) ،كما تعهد على نفسه بأن يسمح لتجار المدن التجارية التى شاركت فى هذه الحملة بدخول المهدية وما يتبعها من بلاد ، دون أن يؤدوا إليه أية ضريبة أو مكوس(٣) وبعد ذلك انسحب الغزاة .

* * *

وبعد ، فلعله يتضح من هذا العرض أن الحروب التى شنتها القوى المسيحية – وعلى رأسها البابوية – على ديار الإسلام فى غرب حوض البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر ، كانت حروبًا صليبية بروحها

---

(١) البيان المغرب ، جـ١ ص٣٠٠ – ٣٠١ ، ابن الأثير : جـ١ ص١٦٦ ، النويرى : جـ٢٤ ، ص٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢)النويرى : جـ٢٤ ، ص٢٣٠ أما ابن الأثير فقد قال بأن المال المدفوع كان ثلاثين ألف دينارًا ط الكامل جـ١٠ ص١٦٦ " وقدره ابن خلدون (جـ٦ ص٣٢٨) بمائة ألف دينار .

(٣) هايد : جـ١ ص١٣٧ ، العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٣٤ .

وأهدافها وفكرها وأحداثها . لقد تميزت هذه الحروب بمسحتها الدينية الواضحة وعدائها الصريح للإسلام وأهل الإسلام . وكان للبابوية – وهى رأس الكنيسة الغربية– دورها الأساسى فى الدعوة لهذه الحروب والإعداد لها وتحديد مساراتها . وهذا مما يجعلنا نتفق مع القائلين بأن المدخل الحقيقى للحروب الصليبية يرتبط بالغرب ، وأن ما حدث بعد ذلك من اتجاه التيار الصليبى نحو الشرق لم يكن إلا امتداداً لما حدث قبل ذلك فى غرب حوض البحر المتوسط(١) .

---

(١) العرينى : الشرق الأوسط ، جـ١ ص١٠٦ ، سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ١ ،ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

مكتبة البحث

أولاً : المصادر العربية

ابن الأبار (٥٩٥ - ٦٥٨هـ / ١١٩ - ١٢٦٠م) :

- الحلة السيراء ، جـ٢

تحقيق د. حسين مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣م

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) :

- الكامل فى التاريخ

دار صادر بيروت سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

الأدريسى (ت ٦٤٩هـ / ١٢٣م) :

- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مجلدان

مكتبة الثقافة الدينية القاهرة بدون تاريخ

ابن بسام (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) :

- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

القسم الرابع المجلد الأول لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م

البكرى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) :

- المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب

دار الكتاب الإسلامى القاهرة بدون تاريخ

الحميرى (جمعه عام ٨٦٦هـ / ١٤٦٣م)

- الروض المعطار فى خبر الأقطار

تحقيق د. أحسان عباس بيروت ط١ سنة ١٩٨٤م

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٢٠٥م) :

- تاريخ ابن خلدون جـ٤

دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨ م .

الضبى (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) :

- بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس

مدريد ١٨٨٤م

ابن عذارى (ق ٧ هـ / ١٣م) :

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ١ ، ٢

تحقيق كولان ليفى بروفنسال دار الثقافة بيروت بدون تاريخ

- البيان المغرب جـ٣

تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت بدون

- البيان المغرب جـ٤

تعليق د. أحسان عباس ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧م .

أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٢٩م) :

- تاريخه ، جـ١ ، ٢

القسطنطينية سنة ١٢٨٦هـ

ابن الكردبوس (ق ٦هـ / ١٢ م) :

- الأكتفاء فى أخبار الخلفاء

نشره أحمد مختار العبادى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ١٣ ، عام ٦٥ / ١٩٦٦م .

المقدسى (ت ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م) :

- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم

ليدن سنة ١٩٦٧م

المقرى (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) :

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

المطبعة الأزهرية ط١ سنة ١٣٠٢هـ

مجهول :

- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس

تحقيق إبراهيم الأبيارى دار الكتاب المصرى واللبنانى القاهرة سنة ١٩٨١م

النويرى (٦٧٧ - ٧٣٣هـ / ١٢٧٨ - ١٣٣٢م) :

- نهاية الأرب فى فنون الأدب

جـ٢٣ تحقيق د. أحمد كمال زكى الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م

جـ٢٤ تحقيق د. حسين نصار الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٣م.

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٣٠م) :

- معجم البلدان

دار صادر بيروت بدون تاريخ

ثانيًا : المراجع العربية والمعربة

أسعد حومد : (دكتور) :

- محنة العرب فى الأندلس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط٢ سنة ١٩٨٨م .

أحمد الشناوى وآخرون : (مترجمون)

- دائرة المعارف الإسلامية

حسين مؤنس : (دكتور)

- فجر الأندلس

الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ط١ سنة ١٩٥٩م .

خليل إبراهيم السامرائى : (دكتور)

-الثغر الأعلى الأندلسى

رسالة ماجستير غير منشورة بغداد سنة ١٩٧٦م .

دوزى :

- ملوك الطوائف

القاهرة ط١ سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م .

- المسلمون فى الأندلس

جـ٢ ترجمة د. حسن حبشى الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤م

رجب محمد عبد الحليم : (دكتور)

- العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف

دار الكتاب اللبنانى والمصرى القاهرة ١٩٨٥م

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

- أوربا العصور الوسطى جـ١ (التاريخ السياسى)

مكتبة الأنجلو المصرية ط٢ سنة ١٩٦١م .

- أوربا العصور الوسطى جـ٢ (النظم والحضارة)

دار النهضة العربية ط٢ سنة ١٩٦٣م

- الحركة الصليبية (جزءان) مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية ١٩٧١

- النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (بالاشتراك مع د. محمد أنيس)

القاهرة ط٢ سنة ١٩٦٠م

العرينى (السيد الباز) : (دكتور)

- الحضارة والنظم الأوربية فى العصور الوسطى
  القسم الأول دار النهضة العربية سنة ١٩٦٣م .
- الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م)
  دار النهضة العربية سنة ١٩٦٠
- الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـ١ (١٠٥٠ - ١١٩٣م)
  دار النهضة العربية سنة ١٩٦٣م

السيد عبد العزيز سالم : (دكتور)

- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس
  مؤسسة شباب الجامعة الأسكندرية سنة ١٩٦١م

الطاهر أحمد مكى : (دكتور)

- ملحمة السيد
  دراسة مقارنة ترجمة د. الطاهر أحمد مكىدار المعارف ط٢ سنة ١٩٧٩م

عبادة كحيلة : (دكتور)

- تاريخ النصارى فى الأندلس
  القاهرة ط١ سنة ١٩٩٣م

عبد العظيم رمضان : (دكتور)

- الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية
  دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٣م .

محمد عبد الله عنان :

- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى
  لجنة التأليف والترجمة والنشر ط١ سنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠ م .

هايد :

- تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ١

تعريب أحمد محمد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م

يوسف أشباخ :

- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين

تعريب محمد عبد الله عنان القاهرة سنة ١٩٤٠م

المراجع الأجنبية :

Chapan, (Charles, E)

- A History of Spain, U. S. A., 1931 .

Dozy :

- A History of the Moslems in Spain, London 1913 .

Livermore (Harlod) :

A History of Spain, London 1958 .

دور الأندلسيين والمغاربة في الحروب الصليبية على مسرح الشام ومصر

د. علي أحمــــد(*)

في الحديث عن المســاهمات الأندلسية والمغربية في عملية الجهـاد ضد الصليبيين على مسرح بلاد الشام - مصــر ، فـي عصـر الحـروب الصـــليبية ، لابد من الإشــارة أولاً إلى أن الأندلسـيين والمغاربـة الذيـن أسـهموا في تلك العملية ، غـادروا بلادهـم إلـى المشــرق الإســلامي مهاجرين ينشدون الاستقرار والحياة الآمنة ، ولم يغادروها مستهدفين الحرب والجهاد .

وقد دفعتهم إلى هذه الهجرة عوامل متعددة ، داخلية وخارجية . فمن العوامل الداخلية عدم الاستقرار ، وما ألم بالمجتمع الإسلامي في الغرب من قلق واضطراب وانقسامات حادة ، ارتبطت في التاريخ بقيـام ملوك الطوائف ثم قيام حكم المرابطين بين سنتي ٤٨٥ ، ٥٤١هـ (١٠٩٢ - ١١٤٦م) ثم حكم الموحدين بين سنتي ٥٤١ ، ٦٦٨هـ (١١٤٦ - ١٢٧٠م) . ولا يخفى علينا أن كل عهد من هذه العهود وكل دولة من تلك الدول كـان لهـا أنصارهـا وأتباعهـا والمؤيدون لهـا والمعـارضون لغيرهـا ، ممـا أوجـد أحزابـاً وأثـار خصومات على أرض الأندلس بين المسـلمين بعضهم وبعض وربمـا جاءت هذه الخصومات مصحوبة بتباين في فهم العقيدة وتطبيقها ، فبينما كانت حركة المرابطين - مثلاً - حركة فقهية مالكيـة ، مَثَلهـا الأعلـى تطبيق الشـريعة الإسلامية وفق أحكام المذهب المـالكي ، إذا بحركـة الموحديـن تجـع بيـن كـل

(*) أستاذ مساعد - كلية الآداب - جامعة دمشق .

تيارات الفكر الإسلامى المعاصر(١) وهكذا ظهر فى الأندلس بعد قيام حكم المرابطين جماعة تدين بالولاء السياسى للحكم البائد ممثلاً فى ملوك الطوائف، كما ظهر للمرابطين مؤيدون عارضوا حكم الموحدين . ولا شك فى أن هذه التيارات المعارضة كان لها أثرها فى إثارة التصدع فى بناء المجتمع ، بحيث لم يمكن توفير الاستقرار فى عهدى المرابطين والموحدين سواء .

وهذا الوضع من عدم الاستقرار دفع بعضهم إلى الهجرة وترك البلاد وخاصة نحو الشرق . ومن هؤلاء المهاجرين نذكر على سبيل المثال والد أبى بكر بن العربى ، الذين كان أحد الرجال الأقطاب المعروفين فى إشبيلية ، ولكنه غادرها على أثر سقوط دول الطوائف خوفاً من المرابطين(٢) وعند سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين ، هاجر بعض من ينتمون للمرابطين ، مثل أمين الربوة ، الذى تحدث عنه الرحالة الأندلسى ابن جبير عند زيارته لمدينة دمشق ، أواخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وصوره فى صورة الحاكم الذى يشعر بمسئوليته تجاه رعاياه ، فكان يعمل لتدبير أمور القادمين من الأندلسيين ، الذين أصبحوا بدون أرض ولا مأوى فيقول : " والأمين فيها (أى الربوة) الآن من بقية المرابطين المسوفيين(٣) ومن أعيانهم يعرف بأبى الربيع سليمان بن إبراهيم ابن مالك ،

---

(١) أحمد بدر : المغرب والأندلس - طبعة جامعة دمشق ص ١٥٣ (١٩٧٤-١٩٧٥) .

(٢) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج٢ تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ ص ٣٤ .

(٣) المسوفيون نسبة إلى مدينة مسوف من بادية التكرور - انظر : تحقيق حسين نصار لرحلة ابن جبير ، ص ٢٦٦ .

وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله فى الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة ، وهم متسم بالخير ومرتسم به ، وهو متعلق بسبب من أسباب البر فى إيواء أهل المغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعايش من إمامة فى مسجد أو سكنى بمدرسة ، تجرى عليه فيها النفقة ، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع ، يجبى إليه فيها رزقه ، أو حضور فى قراءة سبع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه ، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحة "(١) .

ولعل أوضح مثال على اضطراب الحالة السياسية فى الأندلس عندئذ ما جاء على لسان الوهرانى بعد سقوط دولة المرابطين إذ يقول : " لما تعذرت مآربى واضطربت مغاربى ، ألقيت حبلى على غاربى ، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتى ومن أخلاق الأدب رضا عنى ... "(٢) وقد عبر الوهرانى عن كرهه الشديد للموحدين من خلال إجابته عن سؤال حول رأيه فى عبد المؤمن بن على الموحدى وأولاده وسيرته ببلاده فقال : " مؤيد من السماء ، خواض للدماء ، مسلط على من فوق الماء ، حكم سيفه فى المعمم ، وأعمه فى رقاب الأمم ... ولو أن للعلم لساناً والورقة إمناناً لتألمت وتظلمت ولأنشدتك فى الملا قول الشيخ أبى العلا :

جلوا صارماً وتلوا باطلاً　　　وقالوا صدقنا فقلنا نعم

---

(١) رحلة ابن جبير الأندلسى طبعة بيروت سنة ١٩٥٩ ص ٢٥٠ وانظر : أيضاً ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٩ طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ ص ٢٨٩ .

(٢) منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله ، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نفش طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ ص ١٠.

ولكن السكوت على هذا أرجح ومسالمة الأفاعى أنجح "(١) .

ومن المعروف أن الموحدين نظروا إلى الذين خالفوهم فى الأفكار والمبادىء نظرة معادية ، اتسمت بالحقد والكراهية ، فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار الذعر والخوف ، فى نفوس كثيرين . من ذلك ما حدث لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن فيرة القرطبى ، الذى وصف المقرى أحواله فى كتاب نفح الطيب بقوله : " وخرج فى الفتنة بعدما علا ذكره فى قرطبة ، وأقام بالأسكندرية خوفاً من بنى عبد المؤمن بن على . ثم قال ، كأنى والله بمراكبهم قد وصلت إلى الأسكندرية ثم سافر إلى مصر ، وأقام بها مدة ، ثم قال : فوالله ، ما مصر والأسكندرية ، بمتباعدتين ، ثم سافر إلى الصعيد ، وحدّث بقوص بالموطأ ثم قال: والله ما يصلون إلى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد، فمضى إلى مكة وأقام بها ثم قال : ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون، ما أنا إلا هربت منه إليه ، ثم دخل اليمن ، فلما رآها قال : هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن ، فتوجه إلى الهند حيث أدركته منيته بها سنة ٥٥١هـ / ١١٤٧م وقيل مات باليمن "(٢) .

وبالإضافة إلى هذه الأوضاع الداخلية القلقة التى دفعت بكثير من الأندلسيين إلى الهجرة ، وجدت عوامل أخرى خارجية تمثلت فى الزحف الأسبانى الجاد والمنظم باتجاه معاقل المسلمين فى الأندلس ، والاستيلاء عليها واحداً تلو الآخر وبشكل نهائى . ولم تحل سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م حتى وقعت معظم المدن الأندلسية الكبرى تحت وطأه الاحتلال الأسبانى ، إذ استولى

---

(١) الوهرانى المصدر السابق ص ١١ .

(٢) نفح الطيب - المصدر السابق ج٢ ص ٢٤٠ وانظر : أيضاً ابن فرحون - الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب طبعة أولى مصر ١٣٥١هـ ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

الأسبان على لوشة وبطليوس وقرطبة وشاطبة وبلنسية ومرسية وإشبيلية ، وعلى شلب وطلبيرة . وهكذا لم يبق بيد المسلمين غير غرناطة وضواحيها تحت حكم بنى الأحمر . وليت الأمر توقف على الاحتلال فحسب ، بل تبعته إجراءات قاسية ، حيث فرضت على كل من أثر البقاء من المسلمين فى مدنهم شروط بلغت حداً من الإهانة والشراسة ما لا يطاق بأى حال من الأحوال ، فقد أجبروهم على وضع إشارة على ثيابهم تميزهم عن غيرهم من السكان ، وإنه لا يجوز لمسلم أن يستخدم مسيحياً على الإطلاق ، ومن يخالف هذا الأمر تصادر أملاكه ، ومن يفر منهم إلى بلاد المسلمين ، يعد أسيراً فى حال القبض عليه ، وبالتالى يصبح ملكاً لمن قبض عليه من الأسبان ، إلى غير ذلك من الإجراءات الظالمة غير الإنسانية(١) .

وتحت تأثير هذه العوامل مجتمعة أصبحت الهجرة جماعية أكثر من أى وقت مضى ، وهذا ما يظهر بجلاء من خلال تتبع الأندلسيين ، الذين وفدوا إلى بلاد المغرب ، أو الذين وفدوا إلى المشرق العربى ، وذلك فى الفترة التى تبدأ من نهاية الثلث الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . ففى هذه الفترة كثرت أعدادهم بشكل يستلفت النظر ، لا يمكن مقارنته بما حدث فى الفترة السابقة ، وبخاصة على صعيد بلاد الشام ومصر موضوع هذا البحث .

ومهما يكن الأمر ، فقد ارتبطت بهذه العوامل نتيجة واحدة ، تجلت فى ضياع الجزء الأكبر من أرض الإسلام فى الأندلس ، وبالتالى تشريد وإجبار أعداد كبيرة من الأندلسيين على النزوح عن أرضهم إلى بلدان عربية

---

(١) محمد لبيب البتنونى – رحلة الأندلس طبعة أولى مطبعة الكشكول سنة ١٩٢٧ ص ١٣٧ .

وإسلامية متعددة ، ولا سيما بلاد المشرق بوجه عام ومصر والشام بوجه خاص . وعندما اقتصر حكم العرب فى الأندلس على غرناطة وضواحيها ، لم ينعم أهلها من المسلمين بالاستقرار الحقيقى الكامل ، إنما غلب القلق وعدم الاستقرار على حياتهم العامة ، بسبب الحروب ، التى لم تنقطع تقريباً بينهم وبين الأسبان . وظل الأمر على ذلك حتى سقوط غرناطة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، لذلك استمر النزوح منها تحت تأثير هذه العوامل .

وفى مقابل هذه العوامل السلبية القاهرة ، التى حدثت على الساحة الأندلسية بشكل خاص ، كانت هناك عوامل مشجعة وإيجابية فى كل بلدان المشرق العربى ، ساعدت المهاجرين المغاربة والأندلسيين على الإقامة والعيش بأمان واطمئنان ، مثلهم فى ذلك مثل السكان الأصليين . ذلك أن جميع العوامل الطبيعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وربما النفسية ، كانت أكثر ملاءمة وتوافقاً لسكنى وإقامة هؤلاء المهاجرين ، وبخاصة فى مصر والشام . فمصر على سبيل المثال ، كانت تقع على طريقهم الرئيسى إلى الحج، هذا بالإضافة إلى غنى البلاد ووفرة الموارد المختلفة ، وحرية الاختيار فى السكن والإقامة فى أية بقعة من بقاعها . يضاف إلى هذا أن مصر غدت منذ أوائل النصف الثانى من القرن السابع الهجرى – الثالث عشر الميلادى – مستقر سلاطين المماليك والخلفاء العباسيين ، ومن أحاط بهم من رجال الدولة. ويمكن القول أنها شغلت مكانة كبيرة منذ وصول صلاح الدين الأيوبى إلى الحكم خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، مما جعلها مأوى صالحاً للإقامة أمام الأندلسيين . وكذلك الأمر بالنسبة لبلاد الشام ، التى كانت ملائمة لإقامة المهاجرين من الأندلسيين والمغاربة من جميع النواحى ، ولا سيما الطبيعية والاقتصادية ، ففيها توافرت سبل العيش ، إضافة إلى

معاملة الأهالى ، هذه المعاملة التى تميز بها الشاميون وأهل المشرق بوجه عام . ويبدو أن الشام كانت أكثر تميزاً وملاءمة فى ضوء ما ذكره بعض زوار مصر والشام فى تلك الفترة ، وبخاصة ابن سعيد المغربى الذى قال عندما كان فى صدد المقارنة بين مصر والشام ، ونقل ذلك عنه المقرى فى كتاب نفح الطيب ، إن المصريين : " وسائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول ، إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر ، وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف ، وهم فى القدوم عليها بين حالين : إن كان المغربى غنياً طولب بالزكاة ، وضيقت عليه السعاة، وإن كان مجرداً فقيراً حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول"(١)، على أن هذه الصعاب لم تشكل عقبة دائمة إذ الواضح أن مصر والشام بوجه عام توافرت فيهما ، عوامل مشجعة لأهل الأندلس للنزوح إليهم والإقامة فيهما منها النواحى الطبيعية ، فيما يتعلق بأحوال المناخ والطقس السائد فى هذه البلاد ، وتشابهه مع ما كان معروفاً فى عديد من المناطق الأندلسية ، مما جعل الاستقرار سهلاً ومقبولاً بالنسبة للأندلسيين القادمين إليهما(٢) .

وبالإضافة إلى النواحى الطبيعية ، كان للعامل الدينى أثره فى استقرار الأندلسيين والمغاربة فى المشرق بشكل عام ومصر والشام بشكل خاص . ذلك أنه وردت فى كتب الصحاح وغيرها عدة أحاديث نبوية نوهت بمكانة مصر الشام(٣) كذلك تحتل العوامل السياسية فى مصر والشام دوراً فعالاً فى

---

(١) المقرى - المصدر السابق ج٢ ص ٣٤٨ .

(٢) انظر : تفصيل ذلك فى كتاب نفح الطيب للمقرى ج١ ص ٢٣٧ و ٢٠٩ .

(٣) انظر بعض هذه الأحاديث فى ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - مجلداً تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة دمشق ١٩٥١ ص ١٣٧ - السلمى - ترغيب أهل الإسلام فى سكنى الشام-صححه ونشره أحمد سامح الخالدى طبعةالقدس سنة١٩٤٠ ص١١.

هذا المجال ، فقد اتصفت الأوضاع في هذين البلدين بالأمن والاستقرار منذ الحكم الفاطمي خلال الثلث الأخير من القرن الخامس الهجرة / الحادى عشر الميلادى ، وبخاصة فى المدن التى لم تقع تحت الاحتلال الصليبى كدمشق والقاهرة . وتبلورت الملامح الأولى لهذه الظاهرة فى ظل حكم البوريين فى مدينة دمشق ، وهو الحكم الذى استمر حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجرة / الثانى عشر الميلادى ، وفى ظل حكم الزنكيين قبل ظهور نور الدين زنكى فى مدن المنطقة الوسطى والشمالية ، والشمالية الشرقية من بلاد الشام . وكذلك الحال على أيام صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، مما جعل الأندلسيين والمغاربة يقصدون هذه البلاد ويستقرون فيها دون خوف أو حرج فى ظل أحكام السنة والشرع ، وعدم اللجوء إلى الجدل فى الأمور الدينية . ومما يعكس هذه الصورة ما يرويه المؤرخ الدمشقى المعاصر ابن القلانسى فى حوادث سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٩م إذ يقول : " فى رجب من هذه السنة أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم فى الجامع المعمور بدمشق على جارى العادة والرسم فبدا من اختلافهم فى أحوالهم وأعراضهم ، والخوض فيما لا حاجة إليه من المذاهب ، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال ، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد مطمح سفهاء الأوغاد "(١) .

وخلال الفترة التالية ، أى الفترة الزنكية النورية والأيوبية والمملوكية غدت الظروف أكثر إيجابية ووضوحاً ، ففى الوقت الذى كانت الأندلس على شفا الانهيار ، وتعانى من اضطرابات سياسية حادة مؤلمة ، كانت مصر والشام قد قطعت شوطاً بعيداً على طريق الوحدة والوئام والاستقرار ، الأمر الذى ساعد النازحين الأندلسيين على العثور على المأوى البديل(٢) .

---

(١) ابن القلانسى - ذيل تاريخ دمشق طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٣٠١ .

(٢) صلاح الدين المنجد - المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين طبعة أولى بيروت سنة ١٩٦٣ ص ٢٢ .

وكان أن قدم نور الدين محمود كل التسهيلات للأندلسيين القادمين من الأندلس والمغرب ، فأحسن وفادتهم ، وأنزلهم أحسن المنازل ، بل لقد فضلهم فى كثير من الأحيان على السكان الأصليين الأمر الذى استرعى الرحالة ابن جبير الأندلسى فقال : " ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى ، أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين. وأخبرنى أحد المغاربة ، أن هذا الوقف المغربى ، يغل إذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار ... "(١) .

وما حدث زمن نور الدين ، حدث مثله فى عهد صلاح الدين ومن جاء بعده من الأيوبيين والمماليك . نضرب على ذلك مثلاً مما قاله الرحالة ابن بطوطة عند زيارته للمشرق العربى ، وبالذات لمدينة دمشق : " .. كان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصرانى ، من عادته أنه متى سمع أن مغربياً وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافة وأحسن إليه ، فإن عرف عنه الدين والفضل أمره بملازمته ، وكان يلازمه منهم جماعة ، وعلى هذه الطريقة علاء الدين بن غانم وجماعة غيره "(٢) .

أما العوامل الأخرى الاقتصادية والعلمية ، فقد توافقت هى الأخرى مع مصالح الأندلسيين وتوجهاتهم وتطلعاتهم العامة ، لأن الشام ومصر كانتا من البلدان الغنية فى هذين الجانبين ، مما ساعد الأندلسيين والمغاربة على مباشرة أعمال مناسبة ، سواء كان ذلك فى الزراعة أو الصناعة أو التجارة . وكذلك الأمر فى الميدان العلمى ، حيث كانت مراكز العلم من مدارس

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٥٧ .

(٢) ابن بطوطة الرحلة ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

ومكاتب وزوايا وخوانق متوفرة بشكل لا مثيل له فى مكان آخر ، ولا سيما فى المدن الكبرى كدمشق والقاهرة وحلب وبيت المقدس . وقد صور ابن جبير ذلك تصويراً واقعياً رائعاً بقوله : " وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ناعم البال ، وينهال الخير عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى ... "(١) ثم يتابع قوله : "...فهذا الشرق بابه مفتوح لذلك ، فأدخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ، ولو لم يكن بهذه البلاد الشرعية كلها ، إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها ، فإنك تجد من يبادر إلى كرم الضيف عجباً ، كفى بذلك شرفاً لهم "(٢) وبالجملة فقد ساعدت جميع العوامل سابقة الذكر الأندلسيين والمغاربة وأثّرت فيهم بشكل جعلهم يقبلون على بلدان المشرق ، وبخاصة مصر والشام ، وبصورة مستمرة . وقد عمل المهاجرون من الأندلس والمغرب خلال وجودهم فى المشرق فى شتى مجالات الحياة العامة دون استثناء ، مثلهم فى ذلك مثل بقية سكان المنطقة الأصليين . وانطلاقاً من ذلك لم يكونوا بعيدين عن المعارك التى خاضها المسلمون ضد الصليبيين . ومن العوامل التى دفعتهم إلى المشاركة فى محاربة الصليبيين فى الشام أنهم كانوا فى حروب شبه دائمة مع المسيحيين فى بلادهم قبل أن تنشب الحروب الصليبية فى المشرق(٣) . على أن المؤرخين لم يشيروا إلى هذه المشاركة بشكل مباشر ، بمعنى أنهم لم

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٥٩ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٥٨ وانظر : عن المنجزات العلمية الكثيرة التى شجعت الأندلسيين والمغاربة للإقامة فى المشرق .

(٣) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٨٥ .

يتحدثوا عن مجموعة معينة من المغاربة شكلت كتيبة مستقلة عن الجيش الشامى . وكل ما كتبوه حول هذا الموضوع ، اقتصر على إشارات إلى حوادث فردية ، باستثناء واحدة ذكرت بإسهاب ، ويبدو منها أن الأندلسيين والمغاربة ، شاركوا بجهد فعال فى الحرب ضد الصليبيين فى بلاد الشام ، ومن بعدهم ضد التتار . هذا فضلاً عن أن بعضهم قدم المال لتجهيز المقاتلين وإعدادهم للقتال . ذلك أنه حدث فى النصف الأول من القرن السادس الهجرة/ الثانى عشر الميلادى عندما حاول الصليبيون احتلال مدينة دمشق سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٩م إن اجتمع أهلها لتدارس الطرق والأساليب لمواجهة الموقف فى الدفاع عن مدينتهم ، وعندئذ ظهر أن يوسف بن دوباس المغربى الفندلاوى، كان أشدهم حماساً واستعداداً لخوض الحرب ، وذلك على الرغم من تقدمه فى السن . وقد اندفع للقتال غير عابىء بالنصيحة ، التى قدمها له حاكم دمشق معين الدين أنر ، إذ نصحه بعدم الاشتراك فى الحرب . ولكنه رد على حاكم دمشق قائلاً : قد بعت واشترى فوالله لا أقيله ولا استقيله وتلا الآية الكريمة ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ ؛ وظل يقاتل رحمه الله ، حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربوة ، وحمل جثمانه إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن(١) .

وكان يوسف بن دوباس هذا يلقب بأبى الحجاج المغربى ، قدم الشام وسكن بلدة بانياس مدة ، ثم انتقل إلى دمشق واستوطنها ، ودرّس بها بمذهب الإمام مالك بن أنس ، وحدث بكتاب الموطأ وغيره . وقد وصف بأنه شيخ

---

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ ، ياقوت الحموى معجم البلدان ج١٥ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ مادة فندلاو - العدوى الزيارات تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة دمشق سنة ١٩٥٦ ص ٦٢ - ٦٣ مرآة .

حسن المفاكهة ، حلو المناظرة ، كريم النفس ، قوى القلب ،صاحب كرامات.

وقد قيلت فيه أشعار كثيرة نختار منها ما قاله ابن الحكم الأندلسى :

بشط نهر داريا ... أموراً ما تواتينا

أتانا مائتا ألف ... عديداً أوْ يزيدونا

ورايات وصلبان ... على مسجد خاتونا

فقلنا إذ رأيناهم ... وقد جاؤا يريدونا

وشيخاً فندلاوياً ... فقيهاً بفضل الدينا

ولكن غادروا القسيس ... تحت الأرض مدفوناً(١)

ويعد الفندلاوى من الشخصيات المغربية ، التى طار ذكرها ، وخلد على صعيد مدينة دمشق ، فقد ذكر الذهبى من مؤرخى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى ، أن قبره على عهده ، كان ما يزال يقصد بالزيارة والتبرك ، على الرغم من مضى أكثر من مائتى عام على وفاته(٢) .

وهناك دليل أكثر وضوحاً وأهمية على اشتراك الأندلسيين والمغاربة فى الحرب ضد الصليبيين ، يبدو فى الملاحظة التى دونها الرحالة ابن جبير الأندلسى خلال زيارته لبلاد الشام فى الربع الأخير من القرن السادس

(١) سبط ابن الجوزى - مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - القسم الأول من الجزء الثامن - طبعة أولى حيدر آباد الدكن الهند ١٩٥ص ٢٠٠ - ٢٠١ وانظر : عنه أيضاً أبو شامة الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ ص ٥٢ .

(٢) الذهبى - العبر فى خبر من عبر ج٤ تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة الكويت سنة ١٩٦٣ .

الهجرى . وفى هذه المرة لم تتخذ مقاومة الأندلسيين للصليبيين بالشام شكلاً فرديا وإنما اتخذت صورة جماعية ، الأمر الذى جعل الصليبيين فى المغرب يلجأون إلى اتخاذ إجراءات مضادة للأندلسيين ، تجسدت بفرض ضريبة عليهم دون غيرهم ، وذلك جزاء اشتراكهم مع المسلمين المشارقة ضدهم . يقول ابن جبير عندما زار حصن تبنين : " وكان مكاناً لتمكيس القوافل " ولا اعتراض على غيرهم ، وسببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون ، فكان لهم فى أخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم إلا فرنج بهذه الضريبة المكسية ، ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربى يزن على رأسه الدينار المذكور فى اختلافه على بلادهم . وقال إلا فرنج : إن هؤلاء المغاربة، كانوا يختلفون على بلادنا ، ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا ، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة فى أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنهم "(١) .

وقد استمر دور الأندلسيين والمغاربة فى الجهاد طوال الفترة ، التى تلت انتهاء حكم نور الدين محمود . ويمكن القول أن أعدادهم إزدادت بشكل كثيف على عهد صلاح الدين الأيوبى ، فظهرت مشاركتهم على وجهين ، الأول كمحار بين أساسيين ، والثانى كمرافقين للجيش يقومون بتقديم الخدمات المختلفة ، التى لا تقل أهمية عن غيرها فى ميدان الحرب . ففى المجال الأول نستشهد بالحادثة التى ذكرها العماد الكاتب الأصفهانى فى كتابه الموسوم بـ (الفتح القسى فى الفتح القدسى) حيث يظهر من خلالها قيمة الدور الذى شغله هؤلاء المغاربة على الصعيد العسكرى ، كمقاتلين أشداء

---

(١) انظر : رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ .

نذروا أنفسهم لتنفيذ مهام فى غاية الخطورة . من ذلك أنه حدث سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م فى أثناء حصار المسلمين لمدينة عكا ، أن جاء رسول من قبل أحد قادة الصليبيين ومعه أسير مغربى ، قدمه إلى السلطان صلاح الدين على سبيل الهدية ، فاستقبل الأسير بحفاوة بالغة وتقدير عظيم ، الأمر الذى يدل على مدى إعجاب صلاح الدين الأيوبى بالمغاربة والأندلسيين وتقديره لجهودهم فى الحرب التى خاضها ضد أعدائه(١) .

أما الأمثلة فى المجال الثانى فهى متعددة ، نذكر منها على سبيل المثال إن قسماً منهم لم يشتركوا على هيئة محاربين كجنود يحملون السلاح ، وإنما قاموا بمرافقة الجيش ، وتقديم خدمات كبيرة ، ساهمت إلى حد كبير فى رفع معنويات الجيش القتالية ، وأذكت فى الجند الروح القتالية العالية . وقد اشتغلت أعداد كبيرة منهم بتحضير الطعام وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال وتوفير أسباب النظافة العامة ، التى تضفى على النفس الإنسانية نوعاً من البهجة والراحة . ويمكن تقدير عدد هؤلاء الأندلسيين والمغاربة بأكثر من ثلاثة آلاف رجل(٢) لذلك يمكن النظر إلى الوظائف العالية ، التى نالها المغاربة والأندلسيون فى القدس بعد تحريرها على أنها اعتراف بجهودهم وتعبير عن المكافاة على خدماتهم ، والرغبة فى استمرار هذه الخدمات ، بالإضافة إلى ما قام به صلاح الدين الأيوبى تعبيراً عن ذلك . وفى هذا الميدان يمكن أن نذكر أيضاً تلك الخدمات الجليلة ، التى قدمها أطباء أندلسيون لصلاح الدين وجيشه وشعب الشام ، الذى وقف كتلة واحدة شامخة

---

(١) العماد الكاتب الأصفهانى – الفتح القسى فى الفتح القدسى تحقيق محمد محمود صبح بدون ذكر الطبعة ولا تاريخها ص ٥٠٢ .

(٢) المقريزى (أحمد بن على) السلوك لمعرفة دول الملوك – الجزء الأول القسم الأول تحقيق مصطفى زيادة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ ص ٦٤ .

ضد الصليبيين . فمنذ النصف الأول من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، بدأ الأطباء الأندلسيون المشاهير يتوافدون على دمشق بعد أن سمعوا بمحاولات الصليبيين احتلالها ، وكأنهم كانوا يشعرون أن من واجبهم وهم من بلاد اعتاد أهلها على محاربة الصليبيين باستمرار - المساعدة فى الدفاع عن دمشق وغيرها من بلاد الشام . ومن هؤلاء الأطباء أبو الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلى المولود بمدينة المرية فى جنوب الأندلس أو بمدينة مرسية ، شرق الأندلس سنة ٤٨٦هـ / ١٠٧٦م وقد درس الطب بالأندلس ثم بمصر ، حتى اشتهر كطبيب معروف . وفى بداية أمره توجه إلى بغداد وفيها شغل طبيب البيمارستان الذى كانت تحمل عقاقيره وأدواته فى المعكسر السلطانى على أربعين جملاً(١) . ولما سمع بتهديد الصليبيين لدمشق غادر بغداد ، وأقام بدمشق ، يداوى الناس بدكان عند باب جيرون بالقرب من المسجد الأموى الكبير حتى وفاته فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٥م(٢) . وكذلك فعل ابنه أبو المجد محمد بن عبد الله الباهلى الملقب بأفضل الدولة ، وتفوق على والده فى مسألة الخدمات الجليلة ، التى قدمها للمجتمع الشامى فى أحلك الظروف وأصعبها ، لأنه ابتعد عن الأدب والشعر ، الذى شغل حيزاً هاماً من حياة والده ، فصار فىعلوم الطب من أحذق أطباء زمانه ، الأمر الذى جعل نور الدين محمود يعتمده كمسئول أول عن إدارة البيمارستان ، الذى أنشأه فى دمشق خلال السنوات الأولى من النصف الثانى للقرن السادس الهجرى /

---

(١) القفطى (على بن يوسف) إخبار العلماء بأخبار الحكماء - عنى بنشره محمد أمين الخانجى طبعة مصر ١٣٢٦هـ ص ٢٦٤ - المقرى المصدر السابق ج٢ ص ١٣٣ ابن قاضى شهبة طبقات اللغوين والنحويين مخطوطة الظاهرية ص٣٤٧-ابن خلكان وفيات الأعيان ج٣ تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت سنة ١٩٧٠ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) المقرى - المصدر السابق ج٢ ص ٢٣٤ .

الثانى عشر الميلادى.وقد أدى خلال حياته ، التىانتهت فىالربع الثالث من القرن السادس الهجرى أو قبل ذلك بسنوات قليلة ، خدمات رائعةفىميدان الطب،إذ كان عمله اليومى مقسماً إلى ثلاث فترات،خصص الأولىلزيارة مرضىالبيمارستان سابق الذكر،وخصص الثانية لزيارةمرضى القلعة من الحكام وأتباعهم،وخصص الثالثة للتدريس، فى إيوان البيمارستان النورى(١) .

كذلك قام الطبيب الأندلسى عمر بن على البذوخ القلعى المتوفى بدمشق سنة ٥٧٩هـ / ١١٨١م(٢) بممارسة المداواة العامة ، واختلف عن بقية زملائه من الأندلسيين بتصنيع الدواء وتحضيره بنفسه(٣) .

ومن هؤلاء الأطباء أيضاً عبد المنعم الجليانى ، نسبة إلى جليانة على مقربة من غرناطة فى جنوب شرق الأندلس المتوفى بدمشق سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٧م . وكان قد اشتغل منذ وقت مبكر بالطب والأدب ، وتفوق فيهما بشكل ملحوظ ، ثم رحل إلى المغرب ومنها إلى بغداد ، حيث أطلع فيها على خزائن الكتب الطبية الغنية . ولما سمع بما كان يجرى فى الشام من حرب ضد الغزاة الصليبيين ، ترك بغداد متوجهاً إلى دمشق ، حيث عمل طبيباً رئيساً فى البيمارستان السلطانى فى السفر والحضر أيام صلاح الدين الأيوبى، وظل هكذا حتى وافته المنية(٤) .

---

(١) الصفدى (صلاح بن أيبك) الوافى بالوفيات ج٤ طبعة دمشق سنة ١٩٥٩ ص ٢٤ .

(٢) ابن أبى أصيبعة – عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ج٢ الطبعة الأولى المطبعة البهية ١٨٨٢ ص ١٥٥ .

(٣) ابن أبى أصيبعة المصدر نفسه ص ١٥٧ .

(٤) ابن سعيد المغربى – الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة – تحقيق إبراهيم الأبيارى طبعة مصر بلا تاريخ ص ١٠٤ – ١٠٦ ابن أبى أصيبعة المصدر السابق ج٢ ص ١٥٧ المقرى المصدر السابق ج٣ ص ٣٩٢ .

وقد حظى عند صلاح الدين الأيوبى طبيب أندلسى آخر ، هو يحيى البياسى الملقب بأمين الدين . وكان قد ترك الأندلس ، متجهاً إلى مصر حيث استقر فيها مدة قصيرة من الزمن توجه بعدها إلى مدينة دمشق ، واستقر فيها بشكل نهائى . ويُعد البياسى طبيباً أندلسياً مارس الطب فى بلاد الشام ، حتى اشتهر وعلا ذكره ، مما جعل صلاح الدين الأيوبى ، يعتمده فى قائمة أطبائه الرئيسين ، الذين رافقوه فى حروبه ضد الصليبيين(١) .

وقد قام الرحالة المغربى ابن جبير الأندلسى خلال زيارته لمدينة دمشق سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م بالدعاية لصلاح الدين الأيوبى ، لما يقوم به من أعمال جليلة لتحرير ، بلاد الشام ، ولا سيما بيت المقدس من الصليبيين ، الأمر الذى يساعد على استقطاب جالية أندلسية للمشاركة فى الحروب ضد هؤلاء الأعداء(٢) .

ومن المعروف أن كتب الحديث النبوى الشريف حوت كثيراً من الأحاديث(٣) ، التى تنوه بمكانة مدينة بيت المقدس ، فقام الأندلسيون والمغاربة عندما احتل الصليبيون بيت المقدس باستثارة القلوب لزيارتها . من ذلك أن المراكشى قال عن ابن جبير الأندلسى : "ولما شاع الخبر المبهج للمسلمين جميعاً حينئذ بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين

---

(١) ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق ج٢ ص ١٦٣ .

(٢) انظر : عن ذلك رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) انظر : جملة من هذه الأحاديث فى مجير الدين الحنبلى-الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ج١ ص٢١١ وما بعدها ؛ الربعى - فضائل الشام ودمشق طبعة دمشق سنة ١٩٥٠ص١٤-ابن عساكر-تاريخ مدينةدمشق مجلداً طبعةدمشق سنة١٩٥١ ص١٣٧ - السلمى- ترغيب أهل الإسلام فىسكنىالشام طبعة دمشق سنة١٩٤٠ص ١١ .

المظفر يوسف بن أيوب ، وكان فتحه يوم السبت لثالث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . وكان ذلك من أقوى الأسباب التى بعثته على الرحلة الثانية ، فتحرك من غرناطة أيضًا يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسمائة . قال : وقضى الله برحمته لى بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى وزيارة المساجد الثلاثة فى عام واحد . وقد استمر الأفضل بن صلاح الدين وبقية الحكام من بنى أيوب على سياسته فى رعاية القدس وتوفير الحماية لها ذلك أن صلتة بالقدس كانت قوية منذ أن حررت ، لأنه كان الموكل من قبل أبيه بحفظها . ويستفاد من رسالته للعماد الأصفهانى على لسان صلاح الدين الأيوبى فى معرض ذكره لانتصاراته وما فتحه عام ٥٨٣هـ / إنه قال : " والآن فقد خلصنا جميع مملكة بيت المقدس وحدها فى سمت مصر من العريش وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك . وتشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت . ولم يبق من هذه المملكة إلا صور .... وأنه قد رتب الجانب القبلى والبلد القدسى . وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال وآلات العدد والعدد المتواصل الممد . ورتب فيها ولده الأفضل علياً لحمايتها وحفظ ولايتها ... "(١) .

وعندما خلف الأفضل والده عند وفاته بدمشق سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م حرص فى سلطنته على إكرام الأندلسيين والمغاربة نظراً لما بذلوه من جهد فى حركة الجهاد ضد الصليبيين . من ذلك أنه وقف على فقهاء المالكية بالقدس المدرسة الأفضلية ، وبجوارها أوقف قطاعاً من المدينة يقع بجوار

---

(١) أبو شامة – الروضتين فى أخبار الدولتين ج٢ تحقيق محمد حلمى أحمد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ ص ١٣٧ .

المسجد وسور الأقصى من جهة الغرب ، ويخرج إليها من أحد أبوابه ، علماً بأن المسجد الأقصى يقع فى الجنوب الشرقى من مدينة القدس ، وأضحى معروفاً باسم حارة المغاربة ، وصارت وقفاً كما يقول صاحب الأنس الجليل : " على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم ، وكان الوقف حين سلطنته على دمشق ولم يوجد لها كتاب ، فكتب محضراً بالوقف لكل جهة ، وثبت مضمونه لدى حكام الشرع الشريف بعد وفاة الواقف "(١) كذلك كان للمغاربة مسجد تقام فيه صلاة المالكية بداخل المسجد الأقصى الكبير . وكان حى المغاربة يتضخم مع الزمن ويكتظ بالمغاربة والأندلسيين الوافدين ، منهم الميسورون ومنهم الفقراء . وقام الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبى المغربى المصمودى المجرد بتعمير زاوية بأعلى الحارة أنفق عليها من ماله ، ووقفها على الفقراء والمساكين سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م .

وإذا كان عمل الأفضل هذا تجاه المغاربة نوعاً من المكافأة على خدماتهم فى مجال الجهاد ، فإنه يبدو بعد وفاة أبيه ، راغباً فى الاستعانة بقوتهم العسكرية للدفاع عن القدس . فالمدينة فقيرة ولا تكفى وارداتها وواردات الأراضى التابعة لها للقيام بكلفتها، مما أدى إلى تخصيص ثلث وارد إقطاع نابلس لها . وكان ضياء الدين ابن الأثير وزير الأفضل قد اقنعه بالتنازل عن القدس ، لأسباب منها التخلص من النفقة عليها ، لكن المكانة الدينية للمدينة جعلها تمثل قوة معنوية لمن تتبعه . وربما كان هذا أيضاً من جملة الأسباب ، التى جعلت نواب الأفضل فى فلسطين ، وفى مقدمتهم عماد الدين ابن المشطوب مقطع نابلس يعرضون على سيدهم الرفق، ويتعهدون

---

(١) الحنبلى (مجبر الدين) الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، الثانى بدون ذكر اسم الطبعة ولا تاريخها ص ٣٩٧ .

للصليبيين ، وكان بيدهم رأس جسر مناسب للهجوم عليها ، يتمثل في ميناء عكا الحصين . وكان على الأفضل والمشيرين عليه والمحيطين به أخذ هذا التهديد بعين الاعتبار ، خاصة وأن الأفضل لم يكن الحاكم الفعلي للدولة الأيوبية كلها مثلما كان الحال مع أبيه ، وإنما اقتصر سلطانه على الشام بكل ما حفلت به آنذاك من تيارات انفصالية ، مما حال دون تأليف جيش كبير يحقق الحماية للبلاد والعباد .

وفي مثل هذه الأوضاع ، رأى الأفضل في المغاربة والأندلسيين قوة عسكرية مناسبة ، يمكن أن يفيد منها في الدفاع عن القدس على الأقل .

ومن الثابت أن عدد الجند النظامي في جيش صلاح الدين الأيوبي في موقعة حطين ، لم يتجاوز الأربعة عشر ألف مقاتل(١) . أما المحاربون الآخرون فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم ، ومنهم الأندلسيون والمغاربة من غير المؤهلين للحرب بشكل نظامي مرتب . ولم يكن الإفرنج على ما يبدو غافلين عن هذه القيمة أو المكانة التي يشغلها المغاربة عند حكام الشام . فقد حدث في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٣٠م أن حمل عدد كبير من أسرى جزيرة ميورقة إلى الساحل الشامي ، حيث استفكوا وقدموا إلى دمشق . يقول أبو شامة في كتابه (الذيل على الروضتين) في صدد حديثه عن سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م : " في هذه السنة جاء الخبر بأن الفرنج استولوا على جزيرة ميورقة، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا كذلك ، وقدموا بعض الأسرى إلى ساحل الشام ، فاستفك منهم طائفة ، فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم"(٢) وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على مدى التقدير الذي أظهره

---

(1) Encyclopedia of Islam- Vol.I.P. 797-798.

(٢) أبو شامة – الذيل على الروضتين – عني بنشره عزت العطار الحسيني طبعة أولى سنة ١٩٤٧ ص ١٥٩.

الأيوبيون للأندلسيين والمغاربة ، لما قاموا به من أعمال مميزة ومخلصة خلال الحرب ضد الصليبيين . يضاف إلى ذلك ، أنهم قوة جديدة تضاف إلى الموجودين القدماء .

وكما كان الحال فى زمن البوريين والزنكيين والأيوبيين ، فإن الأمر لم يتبدل فى زمن المماليك ، إذ ظل الأندلسيون والمغاربة فى مقدمة المتحمسين للدفاع عن أرض الإسلام فى الشام ومصر ضد الصليبيين وغيرهم . والأمثلة كثيرة فى هذه الفترة ، نذكر منها على سبيل المثال حادثة وقعت فى سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م عندما هاجم الإفرنج(١) مدينة بيروت . فعلى أثر اتصال المسئولين عن إدارتها مع نائب دمشق طلباً للمساعدة لحمايتها والدفاع عنها ، تذرع النائب بأنه يحتاج إلى أمر سلطانى ، فقام بعض المتنفذين(٢) من المماليك بدعوة الناس للتطوع من أجل الجهاد ، فكان فى مقدمة الذين استجابوا لهذه الدعوة ، القاضى المالكى آنذاك مع مجموعة كبيرة من الأندلسيين والمغاربة الموجودين بدمشق(٣) .

ويفهم للوهلة الأولى من كل ما تقدم من أمثلة ووقائع ، أن اشتراك الأندلسيين والمغاربة كان رهناً بمداهمة بلاد الشام ومصر من قبل الجيوش الغازية المعتدية ، بحيث يشتركون لفترة معينة وينصرفون . لكن الحقيقة كانت غير ذلك ، فمن خلال الأمثلة يتبين أنهم داوموا العمل فى

---

(١) المراكشى – الذيل والتكملة ، السفر الخامس القسم الثانى ، تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ ص ٦٠٥ – ٦٠٦ .

(٢) المقرى – المصدر السابق ٢٩٠ ص ٤٨٨ – المراكشى – الذيل والتكملة ، السفر الخامس القسم الثانى ص ٥٩٩ .

(٣) ابن حجر العسقلانى – إنباء الغمر بأنباء العمر ج١ تحقيق حسن جبشى طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ ص ٢٧ .

صفوف الجيش . والقاضى محمد بن محمد الدمشقى المالكى الملقب بعلم الدين القفصى ووالده خير مثال على ذلك ، إذ عمل قبل تسلمه القضاء جندياً فى عدة مدن شامية مثل حلب ودمشق وحماة ، وكذلك الأمر بالنسبة لوالده(١) .

أما الوجه الثالث لمشاركتهم وإسهامهم فى الدفاع والذود عن حياض مصر وبلاد الشام ، فقد تجلى بتقديم الأموال من أجل تجهيز المقاتلين بالسلاح والعتاد وما إلى ذلك ، مثلما سبق إن أشرنا . مثال ذلك محمد بن محمد أبو الوليد التجيبى الأندلسى إمام محراب المالكية المتوفى بدمشق سنة ٧١٨هـ / ١٣١٩م . وقد قال عنه ابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة : " ... وكانت له عدة كاملة من السلاح والخيل أعدها للغزاة من ماله .... "(٢) . لذلك لم يكن غريباً أن تصرفات الحكام المماليك تجاه الجالية الأندلسية المغربية فى الشام ومصر اتصفت بالاعتدال ، مثل تخفيض الضرائب على البضائع التجارية، التى يأتى بها إلىالشام ومصر التجار المغاربة والأندلسيون وغير ذلك .

* * *

وبالجملة فقد بدا واضحاً ، أن الأندلسيين والمغاربة ، سواء منهم الذين أقاموا بصورة دائمة فى مصر والشام ، أو الذين بقوا فيها لفترات متفاوتة

---

(١) ابن حجر العسقلانى إنباء الغمر جـ٢ ص ٢٥٢ تاريخ ابن قاضى شهبة مجلداً ص٥٩ و ١٨٢ و ٢٦٨ السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج١٠ طبعة بيروت بدون تاريخ ص ١٣ .

(٢) ابن حجر العسقلانى – الدرر الكامنة ج٣ طبعة أولى حيدر آباد الدكن ١٣٤٩هـ ص ٣٥٠ – ٣٥١ .

خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصور الوسطى موضوع هذا البحث ، لم يقفوا مكتوفي الأيدى حيال ما يجرى على الساحة الإسلامية من أحداث ومعارك ، بقصد السيطرة على هذه البقعة من أرض العروبة والإسلام . لقد سطروا من خلال مشاركتهم فى الدفاع عنها أنصع الصفحات وأنقاها فبرهنوا بذلك على صدق انتمائهم العربى الإسلامى .

بلاد الشام بين الشرق والغرب

" مدخل إلى الحروب الصليبية "

د. / محمد بركات البيلى(*)

اتسم تاريخ بلاد الشام(١) خاصة فى عصورها الوسطى بسمة أساسية هىأنها كانت دوما – بحكم موقعها – موضع نزاع بين الشرق والغرب . نزاع قد تخبو نيرانه أحياناً لكنها تتأجج أحياناً أخرى . وتتضح هذه الظاهرة قبل الفتح الإسلامى لبلاد الشام فى عصرها البيزنطى ، ثم بعد ذلك فى العصر الإسلامى . وكانت بواعث هذا النزاع عادة متشابهة لا تختلف إلا فى بعض تفاصيلها من عصر لآخر وهى فى جوهرها وفى جملتها بواعث سياسية أو اقتصادية أو دينية .

من ذلك أن بلاد الشام شهدت فى أواخر العصر البيزنطى نزاعاً فارسياً – بيزنطياً ، عاصرت جولاته الأخيرة البعثة المحمدية ، وأشار إليه القرآن الكريم فى أول سورة الروم(٢) مخبراً بهزيمة الروم (البيزنطيين) ومتنبئاً

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة القاهرة .

(١) يرى لسترنج .Le Strange; Palestine under the Muslims, London 1896 pp. 24-25 أن العرب استبدلوا اسم سورية Syria الإغريقى القديم باسم بلاد الشام بمعنى (اليسار Left) أو الشمال North ، وساق لسترنج فى ذلك ما ورد من تفسيرات عند المقدسى (أحسن التقاسيم ، ص١٥٢) – وجدير بالذكر أن اسم سورية ظل يطلق على موضع يقع بين خناصرة وسلمية (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٣ ، مادة سورية) .

(٢) سورة الروم : الآية ١ – ٣

بانتصارهم بعد ذلك فيبضع سنين ، وهو الانتصار الذيتحقق فعلاً فى الجولة الأخيرة على يد هرقل امبراطور بيزنطة عند الفتح الإسلامى لبلاد الشام .

وكانت بواعث النزاع الفارسى – البيزنطى سياسية واقتصادية فى المقام الأول بهدف السيطرة على بلاد الشام التى كانت معبراً أساسياً لواحد من أهم الطرق التجارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، مما جعل منها معيناً لا ينضب للموارد والثروات ، شأنها شأن كافة الطرق والشرايين التجارية فى عالم العصور الوسطى(١) يضاف إلى ذلك أن النزاع الفارسى – البيزنطى لم يخل من مسحة دينية ، إذ احتضن الفرس – رغم مجوسيتهم – أتباع المذاهب المسيحية المخالفة للمذهب الملكانى السائد فى الدولة البيزنطية، مثل النساطرة واليعاقبة . وكان أن هدم كسرى بن هرمز كنائس بلاد الشام حين اجتاحت جيوشه تلك البلاد ، ونقلها مقتنياتها إلى فارس(٢) كما أمر أهل الرها بأن يتخلوا عن مذهبهم الملكانى وأن يتحولوا إلى المذهب النسطورى أو المذهب اليعقوبى(٣) وكان ذلك فى وقت احتدم الخلاف بين النساطرة – الذين عرفوا بأهل المشرق – والملكانية – الذين عرفوا بأهل المغرب – ونجم عن ذلك الخلاف عداء مرير وقتال وسفك دماء(٤) . ومن

---

(١) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا القاهرة ٨٥ – ١٩٩١م ، جـ١ ص١٤ وما يليها . وإبراهيم أحمد العدوى : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥١ ص ص ٢ – ٦ . وأرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى القاهرة (ب . ت) ص ١٦ – ١٧.

(٢) المنبجى : المنتخب من تاريخ المنبجى ، لبنان ١٩٨٦م ، ص ص٢٥ – ٣٣.

(٣) نفس المصدر ، ص٣٤ .

(٤) المسعودى : التنبيه والإشراف ، بيروت سنة ١٩٨١م ص١٤٤ .

ناحية أخرى فإن هرقل امبراطور بيزنطة شن على الفرس حرباً ظهر وجهها الديني حين أعلن أن هدفه ليس فقط إجلاء الفرس عن الأراضي التي غزوها وإنما أيضاً استرداد الصليب الأعظم - أو صليب الصلبوت - من أيدي الفرس الذين استولوا عليه حينما غزوا بيت المقدس(١) . وهكذا وظف كل من الفرس والروم الدين في حروبهما التي كانت بواعثها الأساسية سياسية واقتصادية .

ولم تكد تمر سنوات قلائل على استرداد الروم لبلاد الشام في ختام الربع الأول من القرن السابع للميلاد حتى بدأت الفتوح الإسلامية ، ففتح المسلمون بلاد الشام وغيرها من البلدان التي كانت بيد البيزنطيين بشرق البحر المتوسط وجنوبه ، و بذلك تقلصت رقعة الإمبراطورية البيزنطية من ناحية ، ومن ناحية أخرى أجهزوا على الدولة الفارسية بأكملها فحلوا بذلك محل الفرس في منازعتها للبيزنطيين على بلاد الشام . وقد حاول البعض التعليل لحركة الفتوح الإسلامية بأسباب وبواعث سياسية واقتصادية(٢) لكن لا

---

(١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي القاهرة سنة ١٩٩١م جـ١ ص٦٣ .

وسعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، القاهرة سنة ١٩٦٦م جـ١ ص١٢٥ .

وإبراهيم العدوى : المرجع السابق ، ص٢٤ .

(٢) ذكر البلاذرى (فتوح البلدان تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة سنة ١٩٥٦م ، جـ١ ص١٢٨) أن أبا بكر كتب إلى جميع العرب " يستنفرهم إلى الجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع " ، وذكر الطبرى (تاريخه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة سنة ١٩٧٩م ، جـ٣ ص٣٥٤) أن خالد بن الوليد خطب الناس يوم الولجة سنة ١٢هـ فقال : " وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن ننازع على هذا الريف أولى به ونولى الجوع والاقلال من تولاه ممن أثاقل عما انتم عليه " .

شك فى أن الباعث الدينى كان المحرك الأساسى لتلك الحركة الى استهدفت أساساً إبلاغ الدعوة الإسلامية للعالمين . ومن المتفق عليه أن العصور الوسطى كانت " عصور الإيمان " ، وكان الدين أعظم ما يهتم به إنسان العصور الوسطى مسلماً كان أو مسيحياً . وإذا كان المسلمون قد قسموا العالم حينذاك إلى دار إسلام ودار حرب يلزمهم مجاهدة أهلها ، فإن البيزنطيين – من جانبهم – كانوا يعتبرون أن من عاش داخل الإمبراطورية البيزنطية فهو منتمى إلى شعب الله ، بينما لا يستحق من عاش خارجها أن يكون كذلك(١) وهكذا خيمت الروح الدينية على الحروب بين المسلمين والبيزنطيين، وانعكس ذلك علىالشعر الذى كان تعبيراً عما اعتمل فى النفوس من عداء حينذاك(٢).

وكان أن قاوم البيزنطيون الدولة الإسلامية فى بلاد الشام(٣) لكن الدولة الأموية لم تلبث أن نقلت ميدان الصراع بينها وبين البيزنطيين إلى خارج حدود بلاد الشام ، إلى عقر دار البيزنطيين فى آسيا الصغرى ، بل لقد هاجم المسلمون القسطنطينية حاضرة الإمبراطورية البيزنطية(٤) أكثر من مرة ، براً و بحراً . وقد أدرك خلفاء الدولة الأموية الذين اتخذوا من بلاد الشام مركزاً لحكمهم أنه من الخطر ترك هذه البلاد تحت رحمة التهديدات البيزنطية ، ولذلك شن الأمويون سلسلة من الحملات على الدولة البيزنطية براً وبحراً ،

---

(١) جوستاف جرونيباوم: حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٩٤ م ، ص ص ٢٢ -٢٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص٣٤ .

(٣) البلاذرى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٦٩ .

والطبرى ، المصدر السابق جـ٦ ص ١٥٠ .واليعقوبى تاريخة بيروت ١٩٨٠م جـ٢ ص٢٩٦ والمنبجى المصدر ، السابق ، ص٧٢ ، ص٨٧ .

(٤) وجه الأمويون إلى القسطنطينية عدة حملات أشهرها حملة مسلمة بن عبد الملك .

ليس فقط من قبيل الحرب الوقائية إيماناً منهم بأن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع، وإنما أيضاً - وهو الأهم - رغبة فـي القضـاء عليها قضـاء مبرمـاً مثلما تـم القضاء من قبل على الدولة الفارسية .

ويرى بعض الباحثين أن نقل مركز الخلافة إلى الشام بدلاً مـن الحجـاز لـم يكـن مجـرد تغيير لموضـع المركـز ، ولكنـه كـان تغيـيراً لاتجـاه الدولـة الإسـلامية لتصبـح وجهتهـا غربيـة متوسـطية(١) والواقـع إن الدولـة الأموية اتخـذت نهجاً متوازناً قبل المشرق والمغرب علـى حد سـواء . تدل على ذلك فتوحاتها فى أقصى المشـرق فـى خراسـان ومـا وراء النهـر مـن جهة وفتوحاتها فى أقصـى المغرب والأندلـس مـن جهــة أخـرى . ولا شـك فـى أن اهتمــام الأمويين بـالغرب وبالبحــر المتوسـط جديـر بالملاحظـة والفهـم .

ومن الثابت أن اهتمامات الأمويين ببلاد الشام سابقة على حركة الفتـوح الإسلامية ، وتجلت فى مشاركتهم الفعالة فى تلـك الحركـة قـادة ومحـاربين(٢) وهكذا اكتسب بنو أمية خبرة بـأحوال بـلاد الشـام وتـأثروا بمـا روأه فيهـا مـن حضارة رومانية(٣) ولعلهم أحسوا فى تلك المرحلة المبكرة بوحدة عالم البحـر المتوسط فرأوا تجديد تلك الوحدة تحت مظلـة الإسـلام ، لذلـك طوقـوا جنـوب أوربا من الشرق والغرب ، شرقا بحملاتهم على القسطنطينة ، وغرباً بفتحهم الأندلس وتوغلهم فيما وراء جبال ألبرت (البرانس) لفتح بـلاد الغـال . وفـى

(١) حسين مؤنس : تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٩٣، ص٥٣ .

(٢) المقريزى : النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنىهاشم، القاهرة ١٩٣٧ م ص٤٦.

وإبراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون القاهرة ١٩٦٣م ص ص ٣٧ - ٣٩ .

(٣) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ص٥٠ - ٥٢ .

ضوء ذلك يمكن فهم ما قيل عن المشروع الطموح الذى فكر فيه موسى بن نصير للوصول إلى القسطنطنية من جهة الغرب(١) .

ولو نجح المسلمون فى الاستيلاء على الشواطئ الأوربية للبحر المتوسط لأصبح بحيرة إسلامية ، وما اتهموا بكسر وحدة عالم البحر المتوسط كما ادعى الكثيرون(٢) . لكن جهود الأمويين فى تطويق أوربا من جهتى الشرق والغرب لم تكلل بالنجاح بل إن توقف حركتهم على جبهتى بيزنطة وغالة بث فى البيزنطيين والفرنجة روح التحدى ، فوجه الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥م) حملات على بلاد الشام مستغلا ضعف الدولة الأموية أواخر أيامها ، وراودته الآمال فى استعادة تلك البلاد بعد أن كان هرقل قد أعلن يأسه من استردادها بقولته الشهيرة " سلام عليك يا سورية "(٣) . أما الفرنجة فلم تكن دولتهم الكارولنجية أقل عداء للأمويين منذ موقعة بلاط الشهداء التى اعتبر شارل مارتل بعدها حامى المسيحية الغربية ، وظل الكارولنجيون على عدائهم للأمويين بعد سقوط دولتهم فى المشرق وإقامتهم دولة بديلة فى الأندلس . وقد شارك الفرنجة بنصيب وافر فى الحروب الصليبية ضد المسلمبن حتى أن فيليب أغسطس أحد ملوك أسرة كابيه التى كانت امتدادا للأسرة الكارولنجية شارك بنفسه فى الحرب الصليبية . وهكذا أدت محاولة الأمويين تطويق أوروبا من جهتى

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٩٢م جـ٤ ص١١٧ ، المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .جـ١ ص١٣ .

(٢) قال بنظرية كسر المسلمين لوحدة عالم البحر المتوسط هنرى بيرين فى كتابه " محمد وشارلمان " وردها من بعده كثيرون .

(٣) البلاذرى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٢ .

الشرق والغرب إلى معاداة أكبر قوتين فى العالم المسيحى حينذاك : البيزنطيون والفرنجة .

وكان سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية إيذانا بابتعاد بلاد الشام عن بؤرة نشاط الدولة الإسلامية ، وضياع ما كان لها من مكانة فى العصر الأموى بعد أن اتخذ العباسيون من العراق مركزا لخلافتهم بدلا من الشام(١) ولم يكن ذلك مجرد تغيير فى موضع المركز وإنما كان تغييرا فى السياسات والتوجهات ، إذ قلّ اهتمام العباسيين بعالم البحر المتوسط واتجهوا أكثر نحو المشرق(٢) وأدى موقع بلاد الشام مكانيا بين العباسيين فى بغداد والبيزنطيين فى القسطنطنية إلى أن غدت ميدانا للصراع العباسى البيزنطى ، إذ طالت يد البيزنطيين بلاد الشام بعد أن كان الأمويون قد نقلوا ميدان هذا النزاع إلى خارج حدود بلاد الشام . ولم يقتصر التغيير على ميدان النزاع بل تغيرت أيضاً طبيعته واستراتيجيته ، فقد توارت فكرة فتح القسطنطنية والإجهاز على الدولة البيزنطية(٣) . ولم تعد بلاد الشام قاعدة تنطلق منها الجيوش والأساطيل الإسلامية لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الكبرى ، وإنما أصبحت مجرد ظهير لخط دفاعى غايته مدافعة البيزنطيين عن دار الإسلام ، وتسمى قلاعه الأمامية ثغورا ، إذ كانت تنفذ منها الحملات الإسلامية للهجوم على البيزنطيين ، أو تسمى عواصم إذ كان المسلمون يتحصنون بها ويعتصمون من الإغارات البيزنطية .

---

(١) فازيليف : العرب والروم ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة القاهرة (ب .ت) ، ص١٠ .

(2) Demombynes et Platonov : Le Monde Musu lman et Byzantin Jusqu' aux Croisades . Paris, 1931 , pp271 - 172 .

(٣) شاكر مصطفى المرجع السابق جـ١ ص٣٦٦ ، Demombynes , Op . cit . p . 320

وقـد نهضت الدولـة العباسية فـى عصـرها الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٤٩-٨٤٧ م) بدور كبير فى غـزو بلاد الـروم - الدولـة البيزنطيـة ، لكن الضعف الذى اعتراها فـى عصرها الثـانى (٢٣٢-٤٤٧هـ/٨٤٧-١٠٥٥م) أفسح المجال لتتعدد القوى الإسلامية على السـاحة الشـامية وهـى القـوى التـى حلت محل العباسيين فى السلطة الفعليـة علـى بـلاد الشـام وبالتـالى فقد حلت محلها أيضاً فى الصراع ضـد البيزنطيين خاصـة منـذ تزايد ضعف الخلافة العباسية ووقوع خلفائها تحت هيمنة الأتراك والبويهيّين(١) .

ومما ساعد على تعدد القوى المتنافسة على الساحة الشامية وانقسام بلاد الشام فيما بينها ، ذلك النظام الإدارى الذى اعتمده المسلمون لبـلاد الشـام بعد فتحهم إياها ، فقد قسمها المسلمون إلى خمسة أجناد(٢) .ومع أن البعض يعتبر هذا النظام الإدارى تطويراً لسلفه البيزنطى(٣)، إلا أنه لم يجمع بلاد الشام فـى

---

(١)أغار الروم سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م على الرها ونواحيها فقتلوا وعاثوا فيها مما آثار الرأى العام الإسلامى ، وخرج نحو ٦٠ ألف من أهـل بغداد للجهـاد والانتقـام لأهل الرهـا ، فطلب الأمير عز الدولة بختيار البويهى من الخليفة المطيـع لـله العباسـى أمـوالاً للنفقـة على الجهاد فامتنع المطيع بحجة أن الأموال لاتجبى إليه فلا تلزمـة النفقـة (أنظـر فـى ذلك مسكوية : تجـارب الأمم ، نشر أمـدروز القـاهرة ١٤ - ١٩١٥ ، ص٣٠٧ وأدم متز :الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريـدة، بيروت ١٩٦٧م جـ١ ص٢٧) .

(2) Le Strange ;Op. Cit . p25 .

ذكر البلاذرى (المصدر السابق جـ١٥٦) فى تفسير مسمى الجنـد قوليـن : أولهمـا أن الجند سمى كذلك لأنه جمع كورا ، وثانيهما أن كل ناحية لهـا جنـد يقبضـون أطمـاعهم بها سميت جنداً .

(٣) نيقولا زيادة : التطور الإدارى لبلاد الشام ص ١١٨ - ١١٩ .

وحدة إدارية تحول دون تمزيقها . وإذا كان اتخاذ الأمويين من بلاد الشام مركزا لخلافتهم قد أظهرها فى هيئة وحدة سياسية ، فإن ذلك لم يوقف العمل بنظام الأجناد الذى توجد إشارات تاريخية على استمراره فى العصر الأموى(١) . بل يبدو أن بلاد الشام قد ازداد انقسامها فى العصر العباسى(٢) لعدم اهتمام العباسيين بتطوير نظامها الإدارى ووضعهم إياها على الهامش سياسيا وإداريا(٣) واقتصر اهتمامهم على تنظيم إقليم العواصم والثغور فى نطاق سياستهم الدفاعية عن دار الإسلام التى انتهجوها إزاء العدوان البيزنطى.

---

(١) فى تعليقه على هذه المسألة حين ألقى البحث فى ندوة " الأطار التاريخى للحروب الصليبية " ذهب الدكتور سهيل ذكار إلى أن نظام الأجناد انتهى بموقعة مرج راهط ، لكن إشارات البلاذرى تفيد استمرار العمل بنظام الأجناد إذ يذكر (فتوح البلدان جـ١ ص١٥٦) أن الجزيرة كانت إلى قنسرين فجندها عبد الملك أى أفرادها فصار جندها يأخذون أطماعهم من خراجها " ويذكر ايضاً (نفس المصدر جـ١ ص١٧٠) ولى الوليد بن عبد الملك سليمان بن عبد الملك جند فلسطين فنزل لد ثم أحدث مدينة الرملة ومصرها " .

(٢) إذا تجاوزنا ما ذكره ابن خرداذبة عن تقسيم بلاد الشام إلى كور ، فإن كلا من اليعقوبى والاصطخرى وابن حوقل اللاحقين عليه حسب الترتيب الزمنى يذكرون أن بلاد الشام انقسمت إلى أجناد ثم يذكر المقدسى من بعدهم أنها قسمت إلى كور .وإذا نظرنا إلى ذلك فى ضوء التفسير القائل بأن الجند يضم كورا (هامش ٢٥) يمكن استنتاج أن بلاد الشام فى عصر المقدسى انقسمت إلى وحدات إدارية أصغر حجماً وأكثر عدداً من الأجناد . ولعله مما يدعم ذلك ما ذكره البلاذرى (المصدر السابق جـ١ ص١٥٦) أن الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصار ذلك جندا واحداً ، وأفرد منبج ودلوك وأنطاكية وغيرها بعد أن كانت منبج وأنطاكية مجتمعين مع قنسرين فى جند واحد إبان العصر الأموى .

(٣) نيقولا زيادة : المرجع السابق ، ص١٢٩ .

وقد تنوعت تلك القوى الإسلامية المتنافسة على الساحة الشامية في العصر الثاني تنوعاً شديداً من نواحي عدة ، فمن ناحية كان بعضها محليا يتمثل في القبائل العربية القاطنة في بلاد الشام أو على مشارفها كالحمدانيين والعقيليين والمرداسيين وغيرهم ، بينما كان بعضها الآخر وافدا على الساحة الشامية إما من المشرق كالسلاجقة أو من مصر كالطولونيين والاخشيديين ثم الفاطميين . ومن ناحية أخرى كان بعض هذه القوى مواليا للعباسيين ويخطب لخلفائهم على المنابر ، بينما كان بعضها الآخر معادياً للعباسيين ويسعى للاطاحة بهم . ومن ناحية ثالثة كان بعض هذه القوى سنيا وبعضها الآخر شيعيا . وهكذا تباينت الهويات المذهبية والتوجهات السياسية لتلك القوى المتنافسة على الساحة الشامية مما زاد من حدة الصراع وأغرق بلاد الشام في خضم الفوضى والانقسام وكلها أوضاع كانت مواتية للغرب المسيحي المتطلع للسيطرة على بلاد الشام والسيطرة على الأماكن المقدسة .

وبحكم موقعها المتوسط ، غدت بلاد الشام مسرحا للصدام بين أكبر قوتين إسلاميتين حينذاك ، وهما الفاطميون الشيعة والسلاجقة السنة . ذلك أن الفاطميين تطلعوا بعد استيلائهم على مصر إلى بسط نفوذهم على بلاد الشام ، ليس فقط لتأمين مركز خلافتهم في مصر أو لمجرد حاجتهم إلى موارد الشام الاقتصادية الهامة ، وإنما أيضاً ليتخذوا من الشام نقطة وثوب على العراق للإطاحة بالخلافة العباسية السنية والانفراد بزعامة العالم الإسلامي(١) ، ومع أن الفاطميين حلوا في مصر والشام محل الاخشيديين فإن ذلك لم يكن مجرد استبدال قوة إسلامية بأخرى على الساحة الشامية ، وإنما كان تغييرا خطيراً

---

(١) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، دمشق /١٩٨٠ ص ص ٣٢ - ٣٤ وأيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية ، القاهرة / ١٩٩٢ .

فى أوضاع العالم الإسلامى الذى طالما نعم بفكرة نظرية وحدة الخلافة الإسلامية . لكن الفاطميين حطموا هذه الوحدة عمليا ونظريا ، ووضعوا العالم الإسلامى فى مأزق الصدام الحتمى بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية الشيعية . وكان الميدان المرتقب لهذا الصدام بحكم الموقع هو بلاد الشام . وإذا كانت الخلافة العباسية قد تخلت عن سلطانها الفعلى على الساحة الشامية لقوى إسلامية أخرى، فإن ذلك أدى إلى اصطدام الفاطميين بتلك القوى(١) وعندما دبر الفاطميون مؤامرة ضد الخلافة العباسية واستخدموا البساسيرى أحد القادة الأتراك فى الوثوب على خلافة بغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى لم يجد العباسيون بدا من الاستنجاد بالسلاجقة الذين كان ظهورهم على المسرح بمثابة دعم للتيار السنى فى الميدان السياسى ، فاستدعى الخليفة القائم بأمر الله العباسى طغرلبك سلطان السلاجقة إلى بغداد ليخلصه من الخطر الشيعى سواء البويهى الزيدى أو الفاطمى ، وبذلك انفتح الباب على مصراعيه أمام السلاجقة لينشروا نفوذهم على العراق والشام جميعاً . ذلك أن السلاجقة لم يكتفوا بالسيطرة على العراق وعلى الخلافة العباسية نفسها وإنما تطلعوا إلى الساحة الشامية لمنازعة الفاطميين السلطة فيها . ولاشك فى أن تدخل السلاجقة فى بلاد الشام زاد من اضطراب أحوالها وانقسامها وتفشى الفوضى فيها .

وبينما كانت بلاد الشام تعانى من الانقسام وسوء الأوضاع واحتدام النزاع بين القوى المتنافسة على مسرح تلك البلاد ، كانت الدولة البيزنطية آخذة فى النهوض من عثرتها . وقد بدأت هذه النهضة منذ منتصف القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى حين اعتلى عرشها أباطرة الأسرة المقدونية

---

(١) أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص٥١ .

التى بدأت بالإمبراطور باسل الأول فى سنة٢٥٣/٨٦٧ م(١) . وقد تحملت الأسرة المقدونية مسؤلية الدفاع عن الإمبراطورية البيزنطية زهاء قرنين من الزمان، عملت فيها على الحفاظ علىحدودها وتوسيع رقعتها واصلاح أحوالها الداخليةعلىيد أباطرة أكفاء مثل نقفور فوقاس وحنا زمسكس-ابن الشمشقيق- وغيرهما من الأباطرة الذين نفخوا فى بيزنطة روحا وثابة وأحيوا مجدها الحربى، ورجحوا كفتها فى الصراع الدائر مع المسلمين ، طيلة القرن العاشر وحتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، أى حتى ظهور السلاجقة(٢) .

ذلك أن الإمبراطور باسل الأول هاجم الحدود الإسلامية بعد أن توفر له جيش قوى ، وعندئذ اعتمدت الدولة العباسية على الطولونيين فى مدافعة البيزنطيين . لكن القوى المحلية على الساحة الشامية أضعفت قدرة الطولونيين على مواجهة البيزنطيين ، بل سرعان ما انقلب العباسيون على الطولونيين وأطاحوا بهم فى بلاد الشام ومصر . ولم يكن التواجد الأخشيدى فى بلاد الشام بالقوة التى تمكنه من التصدى للبيزنطيين ، فتحمل الحمدانيون فى الموصل وحلب أكبر العبء فى التصدى للخطر البيزنطى الذى استفحل فى شمال الشام خاصة ، بعد أن دعم البيزنطيون قواهم البرية بأسطول بحرى قوى تمكن من استرداد كريت من أيدى المسلمين سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م وقبرص سنة ٣٥٥هـ/٦٩٥م وأعاد للبحرية البيزنطية هيبتها فى شرق البحر المتوسط فى القرن العاشر الميلادى(٣) .

---

(١) فازيليف: المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٥٨ وإبراهيم أحمد العدوى :الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، القاهرة /١٩٥١ ص ص ٩٩ - ١٠٠ ، وأحمد عبد الكريم سليمان : المسلمون والبيزنطيون ، القاهرة / ١٩٨٢ ، جـ١ ، ص٤٨ .

(٣) إبراهيم أحمد العدوى : الإمبراطور البيزنطية والدولة الإسلامية ص ص ٩٩-١٠٤.
وأحمد عبد الكريم سليمان : المرجع السابق ، جـ١ ص ص ٨٥ - ٨٦ .

ثم كان أن اعتلى نقفور فوقاس عرش بيزنطة ٣٥٢هـ/٩٦٣م بعد أن حقق عدداً من الانتصارات على المسلمين في كريت وشمال الشام ، فتابع هجومه على المسلمين براً وبحراً ، وأحرز عدة انتصارت أخرى توجها بالاستيلاء على أنطاكية سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ثم بإخضاع حلب للتبعية البيزنطية وفقاً لاتفاقية صفر ٣٥٩هـ/يناير ٩٧٠م ، فسيطر البيزنطيون بذلك على شمال الشام وامتد نفوذهم إلى وسطها(١) . وفي تلك المرحلة اعتقد نقفور فوقاس أن بإمكانه شن حرب صليبية ضد المسلمين ليسترجع منهم الأراضي التي كانت لبيزنطة قبل الإسلام ليستعيد بيت المقدس ، وكان ديدنة كلما دخل معقلا إسلاميا أن يدنس مسجده ويحرق مقدساته(٢) . وبينما كان نقفور فوقاس يصول ويجول في شمال الشام كان الفاطميون قد استولوا على مصر ونفذوا منها في نفس العام إلى بلاد الشام للأسباب الأمنية والاستراتيجية والاقتصادية السابق ذكرها ، فضلا عن رغبتهم في التصدي للبيزنطيين في شمال الشام ليظهروا بمظهر حماة الإسلام والمسلمين مما يؤهلهم للحلول محل الخلافة العباسية في زعامة العالم الإسلامي(٣) .

والواقع أن العداء بين الفاطميين والبيزنطيين لم يولد على الساحة الشامية وإنما كان قائماً بينهما إبان وجود الفاطميين ببلاد المغرب(٤) ، وقد

---

(١) حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية القاهرة /١٩٨٧م ص ١٥٧.
وأحمد عبد الكريم سليمان : المرجع السابق ص ص ١٦٢ - ١٦٨ .

(٢) ابن العديم : زبيدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان دمشق ١٩٥١ - ١٩٥٤م ، جـ١ ص ١٤٣ .
ومسكويه: المصدر السابق، جـ٦ ص ٢١١، وحسين ربيع:المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٣) إبراهيم أحمد العدوي : المرجع السابق ، ص١٠٥ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ١١٠ - ١١ .
عبدالمنعم ماجد:العلاقات بين الشرق والغرب فيالعصور الوسطى،ص ص١٠٨-١١٠.

ادعى المعز لدين الله الفاطمى أنـه لـم ينتقل إلـى المشـرق إلا للجهـاد ووقـف خطر الروم(١) . وكانت بدايـة الصـدام المباشـر بيـن الفـاطميين والبيزنطيين على مسرح الشام عندما حاول الفاطميون الاستيلاء على أنطاكيـة سـنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠م ، ولكنهم فشلوا فى ذلك لمقاومة البيزنطيين من جهـة ، فضـلاً عـن تعرضهم للهجوم مـن جهـة أخـرى مـن قبـل القرامطـة ، بدعـم مـن البويهييـن والحمدانيين(٢) ، مما يعنى أن القوى الشيعية الثلاث ذات الصلة السـابقة علـى الوجود الفاطمى ببلاد الشام آثرت صـالحها السياسى على انتمائهـا المذهبـى ، بحيث غدت عقبـة على طريق الفاطميين للسـيطرة على بـلاد الشام . وهكـذا لم يواجه الفاطميـون فـى بـلاد الشـام عـدوا بيزنطيـا مسـيحيا فقـط وإنمـا واجهـوا أيضـاً أعـداء مسـلمين بعضهـم سـنى المذهـب كالعباسـيين والسـلاجقة وبعضهم الآخر شيعى كان المفروض أن يكون عوناً للفاطميين لاعونا عليهم . هذا بالإضافة إلى أن سياسة الفاطميين فى الاعتماد على بعض القبائل العربيـة على السـاحة الشامية قد تسببت فى صحـوة هـذه القبـائل بعد طـول سبات ، لكنها لم تكن مع الفاطميين دوما بـل كـانت تناهضـهم أحيانـاً ، كمـا استغلت التنـافس بيـن الفـاطميين والعباسيين لتحقيـق مصـالحهـا السياسـية بـالدعوة للعباسيين حينا وللفاطميين حينا آخـر ، ممـا زاد مـن حـدة الفوضـى والانقسـام على السـاحة الشـامية(٣) . ولم يتمكن الفاطميـون مـن إحكـام نفـوذهم فـى بلاد الشام .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، القاهرة /١٩٣٣ ، جـ٤ ص ٧٢ ،
Canard : L' Imperialisme des Fatimides et leur Propaganda (Annales de l'institute d'etudes orientales , 6 (1942) p . 180) .

(٢) إبراهيم أحمد العدوى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ وأحمد عبد الكريم سليمان : المرجع السابق جـ١ ص ١٧٩ .

(٣) أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص ص ٣٧٧ - ٣٨١ .

وكان أن تراجع الفاطميون عن بلاد الشام أمام الضغط القرمطي ، فانتهز الإمبراطور البيزنطي حنا زمسكس ابن الشمشقيق الذي خلف نقفور فوقاس ، الفرصة وقاد بنفسه حملة في ٣٦٦هـ/٩٧٤م بهدف الاستيلاء على بلاد الشام ، والوصول إلى بيت المقدس ، مما يعتبر إرهاصا من إرهاصات الحروب الصليبية ، وذلك قبل مولدها بنحو قرن من الزمان . وقد اجتاح ابن الشمشقيق مدن الشام واحدة تلو الأخرى حتى وصل إلى شمال فلسطين ، لكنه توقف عند طرابلس التي تمكنت من صده بمعونة أسطول فاطمي ، فعاد إلى القسطنطنية حيث توفي بعد أشهر قليلة في سنة ٣٦٧هـ/٩٧٦ م.

وكان من الطبيعي في ضوء العقبات الكؤود التي اعترضت سبيل الفاطميين في بلاد الشام ، وكثرة القوى المناوئة لهم فيها ، ألا يحققوا نتائج حاسمة في السيطرة على تلك البلاد . لذلك تذبذب موقفهم تجاه البيزنطيين في عصر الإمبراطور باسل الثاني بين الحرب حينا والموادعة حينا آخر ، فعقد العزيز بالله الفاطمي هدنة مع باسل الثاني على أن يخطب له في جامع القسطنطنية(١) . وفي غيبة البيزنطيين عن الساحة الشامية نتيجة انشغال باسل الثاني بمشاكله في البلقان ، استعاد الفاطميون نفوذهم في بلاد الشام حتى حلب التي سارع باسيل الثاني بعد فراغه من مشاكله إلى منع وقوعها في يد الفاطميين . وعندما أعد العزيز بالله الفاطي أسطولاً كبيراً يدعم به نفوذه في الشام احترق هذا الأسطول فجأة سنة ٣٦٨هـ/٩٩٦ واتهم التجار الأجانب بتدبير الحادث فثار عليهم الفاطميون وقتلوا عدداً منهم(٢) . وقد تجددت الهدنة

---

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ص ١٥١ – ١٥٢ .

Lane - Poale : History of Egypt In the Middle Ages London 1901 p . p 147 - 148.

(٢) الأنطاكي : تكملة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق جـ١ ص ص ١٨٧ – ١٧٩

بين الطرفين حينما عقد الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله معاهدة مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن فى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧ م (١) قضت بأن يخطب للظاهر فى جامع القسطنطنية وفى الأراضى البيزنطية وأن يعاد بناء كنيسة القيامة التى كان الحاكم بأمر الله قد هدمها فى سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م(٢) .

لكن الصدام بين البيزنطنيين والفاطميين لم يلبث أن تجدد على الساحة الشامية ، حتى ظهرت محاولات عقد هدنة جديدة لم ينجح الطرفان فى عقدها إلا فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى والإمبراطور البيزنطى ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م . ومرة أخرى اشتعل الصدام بينهما حتى تجددت الهدنة سنة ٤٣٩ه/١٠٤٧م بين المستنصر بالله الفاطمى والإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس(٣) . وهكذا لم تؤد الحروب على الساحة الشامية بين الفاطميين والبيزنطيين إلى نتائج حاسمة حتى ظهر السلاجقة على أبواب الشرق الأدنى .

ذلك أن السلاجقة كانوا قد بسطوا سلطانهم على إيران بأكملها فى غضون عقد ونصف فقط من انتصارهم الكبير على الأزنوبيى فى داندا نقان

والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ٣ ص ص ١٥ – ١٦

ويذهب كلود كاهن (الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ص٥٩) إلى أن هؤلاء التجار كانوا من مدينة أمالفى .

(١) المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٣١ وأحمد عبد الكريم سليمان : المرجع السابق جـ١ ص ٢٠١.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٤١٦ ص٤٦ وأحمد عبد الكريم سليمان ، جـ١ ص ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

(٣) حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠ م . وقد دخل السلاجقة عالم الشرق الأدنى أول الأمر من أبوابه البيزنطية فهاجموا الأراضى البيزنطية فى عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس / وأحرز إبراهيم إينال - أخو طغرلبك من أمه - عدة انتصارات على البيزنطيين فى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، مما اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى أن يخطب ود السلاجقة ، فخطب لسلطانهم طغرلبك فى جامع القسطنطنية(١) لكن طغرلبك عاود مهاجمة البيزنطيين بنفسه سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م(٢) ، قبل عام واحد من دخوله الأول إلى العراق للقضاء على الدولة البويهية . وعلى الرغم من أن طغرلبك غادر بغداد بناء على طلب من الخليفة القائم بأمر الله العباسى ، فإنه لم يلبث أن عاد إليها تلبية لنداء الخليفة ليقضى على البساسيرى صنيعة الفاطميين(٣) وبإنجازه تلك المهمة حل طغرلبك والسلاجقة محل البويهيين فى الاستبداد بشئون الخلافة العباسية . ومالبث السلاجقة أن حلوا محل العباسيين فى مثلث النزاع على الساحة الشامية والذى ضم معهم كلا من الفاطميين والبيزنطيين .

وقد أعلن طغرلبك أنه يستهدف تحقيق عدة أمور ، منها أن يتجه إلى مصر لينتزعها من يد المستنصر العلوى ويقيم الدعوة على منابرها للخلافة العباسية(٤) ، وبطبيعة الحال فإن طريقه إلى مصر لابد وأن يمر عبر بلاد الشام . لكن طغرلبك توفى قبل تحقيق هذه الخطوة تاركا تلك المهمة لخلفه

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ١ ص ٨٤ وأحمد عبد الكريم سليمان : المرجع السابق جـ١ ص ٢٢٤ .

(٢) عصام الدين عبد الرؤف : الدولة المشتعلة ، ص١٥٩ .

(٣) ابن العمرانى : الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ص ١١٨ - ١٨٩ ، وابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ص ٧١ .

(٤) عصام الدين عبد الرؤف : المرجع السابق ص ١٦٣ .

السلطان ألب أرسلان ، الذى لم يكد يطمئن إلى توطيد سلطانه على دولة السلاجقة حتى وجه جهوده شطر الشام لمواجهة كل من البيزنطيين والفاطميين . وكان البيزنطيون بقيادة إمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس قد هاجموا الثغور الشامية لصرف أنظار السلاجقة عن أراضيهم(١) بينما هاجم بدر الجمالى أمير الجيوش الفاطمية ساحل الشام وحاصر مدنه صور براً وبحراً ، لكنه عجز عن دخولها(٢) .

وعندما دخل ألب أرسلان بلاد الشام سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م أدرك المرداسيون فى حلب عجزهم عن مواجهته ، فخطبوا له وللقائم بأمر الله العباسى(٣) . ويبدو أن ألب أرسلان فكر فى تحقيق أمانى سلفه طغرلبك فى المسير إلى مصر(٤) لكنه اضطر إلى التوجه لملاقاة الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينيس الذى توغل فى الأراضى السلجوقية . وإذا صحت عبارة المقريزى أنه " قطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان"(٥) فإن رومانوس الرابع يكون بذلك قد فكر فى إحياء خطة هرقل حينما هاجم عمق الأراضى الفارسية ليجبر الفرس على الانسحاب عندئذ من مصر والشام .

وكان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينيس يريد إيقاف الزحف السلجوقى على الأراضى البيزنطية . ولما كان السلاجقة يتوغلون

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ص ١٧٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص ص ٢٢ -٢٣ والراوندى راحة الصدور ص ١١٨ وابن الأثير جـ٨ ص١٠٨ .

(٣) حسنين ربيع : المرجع السابق ص١٨٦ ، وأحمد عبد الكريم سليمان : المرجع السابق جـ١ ص٢٣٢ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص٣٠٢ .

(٥) حسين ربيع : المرجع السابق ص ص ١٨٦ - ١٨٧ .

فيها من ثلاث منافذ هى الثغور الشامية والثغور الجزرية وأرمينية ، فقد خطط رومانوس الرابع لغلق هذه المنافذ الثلاثة على ثلاثة مراحل ، فقام بنفسه بقيادة حملات فيما بين سنى ٤٦١-٤٦٣/١٠٨٦-١٠٧١م(١) وحقق بعض النجاح المحدود فى حملتيه الأولتين على حلب ،لكنه هزم فى الحملة الثالثة هزيمة ساحقة قرب مانزكرد فى ذى القعدة سنة ٤٦٣هـ/أغسطس ١٠٧١م(٢).

والواقع إن انتصار السلاجقة على البيزنطيين فى مانزكرد كان نقطة تحول هامة فى التاريخ الإسلامى وفى التاريخ البيزنطى . فلأول مرة يقع الإمبراطور البيزنطى نفسه أسيرا فى أيدى المسلمين . ولاتقل أهمية هذه الموقعة عن اليرموك ، فإذا كانت اليرموك قد قررت مصير بلاد الشام فإن مانزكرد قررت مصير آسيا الصغرى ، إذ نجح السلاجقة فى فتحها والتوغل فيها . ولم تستطع بيزنطة التصدى للزحف السلجوقى الذى مهد لسقوط الدولة البيزنطية(٣) ولاشك فى أن خسارة بيزنطة فى آسيا الصغرى كانت فادحة ، إذ كانت آسيا الصغرى قد غدت مركز الروح الهللينية بدلاً من البلقان ، وأمدت الإمبراطورية البيزنطية بعديد من الأباطرة الأكفاء والقادة المهرة(٤) ولذلك كانت بيزنطة عندما فقدت آسيا الصغرى بمثابة رأس بلا جسد(٥) .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ وابن الأثير : الوصل جـ٨ ، ص ١٠٩.
وسهيل زكار : مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٦ - ١٤٩ .

(٢) حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص٥٨ .

(4) Vryonis; S : Byzantium and Europe, London, 1967 . p 134 .

(5) Setton : History of the Crusades . Pennsylvinia 1958 . p . 149 .
وحسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٩٢ ،٦١ .

أما بالنسبة لبلاد الشـام ، فحسب السلاجقة أنهم نقلوا ميدان الصراع الإسلامى البيزنطى إلـى خارجها أى إلى عقر دار البيزنطيين ، مثلما كان الحال عليه أيام الخلافة الأموية ؛ بل لقد ذهب السلاجقة إلى أبعد من ذلك فاستقروا فى آسيا الصغرى واتخذوا منها موطنا لهم(١) ، وترتب على ذلك أن توقف التهديد البيزنطى لبلاد الشام وبات النزاع عليها نزاعا إسلاميا محضاً قبل وصول الصليبيين إليها بنحو جيل كامل .

ولم تتح الظروف وقتاً أمام السلطان ألب أرسلان ليستثمر انتصاره العظيم فى مانزكرد ، لافى آسيا الصغرى ولافى بلاد الشام ، بل شغلته عن ذلك قلاقل واضطرابات وقعت فيما وراء النهر ، فاتجه لضبط أمورها فى صدر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م . لكنه قتل هناك(٢) وخلفه على السلطنة ابنه ملكشاه الذى انقسم السلاجقة تحت زعامته إلى ثلاثة أفرع رئيسية .

سلاجقة إيران والعراق ، وسلاجقة الروم ، وسلاجقة الشام .

وهكذا صارت الظروف فى آسيا الصغرى مواتية للتوسع السلجوقى بعد أن انهارت الروح المعنوية البيزنطية عقب هزيمة مانزكرد المريرة ، إذ دب الضعف فى أوصالها ، ونشب فيها صراع داخلى على العرش ، ودب الوهن فى جيشها ، فى نفس الوقت الذى كان مطالبا بالتصدى للأخطار على ثلاث جبهات رئيسية : السلاجقة فى آسيا الصغرى والمتمردين فى البلقان والنورمان فى جنوب إيطاليا(٣) .

---

(١) البندارى: تاريخ آل سلجوق ص٣٩. والراوندى: المصدر السابق ص ص١٩٠-١٩١.

(2) Anna Comnen : The Alexiad of the Princess Anna Comnen, Trans. by Elizabeth A. S . Dawess London, 1967 pp. 141 - 142 & Ostrogorsky : History of the Byzantine State Oxford 1956 p . p 345 - 348 .

وزبيدة عطا : الترك فى العصور الوسطى ص ص ٥٣ - ٥٦ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ٩٠ .

أما سلاجقة الروم فقد وصلوا التوسع فى آسيا الصغرى ؛ وقام بالدور الأكبر فى ذلك التوسع سليمان بن قتلمش الذى تمكن من بسط النفوذ السلجوقى على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريباً(١) ، وبذلك وضع أسس سلطنة سلاجقة الروم واتخذ من نيقية حاضرة لدولته فى سنة ١٠٨١م ؛ وهو العام الذى تولى فيه الكسيوس كومنين عرش بيزنطة . ولم يجد هذا الإمبراطور بدا من مهادنة سليمان بن قتلمش ريثما يفرغ من مشاكله الداخلية(٢) .

وبدلاً من أن يوجه سليمان بن قتلمش جل جهوده لمزيد من التوسع فى آسيا الصغرى ، حول اهتمامه ناحية بلاد الشام ، فاستولى على أنطاكية من البيزنطيين ٤٧٧هـ/١٠٨٤م(٣) ، ثم توغل نحو حلب التى كانت تابعة لنفوذ تاج الدولة تتش سلطان سلاجقة الشام ، فاستولى عليها سليمان بن قتلمش بعد قتل أميرها شرف الدولة العقيلى ، مما آثار استياء تتش . وكان أن اصطدم سلاجقة الروم بسلاجقة الشام فى معركة انتهت بمقتل سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م(٤) .

والواقع أن مقتل سليمان بن قتلمش جاء خسارة فادحة بالنسبة لحركة التوسع الإسلامى فى آسيا الصغرى ، إذ نازع الأمراء الأتراك المحليون

---

(١) زبيدة عطا : المرجع السابق ،ص ٩٠ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ص ص ٧٦ - ٨٩ .

وابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٣٦ .

وابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق تحقيق سهيل ذكار دمشق ١٩٨٣ ص ١٩٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٨ ص ١٤٠ ، وابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٩٤ .

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق جـ١ ص١٢٠ وأحمد عبد الكريم سليمان : المرجع السابق جـ١ ص٢٤٨ .

سلطنة نيقية نفوذها ، وعملوا على تأكيد استقلالهم عنها . ومع أن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش عمل على كبح جماح هؤلاء الأمراء المحليين إلا أنه اضطر في سبيل تحقيق ذلك إلى مهادنة الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الذي كان من مصلحته وقف نشاط هؤلاء الأمراء الذين شكلوا خطراً على الدولة البيزنطية . وأدى ذلك إلى وقف التوسع السلجوقي في الأراضي البيزنطية حوالي سنة ١٠٩٥م(١) ، وهو نفس العام الذي دعا فيه البابا أوربان الثاني في مجمع كلرمونت لشن الحرب الصليبية على الشرق الإسلامي .

وهكذا فقدت آسيا الصغرى القدرة على أن تكون خطا دفاعيا يحمي بلاد الشام من الخطر الصليبي ، في الوقت الذي كانت أحوال بلاد الشام نفسها لاتقل سوءا عن أحوال آسيا الصغرى، إذ باتت هي الأخرى مسرحا لصراع لاهوادة فيه بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة ، فضلاً عما كان هناك من صراعات بين السلاجقة أنفسهم بعضهم وبعض .

وفي تلك المرحلة ظهر على مسرح بلاد الشام أحد القادة الأتراك ويدعى أتسز ، قام بالاستيلاء على معظم جنوب بلاد الشام وقطع الخطبة منها للفاطميين وأعادها للعباسيين(٢) . ثم تطلع أتسز هذا إلى الاستيلاء على مصر نفسها وانتزاعها من يد الفاطميين فحاول غزوها في سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٧م ،

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر تحقيق أيمن سيد فؤاد القاهرة ١٩٨١م ص ٤٣ وابن ظافر الأسدي أخبار الدول المنقطعة تحقيق أندريه فيران القاهرة ١٩٧٢ م ص٦٨ .وابن الأثير : الكامل جـ٨ ص١٢٢ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥هـ ، جـ٢ ، ص١٩٤ . وابن ميسر: المصدر السابق ، ص٤٤ .والمقريزي اتعاظ الحنفا جـ٢ ، ص ص٣١٧-٣١٨.

لكن أمير الجيوش بدر الجمالي تصدى له وهزمه ، فارتد أتسز إلى دمشق في نفس العام(١) ، وقد أدرك بدر الجمالي الخطر الذى يتهدد مصرمن الوجود السلجوقي في بلاد الشام ، فشرع في العمل لاستعادتها ، وأرسل لذلك حملة بقيادة نصر الدولة الجيوشى ، وصلت إلى دمشق سنة ٤٧١هـ/١٠٩٧ م وحاصرت أتسز حصاراً شديداً اضطر معه إلى طلب النجدة من تاج الدولة تتش أخي السلطان ملكشاه(٢) .

وكان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان قد حضر إلى بلاد الشام بعد أن أقطعه إياها أخوه السلطان ملكشاه ، وما يستولى عليه في تلك النواحى(٣) ، فحاصر تتش مدينة حلب لكنه لم يستطع دخولها في الوقت الذى استنجد به أتسز . وكان أن سار تتش إلى دمشق ، فتقهقر عنها الجيش الفاطمي المحاصر لها ، وتسلم تتش دمشق من أتسز . ثم غدر به وقتله في سنة ٤٧١هـ/١٠٧٩م(٤) . واتخذ تتش من دمشق مركزا لبسط سلطانه على بلاد الشام ، فاستولى جنوباً على أعمال فلسطين ، وتطلع شمالاً إلى الاستيلاء على حلب التي كان سليمان بن قتلمش قد سبقه إلى الاستيلاء عليها ، بعد أن قتل أميرها العربي شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي(٥) ، ومن ثم كان الصدام محتوما كما أشرنا بين سلاجقة الروم بزعامة سليمان بن قتلمش وسلاجقة

---

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص١٨٢، وابن الأثير: المصدر السابق، جـ٨ ص١٢٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ، جـ٨ ص١٢٦،وابن خلدون: المصدر السابق ، جـ٥ص٦.

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ص١٨٣ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٥ ص٩ .

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ١ ص١٠٦ .

الشام بزعامة تتش بن ألب أرسلان ، ذلك الصدام الذى قتل فيه سليمان وأحدث شرخا بين الفرعين السلجوقيين(١) .

ويبدو أن الصدام بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام أقلق السلطان ملكشاه ، فقصد حلب سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٧م لتفقد الموقف بين الفرعين السلجوقيين المتشاحنين ، فمنح الرها لقائد تركى يدعى بوزان ومنح أنطاكية لياغى سيان ، وحرص على تقليص نفوذ أخيه تاج الدولة تتش فحرمه من حلب ومنحها لقيم الدولة آقسنقر(٢) ، بذلك حال بين تتش وإقامة دولة كبيرة موحدة فيبلاد الشام، مما أضر بها فى مواجهة الخطر الصليبيالذىشاء حسن حظه أن يصل إلىالشام ليجدها مفككةتتنازع أجزاءها قوىدب بينها العداء(٣).

ولم يكن باستطاعة تتش معارضة أخيه ملكشاه فآثر استرضاءه واستأذنه فى التوسع فى بلاد الشام على حساب الفاطميين ، فأذن له على أن يركز على ساحل الشام . وأمر السلطان ملكشاه كلا من آقسنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها مساعدة تتش على إنجاز مهمته(٤) ، التى كانت تستهدف فيما يبدو حرمان الأسطول الفاطمى من قواعده فى الموانئ الشامية خاصة بعد أن نشط الفاطميون للاستيلاء على ساحل الشام مما أثار مخاوف تتش(٥) وكان أن استولى تتش على حمص وبعض القلاع بمعاونة آقسنقر وبوزان لكنه فشل فى الاستيلاء على طرابلس لخلاف نشب بينه وبين آقسنقر(٦) .

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ص ص ١٠١ -١٠٢ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق جـ١ ص١٠٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص١٦٠ . وابن خلدون : العبر ، جـ٥ ، ص١٣ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٣م ، جـ٥ ص ١٢٥ .

(٥) نفس المصدر جـ٥ ص١٣٢ ، وابن القلانسى : المصدر السابق ،ص ١٩٨ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق جـ٨ ص١٦٦ ، وأبو المحاسن : جـ٥ ص١٥٥ . وابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

وأراد تتش أن يشكو آقسنقر إلى أخيه ملكشاه ، لكن ملكشاه توفى فى أواخر سنة ١٠٩٢م قبل أن يصل إليه تتش(١) ، فانتهز تتش الفرصة ،ودخل أصحاب حلب والرها وأنطاكية وغيرهم من الأمراء المحليين فى طاعته ، بل لقد نازع بركيا روق بن ملكشاه على زعامة السلاجقة(٢) ، حتى انتهى الأمر بمقتل تتش سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) . ولم يحاول السلطان بركيا روق أن يضع حدا للفوضى فى بلاد الشام وإنما تركها لولدى تتش : رضوان على حلب ودقاق على دمشق. ولم يكن الأخوان على وفاق بل وثب كل منهما على أملاك أخيه فاقتتلا وانهزم دقاق ثم اتفقا على أن يخطب باسمهما فى دمشق(٣). ولم يكن السلاجقة وحدهم على الساحة الشامية بل نازعهم عليها الفاطميون الذين لم يسلموا لهم أبداً بالسيادة على بلاد الشام ، ووجهوا الحملات إليها من حين لآخر ، مثلما حدث فى سنة ٤٧٨هـ التى هاجموا فيها دمشق(٤) وسنة ٤٨٢هـ التى استولوا فيها على صور وصيدا وعكا وجبيل(٥) ، وسنة ٤٨٦هـ التى قضوا فيها على تمرد والى صور منير الدولة الجيوشى(٦) وإذا كان الفاطميون قد انشغلوا عن بلاد الشام بعضا من الوقت بما شهدته مصر من

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ٨ ص ١٧٥ ، وابن القلانسى : المصدر السابق ص٢١٢ ، وابن خلدون : المصدر السابق جـ٥ ص١٩ .

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق جـ٨ ص١٨٤، وابن القلانسى: المصدر السابق ص٢١٥.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق جـ٨ ص١٣٩،وأبو الفدا: المصدر السابق، جـ٢ص٢٠٦.

(٤) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص١٩٧، وأبو المحاسن: المصدر السابق جـ٥ ص١٢٨.

(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٢٠٤، وأبو المحاسن: المصدر السابق جـ٥ ص١٣٨.

(٦) تسمى سنة ٤٨٧هـ بسنة موت الخلفاء والأمراء لأنها شهدت وفاة كثير منهم كالمستنصر بالله الفاطمى والمقتدى بالله العباسى من الخلفاء ، ومن الأمراء بدر الجمالى وآقسنقر وبوزان وغيرهم (أبو المحاسن : المصدر السابق ، جـ٥ ص١٣٩).

أحدث عقب وفاة كل من بدر الجمالى والمستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٨٧هـ(١) فإنهم لم يلبثوا بعد استقرار الأوضاع للأفضل بن بدر الجمالى والمستعلى بالله الفاطمى أن استأنفوا جهودهم لاستعادة سلطانهم على بلاد الشام ، فسير الأفضل جيشاً إلى صور للقضاء على تمرد المدعو " الكتيلة "(٢) وكاد الفاطميون أن يحرزوا نصراً كبيراً فى نفس العام على الساحة الشامية حينما نجحوا فى استمالة رضوان بن تتش ليخطب للمستعلى بالله الفاطمى بدلاً من المستنصر بالله العباسى . وقد قبل رضوان ذلك لرغبته فى محالفة الفاطميين حينذاك ضد أخيه دقاق لانتزاع دمشق منه(٣) لكن ياغى سيان صاحب أنطاكية وسقمان بن أرتق صاحب فلسطين أثنياه عن ذلك، فأعاد الخطبة للخليفة العباسى بعد أن خطب للخليفة الفاطمىنحوا من شهر(٤).

وقد رد الفاطميون على ذلك بأن خرج مدبر دولتهم الأفضل بن بدر الجمالى على رأس جيش إلى فلسطين حيث تمكن من الاستيلاء على بيت المقدس بعد حصار دام أكثر من أربعين يوما(٥) . وهكذا غرقت بلاد الشام فى بحر من الفوضى نتيجة لتصارع القوى الإسلامية بعضها مع بعض فى الوقت الذى شرع الغرب الأوربى فى الزحف على المشرق الإسلامى مرتديا مسوحا صليبية(٦) .

---

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ٥ ص١٥٩ .

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ص٢١٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٨ ص ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق ، جـ٥ ص١٥٩ . وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٨ ص١٨٩ .

(٥) وليم الصورى : المصدر السابق ، جـ١ ص٣٠٤ .

(٦) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ١ ص٢٠٧ .

وجملة القول ، إن الحروب الصليبية فى حلقتها التى استهدفت بلاد الشام بدعوى استرداد الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين كانت فى بعض أوجهها صفحة من صفحات الصراع القديم بين الشرق والغرب حول بلاد الشام التى غدت بحكم موقعها ساحة لهذا الصراع .

حصن بغراس ودوره الحربى
فى عصر الحروب الصليبية

د. على محمد على عودة الغامدى(*)

من الحقائق المعروفة أن للحصون والقلاع دور كبير فى مجريات الحروب على مر العصور . وقد اكتسب بعض الحصون فى زمن الحروب الصليبية أهمية كبيرة بسبب موقعها(١) . ومن تلك الحصون حصن بغراس ، بالسين مكان الزاى(٢) وتلفظ باليونانية باغراى وباللاتينية غاستون Gastun وبالتركية بايراس(٣) ويقع هذا الحصن فى لحف جبل اللكام بين الشعاب الشرقية للسلسلة الجبلية المعروفة حاليًا باسم قيزيل ضاى والأمانوس . وكان بغراس يشكل فى عصر الحروب الصليبية مفتاح الطريق الواصل بين أنطاكية وقيليقية ، وبينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ (اثنا عشر ميلاً) على يمين المتجه صوب أنطاكية من حلب(٤) .

وقد جعل عز الدين بن شداد حصن بغراس فى رأس قائمة الحصون المضافة إلى أنطاكية(٥) هذا فى حين أضاف أبو الفدا حصن بغراس إلى جند

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ الإسلامى – جامعة أم القرى .

(١) قام فولفغانغ مولر – فينر بتأليف كتاب قيم عن القلاع أيام الحروب الصليبية ، وقد ترجمة إلى العربية محمد وليد الجلاد ، وطبعته دار الفكر بدمشق طبعتين الأولى سنة ١٩٨١ والثانية سنة ١٩٨٤م .

(٢) ياقوت : معجم البلدان .

(٣) فولفغانغ مولر : القلاع أيام الحروب الصليبية ص٥٨ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، فولفغانغ : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥)عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة جـ١ نسخة الفاتيكان ورقة ٢٣٤ أ .

قنسرين التى قال عنها أنها : " ذات قلعة مرتفعة ولها أعين وبساتين ... وهى فى الجبل المطل على عمق حارم فى جهة الشرق عنها ، وبينهما نحو مرحلتين ، وبغراس فى جهة الجنوب عن دربساك وبينهما بعض مرحلة "(١).

وقد وصف فولفغانغ مولر حصن بغراس بقوله : " قلعة وقرية صغيرة فى لواء الإسكندرونة ، تقع بين الشعاب الشرقية للسلسلة الجبلية التى تكون قيزيل ضاى والأمانوس ... كانت تشكل مفتاح الطريق الواصل بين أنطاكية – الإسكندرونة – قيليقية . والقلعة ما تزال محفوظة فى حالة جيدة إلى حد ما، تطل على واد جبلى فوق مخروط صخرى ينحدر بشدة من جميع الجهات. ولقد شيدت القلعة على عدة مستويات بسبب شدة انحدار السفوح الصخرية ، وترتبط بعضها ببعض بممرات وسلالم . وهى على هذا النحو تتماشى مع الأرض المحيطة بها . ويذكرنا تصميمها المتضام بالقلاع الأرمنية فى قيليقية . وبغض النظر عن الغرف العديدة ذات العقود ، وممراتها الكثيرة المبنية داخل المنحدرات ، فإن ما حفظ من القلعة العلوية لا يزيد عن بقايا قاعتين ضخمتين. وعند القلعة توجد قناة جرمانية ضخمة كانت تستخدم أيضًا لإغلاق القسم العلوي من الوادي "(٢) .

على أن فولفغانغ جانب الحقيقية حين رجح أن البيزنطيين شيدوا حصن بغراس فى القرن العاشر الميلادى /الرابع الهجري (٣) ، فالمصادر الإسلامية وكتب البلدان تذكر أهمية بغراس ودربها منذ وقت مبكر قبل هذا التاريخ ، إذ

---

(١) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٢) فولفغانغ مولر : المرجع السابق ص٥٨ .

(٣) المرجع نفسه ص٥٨ .

ينقل ابن شداد وابن العديم عن أبى زيد أحمد بن سهل البلخى فى كتابه الذى وضعه فى صفة الأرض وما تشتمل عليه من المدن قوله : " وبغراس على طريق الثغور وبها ضيافة لزبيدة وليس بالشام دار ضيافة غيرها "(١) .

وذكر المؤرخون أن أرض بغراس كانت لمسلمة بن عبد الملك فوقفها على سبيل البر(٢) وفى نص أورده البلاذرى ما يؤكد أن بناء حصن بغراس تم زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عندما أنشأ عددًا من الحصون الواقعة فى داخل الدروب المفضية إلى منطقة قيليقية فيقول : " ... وبنى هشام حصن مورة على يدي رجل من أهل أنطاكية ، وكان سبب بنائه ايّاه أن الروم عرضوا لرسوله فى درب اللّكام عند العقبة البيضاء ، ورتب فيه أربعين رجلاً وجماعة من الجراجمة ، وأقام ببغراس مسلحة فى خمس . رجلاً وابتنى لها حصنًا "(٣) . كذلك اشار البلاذرى – وهو من رجال القرن الثالث الهجري/

(١) عز الدين ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج١ نسخة الفاتيكان ، ورقة ٢٣٤ أ ب ؛ ابن العديم : بغية الطلب جـ١ ، نشر فؤاد سزكين ، فرانكفورت ١٩٨٣ ص١٨٦ – ١٨٧؛ أبو الفدا : تقويم البلدان ص٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٢) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج١ ورقة ٢٣٤ ب ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٥ ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، ج١ ص١٨٧ ؛ ياقوت :معجم البلدان .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ . وانظر أيضًا : قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٠٨ – ٣٠٩ ؛ والجراجمة : من سكان جبل اللكام ينسبون إلى مدينة تسمى الجرجومة على ذلك الجبل وتقع بين مدينة بياس وحصن بوقا من أعمال أنطاكية ، وكانوا يتبعون بطريق أنطاكية إبان حكم الروم للشام ، فلما فتح أبو عبيدة بن الجراح – رضى الله عنه – أنطاكية ، لزم الجراجمة مدينتهم ، وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم ، ولم ينتبه لهم المسلمون ثم إن أهل أنطاكية نقضوا الصلح فأرسل أبو عبيدة ، جيشًا فتحها مرة ثانية وولى عليها حبيب

التاسع الميلادى (ت ٢٧٩) إلى أنه سمع من بعض أهل أنطاكية وبغراس ما يشير إلى أن حصن بغراس كان عامرًا إبان ذلك العهد حيث يقول : " حدثني بعض أهل أنطاكية وبغراس أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساءه ، وحمل ناس ممن معهم نساءهم . وكانت بنو أمية تفعل ذلك إرادة الجد فى القتال للغيرة . فلما صار فى عقبة بغراس المستدقة التى تشرف على الوادى سقط فيه امرأة إلى الحضيض ، فأمر مسلمة أن تمشى سائر النساء فمشين ، فسميت تلك العقبة عقبة النساء . وكان المعتصم بالله ... بنى على حد تلك الطريق حائطًا قصيرًا من حجارة "(١) .

وقد اختلف المؤرخون فى أول من اجتاز بدرب بغراس . فمنهم من ذكر أن أول من اجتازه من المسلمين ميسرة بن مسروق العبسى ، حيث وجهه أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فلقى جمعًا من الروم ومنهم مستربة من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل ، فأدركهم ميسرة ، وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم لحق الأشتر النخعى مددًا من قبل

بن مسلمة الفهرى ، فغزا الجرجومة فبادر الجراجمة بطلب الأمان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح فى جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حربًا فى مغازيهم . وغالبًا ما كانت تسقط الجزية عنهم جراء وقوفهم إلى جانب المسلمين إلى أن كان عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله ، فأمر بأخذ الجزية من هؤلاء الجراجمة وأن يُجرى عليهم الأرزاق إذا كانوا ممن يستعان بهم فى المسالح وغيرها . وللمزيد من أخبار الجراجمة وعلاقتهم بالمسلمين انظر : البلاذرى : فتوح البلدان ص٢١٧ - ٢٢١ ؛ ابن العديم : بغية الطلب ج١ ص٢٤٩ - ٢٥٣ .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٩ ؛ عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٤ ب ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، ج١ ص١٨٧ .

أبى عبيدة وهو فى أنطاكية . بينما ذكر آخرون أن أول من قطع درب بغراس عمير بن سعد الأنصارى حين توجه يقفو أثر جبلة بن الأيهم(١) .

وبرغم اختلاف المؤرخين حول أول من قطع درب بغراس فإن الأمر الذى يعنينا معرفته هنا ، هو أن المسلمين أدركوا أهمية موقع بغراس وطريقها حين أكملوا فتح بلاد الشام زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم كان أن أصبح اسم بغراس معروفًا فى منطقة الثغور ، فقد ذكره البحترى فى شعره وهو يمدح أحمد بن طولون الذى كان والياً للثغور الشامية سنة ٢٦٢هـ / ٨٧٦م ، وكان له دور مهم فى منطقة الثغور خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى(٢) قال البحترى فى قصيدته :

سيوفٌ لها فى عمر كل عدى ردى ‏ ‏ ‏ ‏ وخيل لها فى كل دار عدًى نهب

علت فوق بغراس فضاقت بما جنت ‏ ‏ ‏ ‏ صدوررجال حيث ضاق بها الدرب[٣]

ويبدو أن بغراس غدت محطة استراحة بين أنطاكية والثغور الشامية ، فقد جاء ذكرها فى تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٢٨٧هـ ، حين تحدث عن عودة

---

(١) الأزدى : تاريخ فتوح الشام ص ٢٣٧-٢٤٢ ؛ الواقدى : فتوح الشام ج٢ ص٢-٦؛ ابن العديم : بغية الطلب ج١ ص١٨٧ - ١٨٨ والملاحظ أن اسم بغراس قد تصحف فى الكتاب المنسوب إلى الواقدى ، والمطبوع بدون تحقيق إلى عقبة جنداس، والصحيح عقبة بغراس ، لأنه لا يوجد فى منطقة الثغور الشامية مكان بهذا الاسم ، انظر الواقدى : المصدر نفسه ج٢ ص٣ .

(٢) انظر التفاصيل عن دور أحمد بن طولون فى منطقة الثغور الشامية فى ابن العديم : بغية الطلب ج٢ ص٣٢٤ - ٣٣٢ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة بغراس .

الخليفة العباسى المعتضد من الثغور فقال : " ورحل المعتضد ... من المصيصة فنزل فندق الحسين ... ثم بغراس ثم أنطاكية لليلتين خلتا من ذي الحجة "(١) .

وينسب إلى حصن بغراس بعض العلماء والمحدثين ، منهم على سبيل المثال : المحدث الحسين بن عبد الله البغراسى الذى روى عن أبى بحر عبد العزيز بن قرة الثغرى التميمى ، وروى عنه القاضي أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الغفار ابن ذكوان البعلبكى(٢) . ومنهم الحافظ أبو عثمان سعيد بن حرب البغراسى الذى سكن " بغراس ، حصن قريب من أنطاكية من الحصون المنيعة " روى عن خرزاد الإنطاكى . وأحمد بن على بن سعيد القاضى المروزى، روى عنه أبو المفضل محمد بن عبد الله الشيبانى الكوفي، وذكر أنه سمع منه ببغراس . وروى عنه أيضًا أبو القاسم الحسن بن منصور بن النّمس ، قال : حدثنا أبو عثمان سعيد بن حرب الحافظ .. قال حدثنا أحمد ابن على سعيد القاضى الحمصى قال : حدثنى الأوزاعى عن عبيدة بن أبى لبابه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله قومًا يخصهم بالنعم لمنافع الناس يقرها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها حولها الله إلى غيرهم "(٣) كذلك روى الحافظ سعيد بن حرب البغراسى

---

(١) الطبرى ، جـ١٠ ص٨١ .

(٢) ابن العديم : بغية الطلب ج٦ ص٤ .

(٣) ابن العديم : بغية الطلب ج٩ ص٥٤٤ - ٥٤٥ ، وهذا الحديث الذى رواه الحافظ المحدث سعيد بن حرب البغراسى وأورده لنا ابن العديم ، رواه أيضًا ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج ص٢٣ - ٢٤ برقم (٥) ، والبيهقى فى شعب الإيمان ج٦ ص ١١٧ - ١١٨ برقمى (٧٦٦٢) و (٧٦٦٣) ، وأبو نعيم الأصفهانى فى حلية

بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه : " أن النبي صلى الله عليه وسلم حج مقرنًا "(١) .

ومن علماء بغراس فى علم الحديث أحمد بن إبراهيم البغراسى ، روى عن أبى الآجرى ، وكتب عنه محمد بن أبى بكر بن أحمد وغيره . وقال الحافظ أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن القاسم أبو بكر البغراسى ، الحضرمى: قدم دمشق وحدث فى سنة ٤١٤هـ أبى على المحسن بن هبة الله الرملي ، وسمع منه خلف بن مسعود الأندلسى(٢) . وهذا يوضح حقيقة كبرى هى أن الحياة فى حصن بغراس وغيره من حصون الثغور فى العصر الإسلامي لم تكن حياة عسكرية بحتة بل كانت مجالاً خصبًا للحياة العلمية بأوسع معانيها ، حيث كان يفد العلماء والمحدثون إلى تلك الحصون ، لنيل أجر الجهاد والرباط فى سبيل الله من ناحية ، وتعليم الجنود المحترفين والمرابطين المحتسبين الحديث وسائر العلوم الإسلامية ونشر الوعى والعلم بينهم من ناحية أخرى ، مما كان له أبعد الأثر فى ازدهار الحركة العلمية خلال تلك الحقبة السابقة لاستيلاء الروم على منطقة الثغور الشامية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى .

الأولياء ج٣ ص٢٢٥ ؛ الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ج٩ ص٤٥٩ . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير برقم (٢٣٥٢) ورمز لحسنه ، وأورده فى جمع الجوامع وعزاه إلى الطبرانى فى الكبير ، قال المناوى : " رواه أبو بكر بن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج والبيهقى فى الشعب والطبرانى فى الأوسط والكبير " المناوى : فيض القدير جـ٢ ص٤٧٨ ؛ والهيثمى فى مجمع الزوائد جـ٨ ص١٩٢ .

(١) ابن العديم : بغية الطلب ج١٠ تحقيق سهيل زكار ، ص٤٥٢٤ والحديث صحيح . انظر البخارى (فتح البارى ، باب التمتع والأقران والأفراد ج٣ الأحاديث ١٥٦١ - ١٥٦٩ ؛ صحيح مسلم بشرح النووى ج٨ ص٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة بغراس .

وقد ظل حصن بغراس فى مأمن من خطر الروم حتى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، بسبب بُعده عن خط المواجهة بين المسلمين والروم ، حيث كانت المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من بغراس – وهى منطقة قيليقية (الثغور الشامية) بمدنها المعروفة ، طرسوس ، والمصيصة ، وعين زربه ، وإذنه وغيرها – فى أيدى المسلمين . ولكن حدث منذ منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أن تعرض حصن بغراس لخطر الروم ، عندما تحول ميزان القوى بين الروم والمسلمين لصالح الروم زمن الأسرة المقدونية(١) .

ذلك أنه حدث فى سنة ٣٥١هـ / ٩٦١م ، أن نزل الروم على عين زربة واستولوا عليها بقيادة الدمستق(٢) نقفور فوقاس ، كما استولوا على أربعة وخمسين حصنًا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان . وأنزل الروم الهزيمة بأهل طرسوس ، وعند ذلك أدرك أهل بغراس عجزهم عن الصمود أمام الهجوم المتوقع للروم " وراسل أهل بغراس الدمستق ، وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم "(٣) والراجح أن أهل بغراس غادروا حصنهم بعد اشتداد حملات الروم ، حيث يقول عز الدين ابن شداد " ثم أهمل أمر هذا الحصن حتى تهدم "(٤) .

---

(١) عن تفاصيل هذا التحول فى ميزان القوى ، انظر : حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص١٥٦–١٥٨ ؛ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص٣٢٧ –٧١٤.

(٢) الدمستق لقب رومى كان يطلق على القائد الذى يتولى قيادة الثغور الواقعة شرقى خليج القسطنطينية فى آسيا الصغرى وما يتبعها . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ص٦٠٦ – ٦٠٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ،ج٨ ص٥٣٨ – ٥٣٩ ؛ وانظر عز الدين بن شداد الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٤ ب .

(٤) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ أ .

وفى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م زحف إمبراطور الروم نقفور فوقاس على الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله ، فتقدم إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها وسبى من فيها ، ونازل حمص فجلا سكانها عنها ، وسار إلى بلدان ساحل الشام " فأتى عليها نهبًا وتخريبًا ، وملك ثمانية عشر منبرًا وعددًا كبيرًا من القرى ، وأقام فى الشام مدة شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء " ولا يمنعه أحد أو يقف فى وجهه " وصار للروم الهيبة العظيمة فى قلوب المسلمين " وعندما قرر أن يحاصر أنطاكية وحلب علم أن أهلهما قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه " فامتنع من ذلك ، وعاد ومعه من السبي نحو مائة ألف رأس ، ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان، فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه "(١).

وكان هدف نقفور فوقاس من هذه الغارات تمهيد الطريق للاستيلاء على أنطاكية وحلب ، لذلك عمد أثناء عودته إلى تجديد حصن بغراس المشرف على أنطاكية حيث يقول عنه الإنطاكى : " وبنى حصن بغراس مقابل أنطاكية فى فم ورتب فيه رئيسًا يقال له ميخائيل البرجى ، ورسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته ورتب معه ألف رجل ، ورجع الملك إلى القسطنطينية "(٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ص٥٩٦ - ٥٩٧ ؛ وانظر أيضًا تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص١٣١ وقد جعل الانطاكى حملة نقفور هذه سنة ٣٥٧هـ وقال أنه تقدم إلى طرابلس وأحرق ربضها يوم عبد الأضحى العاشر من ذى الحجة سنة ٣٥٧هـ وهذا لا يناقض قول ابن الأثير إذ أن حملة نقفور استمرت شهرين حتى نهاية الشهر الأول من سنة ٣٥٨ ؛ وانظر أيضًا مسكويه : تجارب الأمم ، ج٢ ص ٢٥٤ حاشية رقم (١) نقلاً عن تاريخ الإسلام للذهبى ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص١٥٨ ؛ أبو الفدا : المختصر ج٢ ص١١٠ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١٣١ ؛ وانظر أيضًا عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٥٦ ب ؛ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص٤٨١ .

وقد جعل نقفور لميخائيل البرجي رئيس حصن بغراس مهمة الإشراف على كل مواقع الأطراف واخضع لسلطانه قادة الحاميات بهذه المواقع ، على أن يجرى تخزين محصولات القرى المجاورة فى هذا الحصن(١) ؛ الأمر الذى يشير إلى عزم وتصميم الإمبراطور نقفور فوقاس على الاستيلاء على أنطاكية ، لأن السيطرة على حصن بغراس تهيئ له الفرصة للانقضاض على أنطاكية . وهو الأمر الذى قام به حيث بعث من لدنه غلامه بطرس، الاسطرطر بدرخ وأمره بالتوجه إلى أنطاكية حيث شرع فى مهاجمة زروعها ورساتيقها " وأتى عليها وقوى حصن بغراس بالرجال "(٢) . وفى آخر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م أصدر الإمبراطور نقفور فوقاس أمره إلى قائد حصن بغراس ميخائيل البرجي وغلامه بطرس فتقدما بقواتهما إلى أنطاكية

---

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ، ص٤٨١ حاشية رقم (٤) وينقل العرينى - يرحمه الله - عن :

Schlumberger, G : Un Empereur au dixiemesiecle Nicephore Phocas. Paris 1890, P. 708 .

أن حصن بغراس هو الذى اشتهر بحصن لوقا ، الباز العرينى ص٤٨١ - ٤٨٢ ، وهذا مجانب للصواب ، فحصن بوقا - وليس لوقا - غير حصن بغراس فالبلاذرى بعد أن تحدث عن بناء حصن بغراس انتقل إلى الحديث عن حصن بوقا وقال : " وبنى هشام حصن بوقا من عمل أنطاكية ، ثم جدد وأصلح حديثًا " البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص٣٠٩ ؛ كما أن ابن العديم فى كتابه بغيه الطلب جـ١ ص٢٣٩ أفرد عنوانًا مستقلاً لحصن بوقا وهو الذى سبق وأن أفرد عنوانًا مستقلاً لحصن بغراس ص١٨٦ - ١٨٨ ، كذلك تحدث عز الدين ابن شداد بالتفصيل عن حصن بغراس ثم انتقل إلى الحديث عن حصن دربساك ثم أفرد عنوانا لحصن بوقا وقال عنه : " وهو حصن له كورة قريب من أنطاكية " عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٧ ب .

(٢) تاريخ يحى بن سعيد الانطاكى ص ١٣١ .

وانتزعاها من المسلمين فى ذى الحجة ٣٥٨هـ / أكتوبر ٩٦٨م وقتل الروم الكثير من سكان أنطاكية وسبوا أكثر من عشرين ألف إنسان(١) .

وكان أن ظل حصن بغراس بعد ذلك فى أيدى الروم مدة تزيد على قرن من الزمان ، حتى تحول ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والروم لصالح المسلمين بقيام دولة السلاجقة وانتصارها الحاسم على الروم فى معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م . وفى سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٥م فتح سليمان بن قطلمش- مؤسس سلطنة سلاجقة الروم - أنطاكية ، وشرع يوطد نفوذه فيها ، وفتح الحصون المجاورة لها ومعظم الثغور الشامية المهمة ، وعلى رأس تلك الحصون التى فتحها حصن بغراس حيث عاد هذا الحصن مرة أخرى إلى حوزة المسلمين(٢) .

وحين وصول الحملة الصليبية الأولى إلى تخوم بلاد الشام الشمالية ، أدرك الصليبيون أهمية حصن بغراس باعتباره مفتاح أنطاكية . وفى اليوم الثانى من شوال سنة ٤٩٠هـ / سبتمبر ١٠٩٧م " نزلت الفرنج على بغراس ، وأغاروا على أعمال أنطاكية "(٣) . والراجح أن الأرمن الذين يقطنون منطقة قيليقية هم الذين نبهوا الصليبيين إلى أهمية حصن بغراس ؛ حيث قام الأرمن كما يذكر المؤرخون بتزويد الصليبيين بالمؤن والأدلاء منذ وصولهم إلى جبال

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج١ ورقة ٢٥٦ أ ب ، يحى بن سعيد الأنطاكى ص ١٣٤ - ١٣٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٦٠٣ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص١٦٢ ؛ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٢) عز الدين بن شداد الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ ب .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص١٣١ .

وفيافي شرق آسيا الصغرى(١) . وهكذا نزل الصليبيون على حصن بغراس فى أوائل شهر شوال ٤٩٠هـ / سبتمبر ١٠٩٧م . أما عن نزولهم على أنطاكية فيقول ابن العديم : " ونزل الفرنج على أنطاكية لليلتين بقيتا من شوال سنة تسعين وأربعمائة "(٢) . وحين استولى الصليبيون على أنطاكية سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م ضموا إليها حصن بغراس فأصبح تابعًا لإمارة أنطاكية الصليبية التى انفرد بحكمها بوهمند النورمانى(٣) . وتم اعتبار حصن بغراس من ممتلكات إمارة أنطاكية أيضًا بموجب معاهدة دورازو التى فرضها الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين على بوهمند الأول أمير أنطاكية بعد هزيمة الأخير أمامه(٤) .

ويذكر عز الدين بن شداد أن فرسان الداوية(٥) ، اشتروا حصن بغراس من الصليبيين حيث قال : " ولما ملكوه اشترته الداوية

---

(١) انظر أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٤٦ - ٤٧ ؛ سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٤ ؛ رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص٢٨٧ - ٢٨٩ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ص١٣١ .

(٣) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ أ .

(٤) فولفغانغ مولر : القلاع أيام الحروب الصليبية ص٥٨ .

(٥) الداوية هى طائفة فرسان الهيكل (المعبد) ، وقد نشأت على أساس حربى منذ سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، وقد أسسها فارس فرنسى يدعى هيو باينز Hugh Payenens حيث طلب من ملك بيت المقدس الصليبى بلدوين الأول السماح له باتخاذ ساحة المسجد الأقصى مقرًا له ولطائفته فأجابه إلى طلبه . وعملت هذه الطائفة فى بداية عهدها على حراسة الطريق بين يافا وبيت المقدس وتطورت حتى أصبحت تابعة للبابوية فى روما مباشرة . ولم تلبث طائفة الداوية أن سيطرت على الكثير من

منهم "(١) ولم يرد فى المصادر ما يشير إلى المبلغ الذى دفعه فرسان الداوية للصليبيين مقابل حصولهم على حصن بغراس ، ومتى تمت هذه الصفقة والشروط التى تمت بين الجانبين . والراجح أن ذلك كان ضمن نطاق السياسة التى سارت عليها مملكة بيت المقدس الصليبية وبقية الإمارات الصليبية الأخرى ، والمتمثلة فى التوسع فى منح طوائف الفرسان الرهبان الكثير من الحصون والقلاع المهمة لتكون بمثابة خط الدفاع الأول فى مواجهة المسلمين. ويبدو أن تسليم حصن بغراس للداوية تم فى العقد الرابع من القرن السادس الهجرى حيث تشير المصادر إلى أن أول عمل حربي مباشر قام به الداوية من حصن بغراس كان سنة ٥٣١هـ / ١١٣٨م ، حين قام إمبراطور الروم يوحنا كومنين بحملته المعروفة على أنطاكية بغية استردادها من الصليبيين ؛ ثم اتجه منها إلى حصن بغراس ، وانطلق منه إلى قيليقية لإخضاع أمراء الأرمن . وأخيرًا اتفق مع زعماء الصليبيين على الزحف على منطقة حلب التابعة لعماد الدين زنكي / وانضمت إلى تلك الحملة

القلاع والحصون فى بلاد الشام وقيليقية ومنها حصن بغراس ، سواء كان ذلك عن طريق المنح من جانب مملكة بيت المقدس الصليبية وبقية الإمارات الصليبية أو عن طريق الشراء مباشرة من جانب فرسان الداوية الذين كانوا يحصلون على دعم البابوية دائمًا . وأسهم فرسان الداوية فى الحملات الصليبية والاعتداءات التى قام بها الصليبيون على بلاد المسلمين حتى أصبحت الداوية مع طائفة الاسبتارية تشكلان القوات الضاربة للصليبيين . وقد أتخذ فرسان الداوية الصليب الأحمر شعارًا لهم . ومما ساعد على إزدياد قوة الداوية أن البابوية فى أوربا أوقفت على هذه الطائفة ضياعًا وممتلكات كثيرة فى غرب أوروبا مما جعل من هذه الطائفة مع الاسبتارية أقوى دعامتين للوجود الصليبى فى بلاد الشام . انظر على محمد عودة : سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن فى قيليقية ص ٣١٩ حاشية رقم ١٥.

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ ب .

الصليبية الرومية المشتركة كتيبة من فرسان الداوية فى بغراس . وبعد فشل محاولة الاستيلاء على حلب اتجهت الحملة إلى شيزر بهدف الاستيلاء عليها . ولكنها أخفقت فى تحقيق هدفها بسبب حصانة شيزر ومقاومة عماد الدين للحملة ، فانسحب الإمبراطور عن شيزر بعد أن أرسل إليه أمير شيزر بعض الهدايا والخيول طالباً الصلح ، فأجابه الإمبراطور إلى طلبه وانسحب عائدًا إلى أنطاكية لمحاولة الاستيلاء عليها . ولما أخفق فى ذلك بسبب مقاومة الصليبيين ، أثر الانسحاب عن أنطاكية عائدًا إلى بلاده(١) .

ولكن الإمبراطور عاد مرة أخرى إلى بلاد الشام سنة ٥٣٦هـ / ١١٤٢م بقصد انتزاع أنطاكية من الصليبيين ، واتخذ من حصن بغراس قاعدة له ، ومنها أرسل إلى الصليبيين فى أنطاكية يطالب بتسليمها . وعندما أخذ يستعد لمنازلة أنطاكية أصيب بسهم أحدث به جرحًا وهو يطارد الدببة ، فكان ذلك سببًا لموته ونجاة أنطاكية من السقوط(٢) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ص ٢٦٠ - ٢٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ج١١ ص ٥٣ ، ٥٦ - ٦٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٧٦ - ٨٣ ؛ سعيد عاشور الحركة الصليبية ج١ ص٥٦٦ - ٦٧٦ ؛ William of Tyre : The History of Deeds Done Beyond the Sea, Vo II, P. 64 - 99 ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤٠ - ٣٥٠ .

ويحدد فولفغانغ انتقال ملكية حصن بغراس إلى الداوية بسنة ١١٦٣م / ٥٤٨هـ ولكن لم نجد فى المصادر المتداولة مايؤيد هذا التحديد : انظر فولفغانغ : القلاع فى عصر الحروب الصليبية ص٥٨ .

(2) William of Tyre, OP. Cit. Vol II. P. 123 - 124 :
رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٥٥ - ٣٥٩ .

ولم يقتصر دور فرسان الداوية فى حصن بغراس على مهمة الدفاع عن إمارة أنطاكية الصليبية فحسب ، بل وقفوا جنبًا إلى جنب مع الأرمن فى قيليقية ضد هجمات المسلمين . ففى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م غزا سلطان سلاجقة الروم مسعود بن قلج أرسلان قيليقية واسترد بعض البلدان الخاضعة للأرمن ، وانتوى فتح كل قيليقية ، ولكن حدث حينما كان يحاصر تل حمدون، أن تفشى فى جيشه وباء فظيع بسبب الذباب والبعوض ، وأهلك الوباء جزءًا كبيرًا من جيشه فعاد السلطان مسرعًا إلى بلاده([1]) وكان مما ساعد على فشل حملة السلطان مسعود أن ستيفن الأرمنى شقيق ثوروس بن ليو حضر بالداوية من حصن بغراس ، وفاجأ أحد قادة السلطان مسعود ويدعى يعقوب داخل دروب قيليقية فقتله وهزم رجاله هزيمة منكرة ، الأمر الذى مكن ثوروس الأرمنى من تتبع فلول قوات سلاجقة الروم إلى داخل بلادها والقضاء عليها([2]) .

ومهما يكن من أمر فقد أضحى حصن بغراس يشكل خط الدفاع الأول والمهم عن إمارة أنطاكية الصليبية . وشارك فرسان الداوية فى هذا الحصن فى مساعدة إمارة أنطاكية ، وانخرطوا فى معظم الهجمات التى قام بها أمراء أنطاكية ضد بلاد المسلمين فى شمال الشام([3]).وقد استشعر نور الدين محمود خطر الداوية فى حصن بغراس ، لذلك هاجم الداوية عند حصن بغراس سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، وأنزل الهزيمة بريموند بواتييه (Raymond of Poitiers)

---

(1) Osman Turan : Anatolia in The Period of The Soljuks and Beyliks in The Cambridge History of Islam, Vol. 1A, P. 242 .

(2) Nersessian, The Kingdom of Cilician Armenia, in The History of the Crusades, Vol . II. P. 639 .

(3) Prawar. J. The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972, P. 264 .

أمير أنطاكية وبداوية بغراس ، ثم سار جنوبًا إلى حصن أنب شرقى نهر العاصى وأنزل الهزيمة مرة أخرى بريموند بواتييه وحلفائه من الباطنية ، حيث قتل ريموند وعلى بن وفا زعيم الباطنية وذلك فى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م(١) .

وبعد مقتل ريموند تزوجت أرملته كونستانس (Reynald of Chatillon) ، وهو المعروف فى المصادر الإسلامية باسم (ارناط) وذلك سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م فتولى أرناط الوصاية على أنطاكية ، والتقى بالأرمن عند الإسكندرونة شمالى أنطاكية فهزمهم ، وأعادهم إلى قيليقية . ثم وجه جهوده للتعاون مع الداوية فى حصن بغراس فأهدى إليهم المناطق التى انتزعها من الأرمن عند الإسكندرونة ، فقام الداوية فى حصن بغراس بإعادة بناء الحصن وترميمه ، كما بنوا قلعة جديدة تسمى قسطون قرب الإسكندرونة أصبحت مع حصن بغراس تتحكمان فى جميع الدروب التى تربط بلاد الشام بآسيا الصغرى(٢) . وحين تسلم بوهمند الثالث (Bohemond) حكم أنطاكية زاد فى إقطاعيات الداوية حول حصن بغراس(٣) . الأمر الذى أصبح يشكل خطرًا جسيمًا على المسلمين فى شمال بلاد الشام . وقد استمال نور الدين محمود الأمير الأرمنى مليح بن ليون ، فساعده بفرقة من الفرسان ، وتمكن بها مليح من الوصول إلى حكم الأرمن فى قيليقية سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م(٤) .

---

(1) William of Tyre, Op. cit., Vol. II P. 196 - 198 .

رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٥٢٤ – ٥٢٥ .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٥٥٧ – ٥٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ج٢ ص٦٠٨ .

(4) William of Tyre, OP. cit. Vol. II. PP. 376 - 387 .

ولم يلبث أن زحف مليح بمساعدة نور الدين إلى جبال اللكام (الأمانوس) فى شرقى قيليقية وانتزع من الداوية الكثير من الحصول الواقعة بين قيليقية وحصن بغراس ، والتى يمكن اعتبارها بمثابة خط الدفاع الأول عن حصن بغراس من ناحية قيليقية(١) .

وبعد أن نجح مليح - بمساعدة نور الدين - فى انتزاع حصون جبال اللكام التابعة للداوية من جهة قيليقية ، هاجم الداوية فى حصن بغراس(٢) سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م الأمر الذى أوقع الرعب والفزع فى نفس بوهمند الثالث أمير أنطاكية ، وأدرك أن وقوع حصن بغراس بيد مليح - حليف نور الدين - يعنى تهديد أنطاكية تهديدًا خطيرًا . لذلك لم يجد بوهمند الثالث مناصًا من الاستنجاد بملك بيت المقدس الصليبي عمورى الأول الذى لبى نداء أمير أنطاكية ، ونهض بقواته وسار إلى أنطاكية ، وانضم إليه بوهمند الثالث بقواته، وهاجموا بلاد مليح . وعندما تعرض مليح لضغط شديد من قبل الصليبيين قام نور الدين بمهاجمة قلعة الكرك التابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، مما أجبر الملك الصليبي عمورى الأول على العودة إلى الجنوب لحماية دولته وبذلك ظل حصن بغراس بيد فرسان الداوية حتى عصر السلطان صلاح الدين(٣) .

ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبي ما كاد يفرغ - عقب معركة حطين- من فتح بيت المقدس وغيره من البلدان والقلاع فى جنوب بلاد الشام، حتى سار شمالاً سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م وشرع فى استرداد البلاد

---

(1) William of Tyre, OP. cit. Vol. II. PP. 387 .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٦٢٩ .

(3) William of Tyre, OP. cit. Vol. II. PP. 387 - 388 .

الخاضعة للصليبيين فى شمال بلاد الشام(١) وكان أن التفت إلى الحصون والقلاع الخاضعة لفرسان الداوية ، ففتح حصون صهيون ، والشغر ، وبكاس وسرمينية وبرزية(٢) . ثم اتجه صلاح الدين شمالاً لفتح قلعة دربساك(٣) ، الواقعة إلى الشمال الشرقى من حصن بغراس ، فأتى جسر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص ٥ - ١٠ ؛ بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (أو سيرة صلاح الدين) ص٨٦ - ٩٠ ؛ أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج٢ ص ١٢٦ - ١٢٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٠ - ١٧ ؛ بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٠ - ٩٣ .

وصهيون : حصن حصين قرب سواحل بلاد الشام الشمالية ولكنه لا يطل على البحر ويعد فى أعمال حمص ، وهو على طرف جبل تحيط به أودية عميقة وله ثلاثة أسوار ، سوران دون دربه ، وسور دون الحصن ، ياقوت : معجم البلدان .

والشغر : قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق لهما ، وهما قرب أنطاكية . وبكاس : هى القلعة الأخرى على قمة الجبل المقابل لجبل قلعة الشغر على ضفاف العاصى ، وبكاس معطوف ولا يكادون يفردون واحدة منهما ؛ ياقوت : معجم البلدان .

وسرمينية : بلدة مشهورة من أعمال حلب .

وبرزيه : أو برزوية ، والعامة تقول برزية ، حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ، كان يضرب بها المثل فى جميع بلاد الأفرنج بالحصانة ، تحيط بها أودية من جميع جوانبها وذرع علو قلعتها ٥٧٠ ذراعًا : ياقوت معجم البلدان .

(٣) دَرْبَساك : بفتح الدال وسكون الراء المهلتين وفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف وكاف ، وصف موقعها أبو الفدا وصفًا دقيقًا فقال : " وهى ذات قلعة مرتفعة ولها أعين وبساتين وهى خصبة ولها مسجد جامع ومنبر ولها من شرقيها مروج متسعة كثيرة العشب يمر فيها النهر الأسود ، وهى قرب بغراس إلى الشمال بميلة إلى الشرق وبينهما نحو عشرة أميال ؛ أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

الحديد على نهر العاصى بالقرب من أنطاكية ، فأقام عليه حتى لحق به من تخلف عنه من عسكره . ثم سار شمالاً إلى قلعة دربساك فنزل عليها فى الثامن من رجب سنة ٥٨٤هـ/ سبتمبر ١١٨٨م " وهى من معاقل الداوية الحصينة وقلاعهم التى يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد "(١) ويتضح من موقع دربساك ونزول صلاح الدين عليها أولاً أنها كانت تشكل خط الدفاع الأول عن حصن بغراس ، وأنه لا سبيل إلى فتح حصن بغراس إلا بالاستيلاء على دربساك أولاً .

وعلى أية حال فإن صلاح الدين الأيوبي نزل على دربساك و نصب عليها المجانيق ، وشرع رماتها يقذفون القلعة بالحجارة ، فهدمت من سورها جزءًا يسيرًا . ولكن يبدو أن فرسان الداوية لم يعبئوا بذلك . وكان أن أمر صلاح الدين بالزحف عليها ومهاجمتها . فتقدم المسلمون نحوها وقاتلوها وكشفوا الصليبيين عن سورها . ثم تقدم النقابون فنقبوا برجًا ، وعلقوه ، فسقط واتسع المكان الذى يريد المقاتلون الدخول منه " وعادوا يومهم ثم باكروا الزحف من الغد "(٢).

وكان فرسان الداوية فى دربساك قد راسلوا أمير أنطاكية بوهمند الثالث يستنجدونه ، فصبروا وأظهروا الجلد انتظارًا لجواب أمير أنطاكية إما باتحادهم وإزاحة المسلمين عنهم وإما بالتخلى عنهم ليقوى عذرهم فى تسليم القلعة. فلما أدركوا عجزه عن نصرتهم ، خافوا هجوم المسلمين على قلعتهم ، وأخذها بالسيف عنوة وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم ، فطلبوا من صلاح الدين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٧ ؛ وانظر أيضًا بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص٩٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٣٢ .

الأمان " فأمنهم على شرط أن لا يخرج أحد منهم إلا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ، ولا شئ مما بها ، ثم أخرجهم منه وسيرهم إلى أنطاكية . وكان فتحه تاسع عشر رجب "(١) وتم رفع راية الإسلام عليها في يوم الجمعة ٢٢ رجب ٥٨٤هـ / سبتمبر ١١٨٨م ، وولى صلاح الدين عليها نجم الدين سليمان بن جندر " وسار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين منه "(٢) .

ولم يكن فتح دربساك إلا مقدمة لفتح بغراس التى وصفها القاضى بهاء الدين بن شداد – المرافق لصلاح الدين فى هذه الحملة – بأنها : " قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال "(٣) .

فى حين وصف العماد الأصفهانى حصن بغراس بأنه : " حصن حصين ومكان مكين ، هو للداوية وجار ضياعها وغاب سباعها ، وهو بقرب أنطاكية، حصارها وحصاره سواء وما لداء داويته دواء "(٤) .

وقد استشار صلاح الدين قادته فى حصر حصن بغراس فانقسموا فى آرائهم إلى قسمين ، قسم أشار بحصره ، والقسم الآخر نهى عن حصره وقال: " حصن حصين وقلعة منيعة بالقرب من أنطاكية ، ولا فرق بين حصره وحصرها ، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر فى اليزك مقابل أنطاكية ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٧ – ١٨ ؛ وانظر أيضًا بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص٩٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٣٢ .

(٢) بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص٩٣ ؛ وانظر أيضًا : ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص١٠٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص١٩٢ .

(٣) النوادر السلطانية ص٩٣ ؛ وانظر أيضًا أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٣٣ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٣٣ نقلاً عن العماد الأصفهانى .

فإذا كان الأمر كذلك قل المقاتلون عليها ، ويتعذر حينئذ الوصول إليها "(١) .
وإزاء هذين الرأيين استخار صلاح الدين الله تعالى ، ثم سار إلى بغراس " وجعل أكثر عسكره يزكًا مقابل أنطاكية . يغيرون عليها "(٢) وذلك لعزل حصن بغراس عن أنطاكية ومنع أى نجدة قد تأتى لها من أنطاكية . وقد أعطت هذه الخطة ثمارها ، إذ قطعت طلائع الجيش الإسلامى الاتصال بين حصن بغراس وأنطاكية ، وصعد السلطان صلاح الدين بفرقة من عسكره الجبل الذى يقع عليه حصن بغراس ، وأمر بنصب المجانيق لرمى الحصن بالحجارة. وظل قذف الحجارة يتواصل على حصن بغراس أسبوعا كاملاً دون أن يؤثر فيه بسبب علوه وارتفاعه وقوة بنائه ، حتى أيقن المسلمون بتعذر فتحها واستحالة أخذها عنوة . ومما زاد الأمر صعوبة أمام جيش المسلمين قلة الماء عندهم . غير أن صلاح الدين آمر بنصب حياض الماء ونقل الماء إليها ، فخفف المشقة على جنوده(٣) .

وبينما كان المسلمون يفكرون فى أمر حصن بغراس – وقد اعتقدوا أن حصاره سيطول مع ما يعنيه ذلك من جهد ومشقة – كانت معنويات فرسان الداوية داخل حصن بغراس آخِذَةً فى الانهيار . وفجأة وإذ بباب الحصن يُفتح وخرج منه أحدهم يطلب الأمان ليحضر بين يدى صلاح الدين فأجيب طلبه ، وأذن له بالحضور بين يدى السلطان ، فطلب من صلاح الدين الأمان لمن فى الحصن من الرجال حتى يسلموه بما فيه على نفس شروط تسليم دربساك ، فأجابه صلاح الدين إلى طلبه . وعاد الرسول ومعه الرايات الإسلامية ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٨ / واليزك لفظ فارسى معناه طلائع الجيش ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٣٨ حاشية رقم(٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٣٣ .

فرُفعت على رأس الحصن . ونـزل منه الداوية ، وتسلم المسلمون الحصن بكل ما حواه من ذخائر وأموال ومؤن وسلاح ، وذلك فى ثانى شعبان سنة ٥٨٤هـ/ ٢٦ سبتمبر ١١٨٨م(١) وقد قدّر العماد الأصفهانى ما كان فى حصن بغراس من الغلة تخميناً "باثني عشر ألف غرارة" . وسلم السلطان صلاح الدين حصن بغراس مع دربساك إلى علم الدين سليمان بن جندر ، وقد جرد عليه العماد الأصفهانى " جميع ما فى القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود "(٢) .

ولا شك فى أن فتح حصن بغراس زود المسلمين بموقع فريد بين أنطاكية والإمارة الأرمنية فى قيليقية(٣) إذ أن فتح حصن بغراس يعنى أن أنطاكية أصبحت فى متناول السلطان صلاح الدين إذا قرر الاستيلاء عليها . ذلك أن دربساك وبغراس كانا بمثابة أهم حاجزين أمام صلاح الدين قبالة أنطاكية. وقد أدرك العماد الأصفهانى أن "دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين ولطاغية الكفر سلاحين "(٤) .

وبعد فتح حصن بغراس قرر صلاح الدين حصار أنطاكية والاستيلاء عليها ، وأدرك بوهمند الثالث أمير أنطاكية وطرابلس أنه ليس فى مقدوره الصمود أمام صلاح الدين بعد سقوط حصن بغراس ، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة . وعرض إطلاق سراح الأسرى المسلمين الذين عنده ، فاستشار صلاح الدين أصحابه " وغيرهم من أصحاب الأطراف ، فأشار

---

(١) ابن الأثير الكامل ج١٢ ص١٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٣٣ ؛ بهاء الدين ابن شداد : النوادر السلطانية ص٩٣ - ٩٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٣٣ نقلاً عن العماد الأصفهانى .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٧٩٩ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٣٣ نقلاً عن العماد الأصفهانى ؛ وانظر أيضاً السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٣٤٧ .

أكثرهم بإجابته " . وتم عقد الهدنة مع أنطاكية لمدة ثمانية أشهر أولها شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٨م وأخرها شهر أيار (مايو) ١١٨٩م . وأرسل صلاح الدين رسوله إلى أمير أنطاكية بوهمند الثالث يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى المسلمين ، وعددهم زهاء ألف أسير(١). ويذكر بهاء الدين بن شداد شرطًا ثانيًا من شروط الهدنة بين السلطان صلاح الدين وبين أهل أنطاكية فيقول : " فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد للسلطان"(٢).

احتفظ المسلمون بحصن بغراس ثلاث سنوات . وقد حدث في سنة٥٨٦هـ / ١١٩٠م أن وصل ملك الألمان فردريك بربرسا Frederick) (Barbarossa بحملته الصليبية إلى أسيا الصغرى قاصدًا بلاد الشام . ولكنه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٩ ؛ وانظر الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٢٨ أ ب ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ص١٣٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص٣٣٠ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٣ ص٧٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص٤١ ؛ وقد أشار المؤرخون إلى أن صلاح الدين وافق على طلب أمير أنطاكية بعقد الهدنة بسبب طلب أمراء العساكر العودة إلى إقطاعاتهم ، فيقول أبو شامة أن السلطان صلاح الدين رأى " همم الأجناد ، لا سيما الغرباء ، قد ضعفت ونياتهم في الجهاد قد فترت وتشوقوا إلى بلادهم والراحة من جهادهم " الروضتين ج٢ ص١٣٣ ؛ في حين يصرح بهاء الدين بن شداد أن صلاح الدين صالح أهل أنطاكية " لشدة ضجر العساكر وقوة قلق عماد الدين – صاحب سنجار – في طلب الدستور " أي الإذن له بالرجوع إلى بلاده ، النوادر السلطانية ص٩٤ ؛ بينما يشير ابن الأثير إلى أن غالبية عساكر صلاح الدين اشاروا بمصالحة أنطاكية وذلك " ليعود الناس ويستريحوا ويجدّدوا ما يحتاجون إليه " الكامل ج١٢ ص١٩ . وهذا ناتج عن اعتماد الدولة الأيوبية على نظام الإقطاع الحربي . فالدولة الأيوبية لم يكن لها جيش كبير محترف دائم التواجد مع السلطان . وإنما كانت البلاد مقسمة إلى إقطاعات بين الأمراء والقادة ، وهم يشرفون على تلك الإقطاعات ويديرونها ويستثمرونها مقابل تقديم الخدمة الحربية للسلطان وقت الحرب ، وكانوا يحتاجون إلى العودة الدورية إلى إقطاعاتهم للعناية ببلادهم وجني محصولاتهم . وللمزيد من التفاصيل انظر : Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt, PP. 28 - 30 .

(٢) النوادر السلطانية ص٩٤ ، وانظر أيضًا ابن خلكان :وفيات الأعيان ج٧ ص١٩٢ .

مات غرقًا فى أحد أنهار قيليقية ، وعندئذ انقسم الجيش الألمانى بعد موته ، وفتك بجنوده الوباء ، فمنهم من رجع إلى أوربا ومنهم من سار إلى أنطاكية مع فردريك السوابى ، فى حين أتجه فريق ثالث نحو حصن بغراس ظانين أن الحصن لا يزال بيد الداوية ، ففتح قائد الحصن الباب وخرج برجال حاميته الإسلامية وأوقع بالعساكر الألمان ، فقتل وأسر الكثير منهم وغنم أموالهم . ثم أرسل رجال الحامية الإسلامية فى حصن بغراس إلى المسلمين فى شمال بلاد الشام يخبرونهم بتدهور حالة الجيش الألمانى ، وما أصاب رجاله من ضعف وخور ، فخرج إليهم المسلمون وأوقعوا بالكثير منهم وأسروا الكثير(١) حتى أن الواحد من المسلمين كان " يستأسر منهم ثلاثة ولا يرى من رفقائهم إغاثة، فهانت الألمانية بعد تلك المهابة فى الأنفس وباعوهم فى الأسواق بالثمن البخس "(٢) .

وفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م واجه السلطان صلاح الدين ضغطًا شديدًا فى فلسطين بعد وصول ملك فرنسا فيليب أغسطس (Philip Augustus) وملك انجلترا ريتشارد (Richard) قلب الأسد إلى بلاد الشام . وكان أن استولى الصليبيون - بعد حصار طويل - على عكا فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ / يوليه ١١٩١م ثم قرر ريتشارد قلب الأسد ، بعد معركة أرسوف، الزحف على بيت المقدس . وعندئذ قام صلاح الدين بتدمير عسقلان وغيرها من الحصون والمحطات ، إضافة إلى تدمير مصادر المياه حول بيت

---

(١) بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص١٢٣ - ١٢٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٥٤ - ١٥٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب ج٣ ص١١٥ ، حسن عبد الوهاب حسين: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة ص٨٨ ؛ السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص٨٩٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٥٦ .

المقدس حتى لا يتمكن الصليبيون من ضرب حصار طويل حول المدينة المقدسة([1]) .

ويبدو أن صلاح الدين - لما بدأت جحافل الصليبيين تصل تباعًا من البحر - احتاج إلى المزيد من الجنود لمواجهة الضغط الصليبى ، فأمر بتدمير بعض الحصون والقلاع للإفادة من حامياتها فى جهاده فى فلسطين ضد الصليبيين ، إذ يذكر صاحب البستان الجامع أن صلاح الدين أرسل فى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م " إلى سليمان بن جندر أن يخرب حصن بغراس فخرب بعضها فبادر ابن لاوين فرحله عنها وأخذه بلا تعب "([2]) .

على أن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : هل كان فى ذهن صلاح الدين - رحمة الله - هدف آخر من تدمير حصن بغراس والتخلى عنه غير الإفادة من حاميته فى مواجهة الضغط المتزايد عليه فى فلسطين ؟ ولما كان التساؤل هنا على سبيل الفرض فإن جوابه أيضًا يكون كذلك ، فلعل صلاح الدين استهدف من ذلك أن يكون الحصن مثار نزاع بين الأرمن فى قيليقية والصليبيين فى أنطاكية ، وبالتالى يشق الجبهة النصرانية المواجهة للمسلمين مما يخدم القضية الإسلامية فى نهاية المطاف . ورغم أن تساؤلنا وجوابه جاءا على سبيل الافتراض فإن الوقائع أثبتت بعد ذلك أن حصن بغراس

---

(١) بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص١٣٩ - ٢١٥ ؛ ابن الأثير الكامل ج١٢ ص٦٣ - ٧٥ .

(٢) الأصفهانى : البستان الجامع ورقة ١٣١ أ . والمقصود بابن لاوين فى النص هو ليو الثانى أمير قيليقية الذى توج بعد ذلك ملكًا على الأرمن ويشير بهاء الدين بن شداد إلى أن سليمان بن جندر قائد حصن بغراس كان أول قادة المسلمين وصولاً إلى صلاح الدين وأن قدومه كان فى ربيع الأول ٥٨٧هـ النوادر السلطانية ص١٥٦ .

أضحى سببًا من أسباب النزاع الطويل الذى نشب بين ليو الثانى زعيم الأرمن فى قيليقية وبين إمارة أنطاكية الصليبية . ذلك أن حصن بغراس كان مهمًا جدًا لكلا الجانبين ؛ وقد وصفه ولبراند صاحب أولدنبرد (Wilbrand of Oldenberd) الذى جاء مبعوثًا من قبل الإمبراطور الألمانى ومعه تاج للأمير ليو الثانى الأرمنى ، فقال عنه : " حصن بالغ القوة تحرسه ثلاثة أسوار مكللة بالأبراج ، ويشرف على الدروب المؤدية إلى بلاد ليو الثانى الأرمنى ويشرف أيضًا على مدينة أنطاكية "(١) .

وقد أثار استيلاء زعيم الأرمن ليو الثانى على حصن بغراس وإعادة بنائه(٢) ، حفيظة وغضب بوهمند الثالث أمير أنطاكية الصليبى ، لما فى ذلك من تهديد مباشر لإمارة أنطاكية . ولم يجد بوهمند مناصًا من الوقوف فى وجه ليو الثانى الأرمنى ، فسار بوهمند الثالث لمقابلة صلاح الدين ، واجتمع به فى بيروت . وقد استقبله صلاح الدين بالحفاوة والإكرام وأدنى مجلسه ، فشكى الأمير بوهمند لصلاح الدين ما يلقاه من أذى ليو الأرمنى وما يناله من سوء مجاورته منذ استيلائه على حصن بغراس " فوعده السلطان ما طيب قلبه من أمر ابن ليون "(٣) ولم تذكر لنا المصادر تفاصيل الاتفاق الذى تم بين السلطان صلاح الدين وبوهمند الثالث بشأن حصن بغراس ، إذ أن بهاء الدين ابن شداد لم يشر إلى شكوى بوهمند من ليو الثانى الأرمنى ، وكل ما ذكره أن السلطان صلاح الدين حين وصل إلى بيروت " وصل إلى خدمته البرنس

---

(1) Wilbrand of Oldenberg Peregrenatores, P. 136 .

(٢) انظر عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج١ ورقة ب ؛ ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٩ .

(٣) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٠ ب .

– صاحب أنطاكية – مسترفدًا ، فبالغ فى إكرامه واحترامه ومباسطته ، وأنعم عليه بالعمق وأزرغان ومزارع تغل خمسة عشر ألف دينار "(١) فى حين ذكر العماد الأصفهانى أن السلطان صلاح الدين لما كان فى بيروت يتأهب للعودة إلى دمشق علم " أن الأبرنس الأنطاكى بيمند مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكًا بحبل العصمة فثنى عنانه ونزل ، وأقام وما ارتحل ، وأذن للابرنس فى الدخول ، وشرفه فى حضرته بالمثول ، وقربه وأنسه ، ورفع مجلسه . وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيًا ، فوهب كلاً منهم تشريفًا سريًا ، وأجزل له ولهم العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء ، وكتب لــه من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه ، ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالإحسان ووافقه وودعه "(٢) . أما ابن العديم فقال : " وسار السلطان من القدس إلى بيروت فى شوال ، ووصل إلى خدمته صاحب أنطاكية ، الأبرنس ، وولده ، قومص طرابلس ، وخلع عليهما وجدد بينه وبينهما الهدنة والعقد "(٣) وإذا دققنا النظر فى هذه النصوص نجد أن بوهمند الثالث قد ظهر وكأنه تابع إقطاعى لصــلاح الدين الذى منحه المزيد من الإقطاعات قرب أنطاكية ، لا سيما منطقة العمق الخصبة التى تزود أنطاكية بحاجتها من

---

(١) النوادر السلطانية ص ٢٤٠ ، العمق : كورة زراعية تقع بين حلب وأنطاكية ومنها أكثر ميرة أنطاكية ، ياقوت : معجم البلدان .أما أزرغان فلم عثر على تعريف لها فى المصادر المتداولة .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٢٠٧ نقلاً عن العماد الأصفهانى .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص١٢٢ ؛ وانظر أيضًا ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص٨٧ .

الحبوب. أما فيما يتعلق بحصن بغراس فلا يستبعد أن صلاح الدين وعد بوهمند الثالث برد حصن بغراس إليه أو التدخل لدى ليو الثانى لوقف عدوانه على أنطاكية . ولكن وفاة السلطان صلاح الدين بعد بضعة أشهر حالت دون تحقيق ذلك الأمر .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لدى ليو الثانى الأرمنى جواسيس فى بلاط بوهمند الثالث ، فاطلعوه على اتفاق بوهمند الثالث مع صلاح الدين ، فخاف عاقبة هذا الأمر . وبعد وفاة صلاح الدين فى صفر ٥٨٩هـ / فبراير ١١٩٣م تحرك ليو ودبّر حيلة للقبض على الأمير بوهمند الثالث والاستيلاء على أنطاكية ، فأرسل ليو إلى نائبه فى حصن بغراس وأمره أن يستدرج بوهمند ويُطمِعُه فى الحصن ، فإذا قدم إليه " يحتال عليه ويقبضه " . وفى شوال ٥٨٩هـ / أكتوبر ١١٩٣م راسل نائب حصن بغراس بوهمند الثالث " وبذل له تسليم الحصن ولطف فى الحال إلى أن استحكم طمع البرنس وركب إليه وتبعه جماعة من خواصه مع ولده وزوجته ، فنزل على العين التى تحت الحصن فحمل إليه النائب طعامًا وشرابًا . وكان البرنس قد أظهر أنه خرج إلى الصيد ، فلم يزل على حاله إلى أن دخل الليل ، فنزل إليه النائب وقال له: ما آمن عليك تبيت هاهنا ، والصواب أن تصعد إلى الحصن أنت وأصحابك فقد هيأت لك منامًا ؛ وأنت إذا صعدت إلى الحصن أحضرت إليك من فيه ليحلف لك ، فلما قال له ذلك صعد الحصن هو ومن كان معه "(١) . وكان ليو الثانى الأرمنى قد كمن قريبًا من حصن بغراس ، فلما بلغه دخول بوهمند إلى الحصن ، صعد إليه وتحدث معه وقال له : " أنت تعلم أنه كان بينى وبين

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٠ ب - ٢٣١ أ ؛ وانظر أيضًا الأصفهانى : البستان الجامع ورقة ١٣٣ ب ؛ حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٢٣٧ ؛ Nersessian : op. Cit., P. 646; C.Cahen, La Syrie du nord, PP. 256 - 528 .

السلطان الملك الناصر صلح ومعاهدة ، وأنك مازلت حتى أفسدت ذلك ، وما هذا جزائى منك لأننى أنا أخذت هذا الحصن من المسلمين ، وجعلته معقلاً للنصرانية بعد أن عجزت عن حفظه ، وأخذه صلاح الدين . ثم لم يكف ذلك منك حتى صالحت السلطان ولم تذكرنى فى الصلح وأنا منسوب إليك وولايتى متصلة بولايتك "(١) ثم أمر ليو الأرمنى بوضع قيود الحديد في رجلي بوهمند الثالث ورجلي زوجته وولده ، وخرج إلى أصحاب بوهمند وهدد بقتلهم جميعًا اذا لم يسلموا له أنطاكية فحلفوا له على تسليمها إليه . وبعث ليو من حصن بغراس مندوبين من قبله مع اثنين من اتباع بوهمند لتسلُّم أنطاكية . ولكن الصليبيين فى أنطاكية طردوا الأرمن إلى خارج المدينة ، وبايعوا ريموند الابن الأكبر لبوهمند الثالث ، الذى أرسل على ... يستدعى أخاه حاكم طرابلس لمساعدته ضد الأرمن . وعندئذ غادر ليو الأرمنى حصن بغراس وعاد إلى عاصمته سيس فى قيليقية ومعه أسراه . وظل بوهمند الثالث فى أسر ليو لمدة ثلاث سنوات إلى أن تدخل هنرى دى شامبنى Henry of Champagne ملك الصليبيين بالشام فى النزاع ، وعقد صلح بين الجانبين ، تم بموجبه اطلاق سراح بوهمند الثالث فعاد إلى أنطاكية . ومع ذلك فإن احتفاظ ليو بحصن بغراس ظل سببًا رئيسيًا من أسباب النزاع الطويل بين الأرمن فى قيليقية والصليبيين فى أنطاكية ، واستمر ذلك النزاع فيما يعرف بحرب الوراثة الأنطاكية قائمًا ربع قرن من الزمان(٢) .

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣١ أ .

(٢) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣١ ب ؛ Nersessian : op. cit., P. 646 وعن تفاصيل النزاع الطويل بين ليو الثانى الأرمنى وبين الصليبيين فى أنطاكية وحرب الوراثة الأنطاكية انظر :

C. Cahen, op. cit, PP. 590 - 635. Hardwicke, Mary Nickerson : The Crusades, 1192 - 1243 in The History of The Crusades, Vol. II. PP. 532 - 541 .

أما الداوية - الذين كانوا يسيطرن على حصن بغراس من قبل - فكانوا يتوقون إلى استعادة الحصن مرة أخرى ، واعتبروا ليو الأرمنى مغتصبًا لحق من حقوقهم ، ولم يغفروا له احتفاظه بحصن بغراس وعدم رده إليهم . لذلك وقفوا مع الصليبيين فى أنطاكية ضد أطماع ليو الأرمنى الهادفة إلى السيطرة عليها(١) .

ولم يقتصر خطر حصن بغراس - إبان سيطرة الأرمن عليه - على إمارة أنطاكية الصليبية ، بل اشتد خطره أيضًا علىأعمال حلب ؛ إذ يذكر ابن الأثير أن ليو الثانى الأرمنى جدد عمارة الحصن وأتقنه " وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد ، فتأذى بهم السواد الذى بحلب "(٢) .

وقد حاول ليو الأرمنى انتزاع حصن دربساك من المسلمين لضمه إلى حصن بغراس ، ففى سنة ٦٠٢ / ١٢٠٥م جرد عسكرًا من قبله ، هاجم ربض دربساك ، فتصدى لهم أهل الربض وردوهم على أعقابهم . وكان أن أغار عسكر ليو على منطقة العمق ونهبوا من كان فيه من التركمان ، فأرسل ملك حلب الظاهر غازى بن صلاح الدين جنودًا فطاردوا الأرمن الذين لاذوا بالفرار إلى جبل اللّكام حيث يقع حصن بغراس . " وفى أكثر الأيام تجرى وقعات بين العسكر المقيم بدربساك وبين عسكر ابن لاون ببغراس "(٣) .

وفى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م تحالف سلطان سلاجقة الروم كيخسرو بن قلج أرسلان مع الظاهر غازى ملك حلب ، وهاجما بلاد ليو الأرمنى وفتحا عدة حصون من بلاده ، فشكى ليو إلى السلطان الأيوبى العادل ذلك الهجوم ،

---

(١) Nersessian , op. cit., P. 648 حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص١٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص١٥٧ .

فأرسل العادل إلى كيخسرو وإلى الظاهر يحثهما على وقف هجومهما " فابتدر كيخسرو ، وصالح ابن لاون على أن يرد حصن بغراس إلى الداوية ، وأن لا يعرض لأنطاكية .. "(١) .

ويبدو أن كيخسرو اشترط على ليو إعادة حصن بغراس إلى فرسان الداوية ليكونوا حاجزًا بين ليو وبين أنطاكية ، لأنه لا سبيل له فى الوصول إلى أنطاكية إلا عن طريق حصن بغراس . وعندما أدرك ليو أن تخليه عن حصن بغراس للدواية يعنى التخلى نهائيًا عن كل مطامعه فى أنطاكية ، ظل محتفظًا بحصن بغراس ، ولم يف بتعهده برده إلى الداوية فى ذلك الوقت ، حتى أنه فى السنة التالية (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) رفض تدخل بطريرك بيت المقدس لرد حصن بغراس إلى الداوية ، بل عمد إلى الاستيلاء على معظم ممتلكاتهم فى قيليقية(٢) .

وفى سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م حاول الداوية استرداد حصن بغراس من ليو الأرمنى بمساعدة فرقة جيش أنطاكية وخمسين فارسًا بعث بهم الملك جان دى برين (Jean du Brienne) صاحب عكا . وحاصر الداوية بغراس ، وعند ذلك عرض عليهم ليو الأرمنى الصلح ، ووعدهم بأن يسلمه لهم ، ولكنه لم يف بوعده مرة أخرى(٣) وفى السنة التالية ٦٠٩هـ / ١٢١٢م قلب ليو سياسته ورد إلى الداوية جميع املاكهم التى انتزعها فى قيليقية ووعدهم بأن يعيد إليهم حصن بغراس بعد أن يستولى على أنطاكية(٤) .

---

(١) المصدر نفسه ج٣ ص١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) حسين محمد عطية :إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٢٨٥ .

(٣) حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٢٩٠ .

(٤) المرجع نفسه ص٢٩٠ .

وكان أن ساعدت الظروف داخل أنطاكية ليو الأرمني في الاستيلاء عليها . ذلك أن أميرها بوهمند الرابع أتبع سياسة اتسمت بالظلم والعسف ، ففقد بسبب تلك السياسة تأييد الظاهر غازى ملك حلب ، كما فقد تأييد فرسان الاسبتارية([١]) وبطريرك أنطاكية الكاثوليكي وغيرهم ، واستغل ليو تلك الظروف وسرب رجاله شيئًا فشيئًا إلى أنطاكية . ثم واعدهم يوم الأحد ليلة الاثنين ٢٣ شوال ٦١٢هـ / ١٤ فبراير ١٢١٦م فجاء ليلاً واقتحم ليو المدينة من باب بولص شمال سور أنطاكية ، وأمتلك أنطاكية ، وأطاح ببوهمند الرابع، وولى عليها ابن أخته ريموند روبين (Raymond - Roupen) . وحتى لا يستثير الظاهر ملك حلب ، أرسل ليواليه " يعلمه أنه كان في خدمته وأنه لا ينقلب إلا عن أمره ورأيه ، وأنما فتح أنطاكية بأسمه وأطلق أسرى من المسلمين كانوا فيها وسيرهم إلى حلب فأحسن جوابه ثم خرج منها وسلمها لابن أخته "([٢]) .

---

(١) الاسبتارية (Hospitallers) طائفة من الفرسان الصليبيين نشأت منذ فجر الحروب الصليبية وبدأت أول الأمر على هيئة جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين وإيواء حجاجهم ورعايتهم ... ثم تطورت واكتسبت صفة حربية وأصبح أعضاؤها يرتدون زى الرهبان ويقاتلون من على ظهور الخيل كالفرسان تمامًا ، ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين منذ سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م وكانت مع طائفة الداوية من الدعائم الأساسية التى أسهمت فى حماية كيان الصليبيين طوال أكثر من قرن من الزمان . وقد سيطر فرسان الاسبتارية على الكثير من الحصون والقلاع فى بلاد الشام . انظر على محمد عودة الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ص٢١٧ حاشية رقم(٤) .

(٢) عز الدين ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ، ورقة ٢٣٢ ب – ٢٣٣ أ ؛ وانظر أيضًا تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم١ ص ١٦٩ ؛ ابن أيبك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ص١٨٢ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص٥٧٢ ؛ Cahen : La Syrie du Nord PP. 621 - 623 .

يذكر عز الدين ابن شداد أن الظاهر غازى ملك حلب أخذ حصن بغراس من الأرمن فى سنة ٦١٢هـ " فى جملة ما شرطه عليهم وسلمه إلى مقدم الديوية فى سنة ثلث عشرة وستمائة "(١) ويفهم من هذا النص أن الظاهر غازى ملك حلب اشترط شروطًا على ليو الأرمنى مقابل غض الطرف عن استيلاء ليو على أنطاكية ، ومن ضمنها أن يتسلم الظاهر غازى حصن بغراس الفاصل بين مملكة أرمينية الصغرى التى يحكمها ليو وبين إمارة أنطاكية . بيد أن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : لماذا سلَّم الظاهر غازى حصن بغراس للداوية ولم يحتفظ به لنفسه ؟

يبدو أن الظاهر غازى لم يشأ أن يرث النزاع الذى ظل محتدمًا بين فرسان الداوية وليو الأرمنى بسبب حصن بغراس . فآثر الا يدخل فى عداء سافر مع فرسان الداوية الذين كانوا يرتبطون مباشرة مع البابوية فى روما. وقد سبق للظاهر غازى أن تلقى رسالة من البابا أنوسنت الثالث (Innocent III) سنة ٦٠٧هـ / ١٢١١م يحثه فيها على العناية ببطريرك أنطاكية وجميع أتباعه من الكاثوليك فيها(٢) فرأى الظاهر غازى أن احتفاظه بحصن بغراس قد يكون سببًا فى استثارة البابوية ضده مباشرة ، وبالتالى يفتح على نفسه جبهة كان فى غنى عن مواجهتها . لذلك أثر تسليم حصن بغراس لفرسان الداوية كى يأمن شرهم وليصبح بذلك صاحب الفضل فى رد حصن بغراس إليهم وليكونوا حاجزًا بين ليو وأنطاكية ، وبخاصة وأن العلاقات بين ريموند روبين وخاله ليو الأرمنى سرعان ما تدهورت ودخل فى نزاع معه(٣) . ومن

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ أ .

(٢) حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٥١٣ - ٥١٤ .

(3) The Cambridge Medieval History, Vol., IV "The Byzantine Empire, Part I, Byzaintum and its Neighbours "London, 1964, P. 631 .

جهة أخرى لم يعد الظاهر يخشى ازدياد نفوذ ليو الأرمني فى أنطاكية ، إذ كان تسليم حصن بغراس للداوية عاملاً ساعد على حفظ توازن القوى بين مملكة أرمينية الصغرى وإمارة أنطاكية الصليبية ، وحال دون طغيان أى من القوتين على الأخرى ، وهو ما يخدم مملكة حلب ويبُعد عنها التهديد .

ولما توفى ليو الأرمني (ملك أرمينية الصغرى) سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م خلفته طبقًا لوصيته على عرش أرمينية الصغرى أبنته الصغرى إيزابيل (Isabel) فتولى الوصاية على الملكة الصغيرة مقدم الداوية فى حصن بغراس ويدعى آدم (Adam) . ولكنه لم يلبث أن لقى مصرعه بعد أشهر قليلة على يد الباطنية مما حال دون قيام فرسان الداوية فى حصن بغراس بدور حاسم فى سياسة أرمينية الصغرى(١) .

وفى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م هاجم بوهمند الرابع ، أمير أنطاكية وطرابلس ، أرمينية الصغرى بهدف الاستيلاء عليها ، فأرسل الأرمن إلى الاتابك شهاب الدين طغريل الوصى على الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب " يستنجدونه ، ويخوفونه من البرنس إن استولى على بلادهم لأنها تجاور أعمال حلب ، فأمدهم بجند وسلاح "(٢) وكان أن هاجم جنود حلب حصن بغراس التابع للداوية ، حتى يمنعوهم من الوقوف إلى جانب بوهمند مما كان له أثره فى فشل حملة بوهمند على بلاد الأرمن(٣) .

ومن ناحية أخرى لم ينس فرسان الداوية فى حصن بغراس أن قلعة دربساك الواقعة إلى الشمال الشرقى من بغراس - والتابعة لمملكة حلب

---

(1) Cahen : La Syrie du Nord, PP. 628 - 631 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ج١٢ ص٤٦٨ ؛ حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٣٢١ - ٣٢٢.

الأيوبية - كانت تابعة لهم ، وأن صلاح الدين انتزعها منهم قبل نصف قرن من الزمان . لذلك ظلوا يتوقون إلى الاستيلاء على دربساك مرة أخرى ، واعتقدوا أن الفرصة قد تهيأت لهم حين توفى العزيز بن الظاهر ملك حلب سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م ، حيث انشغل الحلبيون بمواجهة الموقف الذى نتج عن ذلك سيما وأن الملك الجديد يوسف بن العزيز كان لا يزال صغيرًا(١) وكان أن استغل فرسان الداوية فى بغراس ذلك وخرجوا بقيادة مقدمهم إفرنز توماس(٢) واتجه هجومهم فى البداية إلى منطقة العمق الخصبة التابعة لمملكة حلب "واستاقوا أغنامًا للتركمان ومواشي لغيرهم كثيرة"(٣) ولم يكن منتظرًا من مملكة حلب السكوت على عدوان فرسان الداوية - فى بغراس - على إقليم يعتبر من أخصب المناطق التابعة للمملكة . لذلك بادر قائد العسكر الحلبى المعظم توران شاه بن صلاح الدين - وعم الملك العزيز - بالخروج بجيش حلب للانتقام من الداوية ، فوجه هجومه على حصن بغراس وحاصره حصارًا شديدًا فى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م حتى نجح العسكر الحلبى فى أحداث ثغرات فى سوره . ونفد ما فيه من المؤن والذخائر " وأشرفت على

---

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ ورقة ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص٢٢٥ - ٢٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص١١٨ - ١٣٠ .

(٢) عز الدين بن شداد هو المصدر الوحيد الذى أنفرد بذكر اسم مقدم الداوية فى حصن بغراس . انظر : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ أ لكن الاسم الأول من الاسم رُسم فى مخطوطتى ابن العديم نسخة أياصوفيا ونسخة الفاتيكان المعتمدة فى البحث (افرر) ويمكن أن يقرأ أفريز أو أفرنز ومن المحتمل أن يكون هذا الاسم فرنسيس ولكن ابن شداد نطقه بشكل آخر وهو أمر يحدث كثيرًا عند الكتاب المسلمين واللاتين على حد سواء عند نطق أسماء أعدائهم .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص٢٣٠ .

الأخذ " إلا أن بوهمند الخامس أمير أنطاكية (١٢٣٣ - ١٢٥١م) تدخل فى النزاع ، وتوسط لدى المعظم توران شاه قائد جيش حلب ، وشفع فى داوية بغراس " فقبل شفاعته ورحل عنهم . وإنما قبل شفاعته لأن الملك الكامل خرج من مصر قاصدًا الشام فرأى رجوعه إلى حلب وحفظها أولى من المقام على بغراس ، فرحل عنها بعد أن خرّب بلدها خرابًا شديدًا ، ثم نزل بالقرب من دربساك "(١) وإذا كان بوهمند الخامس بتدخله قد دافع عن الداوية وحفظ لهم حصن بغراس المهم ، فإن الأمر الذى لا شك فيه هو أن وجود الداوية فى هذا الحصن كان أكثر أمنًا لأنطاكية من وجوده فى أيدى غيرهم سواء أرمن كانوا أم مسلمين(٢) .

والواقع أنه كان فى مقدور عساكر حلب انتزاع حصن بغراس من الداوية حيث يقول ابن العديم : " ولو أقاموا عليها يومين أخرين لما استطاع من فيها الصبر على المدافعة "(٣) إلآ أنهم تراجعوا عن ذلك بسبب تخوفهم من السلطان الكامل الذى ساءت علاقاته مع ممالك الشام الأيوبية ، ولا سيما مملكة حلب(٤) فاستجاب الحلبيون لوساطة بوهمند الخامس وتركوا بغراس على حالها .

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ أ ب ؛ انظر أيضًا ابن العديم: زبدة الحلب ج٣ ص٢٣٠ - ٢٣١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ ورقة ٣٦٩ - ٣٧٠ ؛ ابن نصر الله الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٤٠٩ أبو الفدا : المختصر ج٣ ص١٥٩ .

(٢) حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ،ص٣٥٣ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص٢٣١ .

(٤) عن تفاصيل هذا الموضوع انظر على محمد عودة الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ص١٤١ - ١٤٢ .

ويبدو أن الداوية فى حصن بغراس ادركوا طبيعة العلاقات المتدهورة بين مملكة حلب الأيوبية والسلطان الكامل ، فقرروا استغلال تلك الظروف . وما أن غادر العسكر الحلبى دربساك حتى سارع الداوية بقيادة إفرنز توماس بالتحرك ناقضين الهدنة التى عقدها بوهمند الخامس بينهم وبين عسكر حلب ، واستنجدوا بمقدم الداوية فىأنطاكية وليم مونتفرات(William of Montferat) وبحاكم جبيل الصليبى جاى إمبرياكو الأول (Guy I. Embriaco) (١١٩٩ - ١٢٤١م) وغيره من الصليبيين . وكانت أكثر حشودهم من المشاة . وتقدموا من جهة حجر شغلان – أحد ممرات جبل اللكام المؤدية إلى دربساك – وقامت خطة فرسان الداوية على أساس مباغتة ربض دربساك على حين غفلة من أهله ، والاستيلاء عليه حتى يمكن اتخاذه قاعدة لمحاصرة دربساك نفسها والاستيلاء عليها . ولكن الجنود الذين كانوا بالربض فطنوا لخطة الصليبيين فاستعدوا لهم ، ونزل لمساعدة جنود الربض قسم من حامية دربساك وكمنوا للصليبيين(١) وكان فى قلعة دربساك بعض أسرى الداوية الذين شاهدوا ما كان يجرى خارج القلعة ، لا سيما بعد نزول قسم من أجناد القلعة لمساعدة أصحاب الربض . فصرخ الأسرى فى أخواتهم المهاجمين يحذرونهم من التقدم إلى الربض ويخبرونهم أن المسلمين قد استعدوا لهم . ولكن تلك الرسالة لم تجد أذنًا صاغية لدى المهاجمين وبخاصة لدى وليم منتفرات مقدم داوية أنطاكية الذى اشتهر بالغطرسة والتهور ، واعتبر صرخات أولئك الأسرى دليلاً على جبنهم وخيانتهم(٢) .

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ ورقة ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص٢٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص١٣٢ - ١٣٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ج٣ ص١٥٩ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٣٦٤ ؛ حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٣٥٤ .

(٢) حسين محمد عطية : المرجع السابق ص٣٥٥ نقلاً عن متى الباريزى ، وانظر أيضًا رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٣٦٤ .

ولما وصل الصليبيون إلى ربض دربساك صمد لهم المسلمون وقاتلوهم قتالاً شديدًا ومنعوهم من الاستيلاء على الربض . ووصل الخبر بهذا الهجوم إلى جيش حلب ، فتقدم بقيادة تورا نشاه بن صلاح الدين ، ووصل إلى ميدان المعركة . وقد تعب الصليبيون وكلّت خيولهم بسبب المقاومة الباسلة التى أبداها المادفعون عن الربض ، فهاجمهم جيش حلب وحصدهم بالسيوف حصدًا، فحلت الهزيمة الساحقة بالصليبيين وقتل المسلمون منهم عددًا كبيرًا ، وأسروا أعدادًا أخرى من المشاة والفرسان . وكان ضمن القتلى وليم مونتفرات مقدم الداوية فى أنطاكية ، وعلى رأس الأسرى افرنزتوماس قائد الداوية فى حصن بغراس . وحاول المنهزمون الاختباء بين الأشجار والغابات المجاورة للربض فتعقبهم المسلمون وقضوا عليهم قتلاً وأسرًا ولم ينج منهم إلا القليل(١). وكانت هذه الوقعة فى " شوال سنة أربع وثلاثين وستمائة "(٢) الموافق يونيه١٢٣٧م " ورجع العسكر الحلبى مظفرًا منصورًا، ودخل العسكر إلىحلب وروس الفرنج محمولة علىالرماح ، والأسرى معهم ، وكان دخولهم يومًا مشهودًا، ثم حبست الأسارى فىالقلعة ، وأنزلوا بعد ذلك إلى الخندق"(٣).

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ ب ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص٢٣١ - ٢٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص١٣٣ ؛ حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية ص٣٥٥ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٣٦٤.

(٢) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ ب . وقد أنفرد ابن شداد بتاريخ وقوع هذه المعركة بين سائر المؤرخين المسلمين ، فى حين انفرد متى الباريزى بتحديد تاريخ الموقعة بشهر يونيه ١٢٣٧ - بين سائر المؤرخين الغربيين - وهو ما يوافق شهر شوال الذى حدده ابن شداد . انظر : حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية ص٣٥٤ نقلاً عن متى الباريزى ، وانظر عن توافق شهر شوال مع يونيه لسنة ٦٣٤هـ كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية المجلد الأول ص٦٦٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص١٣٣ .

وتعتبر هذه الضربة التى حلت بالداوية فى حصن بغراس ومن وقف إلى جانبهم من داوية أنطاكية وفرنج جبيل وغيرهم ، من أهم الانتصارات التى حققها المسلمون منذ وفاة صلاح الدين ، ومن أكبر الضربات المدمرة التى نزلت بفرسان الداوية ، حتى أن ابن واصل يعلق على هذه المعركة بقوله: "وكان هذا الفتح من الفتوح الجليلة المشهورة "(١) فى حين اعتبرها ابن العديم نقطة تحول وضربة قاصمة حلت بالداوية ، بحيث لم تقم لهم بعدها قائمة فيقول: " وفتت هذه الوقعة فى أعضاد الداوية بالساحل ولم ينتعشوا بعدها ، وكانوا استطالوا على المسلمين والفرنج "(٢) ويدلل متى الباريزى على فداحة المعركة بالنسبة للداوية ، فيذكر أن مائة فارس لقوا حتفهم بالإضافة إلى ثلاثمائة راجل من رماة السهام وأعداد أخرى من الصليبيين العلمانيين من جبيل وغيرها . وكان من أشهر قتلى فرسان الداوية وليم منتفرات مقدم داوية أنطاكيةوحامل لوائهم ريجنالد دى ارجنتون Reginald) de Argentomio)(٣). أما افرنز توماس مقدم الداوية فى حصن بغراس فقد ظل فى الأسر بحلب حتى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م حين هزم الخوارزمية جيش حلب(٤) " فأطلقوه فيمن أطلق من الأسرى وعاد إلى بغراس "(٥) ولم يوضح لنا ابن شداد هل كان إطلاق سراح مقدم الداوية فى حصن بغراس ضمن عملية تبادل للأسرى أم كان مقابل فدية . والراجح أن ذلك حدث بعد أن أرسل البابا جريجورى التاسع (Grergory IX) فى جمادى الأولى سنة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص١٣٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص٢٣٢ .

(٣) حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٣٥٥ - ٣٥٦ نقلاً عن متى الباريزى .

(٤) عن ذلك انظر: علىعودة الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ص٣٣٩-٣٤٢.

(٥) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٥ - ٢٣٦ أ .

٦٣٥هـ / ديسمبر ١٢٣٧م إلى كل من ملك قبرص هنرى الأول ، وبوهمند الخامس أمير أنطاكية وبطريرك بيت المقدس ، يطلب منهم السعى لإطلاق سراح فرسان الداوية وتبادلهم مع أسرى المسلمين ، على أن يدفع البابا فدية البعض منهم . ولم يطلق سراح الداوية إلا فى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م . وهو التاريخ(١) الذى حدده عز الدين بن شداد لإطلاق سراح توماس مقدم داوية حصن بغراس .

وكيفما كان الأمر ، فقد انحسر خطر الداوية فى حصن بغراس انحسارًا شديدًا ، ولم نعد نسمع لهم أى حركة على مدى ثلاثين سنة تالية . ولم يرد لهم ذكر فى المصادر إلا فى سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م ، حين أرسل السلطان الظاهر بيبرس جيشًا كبيرًا إلى بلاد الأرمن فى قيليقية ، لمعاقبة الأرمن على وقوفهم إلى جانب المغول فى غزواتهم لبلاد المسلمين(٢) . وكان جيش الأرمن بقيادة ولدى الملك الأرمنى هيثوم . وقد حاول الأرمن منع جيش المسلمين من عبور الدروب الشامية إلى قيليقية ، وتولى الداوية فى حصن بغراس حراسة جناحى جيش الأرمن ، إلا أن ذلك لم يجد نفعًا فقد انحرف الجيش الإسلامى نحو الشمال وعبر جبل اللكام عن طريق دربساك وسرفندكار(٣) ، ودخل قيليقية وأنزل الهزيمة الساحقة بالأرمن ودمر

---

(١) حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٣٥٦ حاشية رقم ٦٢ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٣٦٤ .

(٢) عن ذلك الدور الذى قام به الأرمن إلى جانب المغول ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص٣٤٣ – ٣٤٦ .

(٣) سرفندكار : قلعة فى واد حصينة تقع إلى الجنوب الشرقى من عين زربة فى قيليقية، انظر : أبو الفدا تقويم البلدان ص٢٥٧ .

المسلمون العديد من قلاع الداوية فى قيليقية . وعاد الجيش الإسلامى إلى بلاد الشام مظفرًا بالغنائم والأسرى(١) .

وفى سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م فتح السلطان الظاهر بيبرس أنطاكية ، وبعث سرية من عسكره بقيادة شمس الدين آق سنقر السلحدار الفارقانى لفتح حصن بغراس . فلما وصل وخيم بالعين التى تحت جبل الحصن حضر إليه رجل وأخبره أن فرسان الداوية أخلوا الحصن ولم يبق به سوى رجلين وامرأة. فأرسل شمس الدين من لدنه أحد رجاله ليتحقق من الأمر ، فعاد إليه وأخبره بصدق الخبر . فدخل شمس الدين برجاله إلى الحصن وتسلمه فى ١٣رمضان ٦٦٦هـ / ٨ يونيه ١٢٦٦م ، فوجده مليئًا بالمؤن والذخائر وكل ما يمكن أدخاره فى مثله من الحصون . وهذا يوضح مدى الرعب والفزع الذى انتاب فرسان الداوية فى حصن بغراس بحيث لم يعد يعنيهم سوى النجاة بأرواحهم ، فتركوا كل ما خزنوه فى الحصن غنيمة سائغة للمسلمين(٢) وقد اهتم السلطان الظاهر بيبرس بحصن بغراس بعد فتحه " وشحنه بالرجال والعدد وصار من الحصون الإسلامية "(٣) ولعل استمرار سيطرة المسلمين على حصن بغراس

---

(١) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٢٥ ب - ٢٢٦ ، المقريزى : السلوك ج١ ص٥٥٢ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ص٢٦٩ - ٢٧١ ؛ ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ج٨ ص١١٨ ، العينى : عقد الجمان حوادث ٦٤٨ - ٦٦٤هـ ص ٤٢٢ - ٤٢٣ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٥٥٢ - ٥٥٤ .

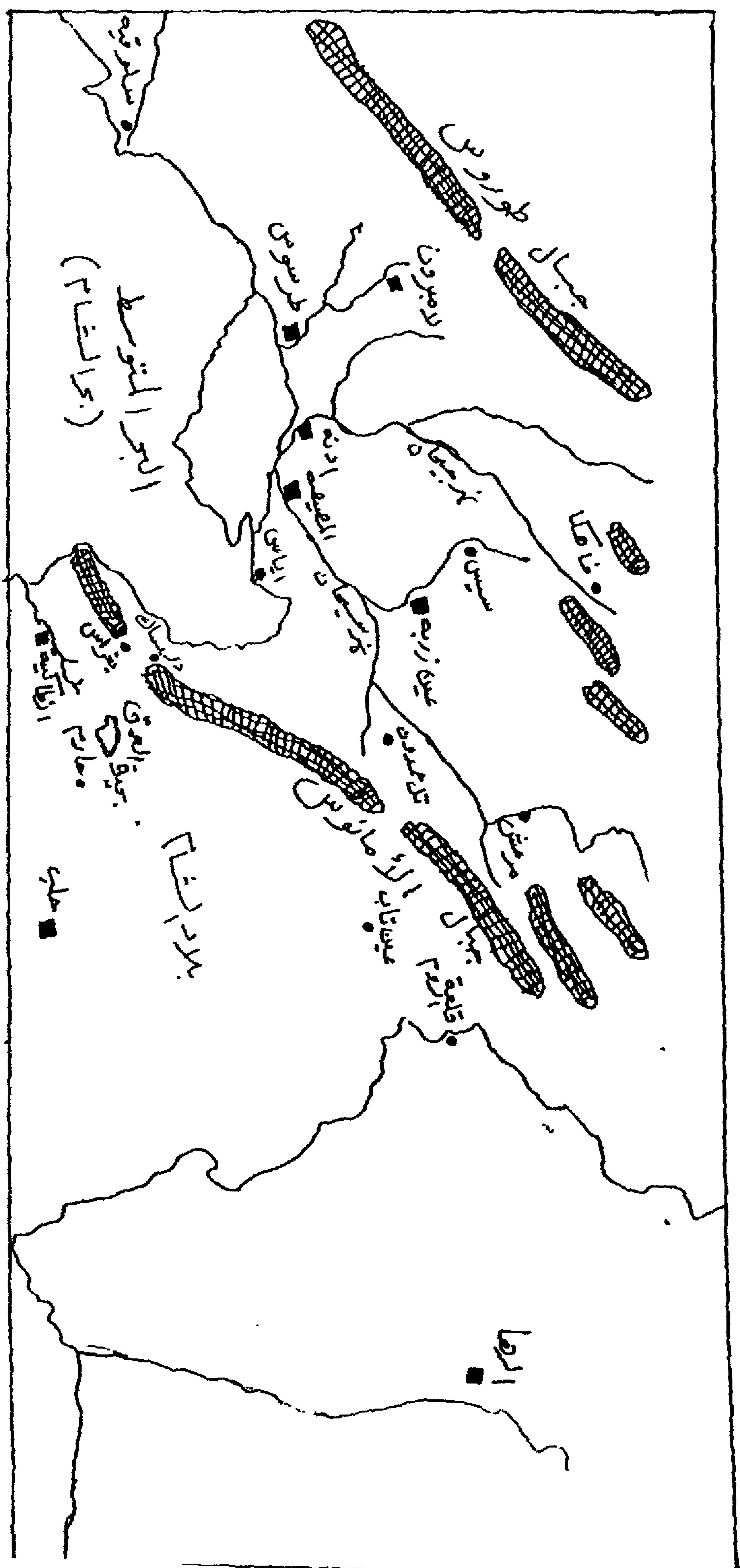
(٢) عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٣٦ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص٣٢٥ - ٣٢٦ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج٨ ص١٢٧ ؛ العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٦٥ - ٦٨٨ ص٢٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج٤ ص٥ .

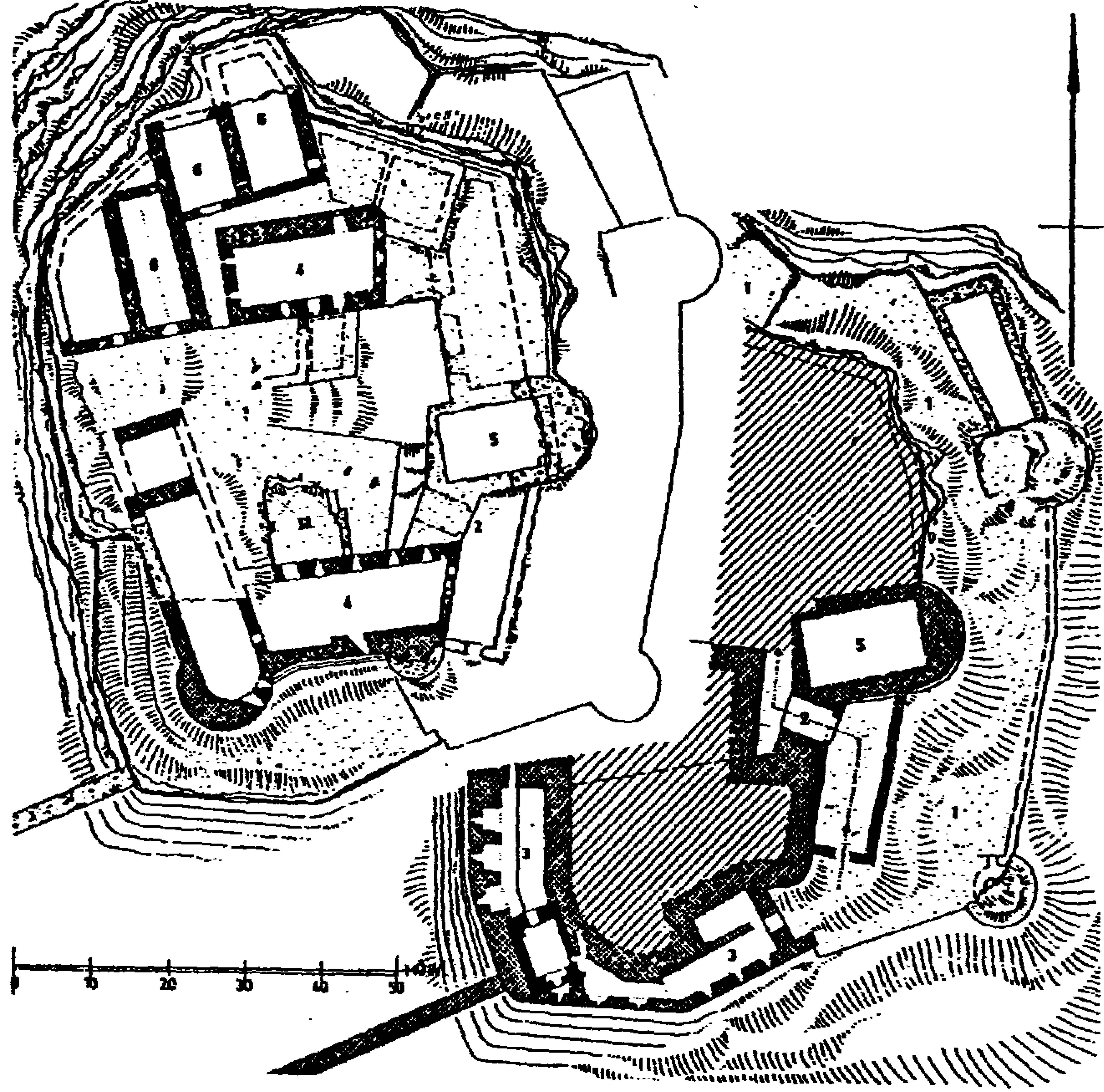
الذى يشرف على أهم الممرات المؤدية إلى قيليقية كان من جملة الأسباب التى سهلت على دولة المماليك تجريد الحملات العسكرية إلى قيليقية لإخضاع الأرمن وإجبارهم على دفع الجزية والأذعان بالتبعية ، حتى زوال مملكة أرمينية الصغرى على أيدى دولة المماليك سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م[١] .

---

(١) انظر تفاصيل تلك الحملات حتى نهاية مملكة أرمينية الصغرى فى ، سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص٢٤٦ - ٢٧٨ .



موقع حصن بغراس : عمل الباحث



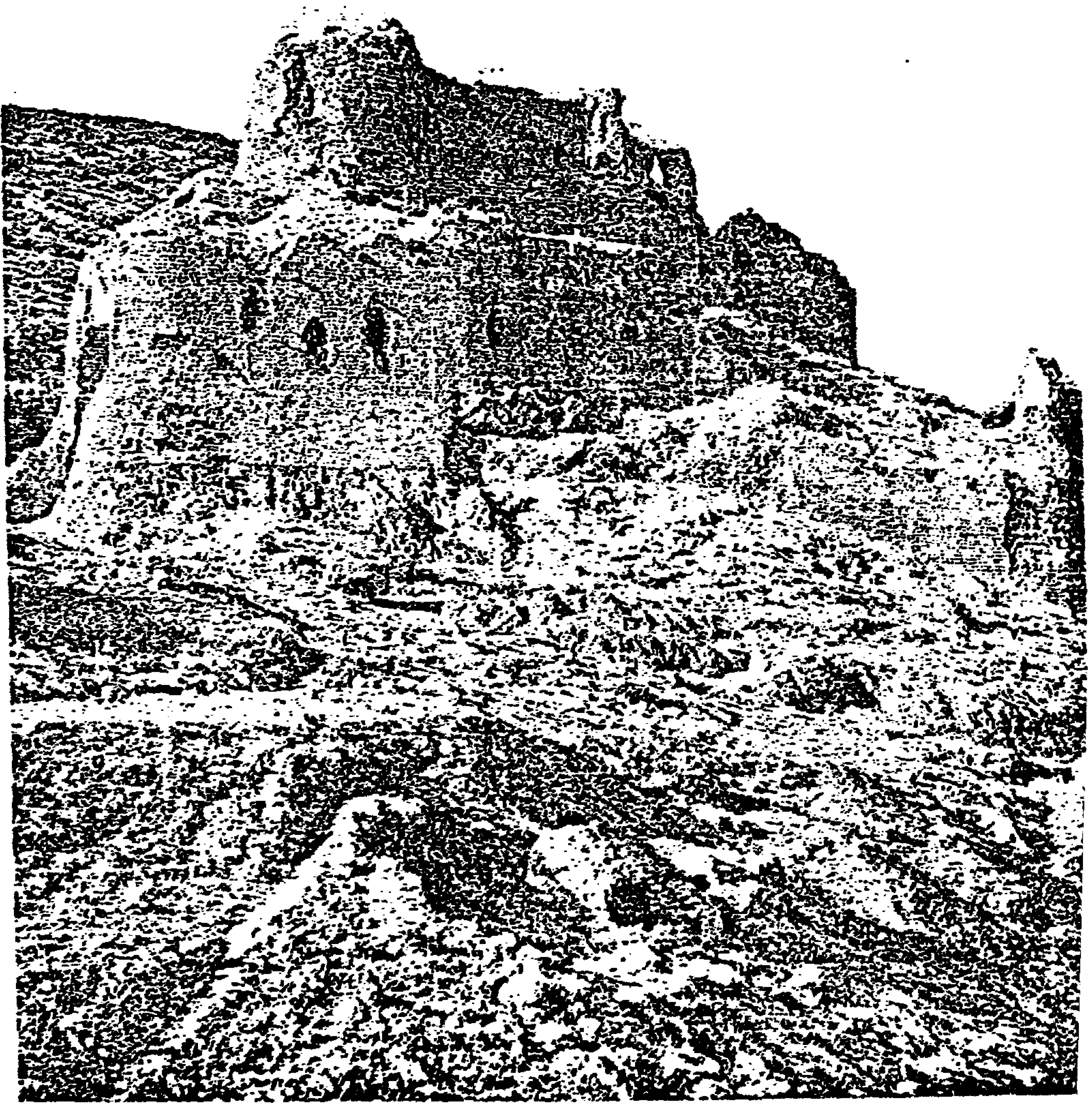
بغراس Bagras مخطط أرضي للقلعة ، مقياس ١٠٠٠ / ١ .

(أ) القلعة السفلية والأرضية السفلية للقلعة العليا .

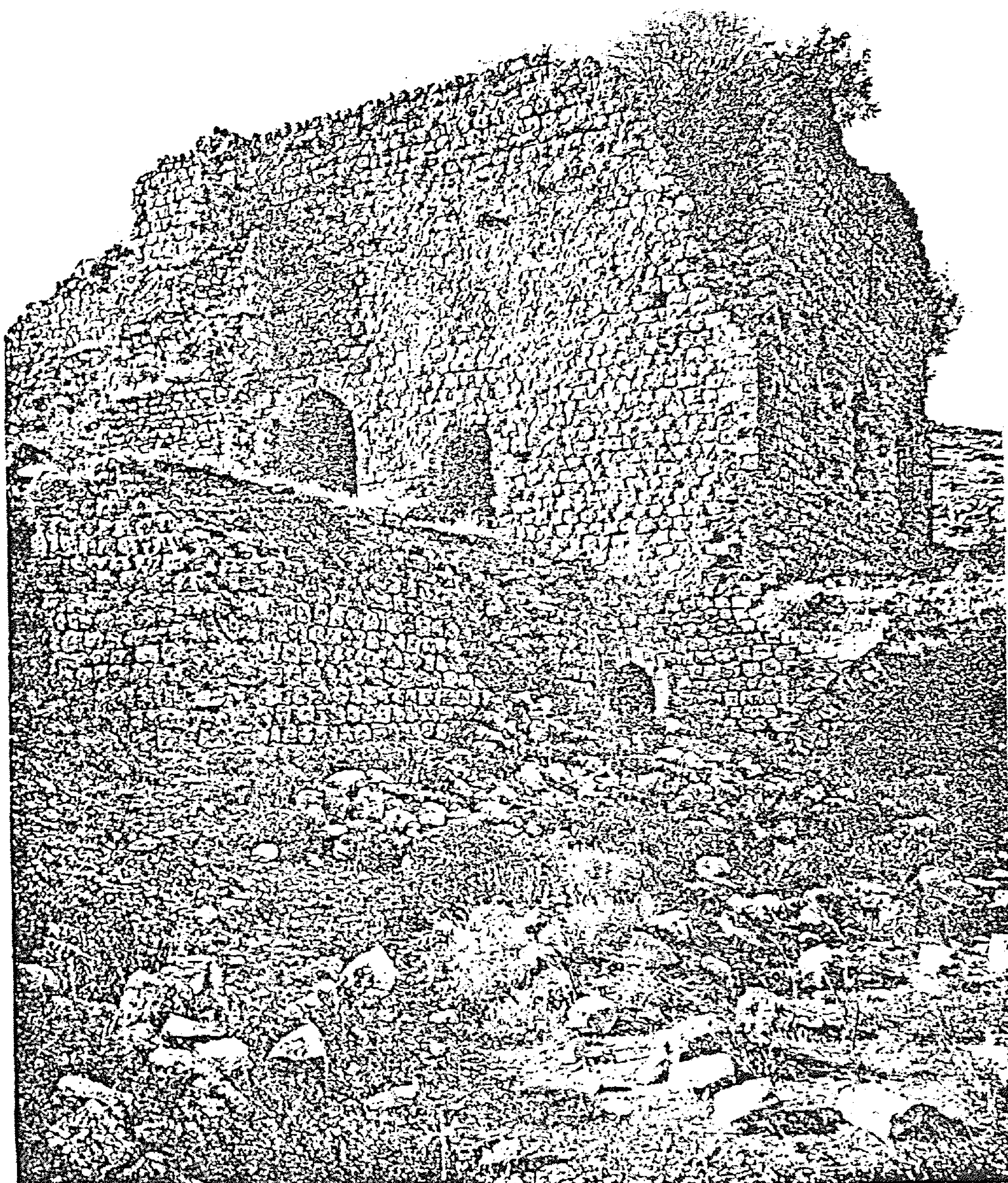
(ب) الأرضية العلوية للقلعة العلوية (مباني الأرضية السفلية مبنية بالرسم المنقط) مع مباني الطور الأول (البيزنطي) وهي مرسومة بالخط الأسود ، بينما رسم القسم الذي يعود تاريخه إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالتهشير الكثيف .

١ - القلعة السفلى . ٢ - ساحة أمامية وحصن الحرس (حصن البوابة) . ٣ - الشرفة السفلى . ٤ - مباني القصر . ٥ - البرج الكبير . ٦ - غرف المستودعات .

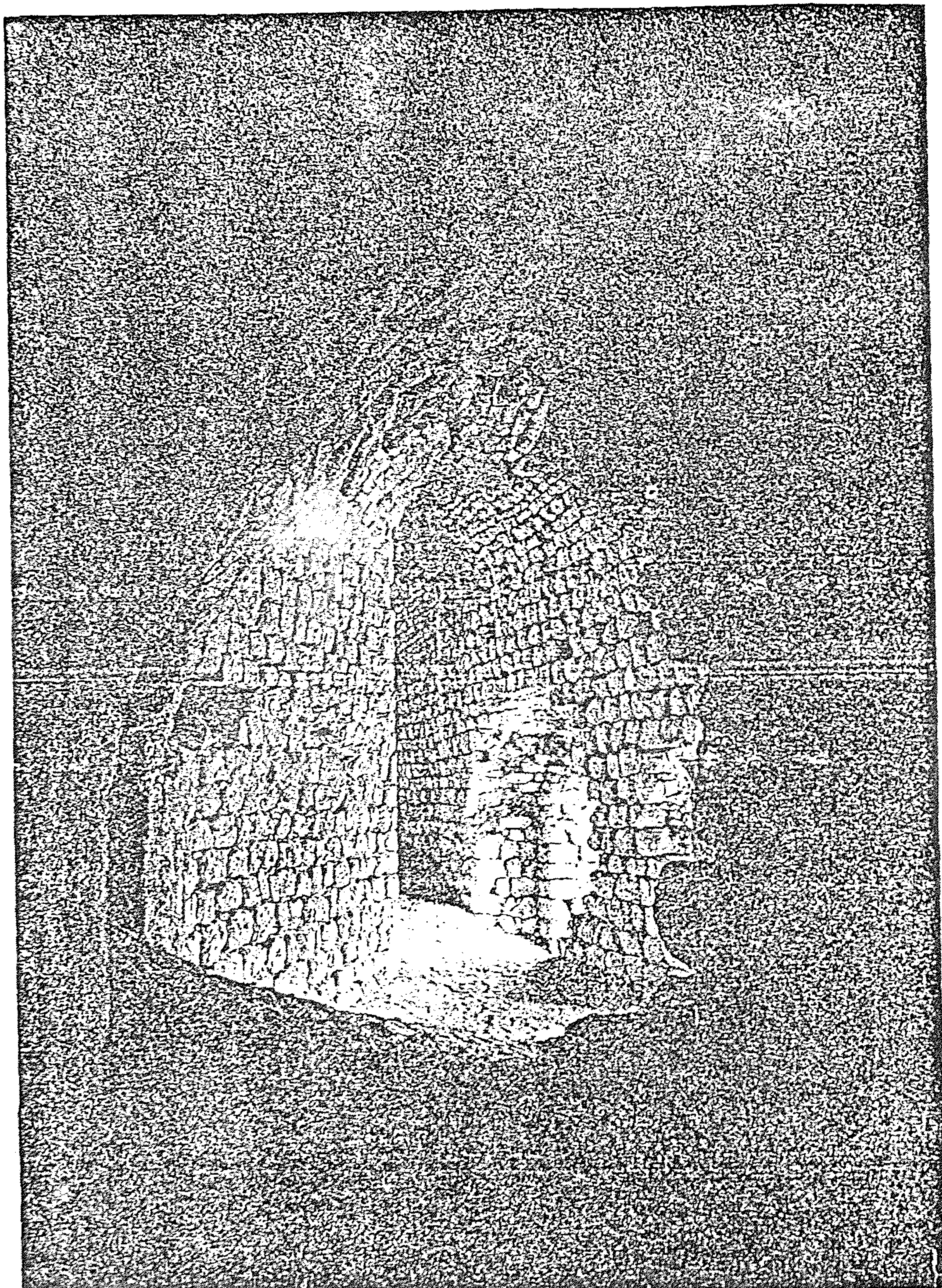
نقلاً عن فولفغانغ مولر



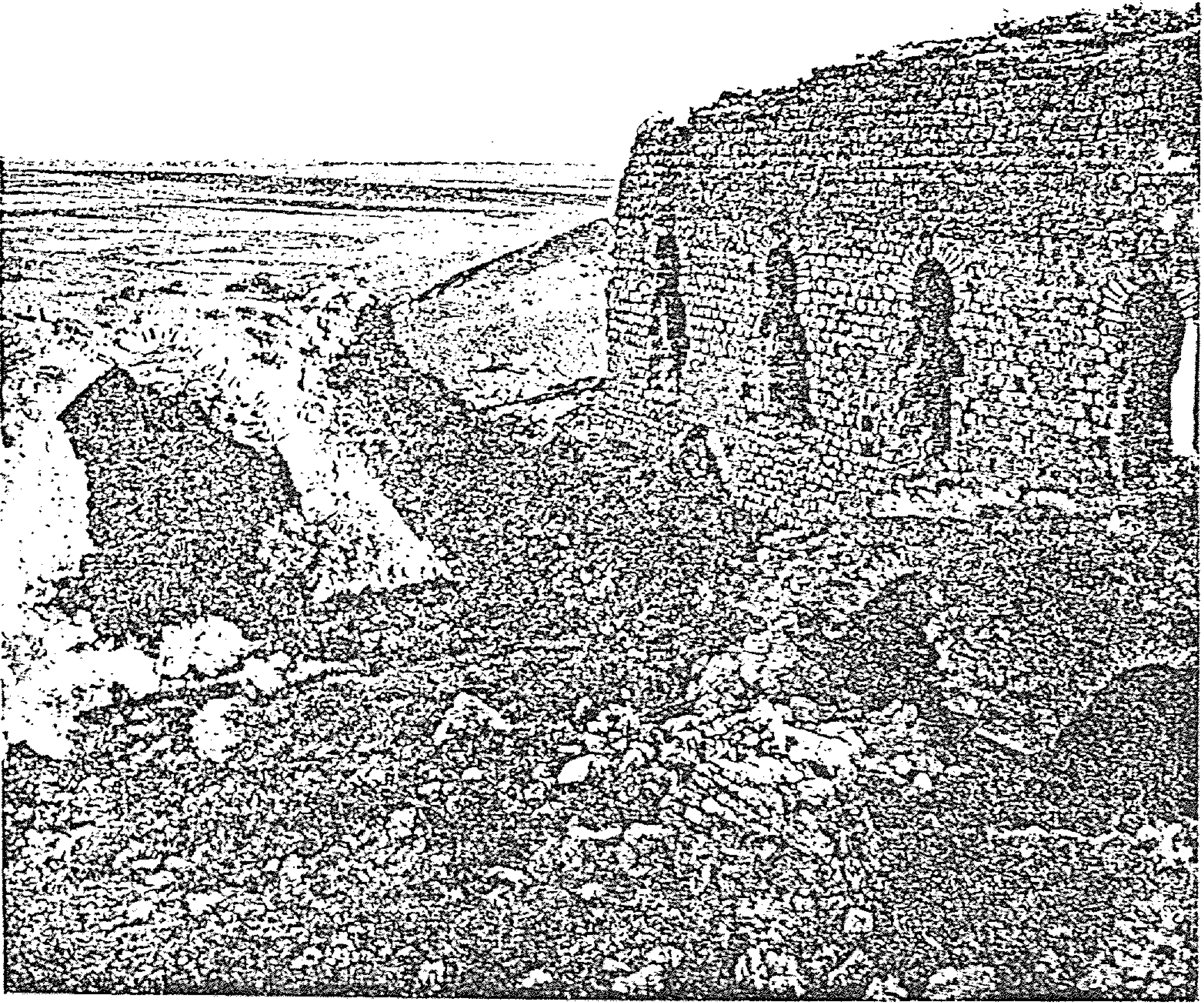
بغراس نقلاً عن فولغانغ



بغراس نقلاً عن فولغانغ



بغراس نقلاً عن فولغانغ



بغراس نقلاً عن فولغانغ

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية و المترجمة :

- ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ـ ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م عن ط ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦م .

- الأزدى (محمد بن عبد الله الأزدى) ، فتوح الشام . تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ، القاهرة ١٩٧٠م .

- الأصفهانى (القاضى عماد الدين محمد بن محمد ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) ، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٩ .

- الأنطاكى (يحى بن سعيد) ، تاريخ يحى بن سعيد الأنطاكى ، منشور تتبعًا لتاريخ سعيد بن البطريق المعروف باسم التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥م .

- ابن أيبك الداوادارى (أبو بكرعبد الله بن أيبك فى ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع وعنوانه ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م؛ الجزء الثامن وعنوانه ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق ألرخ هارمان ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

- البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحى بن جابر ، ت٢٧٩هـ) ، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، وعمر أنيس الطباع ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ط دار الكتب .

- حسن عبد الوهاب حسنين ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة ، الأسكندرية ١٩٨٩م .

- حسنين محمد ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .

- حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون١١٧١ - ١٢٦٨م/ ٥٦٧ - ٦٦٦هـ ، الأسكندرية ١٩٨٩م .

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، ت ٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق أحسان عباس ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى، بيروت ١٩٨٠ - ١٩٨٢م .

- سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى الشهير بسبط بن الجوزى ، ت٦٥٤هـ) ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ج٨ ، حيدر آباد ١٣٨٧٠هـ / ١٩٥١م .

- السبكى (تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، ت ٧٧١هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، عبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ - الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٧٦م .

٢ - سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، بحث فى كتاب (بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى) ، بيروت ١٩٧٧م .

- السيد الباز العرينى :

١ - الدولة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١م ، بيروت ١٩٨٢م .

٢ - الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، ت ٦٦٥هـ)، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، مصر ١٢٨٨م .

- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد ت ٦٣٢هـ) ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م

- ابن شداد (عز الدين أبى عبد الله محمد بن على إبراهيم الحلبى ، ت ٦٨٤هـ) ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، مخطوط مكتبة الفاتيكان برقم ٧٣٠ ، مخطوط مكتبة إياصوفيا باستامبول برقم ٣٠٨٤ .

- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، ـ ٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، والمعروف باسم تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٩م .

- ابن عبد الظاهر (محى الدين عبد الظاهر ، ت ٦٩٢هـ) ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

- ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة ت ٦٦٠) :

١ - زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

٢ - بغية الطلب فى تاريخ حلب ، نشر فؤاد سزكين ، فرانكفورت ١٩٨٣م .

- على محمد عودة الغامدى :

١ - بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٢ - سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن فى قيليقية ، منشورفى كتاب بحوث تاريخية ١ - ٢ من إصدار الجمعية التاريخية السعودية ، الرياض ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

- العينى (بدر الدين محمود العينى ، ت ٨٥٥هـ) ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، حوادث ٦٤٨ - ٦٦٥ - ٦٨٨هـ ، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، صاحب حماة ت ٧٣٢هـ):

١ - المختصر فى أخبار البشر ، بيروت بدون تاريخ .

٢ - تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م .

- ابن الفرات (ناصرالدين محمد بن عبد الرحيم بن على ت ٨٠٧هـ)، تاريخ ابن الفرات ، ج٦ صورة بمركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى برقم ٦١٢ عن نسخة الخزانةالعامة بالرباطرقم٢٤١ ف.

- فولفغانغ مولّر - فينر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة محمد وليد الجلاد ، دمشق ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- قدامة بن جعفر (قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، ت ٣٢٨هـ) ، الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق محمد حسين الزبيدى ، بغداد ١٩٨١م .

- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن القلانسى ، ت ٥٥٥هـ) ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م .

- ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمربن كثير القرشى ، ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية ، بيروت ١٩٦٦م .

- مسكويه (أبو على الخازن أحمد بن محمد بن يعقوب ، ت ٤٢١هـ) ، تجارب الأمم ، القاهرة ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م .

- المقريزى (أحمد بن على بن عبد القادر ، ت ٨٤٥هـ) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٦م .

- مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨م .

- ابن نصر الله الحنبلى (أبو البركات عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر الله الكنانى العسقلانى الحنبلى ، ت ٨٧٦هـ) ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ١٩٧٨م .

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ) ، مفرج الكروب فيأخبار بنيأيوب ، ج ١-٢ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٧م ، ج٥ تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٧م .

- الواقدى (أبو محمد عبد الله محمد بن عمر الواقدى ، ـ ٢٠٧هـ) ، فتوح الشام ، مصر ١٣٥٢هـ .

- ياقوت الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى ، ت ٦٢٦هـ) ، معجم البلدان ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

ثانيًا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- **Cahen, Claud,** La syrie du nord al' Epoque des Croisades, Paris 1940 .

- The Cambridge Medieval History, Vol., IV " The Byzantine Empire, Part I, Byzantium and its Neighbours " Cambridge, 1966 .

- **Hardwicke, Mary Nickerson :** The Crusades States, 1192 - 1243 in The History of The Crusades, Vol. II. The Later Crusades, London. 1969 . PP. 522 - 554 .

- **Nersessian,** The Kingdom of Cilician Armenia, in The History of The Crusades, Vol. II. The Later Crusade, London, 1969 .

- **Osman Turan** : Anatolia in The Period of The Soljuks and Beyliks in: The Cambridge History of Islam, Vol. 1A. Cambridge .

- **Pruwar, J.** The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972 .

-Rabie, Hassanien, The Financial System of Egypt, London, 1972 .

- Wilbrand of Oldenberg, Itinerarium Terre Sanetae, in Peregrinatores Medii Aeviguatuor, Leipzig, 1873 .

- **William of Tyre :** The History of Deeds Done Beyond The Sea, Translated and annotated by Emil Babcock and A. C. Krey, New York, 1976.

البحرية الإسلامية فى مواجهة الصليبيين

فى مصر والشام

إبراهيم إبراهيم عنانى(*)

يسجل استيلاء الفاطميين على مصر والشام فيما بين عامى ٣٥٨هـ و ٣٦٥هـ بداية عهد جديد فى تاريخ البحرية المصرية أصبحت فيه سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط شرقاً من أنطاكية إلى غزة ، وجنوباً من غزة فى الشرق إلى مصب وادى ملوية بالمغرب الأوسط غرباً ، ملكاً للفاطميين . وكان من الطبيعى أن يهتم الفاطميون بالدفاع البرى والبحرى عن السواحل الشامية المصرية المغربية المترامية الأطراف من خطر الغزو البيزنطى من جهة ، وخطر القرامطة على مصر من جهة ثانية وكذلك عن سواحل البحر الأحمر خوفاً على مراكب الكارم من القراصنة(١) ومن ناحية أخرى فقد ترتب على انتقال الفاطميين إلى مصر ، أن أصبحت الشام ومصر، مرتبطتين لأول مرة تحت مظلة الإسلام فى وحدة سياسية شاملة على الرغم مما تعرض له الفاطميون من دسائس أعدائهم فى العراق وفى بلاد الشام نفسه(٢) . ثم أن بلاد الشام كانت فى نظر الأئمة الفاطميين أرض جهاد ،

(*) باحث ومؤلف فى التاريخ الإسلامى .

(١) ولذلك السبب وضعوا أسطولا فى عيذاب يحتمى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولهما،وكانت عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ، تناقصت فيما بعد إلى ثلاثة، وكان والى قوص يتولى أمر هذا الأسطول(القلقشندى،صبح الأعشى، ج٣ ص٥٢٠).

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، الصلات التاريخية بين الشام ومصر فى العصر الإسلامى ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، مايو ١٩٦٤ ص١ -١٠ ، عبد المنعم ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ص١٢٣ .

لاتصال حدودها الشمالية بأراضى البيزنطيين ، بالإضافة إلى كثرة ثغورها البحرية المعرضة للغارات البحرية البيزنطية .

وقد ظهر اهتمام الخليفة الفاطمى المعز بالأسطول منذ أن استقر فى القاهرة ، حاضرته الجديدة ، إما لمواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر أو لحماية سواحل دولته من أنطاكية إلى الأسكندرية من غارات البيزنطيين(١) وربما لأنه كان ينوى الدخول فى مغامرات جديدة مع البيزنطيين فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط .

تقلص النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام :

وكان أن نجح الفاطميون فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى فى فرض سيطرتهم الشاملة على بلاد الشام وذلك بعد أن عقد مع الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى هدنة تستغرق عشر سنوات ، وقضى على حركة بنى جراح الطائيين فى فلسطين ، وعلى سلطان الحمدانيين فى حلب . غير أن هذه السيطرة لم تلبث أن أعتراها الوهن فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله(٤١١-٤٢٧هـ) حتى تمكن الأتراك السلاجقة منذ سنة ٤٦٧ (١٠٧٤م) من اقتطاع عدد كبير من مدن الشام . ومع ذلك فقد ظل الفاطميون يحتفظون حتى تلك السنة بمعظم قواعدهم الساحلية هناك .

وفى ذلك الدور بدأ سلطان الفاطميين على الشام يتزعزع فتمكن القاضى أبو طالب الحسين بن عمار من إعلان استقلاله بطرابلس فى سنة ٤٦٢هـ (١٠٦٩م)(٢) . والواقع أن هذه السنة تعتبر نكبة فى تاريخ الدولة

---

(١) حسين مؤنس ، المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص١٠٤ .

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص٩٧ .

الفاطميـة إذ أعلنت فيهـا دمشـق وصـور وأكثر مـدن فلسـطين استقلالها عنها فى هذا التاريخ(١) ، ولم يبق لأمير الجيوش بدر الجمالى الذى قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ولاية عكا وسواحل الشام ، سوى عكا وصيدا(٢) .

وقد عمل بدر الجمالى(٣) على استرجاع بعض السواحل الشامية ، فنزل فى سنة ٤٦٢هـ على ثغر صور وشدد حصاره على المدينة ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار عنها عندما قدم الأمير قرلومقدم الأتراك فى بلاد الشام بعسكر كثيف لنصرة قاضى صور ، وأغار بهذا العسكر على صيدا ، وحاصر المدينة ، فسار بدر الجمالى لاستنقاذها . وبعد أن تمكن بدر من إبعاد الخطر عنها عاود الكرة على صور للمرة الثانية ، وأقام يحاصرها براً وبحراً مدة سنة، ولكنها استعصت عليه فرحل عنها(٤) ، وفى ذلك الدور ظهر على مسرح بلاد الشام أتسز ، وهو أحد القادة التركمان من قبل السلطان السلجوقى ألب أرسلان، فاستولى هذا القائد على دمشق فى سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) وزحف بعد ذلك على مصر وتوغل فى أراضيها ، حتى اقتربت قواته من القاهرة . وكان بدر الجمالى قد هيأ المراكب والسفن بعد هزيمة الفاطميين على يد أتسز فى جمادى الآخرة سنة ٤٦٩ ، للإقلاع إلى الأسكندرية حفظاً

---

(1) Wiet Une Inscriptition d' Un Prince de Tripoli de La dynastie des Banu Ammer , Memorial H. Basset , Paris 1928 .

(٢) ابن القلانسى ، ص٩٧ .

(٣) هو أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى المستنصرى ، وكان مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار ولذلك السبب إليه ، ثم أخذ يتدرج فى الرتب العالية والمناصب الرفيعة إلى أن تولى بلاد الشام وتقلد أمارة دمشق من قبل المستنصر بالله .

(٤) ابن القلانسى ، ص٩٨ .

لها فى حالة إذا ما تغلب جيش أتسزعلى الجيوش الفاطمية فى الموقعة الفاصلة(١) ، ولكن أتسز هُزم على أيدى الفاطميين فى رجب سنة ٤٦٩ ، وتراجع مهزوما عن مصر إلى دمشق(٢) .

وقد ترتب على انتصار الفاطميين على السلاجقة عودة بعض مدن الشام إلى ولائها للفاطميين ، مما شجع بدر الجمالى على محاولة استرجاع دمشق ،.فسير إليها عسكراً بقيادة نصر الدولة ، وحاصرها ، وعندما اضطر أتسز إلى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب إرسلان تقدم تتش لنجدته ، واقتربت جيوشه من دمشق وعندئذ بادر الجيش الفاطمى برفع الحصار والرحيل إلى مصر.

وهكذا لم تحل سنة٤٨٠هـ (١٠٨٧م) حتى كانت مصر قد فقدت سلطانها على معظم سواحل الشام واقتصرت قواعد الفاطميين البحرية على عسقلان وحدها التى أصبحت المركز الرئيسى الذى تخرج منه الأساطيل لغزو سواحل الشام . ولكن الدولة الفاطمية لم تلبث أن استعادت نفوذها على بلاد الشام ، ففى سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٥م) تم إنزال الأساطيل المصرية فى صور وفتحت عنوة(٣)، وفى شعبان سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) تم الاستيلاء على بيت المقدس بالآمان وظلت بيت المقدس خاضعة للفاطميين إلى أن دخلها الصليبيون عنوة فى شعبان سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) .

ويبدو أن الدولة الفاطمية نظرت فى أول الآمر إلى الصليبيين على أنهم من الممكن أن يكونوا حلفاء لها ضد السلاجقة ، خصوم الفاطميين سياسياً

(١) ابن القلانسى ص١١٠ ، حاشية ٢.

(٢) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ج٤ ص١٠٢ .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٥ ص١٥٩ .

ومذهبياً . ولذلك تلكأت فى مواجهتهم . فلما حاصر الصليبيون بيت المقدس ، واقتحموا أسوارها فى ٢٣شعبان سنة ٤٩٢ بعد حصار دام أكثر من أربعين يوماً ، وارتكبوا فيها المذابح الرهيبة(١) ، أحس الفاطميون بالخطر ، وعزموا على استرجاع بيت المقدس التى اعتبر بقاؤها فى أيدى الصليبيين اعتداء صارخاً موجهاً إلى الدولة الفاطمية(٢).

وفى أوائل رمضان سنة٤٩٢ خرج الأفضل فى عشرين ألفا من العسكر متوجهاً إلى عسقلان بقصد استرداد بيت المقدس ، ونزل بظاهر عسقلان فى ١٤ رمضان منتظراً وصول الأسطول الفاطمى فى البحر والنجدات البرية التى وعده بها عرب فلسطين(٣) ، ولكن الصليبيين بادروه بالهجوم وانهزم العسكر الفاطمى إلى داخل عسقلان ، مما اضطر الأفضل إلى العودة إلى القاهرة عن طريق البحر(٤) .

والواقع أن عسقلان غدت القاعدة الرئيسية للفاطميين فى تحركاتهم البحرية والبرية ضد الصليبيين ، وعن طريقها كان يتم إمداد المدن التى يحاصرها الصليبيون بالسلاح والأقوات . ولكن يبدو أن مشاكل الدولة الفاطمية فى بداية عهد الخليفة الآمر بأحكام الله حالت دون العناية بالدفاع عن موانى الشام ضد الغزو الصليبى . وهكذا أخذ الصليبيون يستولون عليها

---

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، جـ٨ حوادث ٤٩١هـ ، ص١٨٩ - النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص١٤٩ .

(2) Grousset , Histoire des Croisades , Paris , 1957 , P , 104 .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٣٧ - النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ١٥٠ .

(٤) المقريزى الخطط ، جـ٢ ص١٦٥ - النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ١٥٠ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٢٥٥ .

مدينة بعد أخرى ، ففى سنة ٤٩٤هـ سقطت حيفا وأرسوف وقيسارية ، وفى ٤٩٥ سقطت أنطرطوس ، وفى سنة ٤٩٧ استولى الصليبيون على عكا قهرا بعد أن حاصروها من البحر فى أكثر من تسعين مركبا ومن البر بجيوش كثيفة . وفى سنة ٥٠٢هـ استولوا على طربلس وجبلة ، وفى العام التالى سقطت بيروت وجبيل وبانياس ، وفى سنة ٥٠٤ سقطت صيدا.

أما عسقلان فظلت تجاهد الصليبيين حتى سقطت بدورها فى سنة ٥٤٨هـ بعد حصار من البر والبحر دام سبعة أشهر.

جهود الأسطول المصرى فى استنقاذ الثغور الشامية من الغزو الصليبى :

لم يقف الأسطول المصرى مكتوف اليدين أمام الهجمات التى شنها الصليبيون على موانى الشام ، وإنما قام بجهود كبيرة ، قلل من أثرها ما كانت عليه الدولة الفاطمية فى خريف عمرها من ضعف وإنحلال . ففى أول رمضان سنة ٤٩٦هـ خرجت العساكر المصرية فى البر إلى الشام فى حين أقلع الأسطول المصرى فى البحر بقيادة شرف المعالى بن الأفضل نفسه ، فوصل الأسطول إلى يافا فى آخر شهر شوال ، وأقام فى مياهها أياما ، تيسر له خلالها أن يمدها بالميرة والغلال حتى صلحت أحوال المدينة(١) . ثم عاد ولد الأفضل إلى مصر بعد أن قدم على الأسطول رجلاً يقال له القاضى ابن قادوس ، وعلى العسكر قائداً يعرف بتاج العجم . ويبدو أن الصليبيين هاجموا يافا بعد ذلك وكان على ابن قادوس أن يتوجه بأسطوله إليها ليقتحم الحصار الصليبى على المدينة من البحر بينما يتوجه تاج العجم من البر(٢) وقد مضى ابن قادوس بأسطوله إلى يافا ، وأقام عليها عشرين يوما ، لم تصل خلالها

---

(١) ابن القلانسى ، ص١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ص٢١٩ .

العساكر الفاطمية لمساعدته من البر ، الأمر الذى أدى إلى سقوط يافا فى أيدى الصليبيين .

وفى ذلك الوقت كان ريموند الصنجيلى كونت دى تولوز وأحد زعماء الحملة الصليبية الأولى يتطلع إلى مدينة طربلس الغنية ، فعزم على اتخاذها مركزاً لكونتية صليبية . وكان أن سار لمحاصرتها سنة ٤٩٥هـ(١) ، ولكنها امتنعت عليه بسبب توافد النجدات إليها من دمشق وحمص فانسحب إلى أنطرطوس . وظل ريموند مقيماً فى أنطرطوس فى الفترة ما بين عامى ٤٩٥، ٤٩٧هـ ، ولكن الأسطول الفاطمى لم يكف عن تزويدها من البحر بما كانت تحتاج إليه من مؤن وأقوات ، كما كان الفاطميون يرسلون المراكب للإغارة على سواحل الصليبيين (٢) . ففى سنة ٤٩٩هـ (١١٠٥م) قام أسطول طرابلس بالاشتباك مع السفن البيزنطية وانتهت المعركة بهزيمة البيزنطيين ، وتمكن أسطول طرابلس من الاستيلاء على قطعة بيزنطية(٣).

ولما اشتد حصار الصليبيين لطرابلس فى سنة ٥٠٠هـ ، ولم تصل الإمدادات المتوقعة من بغداد ، أرسل أهل طرابلس إلى الأفضل بمصر يلتمسون منه إنفاذ وال يصل إليهم فى البحر ومعه الغلة والميرة فى المراكب ليسلموا إليه المدينة ، فجهز إليهم الأفضل أسطولا فى البحر مما مكن المدينة من الصمود بضعة أشهر. كذلك لم يتردد الفاطميون فى نجدة ثغر صيدا عندما هاجمه بلدوين صاحب مملكة بيت المقدس فى عساكره فحاصروه براً

---

(١) نفس المصدر، حوادث ٤٩٥هـ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ص٣٥٦ .

(٢) ابن الأثير ، جـ٨ ص٢١٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص٢٣٥ .

وبحراً فى سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) ونصبوا الأبراج الخشبية على السور. وعندئذ أرسل الأفضل أسطولاً للدفاع عن صيدا وحمايتها ، وتمكنت سفن هذا الأسطول من التغلب على مراكب وعسكر الصليبيين . وظل الأسطول المصرى يقوم بواجبه فى الدفاع عن الثغر إلى أن بلغهم وصول العسكر الدمشقى(١)لحماية صيدا والدفاع عنها ، فرحل الأسطول المصرى قافلاً إلى مصر .

وفى تلك الأثناء لم يصرف الصليبيون نظرهم عن طربلس ، فاشتد حصارهم لها ، وشاركت فى هذا الحصار قوات تنكريد صاحب أنطاكية، وبلدوين ملك بيت المقدس ، وبرترام بن ريموند الصنجيلى فى حين فرض الأسطولان البروفنسي والجنوى حصاراً بحرياً على المدينة ، بحيث تمكن الصليبيون من قطع الاتصال عنها تماماً من ناحيتى البر والبحر . وأخيرا تمكن الصليبيون من دخول طرابلس بالسيف فى١١من ذى الحجة سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م) . وكان تأخر وصول الأسطول من مصر سبباً فى ضياع طرابلس . وعندما وصل الأسطول بعد فوات الأوان توجه إلى ساحل صور بعد سقوط طرابلس بثمانية أيام . وقد تمسك أهل صيدا وصور وبيروت ببقاء هذا الأسطول فى مياه ثغورهم حماية لهم من غزو صليبى وشيك ، ولكن قادة الأسطول الفاطمى أسرعوا بالعودة إلى مصر .

والواقع أن سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين قبل أن يصل الأسطول الفاطمى إليها لإمدادها بالمؤن والأقوات والسلاح والرجال ، كان درساً قاسياً تلقاه الفاطميون. ولذلك لم تكد الأخبار تصل إلى الأفضل بزحف الصليبيين

---

(١) ابن القلانسى ، ص١٦٢ - ابن الأثير ، ج٨ ص٢٥١ - المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص١١٦.

بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، وبرترام بن صنجيل ، وجوسلين صاحب تل باشر ، نحو بيروت ، وأحكامهم الحصار عليها من البحر والبر ، حتى سارع الأفضل بإرسال قسم من أساطيله لإنجادها . وكان أن تغلب الأسطول الإسلامى على مراكب الصليبيين ، واستولى على بعضها ، كما تم إمداد بيروت بالأقوات والمؤن والعدد والسلاح ، فقويت نفوس أهل المدينة وأخذوا يشددون هجماتهم على قوات الصليبيين المحيطة بالثغر . وعندئذ استنجد بلدوين بالجنوية الذين طالما سخروا سفنهم فى خدمة الحركة الصليبية ، فقدم من سفنهم فى هذه المرة أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة ، وأخذوا يمطرون المدينة بقذائف الحجارة المدمرة . ولكن أهل المدينة تفانوا فى الدفاع عنها ، وقاتل البحريون بعنف فى يوم الجمعة ٢١من شوال ، واستبسلوا فى الدفاع البحرى عن بيروت . واستشهد فى المعركة مقدم الأسطول الفاطمى وعدد كبير من رجاله ، ولكن الحشود الصليبية تفوقت فى نهاية الأمر فانهزم المسلمون ، ودخل الصليبيون المدينة ، فى حين أقلع الأسطول الفاطمى إلى صور فى ربيع الآخر سنة ٥٠٤هـ (١١١٠م) . وكان أن قدم إلى ساحل الشام من غرب أوربا أكثر من ستين مركبا مشحونة بالرجال للمشاركة فى غزو بلاد المسلمين والحج إلى بيت المقدس ، فاستغل بلدوين هذه الفرصة لمهاجمة صيدا ، ونزل عليها بقواته براً فى حين حاصرها الأسطول الصليبى بحراً . وقد رأى مقدم الأسطول الفاطمى فى مهاجمة هذا الأسطول الصليبى مغامرة خطيرة قد تنتهى بكارثة للمسلمين ، فآثر البقاء فى صور حتى لا يتعرض أسطوله للتدمير. ولما يئس أهالى صيدا من قدوم النجدة خشوا أن يصيبهم ما أصاب أهل بيروت ، فخاطبوا الصليبيين فى تسليم بلدهم بالأمان ودخلها الفرنج بعد حصار دام٤٧ يوما[١] .

---

(١) نفس المصدر ،ص١٠١، ابن الأثير ، ج ٨ ص٢٦٠، المقريزى:اتعاظ الحنفا، ص١١٦.

وبعد أن استولى الصليبيون على صيدا زحفوا على صور، وحاصروها في سنة ٥٠٥هـ (١١١١م) فتصدى لهم ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، وقطع الجسر الذى كان يعبر عليه بين صيدا وصور، وأحرق عشرين مركباً كانت ترسو فى مياه صيدا، وأصدر إلى أهل صور الكتب يدعوهم فيها إلى المصابرة على الفرنج والجد فى قتالهم. وأمام مقاومة أهل صور العنيفة اضطر الصليبيون إلى فك الحصار عنها (١).

وفى سنة ٥٠٦هـ تجددت مخاوف أهل صور من عودة الفرنج إلى محاصرتهم، فأجمعوا بالاتفاق مع عز الملك أنوشتكين الأفضلى، والى صور من قبل الأفضل، على تسليمها إلى ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق بحكم ما بذله فى العام السابق من جهود فى سبيل الدفاع عن صور. وكان أن وافق ظهير الدين، وأمر سيف الدين مسعود، واليه على بانياس، وتاج الملوك بورى، نائبه فى دمشق بأن يتسلما صور. وأرسل ظهير الدين إليها فرقه من الأتراك لتدعيم الدفاع عنها. كذلك أرسل إلى أهلها الأقوات والمؤن من دمشق. وفى أول سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) أقلع الأسطول من مصر بالغلات والرجال متجها إلى صور، ووصل الأسطول إلى صور سالماً فى آخر صفر سنة ٥٠٧هـ. وبإنزاله الشحنات رخصت الأسعار فى المدينة، وحسن حالها، وأبعد خطر الصليبيين عنها. وأقام الأسطول المصرى فى مياه صور فترة من الوقت إلى أن استقامت له الرياح، ثم أقلع عنها فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول من السنة. وكان أن أرسل بلدوين ملك بيت المقدس إلى الأمير مسعود والى صور يلتمس منه المهادنة والموادعة لحسم أسباب النزاع بين الجانبين، فأجابه مسعود إلى ذلك، وانعقدت الهدنة بينهما(٢).

---

(١) نفس المصدر، ص١٧٩، ١٨٠.

(٢) نفس المصدر، ص١٨٨.

وظل الآمر كذلك بقية حياة الأفضل حتى اغتيل فى ليلة عيد الفطر من سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) ، فخلفه فى الوزارة المأمون أبو عبد الله بن أبى شجاع فاتك البطائحى ، الذى كان رغم شجاعته أقل دراية بشئون السياسية من الأفضل. وفى عهده خسرت الدولة الفاطمية مدينة صور بسبب سوء تصرفه . ذلك أنه حدثت خلافات وأطماع على ولاية مدينة صور ، مما أدى إلى تحرك أطماع الصليبيين فى الاستيلاء عليها من جديد . وعندما أدرك والى صور عجزه عن دفعهم لقلة ما لديه من الجند والميرة أرسل إلى الخليفة الآمر بأحكام الله يطلعه بجلية الأمر ، واستقر الرأى على أن ترد مصر ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها ، مع احتفاظ الدولة الفاطمية بحق الأشراف وفرض سلطانها عليها . وكان أن وافق طغتكين وتقبل مسئوليته الدفاع عن صور ، ولكنه ندب لتوليها عنه جماعة لاكفاية فيهم ، فساءت حالتها . وانتهز الصليبيون هذه الفرصة وأحكموا الحصار حولها فى ربيع الأول سنة ٥١٨هـ حتى عدمت بها الأقوات ، فطلب طغتكين المعونة من مصر التى توانت فى إرسال المعونة ، فضعفت نفوس أهلها وقرروا تسليمها للصليبيين فى٢٣من جمادى الأولى سنة٥١٨هـ(١١٢٤ م)(١) وبسقوط صور تلاشى نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام .

جهاد الأسطول الفاطمى ضد الصليبيين :

١ - فى عصر الآمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٤هـ) :

بلغ الأسطول الفاطمى فى عصر الآمر بأحكام الله درجة كبيرة من القوة على الرغم من حالة الضعف السياسى التى وصلت إليها مصر عندئذ. وقد تعددت ميادين النشاط البحرى الحربى فى خلافة الآمر : ففى سنة ٥١٧هـ بلغ المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبا تراب حيدرة والى

---

(١) ابن الأثير ج٨ ص٢١٦ .

الأسكندرية والأعمال البحرية نبأ نزول الروم والبنادقة فى الأسكندرية ، فبادر إليها بالأسطول . فلما شاهده الأعداء أقلعوا دون قتال ، وظفر المصريون بعدة قطع للأعداء .

وذكر المقريزى نقلا عن ابن المأمون أن رسل ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق وأقسنقر صاحب حلب وصلوا فى المحرم سنة٥١٧هـ إلى الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى والوزير المأمون ، وأنهما مثلا أمام الخليفة بالقصر ، وقدما إليه كتبا بعث بها كل من طغتكين وأقسنقر يستنصران فيها الخليفة ، ويحثانه على نصرة الإسلام ، وتجهيز الأساطيل إلى السواحل حتى لاتتواصل إمدادات الصليبيين . فاشتد عزمه على تلبية ندائهما ، وأمر بتجهيز الجيوش والأساطيل الثانية لانشغال الأساطيل الرئيسية فى الغزو . وكان أن دارت معارك بالقرب من سواحل الشام وانتهت بهزيمة الأسطول الفاطمى ، وتمكن البنادقة من الظفر بعدة قطع فى حين اضطرت بقية السفن إلى العودة إلى مصر(١) ولكن الأسطول الفاطمى الرئيسى لم يلبث أن عاد مظفراً فى شعبان من سنة ٥١٧هـ بمن فيه سالمين ، وقد غنموا قطعاً من أسطول الصليبيين ، وأسروا عددا من الرجال والنساء .

وتلت ذلك فترة مضطربة شغل فيها الفاطميون عن الجهاد البحرى بمصرع الآمر بأحكام الله فى٥٢٤هـ (١١٢٩م) وخلافة الحافظ لدين الله من بعده . وحدثت اضطرابات لم تنته بوفاة الحافظ لدين الله فى سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) بل استمرت فى خلافة ابنه الظافر بأمر الله حتى مصرعه فى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) . واتسم عهد الظافر بالخلل فى أجهزة الدولة لحداثة سن الخليفة وانشغاله باللهو(٢) ، ولاشتداد النزاع بين الوزيرين ابن مصال وابن

---

(١) ابن القلانسى ، ص٢٠٩ - ابن الأثير ، ج٨ ص ٣١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ، ج٥ ص٢٨٨ .

سلار ، واستعانة كل منهما بفريق من العسكر على زميله . ولذلك أهمل الفاطميون الدفاع عن عسقلان التى سقطت فى أيدى الصليبيين فى سنة ٥٤٨هـ بعد أن حوصرت عدة مرات ، وكان الفاطميون يمدونها بالرجال والذخائر ، ولذلك طال أمد مقاومتها .

ولقد أبدى الأسطول الفاطمى قبل سقوط عسقلان بسنتين نشاطاً بحرياً لم تشهد السواحل الشامية له نظيراً من قبل : فعندما أغار الصليبيون فى سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) على الفرما ونهبوها وأحرقوها وخربوا دورها(١) ، جهز الوزير العادل بن سلار قوة بحرية فى ربيع الأول إلى ثغور الساحل الشامى . وعندما اقترب هذا الأسطول من يافا ، وهى من ثغور الصليبيين ، أغار على الساحل ، فقتل رجاله وأسروا عددا كبيراً من عسكر الصليبيين ، واستولوا على عدة قطع من مراكب الروم والفرنج وأحرقوا ما عجزوا عن الظفر به . ثم قصد الأسطول المصرى ثغر عكا ، وفعلوا به مثلما فعلوه فى يافا ، ووقع فى أيديهم عدد من المراكب الحربية الفرنجية ، وقتلوا من حجاج الفرنجة وغيرهم خلقاً كثيراً(٢) ، ثم أنفذوا ما أمكنهم أنفاذه من الغنائم إلى مصر . كذلك أغار الأسطول المصرى على ثغور صيدا وبيروت وطربلس ، وفعلوا فى هذه الثغور مثلما فعلوه فى يافا وعكا . ثم عادت قطع الأسطول المصرى غانمة مظفرة .

على أن الأسطول المصرى لم يلبث أن عاود نشاطه البحرى فى غزو السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين ؛ ففى سنة ٥٥٠ أغار على ميناء صور

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص١٤٤ ب .

(٢) ابن القلانسى ، ص٣١٥ - الروضتين ج١ ص٢٠٢ - اتعاظ الحنفا ص١٤٤ ب .

ردا على غارة قام بها الصقليون على مدينة تنيس فى غفلة من أهلها فى جمادى الأولى سنة ٥٤٩هـ(١) .

وفى سنة ٥٥٢ (١١٥٧م) سير الصالح طلائع الأسطول المصرى إلى بيروت فأوقعت سفنه بمراكب الفرنج ، وأسرت منهم أعداداً كبيرة ، وغنمت غنائم لاحصر لها . ثم سار الأسطول إلى عكا ، فتمكن البحريون المصريون بعد قتال عنيف من أسر سبعمائة من الصليبيين ، وعاد الأسطول إلى قواعده فى مصر فى شهر رمضان(٢) ، وفى نفس السنة تحطمت سفن صليبية تحمل حجاجاً على ساحل الأسكندرية ، فقبض عليهم نائب الثغر السكندرى (٣) .

والواقع أن الأساطيل المصرية نشطت منذ سنة ٥٥٢هـ نشاطاً كبيراً بفضل تشجيع الصالح طلائع ، أعظم وزراء الدولة الفاطمية . ففى أوائل ربيع الأول سنة ٥٥٣ أغارت العساكر المصرية على غزة وعسقلان وأعمالهما وكان يظاهرهم الغزاة فى البحر . واشتبك المصريون مع الصليبيين فى عدة معارك انتصر فيها المصريون ، وظفر مقدم الغزاة فى البحر بعدة مراكب مشحونة بالافرنج ، وأسر منهم عدداً كبيراً ، ثم عاد ظافرا إلى مصر(٤) وفى ٢٣ ربيع الآخر من نفس السنة سار الأسطول المصرى الرئيسى إلى تنيس ، ثم أقلع منها فى الثامن من شعبان لغزو سواحل الصليبيين . وفى ٢٦ من ربيع الآخر قدم أسطول الأسكندرية من إحدى غزواته على السواحل الصليبية ،

---

(١) ابن القلانسى ، ص٢٣١ - أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ١ ص٢٤٩ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص١٤٩ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) ابن القلانسى ص٣٥١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين جـ١ ص٢٨٨ .

وقد امتلأت أيدى الغزاه المصريين بالغنائم(١) . وفى الخامس من شعبان تمت الإغارة على سواحل الشام المحتلة ، وتم الاستيلاء على سفن صليبية وعاد الأسطول المصرى فى ٢٢من رمضان وقد غنم غنائم ، وأسر عدداً كبيراً من الصليبيين(٢) .

وفى السنة التالية أقلع الأسطول المصرى فى جمادى الأولى إلى سواحل الشام لدعم نور الدين محمود بن زنكى أتابك حلب ، ومساعدة له(٣) فى تخريب السواحل الشامية المحتلة .

ولم يزل الأسطول المصرى على مثل هذه الحالة من النشاط البحرى وغزو السواحل الشامية المحتلة حتى كانت أيام شاور بن مجير السعدى ، الذى تولى الوزارة بعد مقتل الصالح طلائع فى رمضان سنة ٥٥٦هـ ، (١١٦٠م) . وفى وزارته اضطربت الأحوال الداخلية فى مصر وتدخل النوريون حينا والصليبيون حيناً آخر ، إلى أن كانت سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) عندما دخل عمورى ملك بيت المقدس الأراضى المصرية ، ونزل بلبيس واستولى عليها عنوة ، ثم زحف على القاهرة . وعندئذ أمر شاور بإحراق الفسطاط ، وإحراق مراكب الأسطول ، لتعويق تقدم الصليبيين إلى القاهرة ، فاحترقت السفن التى كانت ترابط بصناعة مصر(٤) ، وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحرى ، ولم يبق سوى الأساطيل الراسية بالثغور البحرية فى الأسكندرية ودمياط وتنيس وعيذاب .

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص١٤٩ .

(٢) اتعاظ الحنفا ، ص١٤٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص١٤٩ب .

(٤) المقريزى الخطط ، جـ٣ ص١١٠ .

دور الأسطول فى العصر الأيوبى :

ثم كان أن قامت الدولة الأيوبية (٥٦٤-٦٤٨هـ-١١٦٩-١٢٥٠م) على أنقاض الدولة الفاطمية. وكانت البحرية فى مصر والشام قد ضعفت تماماً بعد أن استولى الصليبيون علىعسقلان وصور وعكا وغيرها من القواعد البحرية فى الشام ، وامتدت غاراتهم إلى الموانى المصرية كالأسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد . ولهذا اهتم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى منذ بداية حكمه بالعمل على إحياء البحرية لاستخدامها كسلاح مضاد ضد الصليبيين . وبعد عشر سنوات فىإعداد وتدريب، قام الأسطول المصرى فى ربيع ٥٧٥هـ (١١٧٩م) بثلاث عمليات حربية ناجحة ضد العدو فى مياة البحر المتوسط .

أما العملية الأولى : فكانت غارة على سواحل الإمبراطورية البيزنطية ، وعلى الإمارات الصليبية بساحل الشام ، حيث هبط المجاهدون المسلمون وتوغلوا فى داخل أراضيها ، وأسروا فيها ما يقرب من الألف أسير.

أما العملية الثانية : فكانت معركة بحرية مع سفن العدو ، ظفر فيها الأسطول المصرى بسفينتين كبيرتين عاد بهما وبمن فيهما إلى الأسكندرية . وقد حدث هذا النصر فى نفس الوقت الذى انتصرت فيه جيوش صلاح الدين البرية على الصليبيين عند مرج العيون بنواحى مدينة بانياس فى شمال الشام.

أما العملية الثالثة : فكانت غارة بحرية مصرية على ميناء عكا . وقد استطاع الأسطول المصرى فيها أن يقتحم الميناء ويحطم ما فيه من مراكب وبضائع . وفى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) هاجم الأسطول المصرى جزيرة أرواد واستولى عليها ، فخرب مبانيها وأشعل النار فيها(١) .

---

(١) الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص١٧٤

Grousset:Hist des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, Vol. II.p.680-681.

وفى السنة التالية (٥٧٧هـ سنة ١١٨١م) ظفر الأسطول المصرى بسفينة من سفن العدو كانت قادمة من إيطاليا (أبوليا) تحمل عدداً كبيراً من الرجال(١) .

وفى السنة التى تليها (٥٧٨هـ سنة ١١٨٢م) قام الأسطول المصرى بعدة غارات على مواقع العدو فى البحر المتوسط ، منها غارة على مدينة بيروت سبى منها غنائم كثيرة(٢) ، وأخرى على جزيرتى كريت وقبرص ، وثالثة على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى ظفر فيها بمركب شحن صليبية كبيرة تحمل أخشاباً إلىعكا ، ومعها نجارون ليبنوا منها شوانى للصليبيين(٣).

وفى سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) ظفر المسلمون بسفينة مقلعة من الشام تحمل ثلاثمائة وخمسة وسبعين من الرجال(٤) .

وعندما أتم صلاح الدين إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل ، بدأ هجومه الشامل الذى توجه بإنزال هزيمة كبرى بالصليبيين فى حطين فى يوليو سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) ، وقتل وأسر منهم عدداً كبيراً . وقد فتح هذا النصر الطريق لضرب واسترداد بقية الممتلكات الصليبية . واختار صلاح الدين أن يبدأ أولاً بالموانى الصليبية ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجي ، وخاصة غرب أوربا قلب الحركة الصليبية ، ليصبحوا محصورين داخل بلاد الشام ويسهل القضاء عليهم . هذا فضلا عن أن استيلاء صلاح الدين على موانى

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ٢ ص٢٧ .

(٢) أبو شامة : المرجع السابق جـ٢ص٢٩ .

(٣) أبو شامة : المرجع السابق جـ٢ ص٣٧ .

(٤) أبو شامة : المرجع السابق جـ٢ ص٤٨ .

الشام سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام(١) .

وكان أن تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية فى استرداد عكا وقيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان ، وغيرها من الثغور الساحلية . ولم يستعص على صلاح الدين سوى مدينة صور لأنها كما وصفها العماد الأصفهانى محاطة بالبحر من معظم نواحيها كأنها سفينة . واضطر صلاح الدين إلى استدعاء الأسطول المصرى المرابط فى عكا لمحاصرة صور من جهة البحر ، بينما حاصرها بجيوشه من جهة البر . وكان للصليبيين فى داخل ميناء صور سفن مجهزة برماة الجروخ والسهام ، فلما دنا منها الأسطول المصرى ، دارت بين الفريقين معركة بحرية ، ونجح المصريون فى تشتيت مراكب العدو وإبعادها وضرب حصار قوى حول ميناء صور . وكان من المنتظر أن تسقط المدينة سريعاً بعد هذا النصر الذى أحرزه المسلمون ، ولكن حدث أن رجال الأسطول احتفلوا بانتصارهم ، وسهروا فى تلك الليلة إلى السحر أمام ميناء صور حتى غلبهم النوم ، فما انتبهوا إلا وقد أسر الفرنج خمسة من سفنهم ، وألقى بحارتها بأنفسهم فى البحر بين ناج وهالك . وعندئذ اضطر السلطان صلاح الدين إلى إصدار أوامره إلى رؤساء بقية السفن أن يسيروا إلى بيروت خوفاً عليها من السقوط فى يد العدو لقربها(٢) ..

ولاشك فى أن هذه الهزيمة التى منى بها الأسطول الأيوبى فى مياه صور رفعت من روح الصليبيين المعنوية بداخل المدينة ، فصاروا يخرجون

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٢ ص٩٣ ، ٩٦ أبو شامة: كتاب الروضتين جـ٢ ص٨٩-٩٢ .
(٢) أبو شامة : المرجع السابق جـ٢ ص١١٩ .

منها من حين لآخر ويغيرون على جيوش المسلمين المحاصرة للمدينـة بـراً ، مما اضطر صلاح الدين آخر الآمر إلى رفع الحصار عن صور والأنسحاب جنوباً إلى عكا(١) . وبذلك يكون صلاح الدين قد استرد جميع القواعد البحرية الشامية باستثناء صور وطرابلس وأنطاكية .

على أن سقوط بيت المقدس ، وضياع معظم الممتلكات الصليبية ، كـان له رد فعل عظيم فى غرب أوربا إذ أخذت البابوية تدعو لحملة صليبية جديـدة شارك فيها ثلاثة من كبار ملوك دول غـرب أوربـا هـى (ألمانيـا ، إنجلترا ، فرنسا) وتعتبر هذه الحملة التى تعرف بالحملة الصليبية الثالثـة ، والتـى امتـد تاريخها ثلاث سنوات (١١٨٩- ١١٩٢م) مـن أكبـر الحمـلات الصليبيـة فـى عدد جيوشها وأساطيلها(٢) . ولاشـك أن أخبـار الاسـتعدادات لهـذه الحملـة قـد بلغت صلاح الديـن فـزاد فـى اسـتحكامات عكـا ووسـائل الدفـاع عنهـا. كذلـك استدعى حامية من جنود مصر للمشاركة فى الدفاع عن هذا الثغر الهام(٣) .

ولم تلبث حشود الصليبيين وأساطيلهم أن أخذت تحاصر عكـا فـى سـنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) . وقد قدر البعض عدد سفنهم بما لايقل عـن ٥٥٢ سـفينة وهو عدد كبير كان يزيد بكثير عـن إمكانـات صـلاح الديـن(٤) وعندمـا تعـذر على صلاح الدين الاتصال بحامية عكا براً ، تحملت البحريـة الأيوبيـة عـبء الاتصال بحامية المدينة من جهة البحر ، وإمدادها بالمؤن والأموال والذخـائر

---

(١) راجـع الرسـالة التى كتبـها صلاح الدين يصـف فيها صعوبة إحتلال صور فى (القلقشندى : صبح الأعشى جـ٧ ص٣٤٠) .

(٢) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ٢٠١ .

(٣) أبو شامة : المرجع السابق جـ٢ ص١٢٥ ، ١٢٨ .

(٤) الباز العرينى مصر فى العصر الأيوبى ص ١٨٤ .

والرسائل وغير ذلك . كذلك استدعى صلاح الدين الأسطول المصرى فى أواخر سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) ، الذىفاجأ(١) العدو فىمياه عكا وانتصر عليه.

وهكذا استمر الأسطول المصرى يشق طريقة بنجاح إلى عكا حاملاً مختلف الإمدادت متخذا من ميناء حيفا فى جنوبها مأوى يلجأ إليه إذا ما اشتد خطر الفرنج عليه . وكان الملك العادل يرابط بجيوشه عند ميناء حيفا للإشراف على السفن القادمة من مصر فى طريقها إلى عكا(٢) . هذا فى حين كانت مدينة بيروت إلى الشمال من عكا تمثل قاعدة للأسطول الشامى . وكان يوجد على سواحلها فى مكان يسمى الزيب طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج (٣) . كذلك كان لأمير بيروت فى ذلك الوقت غزوات فى البحر ضد العدو فى طريقه إلى عكا . وقد ظهرت خلال تلك المعارك بطولات عديدة ، نذكر منها بطولة الضفدع البشرى عيسى العوام الذى كان يشد على وسطه الرسائل والذهب ثم يغوص ليلاً فى البحر على غرة من العدو ، ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل إلىرجال الحامية، بينما كان الذهب يصرف للمجاهدين .

وتروى المصادر أن صلاح الدين أرسل فى سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) سفيراً من قبله إلى الخليفة المغربى الموحدى يطلب إعانته بالأساطيل لتحول بين أساطيل الأعداء وبين إمداد النصرانية بالشام . وعلى الرغم مما قيل من

---

(١) أبو شامة : نفس المرجع جـ٢ ص١٤٨ ، ١٥٤ . ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٣٠٥ .

(٢) أبو شامة : نفس المرجع جـ٢ ص١٨١ – ١٨٢ .

(٣) أبو شامة : نفس المرجع جـ٢ ص١٨٤ .

أن المنصور رفض هذا الطلب ، لأن صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بلقب أمير المؤمنين[١] أي لم يعترف بخلافة الموحدين ، فقد ذهب بعض المؤرخين المغاربة إلى أن المنصور أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من الوصول إلى سواحل الشام (٢) .

وفي أوائل سنة ١١٩٢م اشتد ضغط الصليبيين على عكا وعظمت شكاية حامية المدينة من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً . وقرر صلاح الدين تجديد حامية المدينة بواسطة أسطوله ، إلا أن هذه العملية لم تتم بنجاح بسبب صعوبة الظروف التي تمت فيها وتكالب العدو على المدينة من كل ناحية .

وقد زاد الموقف حرجا ، احتلال ملك إنجلترا رتشارد لجزيرة قبرص في نفس السنة ١١٩١م ، ومن ثم صارت قبرص ـنة بحرية جديدة للصليبيين ، ومركزاً دائماً لتموين إماراتهم في الشرق الإسلامي . وقد أثار كل ذلك الحماس في نفوس الصليبيين ، فشددوا هجماتهم على عكا ، واضطرت حامية المدينة أن توجه آخر نداء بالحمام الزاجل إلى صلاح الدين يقولون فيه : " أنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم . ونحن في الغد ثامن الشهر جمادى الأولى ٥٨٧هـ (١١٩١م) إن لم تعملوا معنا شيئاً ، نطلب الأمان ونسلم البلد "(٣) .

ولم تنجح جميع المحاولات العسكرية التي بذلها صلاح الدين لإنقاذ عكا، فاضطر قائدها قراقوش إلى الاستسلام في يولية سنة ١١٩١ بعد مقاومة دامت سنتين تقريباً .

---

(١) أبو شامة : نفس المرجع جـ٢ ص١٧٥ وما بعدها .

(٢) السلاوي الناصري : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى جـ٢ ص١٦٢-١٦٣ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص٢٦٧ - ٢٦٨ .

ثم واصل الملك ريتشارد زحفه جنوباً بحذاء الشاطئ ، وأساطيله تسير بجواره فى البحر. واستطاع أن يستولى على شاطئ فلسطين من عكا إلى يافا ، ثم انحدر جنوباً نحو عسقلان . وخشى صلاح الدين على مصر من أطماع الصليبيين ، خصوصاً وأن ملك إنجلترا ريتشارد قد صرح بذلك مراراً . واضطر صلاح الدين إلى تخريب مدينة عسقلان فحرم الصليبيين من هذه القاعدة البحرية التى كان من الممكن استغلالها فى مهاجمة مصر مثلما فعلوا بعد سقوطها فى أيديهم من قبل سنة ١١٥٣ م على عهد الفاطميين . وهكذا استطاع صلاح الدين أن يحتفظ بمفتاح المسالك الشرقية المؤدية إلى مصر(١) .

وحاول ريتشارد قلب الأسد أن يسترجع بيت المقدس ، ولكنه فشل تماما، واضطر أن يعقد صلح الرملة مع صلاح الدين فى نوفمبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨هـ) . وأهم شروطه أن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية من صور إلى يافا ، وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الإسلامى ، على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك . وعقب الصلح عاد صلاح الدين إلى دمشق حيث وافته المنية فى العام التالى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) ودفن بها ومعه سيفه الذى كان معه فى الجهاد .

ونخلص من ذلك أن الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت فى تحقيق هدفها الأساسى وهو استرداد الأماكن المقدسة فى فلسطين من المسلمين ، إلا أنها فى الوقت نفسه استطاعت أن تسيطر على معظم شواطئ الشام بما فيها من موانى مثل صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا ، فضلا عن عكا التى غدت المنفذ الرئيسى لمملكة بيت المقدس الصليبية على البحر المتوسط (٢) .

---

(١) الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص١٨٦ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص٩٠٢ .

ولاشك أن البحرية المصرية خسرت كثيراً من جراء ضياع معظم قواعدها الشامية . وزاد الطين بلة أن وفاة صلاح الدين أدت إلى وقوع خلافات ومنازعات بين أبناء البيت الأيوبى مما أضعف المقاومة الإسلامية بوجة عام .

وكان أن انتهز ملك قبرص عمورى لوزنيان هذه الفرصة ، فهاجم مدينة بيروت بأساطيله وجنوده واستولى عليها سنة ٥٩٣هـ (١١٩٧م) ، بعد أن فر عنها صاحبها عز الدين أسامة بدون حرب أو مقاومة . وقد آثار هذا العمل استياء الكثيرين .

وكان أن استطاع الملك العادل أخو صلاح الدين توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت سلطانه ، واستعاض عن بيروت بمدينة يافا التى استولى عليها سنة ١١٩٧م ، إلا أن البحرية الأيوبية فى الواقع أصابها الضعف والإهمال منذ ذلك الوقت .

وإذا استثنينا بعض الصحوات التى حدثت فيها على يد كل من الملك الصالح أيوب نتيجة للعدوان الصليبى على مصر فى حملتى جان دى بريين سنة ١٢١٨م، ولويس التاسع سنة ١٢٤٨م إلا أنها صارت كما صفها المقريزى بقوله :

" ثم قل الاهتمام بالأسطول ، وصار لايفكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه ، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا بالسلاسل نهاراً وسجنوا فى الليل ، حتى لايهربوا ، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجل فى مصر ، وإذا قيل لرجل يا أسطولى، غضب غضباً شديداً، بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاه فى أعداء الله ، ويتبرك بدعائهم الناس "(١) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٩٤ .

دور الأسطول فى عصر المماليك :

ورث المماليك دولة أساتذتهم(١) الأيوبيين فى مصر والشام ، فواصلوا سياستهم فى الجهاد للقضاء على البقايا الصليبية بالشام مثل عكا وطرابلس وأنطاكية وما تبعها من قلاع وثغور .

وهنا نلاحظ أن المماليك كانوا فرساناً وأصحاب خيل ، وأن قوتهم برية فى أساسها ، فضلاً عن أنهم كانوا يعانون عجزاً كبيراً فى مواد بناء الأساطيل ولاسيما أخشاب السفن . على أن هذه الموانع لم تحل دون اهتمام بعض سلاطين المماليك بإنشاء الأساطيل لمواجهة الخطر الكامن بوجه خاص فى شرق البحر المتوسط ، ولاسيما جزيرة قبرص التى تزعم ملوكها من آل لوزنيان(٢) ، مشروعات الصليبيين فى الشرق .

وكان السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) ممن اهتموا اهتماماً كبيرًا بإنشاء قوة بحرية يستعين بها فى محاربة أعدائه الذين واصلوا إغاراتهم على بلاده من جهة البحر المتوسط .

كذلك اهتم بيبرس بتحصن الثغور وحفظ السواحل وتعمير الجسور المؤدية إليها ، فأمر بسد مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخورًا عظيمة

---

(١) كانت علاقة المملوك بسيده أو أستاذه تسمى فى المصطلح الرسمى المملوكى بالأستاذية ، وهى من أقوى الروابط التى قامت عليها نظم دولة المماليك فى مصر والشام (سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٩٠ - ١٩٩٤) .

(٢) سبقت الأشارة إلى أن ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد انتزع جزيرة قبرص من يد إسحاق كومنين البيزنطى وكان مستقلا بها عن الإمبراطورية البيزنطية ، وذلك بمساعدة جاى دى لوزجنان ملك مملكة بيت المقدس سنة ١١٩١ م مما أدى إلى قيام أسرة لوزجنان الصليبية فى حكم قبرص .

ليحول دون دخول سفن الصليبيين ، حتى لا تتكرر مأساة دمياط من جديد ، كما شيد برجاً للمراقبة فى ثغر رشيد ، وعمر أسوار الأسكندرية .

وفى خلال حكم بيبرس حكم جزيرة قبرص ملك قوى نشيط ، هو هيو الثالث الذى توج أيضًا ملكاً على مملكة بيت المقدس ، وأخذ يعمل على تدعيم مركز الصليبيين فى الشام وتقوية جبهتهم أمام المسلمين . وقد بلغ من جرأة هذه الملك أنه قبض على رسل السلطان بيبرس وهم فى طريقهم إلى سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى عن طريق قبرص ، رغم الآمان المعطى لهم . وغضب بيبرس من جرأة هذا الملك وغدره ، فصمم على غزو جزيرته ، وانتهز فرصة غيابه فى زيارة لعكا سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) وأرسل أسطولاً لغزو قبرص أثناء غيبته . ويفهم من كلام المؤرخين أن قائد الأسطول ابن حسون لجأ إلى سلاح الحيلة والخدعة لمباغتة العدو على حين غفلة ، وذلك بأن طلى ظاهر السفن بالقار ، ورسم على أعلامها الصلبان ، كما كان يفعل الصليبيون فى سفنهم . وحينما اقترب المسلمون من ميناء ليماسول على الشاطئ الجنوبى لقبرص عرف القبارصة من صياح البحارة أنها سفن إسلامية فأسروا جميع من فيها وعدتهم ألف وثمانمائة رجل . أما الشوانى الستة الباقية فأنها نجت وعادت سالمة وعليها الرئيس ابن حسون(١) .

وكان أن صمم بيبرس على إعادة بناء أسطوله وإن كان لم يحاول غزو جزيرة قبرض مرة ثانية . كذلك لم يحاول استخدام أسطوله حينما هاجم إمارة أنطاكية ، إذ يروى المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق : أحداهما اتجهت إلى ميناء السويدية لقطع الصلة بين انطاكية والبحر خوفًا من اساطيل العدو ، والثانية سدت الممرات بين قيليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينية

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص٤٨ .

الصغرى ، والثالثة وهى القوة الرئيسية بقيادة بيبرس هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨م(١) .

وقد تكررت نفس هذه الظاهرة فى عهد خلفه السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٠م) حينما استولى على مدينة طرابلس الشام سنة ٦٨٨م ، إذ تشير المصادر إلى أنه أطبق عليها بجيوشه من ناحية البر ولم يحاول الاستعانة بالأسطول لمهاجمتها من ناحية البحر ، مما مكن الكثيرين من سكانها الصليبيين من الفرارعلى ظهرالسفن إلىجزيرة قريبة من الساحل .

وعندئذ اضطرقلاوون إلى أن ينتظر حتى هدأت مياه البحر أمام طرابلس وظهرت مخاضات عبرها فرسان المماليك لمطاردة الصليبيين الذين فروا إليها واعتصموا بكنيستها المسماة سنطماس (St. Thomas أى القديس توماس) . ويذكر المؤرخ المعاصر أبو الفداء أنه ركب سفينةإلىهذه الجزيرة بعدأن فرالناس منها ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها من رائحةجيف القتلى(٢) .

كذلك يلاحظ أن السلطان قلاوون بعد أن استولى على مدينة طرابلس أمر بهدمها ، وأقام مكانها عددا من الأبراج على طول الساحل حول الميناء ، ونقل مدينة طرابلس إلى سفح الجبل فى الداخل بعيدًا عن الشاطئ حول قلعة صنجيل ، خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية(٣) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٦٨ .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ٧ ص٣٠ ، عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٣) الأمير صالح بن يحى : أخبار السلف من ذرية بحتر بن على أمير الغرب ببيروت (المعروف بتاريخ بيروت) ص٢٢ ، سعيد عاشور : الحركة جـ٢ ص١١٧٥ .

وخلف قلاوون على عرش مصر والشام ابنه السلطان الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٣) الذى وجه كل اهتمامه نحو القضاء على المدينة الكبرى الباقية من دولة الصليبيين فى الشام وهى عكا . وهنا تكررت نفس الظاهرة السالفة وهى أن الأشرف خليل هاجم المدينة من ناحية البر ، وضرب حول أسوارها حصارًا قويًا مزودًا بآلات المجانيق الضخمة التى بلغ عددها ما يقرب من المائة منجنيق ، وذلك حتى تمكن المسلمون من اقتحام المدينة فى ١٨ مايو سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ) . ويشير المؤرخون إلى أن الصليبيين لا ذوا بالميناء وتجمعوا على ظهر السفن الراسية هناك بغية الفرار إلى قبرص أو إلى أى مكان آخر ينجيهم مر [illegible] ت .

وواضح من وصف سقوط عكا أن البحرية الإسلامية لم تحاول قطع الطريق على الصليبيين الفارين من عكا عن طريق البحر على غرار ما حدث تماما فى طرابلس وأنطاكية من قبل ، مما يدل على أن دور البحرية فى تلك المرحلة من الفتوحات الشامية كان ضئيلاً بالنسبة لضخامة العمليات العسكرية البرية التى قام بها كل من بيبرس وقلاوون والأشرف خليل . وقد تلا سقوط عكا احتلال المرافئ الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وحيفا وبيروت وانطرطوس ، وبذلك تم طرد الصليبيين من الشام .

وعلى الرغم من أن دور البحرية الإسلامية لم يكن إيجابياً فى الحرب التى شنها سلاطين المماليك للقضاء على آخر البقايا الصليبية فى بلاد الشام ، إلا أننا نلاحظ بعد ذلك حقيقة هامة وهى أن امتلاك المسلمين سواحل بلادهم جعلهم يشعرون بمسئولية المحافظة عليها ويهتمون بوسائل الدفاع عنها ، خصوصًا بعد أن تركز الخطر الصليبى فى الجزر (المجاورة) فى مياه البحر المتوسط .

وهنا نلمس حركة أحياء جديدة للبحرية الإسلامية . يشهد بذلك اهتمام المنصور قلاوون بطرابلس وجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب سلطان بمرسوم سلطانى . وكان من أهم اختصاصاته شد البحر وشد الشوانى(١) بموانى نيابته وهى طرابلس واللاذقية وانطرطوس وجبلة(٢) .

كذلك أشار المقريزى إلى اهتمام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بإنشاء أسطول قوى بعد عامين من استيلائه على عكا (أى فى سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) ، وكيف أن المصريين اقبلوا من كل صوب وحدب لمشاهدة مناورات هذا الأسطول بعد اتمامه بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله لرؤية ذلك فصار جمعًا عظيمًا(٣) . وخلف الأشرف خليل أخوه الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٦٩٤ / ٦٩٨-٧٠٨هـ / ٧٠٩-٧٤١هـ) الذى واصل سياسة أخيه البحرية واهتم بإنشاء الأساطيل للدفاع عن سواحل بلاده(٤) وكانت بعض فلول الصليبيين المنسحبة من الشام قد استقرت فى جزيرة أرواد الواقعة على بعد ثلاثة أميال فى البحر أمام بلدة أنطرطوس شمالى طرابلس ، واتخذوها قاعدة يشنون منها الغارات على الموانى الشامية ولا سيما مدينة طرابلس القريبة منها . ومن ثم قرر السلطان الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة ، فأعد الأسطول وشحنه بالمقاتلة والسلاح ، وأسند قيادته

---

(١) كلمة شد لها معانى كثيرة وقد تعنى هنا الأشراف أو الأعداد أى أنه يشرف على البحر وعلى إعداد السفن ومنها كلمة الشاد أو المشد وهو الموظف أو الناظر الذى يشرف على أعداد المراكب . راجع ابن أياس : صفحات لم تنتشر من بدائع الزهور ٦٥ - ٦٦ سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٣٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٢٢ ص١٧٦ ..

(٣) راجع (المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٩٤ - ١٩٥) .

(٤) المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٩٥ ، السلوك : جـ١ ق٣ ص٢٨ .

إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري . ثم أبحر الأسطول سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) متجها إلى ميناء طرابلس حيث أنضم إليه نائب طرابلس الأمير أسندمر كرجي ومعه الرئيس البطراني المغربي وبعض القطع البحرية . وكان أن اطبقت الحملة على جزيرة أرواد واستولت عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت ألفًا من أهلها وأسرت نحواً من خمسمائة(١) .

على أن طرد الصليبيين من الشام لم يحل دون استمرار غاراتهم على الثغور المصرية والشامية . وقد تزعمت جزيرة قبرص هذه المشروعات الصليبية العدوانيةبحكم طبيعة موقعها الجغرافيبين شواطئ المسلمين فيمصر والشام وآسيا الصغرى، في شرق حوض البحر المتوسط، مما دفع ملوكها من آل لوزنيان إلى تبني الفكرة الصليبية ومحاولة استعادة بيت المقدس من جديد.

وزاد الموقف خطورة أن ملوك هذه الجزيرة رحبوا بفلول الفرسان الاسبتارية الفارين من الشام ، وعاونوهم على انتزاع جزيرة ردوس من الدولة البيزنطية سنة ١٣٠٩م ، واتخاذها قاعدة صليبية أخرى شاركت قبرص في سياستها الحربية والاقتصادية ضد المماليك . وكانت هذه السياسة تقوم على بناء السفن الحربية وفرض حصار بحرى ضد التجارة المملوكية في البحر المتوسط بغية أضعافها سياسيًا واقتصاديًا ، فيسهل بذلك التغلب عليها واستعادة الأراضي المقدسة(٢) . ويهمنا في هذا البحث أن بطرس الأول لوز-جنان ملك قبرص (١٣٥٠-١٣٦٩م) استغل موقع جزيرته للقيام بحملة كبرى ، واختار هذا الملك مدينة الأسكندرية لتكون هدفاً لعدوانه نظراً

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٨ ص١٥٦ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ٧ ص٥٧ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص١١٩٩ وما بعدها .

لاهميتها كثغر تجارى عالمى يتوسط طرق التجارة الشرقية لتبدأ منه الطرق التجارية المتجهة إلى الغرب(١) .

ولا شك فى أن هذا الملك أستعان بعدد من العيون والجواسيس أطلعوه على أحوال الأسكندرية كى يمهدوا أمامه الطريق(٢) . وفى ضوء المعلومات التى حصل عليها ملك قبرص من جواسيسه اختار وقتاً مناسباً للقيام بالهجوم على الأسكندرية وهو ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥م (٢٢ المحرم سنة ٧٦٧هـ) وكان أن اتجهت السفن الصليبية(٣) إلى الميناء الغربى لمدينة الأسكنرية ثم إلى الميناء الشرقى حيث اقتحموا المدينة فعمّ الهرج والاضطراب فى صفوف القوة المدافعة ، وأخذ الأهالى يفرون من المدينة ، بينما أنقض عليهم الصليبيون انقضاضا وحشيًا ، ولم يفرقوا بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود المقيمن فى البلد ، فقتلوا وأسروا عددًا كبيرًا من رجالها ونسائها وعاثوا فى المدينة فسادًا وتخريباً ونهباً أسبوعاً كاملاً(٤) .

وكانت خطة ملك قبرص تقوم على البقاء فى مدينة الأسكندرية لتنفيذ المشروع الصليبى الذى جاء من أجله وهو فرض الحصار على سواحل مصر وغيرها من الموانى الإسلامية واستعادة بيت المقدس . غير أن غالبية

---

(١) من أهم ما كانت الأسكندرية تستورده من الغرب الحديد والخشب والرقيق والعنبر . أما المشرق فقد حمل إلى الأسكندرية سلعا عديدة أهمها التوابل والعطور والأحجار الكريمة .

(٢) عن أخبار هؤلاء الجواسيس راجع (محمد بن قاسم النويرى المالكى السكندرى) : كتاب الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الأسكندرية .

(٣) يقدر المؤرخون الأوربيون عدد هذه السفن الصليبية بمائة قطعة فأكثر أما النويرى فحدد مجموع السفن التى حملت الغنائم عند الأنسحاب بما يزيد سبعين مركباً .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص٦٣ وما بعدها .

أتباعه خالفوه فى رأيه ، ورأوا ضرورة الإسراع فى الانسحاب من المدينة حرصًا على الأسلاب التى غنموها وخوفًا من وصول جيوش النجدة المصرية من القاهرة ، خصوصًا بعد أن أحرق الأهالى أبواب المدينة أثناء فرارهم مما جعل الجيوش الصليبية مهددة من كل جانب .

وكان أن اضطر الملك بطرس وأصحابه إلى سرعة الإبحار إلى قبرص عندما علم بأن طلائع الجيش المصرى وصلت إلى ضواحى الأسكندرية .

وعلى الرغم من الخسائر التى لحقت بالسكندريين ، فإن هذه الحملة قد فشلت فى تحقيق الهدف المنشود منها وهو الاحتفاظ بثغر الأسكندرية . وظلت اعتداءات قراصنة قبرص على البلدان والسفن المصرية والشامية حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . ولم تكن تلك الاعتداءات فى الواقع قاصرة على القبارصة وحدهم بل شارك فيها قراصنة مسيحيون من مختلف الجنسيات اتخذوا من سواحل جزيرة قبرص المتعرجة قواعد واوكاراً يخرجون منها للإغارة على البلدان ووجدوا فيها خير مشجع ومعاون على اعتداءاتهم .

وكان من المستحيل على دولة المماليك فى مصر والشام أن تصبر على تلك الاعتداءات المتكررة على أراضيها ومراكبها . وإذا كانت ظروفها فى الماضى لم مكنها من القيام بعمل انتقامى سريع ضد جزيرة قبرص ، إلا أنها لم تهمل هذا المشروع فى الواقع بل ظلت تنتظر الوقت الملائم للانتقام لشهداء الأسكندرية(١) .

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص٨٤ وما بعدها .

ثم جاءت تلك الفرصة المناسبة على يد السلطان الأشرف سيف الدين برسباى (٨٢٥-٨٤٢هـ / ١٤٢٢-١٤٣٨م) أحد سلاطين دولة المماليك الثانية ، أى بعد حوالى ستين سنة من تاريخ هذا العدوان .

وكان السبب المباشر لغزو قبرص عبارة عن حادث قرصنة مثل كثير من الحوادث السابقة ، إلا أن السلطان برسباى اتخذه ذريعة للقيام بهذا الغزو الذى كان أمنية مطوية فى نفوس المسلمين جميعًا . وقد وصف لنا هذا الحادث المباشر المؤرخ المعاصر صالح بن يحيى بقوله : وموجب ابتداء الحال مع صاحب قبرس أن شخصًا من تجار دمياط يسمى أحمد بن الهميم ، كان له مركب كبير قد أوسقه من طرابلس الشام صابون وبضائع بمال كثير . لما وصل إلى فم دمياط صدفه مركب من حرامية الفرنج من طائفة البسقاوية(١) ، فأخذ مركب ابن الهميم وتوجه به إلى قبرص ، فنسب السلطان لصاحب قبرص أنه مواطئ لحرامية الفرنج(٢) .

وكان أن أرسل برسباى ثلاث حملات متتابعة لغزو جزيرة قبرص التى كان ملكها فى ذلك الوقت جانوس لوزنيان Janius Lusignan (١٣٩٩ - ١٤٢٢م) .

أما الحملة الأولى فكانت سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) وقد أبحرت من دمياط فى ثلاثة سفن انضمت إليها سفينة فى بيروت وأخرى فى طرابلس

---

(١) البسقاوية قوم من الفرنج يقيمون فى شمال أسبانيا وجنوب غرب فرنسا ويعرفون باسم البشكنس .

(٢) راجع (الأمير صالح بن يحى : أخبار السلف من ذرية بحتر بن على أمير الحرب ببيروت (تاريخ بيروت) ص٢٤٢ .

ومع الحملة ثلاثة أمراء من مصر ، وأمير من كل من بيروت وطرابلس(١) . ثم اتجهت الحملة إلى قبرص وهناك عند شاطئها الجنوبي بالقرب من ميناء ليماسول (اللمسون) صادفت سفينة تجارية راسية هناك ، فلما رأى بحارتها السفن الإسلامية فروا هاربين تاركين سفينتهم للمسلمين .

ثم اتجهت الحملة إلى ميناء ليمارسول ، وكان جانوس قد علم بقدوم الأسطول المملوكي واستعد لملاقاته برًا وبحرًا . فلما وصلت الحملة إلى ليماسول ، اصطدمت بثلاث سفن للقبارصة وانتصرت عليها وأشعلت النار فيها . ثم أغار المحاربون المسلمون على المدينة نفسها وهزموا الحامية المعدة هناك لقتالهم بقيادة حاكم ليماسول فيليب بكويني Philip Picquigne الذى ركن إلى الفرار. وتوغل المسلمون بعد ذلك في داخل المدينة ، ثم أقلعت الحملة عائدة إلى مصر ، بعد أن قضت شهرين في هذه الغزوة ، ومعها قدر كبير من الغنائم والأسلاب مع عدد من الأسرى . ويلاحظ أن هذه الحملة رغم قلة حجمها ، وصغر الدور الحربي الذى قامت به ، إلا أنها أثبتت للسلطان برسباى مدى معاونة قبرص للقراصنة ، إذ شاهد المسلمون بعض أوكارهم على سواحلها فضلاً عن بضائع المسلمين التى نهبوها . وعلى ضوء هذه المعلومات قرر برسباى إرسال حملته الثانية إلى قبرص(٢) .

---

(١) صالح بن يحى : أخبار السلف ص ٢٤٢ . تحقيق فرنسيس هورس وكمال سليمان الصليبي ببيروت ، سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية .

(2) Ziada:The Mamluk Conquest of Cyprus In the Fifteenth Century (Bulletin of The Faculty of Arts of Cairo).

وقد ترجم الأستاذ عبد الرحمن زكى هذا المقال إلى اللغة العربية بعنوان : المصريون فى قبرص (فى إحدى الرسائل الثقافية التى كانت تصدرها وزارة الدفاع) .

ذلك أن السلطان برسباى لم يقنع بهذه الحملة الاستكشافية ، وإنما أخذ يعد لحملة أكبر . وبلغ من اهتمام السلطان بذلك أنه أشرف بنفسه على بناء سفن جديدة فى دار صناعة بولاق ، وأمر عمال اللاذقية فى الشام بصناعة مجاديف لهذه السفن وإرسالها أربعين قطعة .

وفى ٣٠ يوليو ١٤٢٥م (٨٢٨هـ) أقلعت السفن الإسلامية من ميناء طرابلس وعليها الآلاف من جنود البر والبحر ورماة النفط . وبعد أربعة أيام وصلت الحملة إلى ميناء قورباص Korbass على الساحل الشمالى الشرقى القبرصى ، ثم تحركت من هناك جنوبًا حتى رست على بعد ثلاثين ميلاً من فاماجوستا (الماغوصة) وأنزلت قواتها على الشاطئ . وكان أن استسلمت فاماجوستا للمسلمين فى سهولة ، ورفع حاكمها على قصره العلم السلطانى . ثم أقلعت السفن الإسلامية جنوبًا إلى ناحية الملاحة ، فاعترضها أسطول قبرصى أمام ساحل لارناكا Larnaka حيث دارت معركة بحرية عنيفة انتهت بهزيمة القبارصة وفرارهم إلى عرض البحر تحت وطأة قذائف السفن الإسلامية . ثم نزلت قوات المسلمين إلى بر الملاحة لمقاتلة الجيش الذى أرسله الملك إلى هناك ، فانتصروا عليه وقتلوا وأسروا عددًا كبيرًا من أفراده كما نهبوا الملاحات والقرى المجاورة .

وعندئذ رأى القائد العام للحملة أنه من الأفضل الرجوع إلى مصر بعد هذه الانتصارات التى احرزها المسلمون فوصل القاهرة فى سبتمبر سنة ١٤٢٥م حيث عرض الغنائم والأسرى أمام السلطان فى احتفال شعبى كبير(١) .

---

(١) صالح بن يحى : أخبار السلف ص ٢٤٥ - ٢٤٧ ، ويضيف الأمير صالح بن يحى الذى شارك فى هذه الحملة بأن السلطان أنعم عليه بمائتى دينار ذهب وخلعة كما استضافه الدوادار الأمير أركماس وأنزله عنده فى بيته ورتب له كل يوم سماطا بكرة والعصر إلى أن سافر إلى بلده بيروت .

على أن هذه الحملة لم تحقق الهدف الذى كان ينشده برسباى وهو إخضاع قبرص نهائيًا لنفوذ دولة سلاطين المماليك ولهذا قرر إرسال حملة ثالثة لتحقيق هذا الهدف . وبعد أن أعد برسباى لهذه الحملة أكثر من مائة سفينة حربية من مختلف الأنواع والأحجام أبحرت من ثغر الأسكندرية فى أول يونيو سنة ١٤٢٦م (٨٢٩هـ) عليها ما يزيد عن خمسة آلاف مقاتل(١) . واتجهت مباشرة إلى جزيرة قبرص ، ونزلت جيوشها بنواحى مدينة ليماسول التى سبق أن احتلها المسلمون ودمروا قلعتها فى الحملة الثانية ، غير أن القبارصة أعادوها من جديد ، ولهذا لم يتمكن المسلمون من احتلالها إلا بعد قتال عنيف .

ثم أخذت جيوش المسلمين تتوغل بعد ذلك فى داخل الجزيرة نحو العاصمة وهى مدينة الأفقسية أو نيقوسيا Nicosia فى قلب الجزيرة . وكان الملك جانوس قد أعد جيشًا كبيرًا لإيقاف زحف المماليك عند بلدة خيروكيتا Kherokita فى شمال شرق ليماسول . وهناك فى ذلك المكان دارت بين الفريقين موقعة حاسمة انتهت بهزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس . وفى نفس هذا الوقت دارت معركة بحرية بين الأسطولين الإسلامى والقبرصى انتهت كذلك بهزيمة القبارصة وأسر بعض سفنهم . ولم يجد المسلمون بعد ذلك صعوبة فى دخول نيقوسيا عاصمة قبرص حيث أعلن القائد العام الأمير تغرى بردى المحمودى فى قصر الملك بأن الجزيرة صارت " من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباى " .

---

(١) خليل شاهين ، زبدة كشف الممالك ص ١٤٢ ، العينى : عقد الجمان جـ٢٥ ق٢ ص٥٨٣ ، سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٨ - ١١٤ راجع Makharies:Op.cit. P.655-670;Ziada the Mamluk Conquest of Cyprus, Op, cit.

ثم عادت الحملة بعد هذا النصر الكبير إلى مصر ومعها ألوف الأسرى ومن جملتهم ملك قبرص جانوس . وهكذا ثأرت دولة المماليك لما حل بشعبها وثغورها وتجارتها فى مصر والشام على يد القبارصة ، ولم يطلق سراح الملك جانوس إلا بعد أن تعهد بدفع فدية .

وقد أسهم الأسطول والبحرية أسهامًا قويًا كذلك فى عصر سلاطين المماليك فى غزو جزيرة رودس التى قامت فيها دولة الفرسان الاسبتارية التى تكونت عقب سقوط عكا بمساعدة آل لوزنيان ملوك قبرص ، ومن ثم صار لها أهداف صليبية مشابهة تماما لأهداف ملوك قبرص . ونتيجة لهذا التشابه شمل الجزيرتين نوع من التعاون السياسى والتضامن الحربى المشترك ضد المسلمين فى مصر والشام وآسيا الصغرى ، وصار تاريخ كل منهما ، فيما يعلق بالسياسة الخارجية ، مرتبطًا تمام الأرتباط بتاريخ الأخرى : فالأسطول القبرصى الذى فاجأ الأسكندرية سنة ١٣٦٥م كان يحمل عددًا كبيرًا من فرسان رودس ، كذلك شارك الآستبارية أخوانهم القبارصة فىالدفاع عن جزيرة قبرص عندما هاجمها المماليك ، كما أنهم ساهموا بنصيب كبير فى خدمة الملك جانوس عندما وقع فى أسر المماليك(١) .

وقد أدرك فرسان رودس أن انتصار المسلمين فى قبرص ينذر بقرب حلول دور رودس ، وتأكدت مخاوفهم خلال المفاوضات الى جرت حول فدية الملك جانوس حينما صرح برسباى بضرورة إرسال حملة إلى رودس . ولذلك أخذ الاسبتارية يستعدون لمواجهة هذا الغزو المملوكى المنتظر ، فأقاموا الحصون والأسوار والأبراج لحماية جزيرتهم ، كما بثوا الجواسيس فى مصر والشام لمعرفة نوايا السلطان وما يجريه من استعدادات لهذا الغزو .

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص١٢٣ وما بعدها .

على أن حملات المسلمين على جزيرة رودس لم تتم فى عهد السلطان برسباى-كما كان متوقعًا - بسبب انشغاله بالاضطرابات الداخلية فضلاً عن حروبه الخارجية مع شاه رخ بن تيمور لنك المغولى . ولهذا فأن محاولات غزو رودس حدثت فى عهد خليفة برسباى وهو السلطان سيف الدين جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م) الذى رأى أن يواصل سياسة سلفه بفتح رودس ، واتخذ من بعض حوادث القرصنة سببًا مباشرًا لإعلان الحرب عليها، كما فعل برسباى مع قبرص من قبل(١) .

وكان أن وجه جقمق ثلاث حملات إلى رودس اقتداء بسياسة سلفه أيضًا : الحملة الأولى كانت فى سنة ١٤٤٠م ، وقد تألفت من خمس عشرة سفينة حربية عليها مائتا مملوك وعدة من المتطوعين حتى بلغ مجموع جنود الحملة ألف محارب تقريبًا . ثم أبحرت الحملة من ثغر دمياط واتجهت إلى قبرص للتموين ودارت عدة معارك برية وبحرية انتهت بفشل المسلمين فى اقتحام الجزيرة وانسحابهم أثناء الليل عائدين إلى مصر .

على أن جقمق لم يستسلم لهذا الفشل الذى منيت به حملته الأولى ، فأعد حملة ثانية أقوى وأكبر من سابقتها بقيادة اينال العلائى وأقلعت الحملة من دمياط فى شهر أغسطس ١٤٤٣ واتجهت إلى بيروت وطرابلس حيث أنضمت إليها قوات شامية ، ثم توجهت كالمرة السابقة إلى ليماسول بقبرص لأخذ التموين اللازم ، ومن هناك تحركت بحذاء ساحل آسيا الصغرى بغية الاتجاه بعد ذلك إلى رودس .

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة ردوس ، ترجمة جمال الشيال (مجلة الجيش ١٠٤٦) .

وكان فى نية الحملة مواصلة السير نحو رودس ، ولكن نفاد الذخيرة واقتراب فصل الشتاء حملها على العودة إلى مصر(١) .

وكان أن صمم جقمق على إرسال حملة ثالثة إلى رودس تشبها بسياسة برسباى فى قبرص ، وأنفق على هذه الحملة أموالاً طائلة مؤملاً الاستيلاء عليها . وفى سنة ١٤٤٤م خرجت الحملة من دمياط كما هى العادة . وتمكن المسلمون بعد قتال عنيف من أنزال قواتهم إلى البر ومحاصرة مدينة عاصمة الجزيرة ، ولكن العاصمة لم تسقط وظلت تقاوم المسلمين ، خصوصًا بعد أن وصلتها إمدادات مسيحية من أوربا ، فى الوقت الذى أخذت مؤن المسلمين وذخيرتهم تقل وتنفد بسرعة ، مما اضطر المسلمين فى النهاية إلى الانسحاب من الجزيرة والإبحار إلى دمياط(٢) .

* * *

وخلاصة القول .. فإن الحروب الصليبية كانت حروبًا برية - بحرية ، ولئن كان البر هو الساحة الرئيسية فأن البحر كان الشريان والنافذة والباب والمدخل وطريق الاتصال .

---

(١) السيوطى : غزوات قبرص وردوس ص١٤ -١٦ (وهو جزء من كتاب السيوطى المسمى بكتاب تاريخ الملك الأشراف قايتباى المحمودى الظاهرى وقد نشر هذا الجزء فى فيينا مع ترجمة المانية سنة ١٨٨٤) .

(٢) راجع زيادة : المحاولا الحربية للاستيلاء على جزيرة ردوس (مجلة الجيش سنة ١٩٤٦) مادة رودس فى دائرة المعارف الإسلامية لعزيز سوريال) .

مصادر البحث ومراجعه

١ - **ابن الأثير** : (عز الدين) كتاب الكامل فى التاريخ القاهرة ، ١٣٥٧هـ.

٢ - **ابن أياس محمد بن أحمد** : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤ ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٣ - **المقريزى** : (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ - ١٤٤٢م) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الأجزاء ٣ ، ٤ تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠م ، ١٩٧٢م .

٤ - **ابن واصل** : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ٢٠ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٧٥.

٥ - **أبو شامة** : كتاب الروضتيين فى أخبار الدولتين نشر محمد حلمى ، القاهرة ١٩٦٢م .

٦ - **طرخان إبراهيم** : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ .

٧ - **طرخان إبراهيم** : الإسلام والممالك الإسلامية فى الحبشة ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الثامن ١٩٥٩ .

٨ - **سعاد ماهر** : البحرية فى مصر وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧م .

٩ - **سعيد عاشور** : مصر فىعصر دولة المماليك البحرية،القاهرة ١٩٥٩م .

١٠ - **سعيد عاشور** : الحركة الصليبية جزآن ، ط القاهرة ١٩٧٦م .

١١ - **سعيد عاشور** : العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٢ - **سعيد عاشور** : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر .

١٣ - **سعيد عاشور** : قبرص والحروب الصليبية ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ .

١٤ - **حسن حبشى** : الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربى ١٩٥٨م .

١٥ - **رنسيمان أستيفان** : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ترجمة السيد الباز العرينى ط بيروت ١٩٦٧ م .

١٦ - **السيد عبد العزيز سالم** : طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، الأسكندرية ١٩٦٧ م .

17 - Ehrenkurut 3, A. S. The Place of Saladin In The Naval History of the Mediterranean Sea in The Middle ages. Vol. 75 (1955).

18 - Wiet, Une inscription d'un Princede Tripoli de La dynasty des Banu Ammar, Memorial H. Basset, Paris 1928.

الفكرة الصليبية : آلام وآمال :

وليم آدام واستعادة الأراضى المقدسة

دكتور محمود سعيد عمران(*)

ساد الاعتقاد فى أوربا منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى أنه يوجد فى الشرق المسيحى أمير أسطورى غنى وقوى ، بإمكانه مساعدة الصليبيين فى بلاد الشام ، وذلك بمهاجمة المسلمين من الجانب الشرقى . وكان السبب فى هذه الشائعة المؤرخ ورجل الدين الألمانى Otto of Freising الذى جعل من نفسه متحدثاً باسم هيو Hugh أسقف مدينة جبله التى تقع على ساحل البحر المتوسط فى بلاد الشام جنوبى مدينة اللاذقية . وقد بدأ سريان هذه الشائعة بعد سقوط مدينة الرها فى أيدى المسلمين فى عام ١١٤٤م ، وذلك لعدم إسراع الغرب الأوربى فى تقديم المساعدات العسكرية إلى الصليبيين فى بلاد الشام ، الأمر الذى أدى إلى وقوع الصليبيين عامة فى حالة من الأسى واليأس .

وقد ذكر أوتو أف فراديزنج أن هيو روى له أن هناك شخصاً يدعى الكاهن يوحنا Prester John ، وهو ملك وقسيس يدين بالمذهب النسطورى ، يقطن فى بلاد ما وراء أرمينية وبلاد الفرس فى الشرق البعيد مع المسيحيين النساطرة ، حارب يوحنا هذا جيرانه ملوك الفرس وميديا واجتاح بلادهم . ذلك أنه واجه جيوش جيرانه من الفرس والميديين والسريان فى معركة استمرت لمدة ثلاثة أيام ، استمات فيها كل فريق فى القتال حتى الموت. وأظهر يوحنا على حد قول الإسطورة بطولة نادرة بإجبار الفرس على

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة الأسكندرية .

الفرار ، حتى تم له إحراز النصر . وتستطرد الإسطورة القول أنه بعد انتصار يوحنا تحرك بقواته ليقدم المساعدة إلى كنيسة القيامة في القدس . ولكن هذه القوات عجزت عن عبور نهر دجلة ، لذلك اتجهت إلى الشمال . وقد علم يوحنا أن النهر يتجمد في فصل الشتاء ، ورغم ذلك حاول عبور النهر على مدى عدة سنوات ، ولكنه فشل وفقد العديد من رجاله بسبب سوء الأحوال الجوية التي لم يعتد عليها جيش يوحنا ، لذلك عاد بجيشه إلى بلاده(١) .

كذلك ورد في الإسطورة أن يوحنا هذا يرجع إلى أصل مجوسي . وقد وردت إشارة عن المجوس في العهد الجديد نصها " ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيردوس الملك ، إذ مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود . فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له "(٢) .

ويعنينا في هذه الإسطورة أنها لقيت قبولاً في الغرب الأوربي عند العلمانيين ورجال الدين سواء ، وعلى رأسهم البابا إسكندر الثالث Alexandre III (١١٥٩ - ١١٨١م) الذي تحرك وطالب بالبحث عن الكاهن يوحنا . وفي عام ١١٧٧م وجه البابا أحد رجال الدين ويدعى فيليب Philip - وكان من المتعمقين في أصول الدين - ومعه رسالة إلى الكاهن يوحنا يطلب فيها بعض المعلومات ، ويسأله المساعدة . ولكن رحلة فيليب انتهت إلى الحبشة دون أن يحقق نتائج ملموسة(٣) .

---

(1) Otto of Freising, The Two Cities, Tran. by Mierow, New York, 1928, PP. 4434.

(٢) متى ٢ : ١ - ٢ .

(3) Rumicman, S.,A History of the Crusades, Cambridge, 1954, II, pp. 422-3.

ثم عادت الإسطورة إلى الظهور من جديد مع أحداث الحملة الصليبية الخامسة ، عندما كان الصليبيون يحاصرون مدينة دمياط ويعسكرون فى مزارعها ، وذلك قبل سقوط المدينة فى الخامس من نوفمبر عام ١٢١٩م / الخامس والعشرين من شعبان ٦١٦هـ . فقد ذكر المؤرخ أوليفر أف بادربورن Oliver of Paderborn – الذى كان مرافقاً الحملة أن كتاباً باللغة العربية وصل إلى الصليبيين وهم أمام مدينة دمياط . وبعد أن ترجم هذا الخطاب اتضح أن كاتبه ليس يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً ، وأن كاتب هذه الرسالة كان قد تنبأ بالهزائم القاسية التى أنزلها صلاح الدين بالصليبيين فى معركة حطين ، كما تنبأ بما أحرزه المسلمون على الصليبيين من انتصارات عندما تم أسر ملك مملكة بيت المقدس ونبلائه ، واستيلاء صلاح الدين على مدينة القدس ، وتخريب مدينة عسقلان ، بالإضافة إلى محاولة صلاح الدين الاستيلاء على مدينة صور وفشل هذه المحاولة ، وبعض العقوبات التي حلت بالصليبيين لكثرة خطاياهم . وتنبأ كاتب الرسالة أيضاً بقيام الصليبيين بتخريب مزارع النخيل المحيطة بمدينة دمياط . وذكر أوليفر أن تخريب المزارع قد تم بالفعل ، وأضاف محرر الخطاب أن الصليبيين سوف يستولون على مدينة دمياط . وأوضح أوليفر أن كاتب الرسالة لم يشر إلى صلاح الدين بالاسم ولكنه أشار إليه بعيونه السوداء وعلمه الزغفرانى(١) .

كذلك تنبأ كاتب الرسالة بأن ملكاً معيناً من بلاد الحبشة المسيحية سوف يدمر مدينة مكة ، وينبش ما فيها من قبور ، وسوف يقوم ببعض الأعمال الأخرى التى لم تحدث بعد ، وأنها لو تمت فإنها سوف ترفع من شأن

(1) Oliver of Paderborn, The Capture of Damiette, tran., Gavigan, John, Philadelphia, 194, PP. 49-50.

المسيحيين وتدمر المسلمين . وأضاف أوليفر أنه يبدو أن هذا الشخص وثنى وليس يهوديًا ، وأنه يعترف بالديانة المسيحية بلسانه وليس بقلبه ، وأنه ينطق بوحى إلهى عن السيد المسيح(١) .

كذلك تحدثت الرسالة عن الكاهن يوحنا ، وأن ابنه داود ملك الهند قد انتصر على كل ملوك الفرس ، وأنه سيطر على جزء كبير من آسيا ووصفه بأنه نقمة إلهية ومطرقة آسيا(٢) .

وكان المؤرخ جيمس دى فترى James of Vitry مصاحباً للحملة الخامسة أيضاً ، فذكر أن الملك داود ملك الهند ، سوف يسارع لنجدة المسيحيين ، ويتقدم ومعه قوات كبيرة ، وينقضون كالوحوش على المسلمين(٣) . وقد خلط جاك دى فترى بين اسم جنكيزخان واسم داود الذى يدعى الكاهن يوحنا ، شأنه فى ذلك شأن أوليفر أف بادربورن .

وكان أن ذاعت انتصارات المغول فى آسيا على مدى واسع عن طريق ما كتبه جاك دى فترى ، وأوليفر أف بادربورن ، والمندوب البابوى للحملة وهو الكاردينال بلاجيوس ، وبذلك لاح الأمل فى مساعدة الصليبيين ضد المسلمين فى مصر والشام وغيرهما . وبادر البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ - ١٢٢٧م) بإرسال خطابات ، إلى رؤساء أساقفة فرنسا وإنجلترا أعلن فيها أن الملك داود هو الملك يوحنا الذى انتصر على شاه فارس ، واستولى على بلاده ، وأنه أصبح على بعد مسيرة أيام من مدينة

---

(1) Ibid, P. 50.

(2) Ibid., P. 71.

(3) Jacques de Vitry, Lettres, Leiden, 1960, P. 141.

بغداد . وقد انتشر خبر ذلك كله منذ عام ١٢١٩م ، مما كان له أكبر الأثر على القوات الصليبية في دمياط ، لدرجة أن المندوب البابوي بلاجيوس رفض العرض السخي الذي قدمه الكامل سلطان مصر (٦١٥ - ٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨م) إلى الصليبيين عدة مرات ، والذي يقضي بتنازل الكامل وأخيه المعظم عيسى ملك دمشق (٦١٥ - ٦٢٤هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧م) عن جميع الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا قلعتي الكرك والشوبك ، مقابل الجلاء عن دمياط(١) .

ولكن هذه الصورة المشرقة للمغول عند الأوربيين لم تلبث أن تغيرت عندما ظهرت تهديدات المغول لشرق أوربا في عامي ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، إذ أخذت القوات المغولية تهاجم بعض أجزاء من روسيا . ورغم بعد هذه الأماكن عن قلب أوربا ، إلا أن ما حدث من تدمير وتخريب على يد المغول وصل إلى مسامع الأوربيين الذين أحسوا بأخطار المغول عندما اجتاحوا هنغاريا في عام ١٢٤١ - ١٢٤٢م ، وأنزلوا بها الخراب والدمار(٢) .

وكان انسحاب المغول من هنغاريا في ربيع عام ١٢٤٢م مثار دهشة وفرحة في الأوساط الأوربية ، إذ اعتقدوا أن الخطر قد زال عن أوربا ، ولو إلى حين . ولكن المهم في هذه المرحلة أن احتمال قيام تحالف أوربي مغولي قد تبدد ، وأن ما كان يشغل بال أوربا هو تجدد الخطر المغولي على هنغاريا مرة أخرى ، ليصبح قريباً من أوربا الغربية .

---

(١) محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة - دار المعارف - ١٩٨٥ - ص٣٤٧ -٣٤٨ .

(2) Mathew Paris, English History from the year 1273, tran, from the latin by J. A. Giles, London, II, P.29, Harcave, Sidney, Russia A History, London, 1953, P. 15.

وعندما اعتلى البابا أنوسنت الرابع Incocent IV (١٢٤٣هـ-١٢٥٤م) كرسي البابوية ، دعا إلى عقد مجلس ديني في مدينة ليون Lyons بفرنسا ، حدد لـه شـهر يونيـه عـام ١٢٤م للنظـر فـي أمرخطـر المغـول وبعـض الأمورالأخرى . ولكن البابا لم ينتظر انعقـاد المجلس ، وبـادر بإرسـال ثلاثـة رسل إلى خان المغول(١) .

وليس لنا أن نخوض في تفاصيل هذه السفارات ، ولكن الباحث يبلورهـا في أن مهمة هذه السفارات انصبت علـى دعـوة المغـول للدخـول فـي الديانـة المسيحية ، وأن يتم التحالف بين أوربا والمغول للقضاء على المسلمين خاصة في منطقـة الشـرق الأدنـى الإسـلامي . ويبـدو أن هـؤلاء السـفراء فشـلوا فـي مهمتهم لأن المغول اعتبروا أنفسهم أسياد الأرض ، وعلـى أوربـا أن تخضـع لهـم ، وعلـى البابـا وجميـع حكـام أوربـا أن يقدمـوا للمغـول فـروض الـولاء والطاعـة ، وبعـد ذلـك تنضـم القـوات الأوربيـة تحـت قيـادة المغـول ليحـاربوا المسلمين . ولم يقبل أى حـاكم فـي أوربـا شـروط المغـول . ومـع ذلـك ، فقـد استمرت أوربـا والبابويـة تلهـث وراء المغـول لتحقيـق مطالبهـا ، وتعـددت السفارات المتبادلة من قبل أوربا ومن قبل المغول ، ولكنها فشـلت جميعـاً فـي تحقيق مهمتها(٢) .

كذلك حاول لويس التاسع Louis IX (ملك فرنسا) (١٢٢٦-١٢٧٠م) الاتصال بالمغول ، كما حاول المغول بدورهم الاتصـال بـالملك لويـس عندمـا قدم على رأس الحملة الصليبية السابعة إلى مصـر . ومـن النصـوص الـواردة

---

(1) Setton, A History of The Crusades, III, The University of Pennsy lvania 1974, P. 519,. Tout, The Empire and the papacy, London, 1954, P. 387.

(2) Setton. op.cit., III, PP. 519-522.

عن السفارات التى أرسلها المغول إلى لويس والتى أرسلها الملك إلىالمغول ، يبدو أن المغول اعتبروا الهدايا التى أرسلها لويس إليهم جزية يقدمها تابع لسيده . وقد ذكر المؤرخ جوانفيل Joinville أن ما ورد فى إحدى رسائل المغول إلى الملك لويس لا يعدو أن يكون تهديداً من المغول ، لأن ما ورد فيها يفيد أن على الملك لويس أن يخضع للمغول ، وأن يقدم جزية سنوية ، حتى تظل الصداقة قائمة بين المغول والفرنسيين . وإذا رفض الملك لويس ذلك ، فإن المغول سوف يخربون دولته كما خربوا دولاً أخرى من قبل(١) .

وهكذا توالت الأحداث حتى خرج هولاكو بجيش جرار متجهاً غرباً ، وكانت معه زوجته طقز خاتون وهى أميرة مسيحية نسطورية ، كرهت الإسلام والمسلمين ، وحرصت على مساعدة المسيحيين . وكان الهدف الأول من حملة هولاكو الاستيلاء على قلعة الموت مقر طائفة الحشيشية فى فارس. أما الهدف الثانى فكان مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، والهدف الثالث كان مدينة دمشق فى بلاد الشام . وقد نجح هولاكو فى القضاء على الحشيشية فى فارس عام ١٢٥٧م ، ثم فى الاستيلاء على بغداد فى العام التالى (١٢٥٨م) ، وتلاها دمشق فى عام ١٢٦٠م . يضاف إلى ذلك أن هولاكو ضمن ولاء دولة الكرج (جورجيا) وسلطنه سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، ودولة الأرمن فى قيليقية ، والصليبيين فىإمارة أنطاكية . وهكذا حتى كانت معركة عين جالوت فى عام ١٢٦٠م التى قلبت موازين القوى كلها رأساً على عقب(٢) .

---

(1) Joinville, The life of Saint Louis, Penguin, 1973, PP. 287.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية – مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ جـ٢ – ص١١٣٧ – ١١٣٩ .

وكان أن انشغل هولاكو لبعض الوقت بأمر مشاكل المغول الداخلية حتى مات فى عام ١٢٦٥م ، ثم ماتت زوجته بعده فحزن المسيحيون عليها حزناً شديداً ، ولكنهم وجدوا فى ماريا Maria التى عرفت عند المغول باسم ديسبينا خاتون Despina Khatun درعاً جديداً للمسيحية . وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد رأت شراء السلم من المغول ، فلبوا طلب هولاكو فى الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات . ولكن هولاكو كان قد مات عندما وصلت ماريا ابنه الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس إلى البلاط المغولى ، فتزوجها ابنة أبغا Abaga خان مغول فارس (١٢٥٦ - ١٢٨٢م) . وقد وقر المغول والمسيحيون ماريا واحترموها لما اشتهرت به من الخير والحكمة(١) هذا فى حين كان زوجها - أبغا بن هولاكو - مسيحياً نسطوريا .

وقد شجع ذلك الغرب الأوربى وعلى رأسه البابوية ، فأرسل البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨م) إلى أبغا يعرض عليه عقد تحالف عسكرى لمحاربة المماليك المسلمين . ولكن أبغا كان مشغولاً بحروبه مع القبيلة الذهبية ، ولذلك لم يقدم سوى وعوداً غامضة ، كما انشغل مع أبناء عمومته آل جغطاى الذين أغاروا على أملاكه الشرقية فى عام ١٢٧٠م(٢) . وفى العام نفسه - وبعد أن انتهى من مشاكله - فكر أبغا فى التحالف مع الملك لويس التاسع ، وتعهد بأن يقدم له المساعدات العسكرية إذا وصل لويس بحملته إلى بلاد الشام . ولكن لويس لم يتقدم إلى بلاد الشام ، بل وجه حملته إلى تونس حيث مات هناك ففشل المشروع(٣) . وكان لويس قد اتفق مع

---

(1) Setton, op.cit, III, P. 529, Runciman, III, PP. 320, 331-2.

(٢) الهمدانى (رشيد الدين فضل الله) : جامع التواريخ - بيروت - ١٩٨٣ - ص٢٦٣ وما بعدها .

(3) Joinville, op.cit., PP. 344-350.

الأمير الإنجليزى إدوارد على أن يتوجها بحملة صليبية معاً . فلما مات لويس كان إدوارد موجوداً فى صقلية ، فأبحر إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا فى مايو سنة ١٢٧٠م(١) .

ولم يلبث أن اتجه إدوارد لمحالفة المغول ضد المسلمين ، فأرسل الأمير الإنجليزى سفارة من ريجنالد رسل Reginald Russal ، وجودفرى ويلز Godfery Welles ، وحنا باركر John Parker إلى الخان أبغا تطلب منه المساعدة لقتال المماليك . ولما كانت قوات أبغا مشغولة بالقتال فى تركستان ، فقد أرسل إليه فى منتصف أكتوبر عام ١٢٧١م عشرة آلاف فارس سحبها من بلاد الأناضول(٢) .

ولم تلبث أن تقدمت القوات المغولية إلى مدينة عين تاب ، ومنها إلى حلب فى شمال الشام ، ففرت الحامية المملوكية إلى حماة ، وعندئذ تبعتها القوات المغولية حتى معرة النعمان وأفامية . ولما أحست بقدوم الجيوش المملوكية الرئيسية عادت من حيث أتت ، لأنها شعرت بقلة عددها أمام القوات المملوكية . ومن الملاحظ أن إدوارد لم يلتق مع القوات المغولية ، ولم يكن هناك أى تنسيق فى العمليات العسكرية بين الطرفين ، إذ لم تلبث الحملة الإنجليزية أن غادرت بلادالشام بعد أن قامت ببعض العمليات العسكرية البسيطة فىضواحىعكا، انتهت بأن رتب إدوارد لعقد هدنة بين الصليبيين فى عكا والسلطان المملوكى الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٩م) فى القاهرة(٣) .

---

(1) Matthew of Westminster, The flowers of History, tran. by Yonge, C.D., London 183, II, P. 451.

(2) Eracles, Estoire d'Eracles, R. H. C. Occ. II. P. 461.

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر - بيروت - د. ت . جـ٤ - ص٧ .

(3) Eracles, Op.cit, PP. 461-2.

وفى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر قام المغول ببعض الغارات على بلاد الشام ، أحيت الأمل عند الغرب الأوربى فى إمكانية الاعتماد على المغول فى القضاء على الدولة المملوكية . ففى عام ١٢٩٩م أغار على بلاد الشام خان فارس غازان محمود (١٢٩٥-١٣٠٤م) الذى اعتنق الإسلام واستبدل لقبه بالسلطان بدلاً من لقب خان . وقد نجح غازان فى هزيمة الجاميات المملوكية عند حمص فى نهاية عام ١٢٩٩م ، ثم تقدم إلى مدينة دمشق في مطلع العام التالي(١٣٠٠م) ، فاعترفت المدينة بسيادته . ومن دمشق هدد غازان بفتح مصر ولكن الظروف جعلته يعود إلى عاصمته فى فارس(١)

ثم تقدم غازان مرة أخرى إلى بلاد الشام فى عام ١٣٠٣م ، ولكنه هزم فى مرج الصفر ، فعاد بعدها إلى بلاده(٢) . ورغم أن غازان كان قد اعتنق الإسلام إلا أنه كان يبحث عن حليف للقضاء على الدولة المملوكية . ولم يكن أمامه سوى دول الغرب الأوربى التي سبق لها أن توسلت كثيراً إلى خانات المغول للتحالف ضد المماليك . ولكن الخانات كانوا يطلبون الخضوع لا التحالف ، وبذلك ضاعت فرصة التحالف الأوربى لضرب العالم الإسلامى(٣) .

وهكذا انقلبت الأوضاع وأخذ المغول يبحثون عن حليف فى أوربا يتعاونون معه لضرب الدولة المملوكية . ولذلك أغار أولجايتو خدا بنده محمد (١٣٠٤-١٣١٦م) على بلاد الشام فى عام ١٣٠٨م لجذب أنظارحكام أوربا ، وتوغل حتى وصل بالقرب من مدينة بيت المقدس . وترددت الشائعات بأن

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٤ - ص٤٣ .

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٤ - ص٤٨ - ٤٩ .

(٣) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٤ - ص٦٩ .

أولجايتو ينوى تسليم المدينة إلىأى دولة مسيحية تتحالف معه ، ولكن لم يحدث أن تقدمت دولة أوربية لعقد هذا التحالف ، رغم وجود أرهاصات بقيام حملة صليبية دعا إليها البابا وملك فرنسا.وبعد سنوات قليلة مات خان فارس ، فتضاءلت فرص التحالف الأوربى المغولى . وعندما تولى أبو سعيد بهادر السلطنة فى فارس(١٣١٧-١٣٣٥م) نزع إلى الوفاق مع مصر(١) . وقد ظل أبو سعيد فى السلطنة حتى عام ١٣٣٥م تفككت بعده الخانية وانقسمت إلى أسرات عديدة، ولم يعد هناك ما يهدد مصر ،أو من يفكر فىالتحالف مع أوربا.

* * *

وفى خضم هذه الأحداث التى اقترنت بطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، وإحساس العالم الأوربى بالمهانة التى لحقت به ، ظهرت موجه من الدعاية تولىأمرها بعض رجال الدين المثقفين المتعصبين للحروب الصليبية . وقد نادى هؤلاء ببعض الأفكار ووضعوا عدة مشاريع رأوا فيها إمكانية استعادة الأراضى المقدسة .

ومن هؤلاء الراهب الفرنسكانى فيدنتشيو أوف بادوا Fidenzio of Paduo الذىكتب فىعام١٢٩١م كتاباً أهداه إلىالبابا نيقولا الرابعNichoias IV (١٢٨٨-١٢٩٢م) . ويشتمل هذا الكتاب على دراسة قيمة عن تاريخ بلاد الشام والجيش الصليبى المطلوب لاستعادة الأراضى المقدسة ، والطرق التى على الجيش أن يسلكها .

ومن هذه المشاريع أيضاً التقريرالذى كتبه الراهب ثاديوس Thaddeus فى عام١٢٩٢م . وقد حوى هذا التقرير أخبار سقوط مدينة عكا فى أيدى

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٤ - ص٨١ ، ٩٧ راجع :
Atiya, A.S., The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, P. 90-1.

المسلمين ، مع نداء حار إلى البابا وحكام أوربا لإعداد حملة صليبية لتخليص الأراضى المقدسة .

أما الداعية الجنوى جلفانو أف ليفانتى Galvano of Levanti فقد وضع كتاباً فى عام ١٢٩٤م ، وأهداه إلى الملك الفرنسى فيليب الرابع Philip IV (١٢٨٥ - ١٣١٤م) . ولكن هذا الكتاب لا يعدو بعض الانطباعات والعظات ، وجاء خلياً من الأفكار العملية التى تؤدى إلى استعادة الأراضى المقدسة .

ومع هؤلاء يأتى المبشر الأسبانى رامون لول Ramon Lull . ورغم أن شهرة رامون بلغت القمة باعتباره من الزهاد ، إلا أنه فى الوقت نفسه يعتبر من رجال السياسة العلمانيين . وقد انتهى من كتابه فى عام ١٣٠٥ ، وبه كثير من التفاصيل والأفكار حول المنهج العملى لاستعادة الأراضى المقدسة . وقد ركز على رجال الدين الذى عليهم أن يبذلوا الجهد الكبير لإعداد حملة صليبية يتولى أمرها ملك محارب تعمل تحت إمرته كافة الطوائف الدينية العسكرية ، مع اتخاذ جزيرتى رودس ومالطة قاعدتين عسكريتين لطرد المسلمين من أسبانيا ، والاستيلاء على الساحل الأفريقى من تونس حتى مصر، كما نادى أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية واتخاذها طريقاً إلى بلاد الأناضول ثم إلى بلاد الشام .

وإلى جانب هؤلاء يأتى بطرس ديبوا Peter Dubois وهو من رجال القانون الفرنسيين ، إذنادى ببعض الإصلاحات الاجتماعية والكنيسة ، وقيام الملك فيليب الرابع بقيادة حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة . أما عن تمويل هذه الحملة فقد طالب بانتزاع أملاك الداوية وفرض الضرائب على رجال الدين .

وفى فرنسا أيضاً ظهر المستشار الدبلوماسى وليم نوجارت William Nogaret الذى قدم فى عام ١٣١٠م تقريراً عن حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة ، وركز على أن تقوم البابوية بتقديم ما لديها من أموال دون تردد ، والقضاء على هيئة فرسان الداوية ومصادرة أموالها لاستغلالها فى هذه الحملة .

كذلك شاركت أرمينية فى تلك الدعوة عن طريق المفكر والمؤرخ الأمير هيثوم أف كوريكوس Hethum of Corycus . وجاء فى كتابة الذى ظهر فى عام ١٣٠٧م خلاصة موجزة عن تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى وأحوال الدولة المملوكية ، وأوصى بضرورة قيام حملة صليبية برية وبحرية تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين للعمليات العسكرية لاستعادة الأراضى المقدسة بالتحالف مع المغول وبمساعدة الأرمن .

وإذ نكتفى بهذه القائمة نأتى إلى الحديث عن الدبلوماسى البابوى وليم آدم William Adam ، وهو الشخصية التى نركز عليها فى هذا البحث . وقد ولد وليم آدم حوالى عام ١٢٧٥م فى إقليم لانجدوك Languedoc الذى يقع فى الجزء الجنوبى الشرقى فى فرنسا ، ودرس اللاهوت فى كوندوم Condom فىعام ١٣٠٢م ، ثم سلك طريق الرهبانية فى جماعة الدومنيكان . وفى عام ١٣٠٥م اختاره البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤م) فى بعثة إلى الشرق ، فذهب إلى القسطنطينية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام(١) . ثم عاد إلى أوربا فى عام ١٣١٣م فى وقت كانت تتردد فى أوربا فكرة الإعداد لحملة صليبية ، ولكن هذه الفكرة لم تتحقق . وقد قام وليم

---

(1) Atiya, op. cit., P. 65.

بعد ذلك برحلة إلى الشرق بتكليف من البابا ، فاتجـه إلـى خـان مغـول فـارس أولجـايتو خـدا بنـده محمـد (١٣٠٤ - ١٣١٧م) ، كمـا قـام بعملية التبشـير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى فى فارس ، ثم سـافر إلـى الهنـد ثـم إلى اليمن وجال فى تلك الأنحاء حتـى وصـل إلـى إثيوبيـا . والحقيقـة أن هـذا الترحال كان فى غاية الأهميـة بالنسبة لوليم آدم والأفكـار التـى دونهـا حـول مشروع إعداد حملـة صليبيـة لاستعادة الأراضـى المقدسـة . وعـاد وليـم إلـى مدينة أفنيون Avignon مقر البابوية الجديد فى تلـك المرحلـة ، ولكنـه لـم يبـق فيهـا سـوى فـترة قصـيرة لأن البابـا يوحنـا الثـانى والعشـرين John XXII (١٣١٦-١٣٣٤م) أنشـأ كرسـيا أسـقفيا فـى مدينـة سـلطانية(١) ، التـى اتخذهـا أولجايتو عاصمة لمغول فارس بعد مدينة تبريز - فـى الأول مـن إبريـل عـام ١٣١٨م ، فأرسل فرانكو دى بروجيا Franco di Perugia ليتولى منصـب أول رئيس أساقفة لهذا المقر الجديـد ، ومعـه وليـم آدم وآخـرون بمثابـة مسـاعدين لرئيس الأسقفية . وقد سافرت المجموعة كلها سويا إلى سلطانية .

على أن وليم آدم عاد فى عام ١٣٢٢م إلى مقر البابوية فى أفنيون حيث عينه البابا فىمنصب رئيس أساقفةمدينةسلطانية خلفاً لسلفه فرانكو دىبروجيا. وفى العام التـالى (١٣٢٣م) كلفـه البابـا للقيـام ببعثـة مـن أجـل وحـدة الكنيسـة الكاثوليكية فى أرمينية . وليس مـن المعـروف لنـا أن كـان وليـم قـد قـام بهـذه المهمة أم لا ، لأنه كان موجوداً فىمدينة أفنيون فىعام ١٣٢٤م ، ثم عين فى العام التالى (١٣٢٥م) فى منصب رئس أساقفة مدينـة أنتفـارى Antivari التـى تقع على ساحل دالماشيا ، وظل فىمنصبه هذا حتى مات فى عام ١٣٤١م(٢).

---

(١) تسمى أيضاً كانجورلان kangurlan ، انظر : Setton, op.cit, II, P. 719.

(2) Atiya, op. cit., PP. 65-66.

وقد وضع وليم آدم بعض الكتب الخاصة بـالطقوس الدينيـة ، بالإضافـة إلى كتابه الذى يعنينا فىهذه الدراسة وهو De Mode Saracenos Extirpandi، أى كيفية اقتلاع جذور المسلمين . وقد حوى هـذا الكتـاب العديـد مـن الأفكـار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التـى مـن شـأنها اسـتعادة الأراضـى المقدسة محور هذا البحث .

وكـان وليـم آدم قـد طـاف بمنطقـة واسـعة متعددة الحضـارات ، تشـمل الإمبراطورية البيزنطية ، وجزيرة خيـوس Chios ، وهـى جزيـرة كبيـرة تقـع إلى الغرب من مدينة أزمير ، بالإضافة إلى آسـيا الصغرى ، كمـا زار خليـج البسفور ومدينـة القسـطنطينية . وقـد تحـدث عــن هــذه المنــاطق وسـواحلها ومنتجاتها الزراعية ومواردها المختلفة ووصفها وصفاً دقيقاً للغاية(١) .

كذلك تحـدث وليـم عـن مقابلتـه لبعـض البحـارة الجنوييـن ، ومنهـم سيجورانوس سلفاتشى Seguranus Salvatici ، وهو مـن الذيـن كـانوا يتولـون نقـل المـؤن إلـى مصـر ، ويرفعـون علـم مصـر علـى سـفنهم حرصـاً علــى سلامتهم(٢) . أمـا معلوماتـه عـن مصـر والشـام فهـى قليلـة ، ويبـدو أنـه دون معلوماته عن مصر من خلال ما سمعه عنها .

ومن الواضح أن وليم آدم كان موجوداً فى بـلاد فـارس فـى عهـد البابـا كلمنت الخامس فى الوقت الذى ترددت الشائعات فى أوربا حول إرسال حملـة صليبية إلى الشرق أى حوالى ١٣١٣ - ١٣١٤م ، ثم أنه اتجه بعد ذلك جنوباً بعد أن دون كتابه - فى حوالـى عـام ١٣١٦ - ١٣١٧م - حتـى وصـل إلـى

---

(1) G.A - Guillelmus Adae, De Modo Sarracenos Extirpandi, in R. H. C. Arm. II. P. 542.

(2) G. A. op.cit, P. 525.

الهند حيث باشر الدعوة للديانة المسيحية مدة تزيد عن عام ونصف . وقد طاف بالأقاليم وتعرف على أخشاب أشجارها التى تصلح لبناء السفن مثل خشب التك والصندل(١) . كذلك كان وليم على معرفة تامة ببحر فارس – الخليج العربى – والجزء التى يقع عند مدخله الجنوبى . وقد ذكر أنه سار من شمال إيلخانية فارس حتى جنوبها ، حيث قام بعملية الدعوة للديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، كما تجول فى بعض مناطق مختلفة فى المحيط الهندى وتعرف على سواحله ، وتوقف فى جزيرة سقطرى Socotara كما كتب عن إثيوبيا(٢) . وقضى فى تلك المناطق حوالى تسعة أشهر ، مما جعله على معرفة تامة بمواقع بعض الجزر الموجودة فيها ، مثل جزيرة هرمز ، وجزيرة ديف Dive(٣) .

وبعد هذا العرض للأماكن التى زارها وليم آدم ، والتى كان لها أكبر الأثر على كتاباته ، ننتقل إلى المشاريع التى قدمها أو سجلها لاستعادة الأراضى المقدسة . والحقيقة أن كافة الأفكار التى وردت فى كتابات أصحاب المشاريع الصليبية فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى كانت أفكاراً نظرية وبعيدة عن الواقع العملى إلى حد كبير ، لأن هذه الأفكار اعتمدت فى أساسها على وجود تفاهم بين كافة حكام أوربا من أجل استعادة الأماكن المقدسة فى بلاد الشام ، مما يسهل قيام تحالف فورى بينهم لضرب مصر ، باعتبارها القوة الرئيسية التى اجتثت الإمارات الصليبية من بلاد الشام . ولكن وليم آدم خرج عن هذه القاعدة ، فذكر أن العقبة الرئيسية فى القضاء على مصر تكمن

---

(1) G. A. op.cit, P. 552.

(2) G. A. op.cit, P. 551.

(3) G. A. op.cit, P. 552.

فى أوربا نفسها وترجع إلى انشغال الغرب بأموره الداخلية ، وإلى صراع الدول الأوربية مع بعضها البعض ، وإلى مطامع بعضها فى تحقيق مكاسب خاصة . ولذلك فإنه يرى أنه لا سبيل للقضاء على القوة المملوكية فى مصر غير العناية الإلهية التى ربما تتدخل لتمكين الغرب الأوربى من انتزاع القبر المقدس من أيدى المسلمين . ولذلك قدم وليم آدم بعض النصائح إلى البابا وحكام أوربا حول إعداد حملة عسكرية أو القيام بأعمال أخرى من شأنها العمل على استعادة الأراضى المقدسة .

وفيما يتعلق بقيام الغرب الأوربى بإعداد حملة عسكرية لضرب الدولة المملوكية قدم وليم آدم أفكاراً تمهيدية يجب الأخذ بها قبل الشروع فى أى عمل عسكرى ضد مصر . ووضع هذه الأفكار فى أربع نقاط رئيسية :

أولاً : يجب التعامل بكل شدة مع الأفراد أو الهيئات أو الدول التى تساعد مصر وتمدها بالدقيق والمواد الحربية وكافة المستلزمات الأخرى ، لأن هؤلاء لا يطبقون مبدأ الحصار البحرى الذى نادت البابوية بفرضه على الموانى الإسلامية ، ومن هؤلاء القطلان والبنادقة والبيزيين والجنوية ، كما أنهم لا يبالون بقرارات الحرمان من رحمة الكنيسة التى تفرضها البابوية ضد المتعاملين مع المسلمين ، خاصة الدولة المملوكية(١) .

ثانياً : يطالب وليم آدم قبل القيام بأى حملة عسكرية ضد مصر بضرورة قيام دول غرب أوربا بالاستيلاء على مدينة القسطنطينية . وركز على أن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصليبيين ، كما أن الإمبراطور البيزنطى يرتبط بروابط الود والصداقة مع سلطان مصر ، ويعمل على إمداد

---

(1) G. A. op.cit, P. 523.

مصر بالمؤن فى أوقات الشدة . وبقيام اللاتين بغزو القسطنطينيةوالاستيلاء علىأراضى الإمبراطورية البيزنطية يتم تحويل الشعب البيزنطى الأرثوذكسى المذهب إلى شعب كاثوليكى المذهب ، ويدخل فى تبعية كنيسة روما(١) .

ثالثاً : يجب منع خان مغول القفجاق أو تتار القرم من التعاون مع مصر وإمدادها بما تحتاجه من الرقيق ، لأن هذا الخان تحالف مع مصر ضد مغول فارس الذين يسعون إلى التحالف مع الدول الأوربية والبابوية لضرب الدولة المملوكية(٢) .

رابعاً : يطالب وليم آدم بإعداد أسطول أوربى تكون مهمته السيطرة على موانى البحر المتوسط ، كما يقوم أسطول آخر يتم إعداده فى موانى بحر الهند بإغلاق مضيق هرمز ، وكذلك مضيق باب المندب ، وذلك لإيقاف الحركة التجارية بين موانى البحر المتوسط ، وموانى الشرق الأقصى التى تتدفق عن طريقها على مصر بضائع وغلات الشرق عبر ثغر عدن(٣) . ويرى أيضاً أنه يجب تحويل طريق التجارة ليكون فى أيدى الأوربيين بحيث تنقل بضائع الشرق عبر مضيق هرمز إلى الخليج الذى تسيطر عليه القوات المغولية ، ثم إلى نهر الفرات ، ومنه براً إلى موانى دولة أرمينية ، والمقصود هنا مدينة أياس(٤) .

وبعد أن حدد وليم آدم الخطوط العريضة للأفكار التى من شأنها إحكام الحصار البحرى على مصر من الشمال والجنوب للأضرار بمصالحها

---

(1) G. A. op.cit, P. 528.

(2) G. A. op.cit, P. 529-31.

(3) G. A. op.cit, P. 553.

(4) Marco Polo, The Travels, Penguin, 1974, P. 46, Atiya, op.cit, P. 66.

التجارية التى تشكل الدخل الرئيسى للدولة المملوكيـة فـى تلـك المرحلـة ، قـام بتحديد السبل التى من شأنها وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ .

وفيمـا يتعلـق بـالدول أو السـفن أو الأفـراد الذيـن يتعـاملون مـع مصـــر تجاريـاً ولا يبـالون بالقضيـة الصليبيـة ولا يخشـون قـــرارات الحرمـــان التـــى تصدرهـا البابويـة ، يطـالب وليـم آدم باسـتباحة دمـائهم ومصـادرة ممتلكـــاتهم وبيعها علناً ، وتخصيص العائد من بيعها للحركـة الصليبيـة وإنقـاذ الأراضـى المقدسة . كذلك طالب باستباحة سـلب أو الاسـتيلاء علـى حمولـة السـفن التـى تتعامل مع مصر دون خوف مـن أحـد . ويـرى أنـه مـن أجـل ضـرب هـؤلاء المتعاملين مع مصر يجب إعداد مجموعة من السفن تكون مهمتها التجول فـى مياه البحر المتوسط لملاحقة السفن الخارجة عن القانون(١) .

كذلك طالب بحرمان كل السفن التـى تتعـامل مـع المسـلمين فضـلاً عـن السفن الإسلامية من التعويضات التى يقدمها مكتب الضمـان الجنـوى . وكـان هـذا المكتـب يقدم تعويضـاً لكـل المسـلمين واليهـود الذيـن تتعـرض بضـائعهم للخسائر وهى محمولة على ظهر السفن الجنوية ، بشرط ألا يكون الضرر قـد وقع من إحدى الدول التى هى فى حالة حرب مع جمهورية جنوة(٢) .

ويرى وليم آدم حرمان الدولة المملوكية من الأموال التى تدخل خزانتها من عائد عمليـة الحـج التـى يقـوم بهـا المسـيحيون الأوربيـون إلـى الأراضـى المقدسة، وذلك بمنع الحج تماماً إلى القدس ، لأن الرسوم التـى يقدمهـا هـؤلاء الحجاج تمثل دخلاً كبيراً لخزانة الدولة المملوكية . وأضاف إنه يمكن التحكـم فى عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوربيون إلى الأراضـــى المقدسـة ،

---

(1) G. A. op.cit, P. 537.

(2) G. A. op.cit, PP. 526-7.

وذلك بمنع الحج تماماً إلى القدس ، لأن الرسوم التى يقدمها هؤلاء الحجاج تمثل دخلاً كبيراً لخزانة الدولة المملوكية . وأضاف أنه يمكن التحكم فى عملية الحج عن طريق قبرص أثناء رسو الحجاج فيها وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس . كذلك نادى بإنزال العقاب بكل من يساعد هؤلاء الحجاج سواء بالسفن أو الاستضافة ، وطلب وجوب مصادرة أمتعة هؤلاء الحجاج دون أية مسئولية(١) . وطالب كذلك بتطبيق هذه العقوبات على كل من يقوم بنقل البضائع الرقيق إلى مصر أو يقوم بالوساطة بين الإمبراطور البيزنطى وخان القفجاق وبين سلطان مصر(٢) .

ولما كان وليم آدم يرى أن عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة غير كافية لمنع التجار الأوربيين المتعاملين مع مصر ، فقد طالب البابوية بإعداد بعض السفن المسلحة ووضعها تحت تصرف حكام جزيرة خيوس(٣) ، لأنهم من الحكام الأقوياء المدافعين عن المصالح الأوربية الصليبية ، وخاصة أن موقع هذه الجزيرة من الأهمية بمكان لوقوعه على الطريق البحرى بين القسطنطينية والأسكندرية ، وباستطاعة حاكم هذه الجزيرة قطع الاتصال التجارى بين مصر من جهة وبين خان القفجاق والإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى . وركز وليم آدم على ضرورة غزو القسطنطينية وخصص لذلك جانباً كبيراً من كتاباته ، واعتبر هذا العمل حجر الزاوية لأى مشروع لضرب المصالح الاقتصادية(٤) .

---

(1) G. A. op.cit, P. 528.

(2) G. A. op.cit, PP. 424-5, 544.

(3) G. A. op.cit, P. 533.

(4) G. A. op.cit, P. 531.

وقد سجل وليم بعض الآراء التى عزز بها وجهة نظره لغزو الإمبراطورية البيزنطية ، منها أن تبدأ أوربا بغزو آسيا الصغرى حتى تكون على اتصال برى بتلك الأنحاء قبل غزو بلاد الشام ، لأن غزو بلاد الشام قبل غزو آسيا الصغرى يجعل القوات الصليبية محاطة بالأتراك والعرب من كل جانب . وذكر وليم أنه إذا كانت الغاية النهائية لكل هذه الأعمال هى السيطرة على مصر ، فإن السيطرة على آسيا الصغرى لابد أن تبدأ من القسطنطينية لاتخاذها نقطة ارتكاز لاستكمال فتح آسيا الصغرى . ولم يستبعد وليم آدم رغم هذا كله الحلول السلمية لاحتواء الإمبراطورية البيزنطية وضمها إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية . وطالب البابا بمحاولة إقناع حكام بيزنطة باعتناق المذهب الكاثوليكى ، أما إذا فشل البابا فى ذلك فإن السلاح يصبح الحل الأمثل ، خاصة أن هناك تعاونا كبيراً بين الإمبراطورية والجنوية(١) .

وفى الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية ، أنحى آدم باللائمة عليها وذكر أنه يجب معاملة البيزنطين بمنتهى الشدة ، وركز على أنه لا يمكن سيطرة أوربا على بلاد الشام دون الهيمنة على الإمبراطورية البيزنطية التى تتآلف مع مصر والتى تقع إلىالشمال منها . وتصور أنه من السهولة السيطرة عسكرياً على بيزنطة من أجل تسخير ثرواتها لخدمة القضية الصليبية ، وأنه بالإمكان بعد ذلك اتخاذ الطريق البرى عبر هنغاريا إلى بلاد الشام ، وهو طريق أسهل من الطريق البحرى . وحول هذا الصدد روى وليم أنه إذا كان على أوربا أن تحارب المسلمين ، فعليها أولاً إعادة الابن الضال أى الإمبراطورية البيزنطية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية(٢) .

---

(1) G. A. op.cit, PP. 545, 547.

(2) G. A. op.cit, P. 545.

وبالإضافة إلى ذلك عدد وليم آدم ما ذكرته المصادر الصليبية عن الأضرار التى لحقت بالحملةالصليبية الأولى بسبب موقف الإمبراطورية البيزنطية من جودفرى Godfery(١) ، وذكر قصة الدقيق المخلوط بالجير الذى باعة البيزنطيون للصليبين – وهو هنا يقصد ما سجل عن بعض أحداث الحملة الصليبية الثانية(٢) ، واغتصاب آل باليولوج Palaeologus لعرش الإمبراطورية البيزنطية ، والمراد هنا عودة أسرة باليولوج لحكم بيزنطة فى عام ١٢٦١م ، والقضاء على حكم اللاتين . والحقيقة أن وليم آدم عدد مساوىء كثيرة للأباطرة البيزنطيين خاصة موقفهم من توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وأفرد لها صفحات طوال(٣) .

* * *

وتبقى نقطة أخيره فى هذا البحث ، وهى التى تتعلق بوقف تدفق البضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والخليج . فالحقيقة أن فكرة القيام بحصار مصر بحرياً كانت من الأفكار التى ساندتها البابوية قبل عام ١٢٩١م من أجل الإبقاء على الإمارات الصليبية فى بلاد الشام ، أو بعد سقوط هذه الإمارات من أجل استعادتها مرة أخرى . ومن المعروف أن بقاء أو قيام هذه الإمارات كان مرهوناً بموقف القوى لإسلامية المحيطة ببلاد الشام خاصة مصر ، ونذكر على سبيل المثال الأفكار التى نادى بها الرحالة والمفكر مارينو سانودو Marino Sanudo ، ولكنه قصر أفكاره على حصار مصر اقتصادياً من ناحية البحر المتوسط فقط(٤) .

---

(1) Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, tran, F.R. Knoxville, 1964, P. 79.

(2) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, tran, A.C. Krey, New York, 1943, II, P. 168 ff.

(3) G. A. op.cit, P. 529-30, 545 ff.

(4) Atiya, op.cit., PP. 114-127.

ومن الواضح أن وليم آدم كان أول من نـادى بحصـار مصـر اقتصادياً عن طريق الجنوب والشمال أى عن طريق الخليج ، وباب المنـدب مـن جهـة والبحر المتوسط من جهة أخرى ، لأنه استهدف إغـلاق طريـق بـاب المنـدب فى وجه التجارة القادمة إلى مصر بحراً من الشرق الأقصى . وقد أدرك وليم مسبقاً صعوبة تنفيذ ذلك المشروع باعتباره مشروعاً غير مسبوق ، لذلك نـراه يقدم بعض المعلومات التـى استند إليهـا لتنفيذ هـذه الفكـرة ، فذكـر أن بعـض الجنوييـن حـاولوا تنفيـذ جانبـاً مـن هـذا المشـروع لأسـباب تجاريـة . وبفضـل مساعدة خان مغول فارس أرغون Arghun (١٢٨٤ - ١٢٩١م) فإن هؤلاء الجنويين قاموا بإعداد سفينتين فى بغداد ، وكانوا يودون تسيير هذه السفن فـى نهر الفرات - ولعله يقصد نهر دجلة - ومنه تسير إلى المحيـط الهنـدى عبر الخليج . ولكن هذا المشروع لم يستكمل بسبب بعض الخلافات التى قامت بين هؤلاء الجنويين(١) .

وعندما عرض وليم هـذا المشـروع ذكـر أن شـواطـىء المحيـط الهنـدى مملوءة بأشجار التك والصنـدل التـى تصلـح أخشـابها تمامـاً لبنـاء السـفن(٢) . وقال أنه يجب أن يتم ذلك بعيداً عن أعين التجار المسلمين سكان مدينــة عـدن الذين يتولون أمر الملاحة فى البحر الأحمر . واقـترح أن توضـع هـذه السـفن فى جزيرة هرمز ، ولعله يقصد جزيرة قشم التى كـانت ضمـن أمـلاك الدولـة المغولية فى فـارس ، أو فـى جزيـرة أخـرى أسـماها ديـف Dive ، أو إقامتهـا علـى السـاحل الهنـدى . ولعـل فـى اسم ديـف تشـابه مـع جـزر الكـارديف أو مـالديف ولكـن الأخـيرة تبعـد كثيراً إلـى الجنـوب ، لأن عبـارة وليـم تفيـد أن

---

(1) G. A. op.cit, P. 551.

(2) G. A. op.cit, P. 552.

جزيرة ديف قريبة من جزيرة هرمز . وأشار أيضاً إلى أنه بالإمكان إعداد هذه السفن على الساحل الغربى للهند فى مدينة تانا Tana وهى بومباى حالياً ، أو فى مدينة كامباى Cambay وهى تحمل الاسم نفسه حتى الآن ، أو مدينة كولوم Colom وهو كولومبو حالياً التى تقع فى جزيرة سيلان حيث تنمو بكثافة أشجار التك والصندل . ويضيف وليم أنه إذا تم إعداد ثلاث سفن أو أربع فإنه بالإمكان غلق فتحة باب المندب ومراقبة السفن القادمة من الهند إلى البحر الأحمر(١) ، وستكون هذه السفن بمثابة عوائق تسد المدخل إلى البحر الأحمر ، وفى هذه الحالة يمكن استغلال جزيرة سوقطرة أيضاً .

وأشار وليم إلى أن سكان الجزر التى أشار إليها مسيحيون وأنهم يكرهون المسلمين ويفضلون التعامل مع السفن المسيحية ، ولذا فإنهم سوف يساعدون السفن المزمع إعدادها للرسو فى موانيهم . أما فيما يتعلق بالتجار الذين يعملون على ظهر السفن من الهند إلى عدن ، وهم الذين سماهم وليم بالمهربين ، فإنهم يجهلون أصول الحرب البحرية وليس لديهم سفن لحمايتهم ، وإذا ما تعرضوا لهجوم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم،وإنهم يصدون سهام الأعداءأو القراصنة البحريين بدروع مصنوعة من القش أو سعف النخيل(٢) .

كذلك رأى وليم آدم ضرورة وجود ميناء صالح قريب من هذه المواقع حتى تلجأ إليه سفن الحراسة للقيام بعملية الصيانة الموسمية ، ومن أجل تخزين البضائع التى يتم الاستيلاء عليها . وأختار لذلك الجزر الموجودة فى مدخل الخليج عند مدينة هرمز باعتبارها المكان المناسب للرسو ، وهى آمنة كذلك لتبعيتها لخان مغول فارس الذى يسعى جاهداً لضرب التجارة المصرية

---

(1) G. A. op.cit, P. 550.

(2) G. A. op.cit, P. 554.

وإذا تعذر الحصول على موافقة الخان فإنه يمكن البحث عن مكـان آخـر مثـل أرخبيل ديف على وجه التحديد(١) .

كذلك تحدث وليم عن مسألة تسليح السفن وإمدادها بالمقـاتلين ، وقـال يلزم لذلك إعداد حوالى ألف ومائتين من الرجال ، وإن هذا أمر متروك للقـائد الذى سيتولى قيادة هذه السفن . أما تمويل هـذه السفن فـأمر يتـولاه البابـا مـن حصيلة صكوك الغفران ، أو من أثمان السلع التى تصـادر مـن التجـار الذيـن يتاجرون مع مصر(٢) .

هذه هى الأفكار الرئيسية التـى قدمهـا وليـم آدم للقضـاء اقتصاديـاً علـى الدولة المملوكية ، وما يتبع ذلك من القضاء عليها عسكرياً ، ويمكـن تلخيـص هذه الأفكار فى النقاط التالية :

١ – وضـع الموانـى المملوكيـة – خاصـة مدينـة الأسـكندرية – تحـت الحصار الاقتصادى الأوربى .

٢ – إنزال قرار الحرمان من رحمة الكنيسة علـى جميـع التجـار الذيـن يتعاملون مع مصر .

٣ – إعداد السـفن اللازمـة لمراقبـة حركـة التجـارة فـى حـوض البحـر المتوسط ومعاقبة من يتعامل مع مصر ومصادرة سلعه .

٤ – وقف حركة الحج الأوربية إلى الأراضى المقدسة لحرمان الخزانة المصرية من الأموال التى يدفعها الحجاج للدولة المملوكية .

---

(1) G. A. op.cit, P. 552.

(2) G.A., op.cit, P. 553.

٥ - الاستيلاءعلى مدينة القسطنطينية ، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية باعتبارها دولة مارقة على الدين المسيحى،وكانت دائماً تقف موقف الخيانة من القضية الصليبية ، فضلاً عن أنها مرتبطة بمصر اقتصادياً ، بالإضافة إلى قيامها بدورالوسيط فى نقل التجارة بين مغول القفجاق وبين مصر .

٦ - قطع طريق التجارة التى ترد من الشرق الأقصى ، وذلك بغلق مضيق باب المندب بالسفن الحربية .

٧ - تحويل التجارة القادمة من الشرق الأقصى إلى الخليج ومنها إلى نهر الفرات ثم براً إلى دولة وموانى أرمينية .

* * *

والحقيقة أنه كان لأفكار وليم آدم صدى كبير فى أوربا ، فقد عارضها البعض ، ومن هؤلاء فيليب الخامس Philip V ملك فرنسا (١٣١٦-١٣٢٢م) ، ورأى أن فى إعداد مثل هذه الحملات فرصة لقيام البابا بجمع الأموال واستخدامها فى أغراض أخرى . ولكن يبدو أن البابوية اهتمت بهذه الأراء ، وقام البابا يوحنا الثانى والعشرون بالإعداد لحملة تكون وجهتها القسطنطينية ، وأسند هذا العمل إلى روبرت ملك نابلى Robert of Naples (١٣٠٧-١٣٤٣م) . على أن هذه الحملة فشلت ولم تتجه إلى القسطنطينية[١] .

على أنه إذا كانت أفكار وليم آدم لم تجد من ينفذها فى عصره ، فإنها وجدت فى العصور التالية ، سبيلاً لتحقيق بعضها من خلال الكشوف الجغرافية .

---

(1) C. M. H., London, 1979, IV, P. 416.

دور الأسبان فى الحركة الصليبية

فى القرن العاشر الهجرى – السادس عشر للميلاد

أ. د. شوقى عطا الله الجمل(*)

البرتغال والأسبان يفتتحون صفحة جديدة فى الحروب الصليبية :

ليس من الصواب أن يعتقد البعض أن الحروب الصليبية انتهت فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد بخروج آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام . والواقع إن الحروب الصليبية دخلت منذ بداية القرن الرابع عشر دوراً جديداً يتميز بطابعه البحرى من جهة وبنشاط التيار الصليبى فى غرب حوض البحر المتوسط من جهة أخرى .

ويعنينا فى هذا البحث أن نلقى الأضواء على حقيقة تاريخية لها أهميتها فى تاريخ الحركة الصليبية ، هى أن البرتغال ، والأسبان حملوا لواء حركة دينية متأخرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، يعتبرها بعض المؤرخين إمتداداً للحركة الصليبية . ذلك أن القائمين بهذه الحركة صرحوا بأن هدفهم تعقب القوى الإسلامية التى طردوها من شبه جزيرة أيبريا والتى لجأت إلى ثغور شمال أفريقيا ، بل وضرب القوى الإسلامية سواء فى الشمال الأفريقى أو فى المشرق العربى ، ومنعها من مزاولة نشاطها ، وتطويقها والإجهاز على مصادر قوتها المتمثلة فى تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة التى تمارس عن طريقها هذا النشاط التجارى .

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر معهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة

وكان أن نجح البرتغال فى ختام القرن الخامس عشر فى اكتشاف الطريق الجديد لشرق أفريقيا ، فحولوا تجارة الشرق إلى هذا الطريق الجديد بعد أن هزموا الأسطول المملوكي في موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩ ، واتصلوا بالحبشة – المملكة المسيحية الوحيدة فى أفريقيا فى ذلك الوقت – وأتفق الطرفان على القيام بحملات مشتركة ضد القوى الإسلامية ، وبذلك شكلوا تهديداً حقيقياً للأماكن المقدسة الإسلامية والطرق المؤدية إليها(١) .

أما الأسبان فبعد أن نجحوا فى طرد المسلمين نهائياً من بلادهم بسقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين فى الأندلس فى يد الأسبان فى عام ١٤٩٢ – أخذوا يتعقبونهم فى المدن الساحلية على الشاطئ الشمالى لأفريقيا (٢) .

وصية الملكة إيزابيل لأبنتها جوانا (Joanna) وزوجها فيليب :

وكانت أسبانيا فى أوائل القرن الخامس عشر مقسمة إلى ممالك متعددة ، ولكن حدث فى عام ١٤٦٩ م أن أصبحت أسبانيا دولة أوربية قوية وذلك بعد اتحاد دولة أرجونة البحرية ودولة قشتالة – نتيجة زواج فرديناند صاحب أرجونة من إيزابيلا صاحبة قشتالة ، وقد خلفا أبنتهما جوانا (Joanna) .

وقد تزوجت جوانا من فيليب الأول صاحب الفلاندرز ، ولكن الزوج لم يلبث أن توفى فى ريعان شبابه فى عام ١٥٠٦ بعد زواجه من الأميرة الأسبانية بعشر سنوات ، فخلفه أبنهما شارل الأول (Charles I) الذى صار فى عام ١٥١٦ وارثاً لعرش أسبانيا ، كما أنتخب فى عام ١٥١٩ إمبراطوراً

(١) من يريد معلومات كاملة عن دور البرتغال فى أفريقيا يرجع إلى
Duffy , James : Portuguese Africa (London 1959)

(٢) من أهم المراجع عن الوجود الإسلامى فى الأندلس ونهايته :
محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة ١٩٦٦) .

للدولة الرومانية المقدسة ، بالإضافة إلى حكم أسبانيا والأراضى المنخفضة . وقد تلقب بلقب شارل الخامس (Charles Quint) وقدر له أثناء حكمه (١٥١٦ – ١٥٥٦) أن يلعب دوراً حاسماً فى الحروب الصليبية ضد المسلمين كما سنوضح بعد .

وهنا تنبغى الإشارة إلى أن الملكة إيزابيل قبل وفاتها أوصت جوانا ، وزوجها فيليب " أن يكرسا جهدهما لإخضاع الأقطار الإسلامية فى شمال أفريقيا ، ونشر المسيحية بين سكانها " .

وكان أن كرست الابنة وزوجها جهدهما لتحقيق وصية إيزابيلا الأم ، وإن كانت وفاة فيليب فى ريعان شبابه لم تمكنه من تحقيق هذا الهدف لكن ابنهما شارل عمل على تحقيقه .

وكان الأسبان عند استيلائهم على آخر معقل للمسلمين فى الأندلس (غرناطة) فى عام ١٤٩٢ قد تعهدوا بتأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم، واحترام دينهم وشعائرهم ، غير أن الأسبان نكثوا بهذا العهد فأضطر عدد كبير من المسلمين للهجرة إلى البلاد العربية فى شمال أفريقيا ، واستقر عدد كبير منهم فى تطوان ، وسلا ، والرباط ، فضلا عن ثغور الجزائر (١) .

تحمس الكاردينال إكزيمنس (Ximenes) لتحقيق هذه الأطماع الصليبية :

أما البابوية فقد تحمست لتحقيق وصية الملكة الأسبانية ، كما برز فى هذا المجال عدد من الكرادلة من أمثال الكاردينال إكزيمنس (Ximenes) الذى تحمس لفكرة الغزو الصليبى لثغور الشمال الأفريقى ، وتحويل سكانها

---

(١) عبد الرحمن بن محمد الجيلانى : تاريخ الجزائر العام جـ٢ (١٩٥٥) ص ١٨٢ .

إلى المسيحية ، وإتخاذ هذه الثغور مراكز للزحف منها على المشرق العربى . وقد شارك هذا الكاردينال مشاركة فعالـة فـى إعداد الحمـلات الأسـبانية علـى الشمال الأفريقى .

هذا إلى أن الكاردينال إكزيمنس دعا الدول المسيحية فـى أوربـا لتقديـم الدعـم للأسبان فـى حملاتهـم المزمـع إرسـالها للاستيلاء علـى ثغـور الشـمال الأفريقى .

ومن ناحية أخرى باركت البابوية هـذا الأمـر . ولمـا أتضـح أن أطمـاع البرتغال والأسبان فى نشاطهم الكشفى والاستعمارى كادت تؤدى إلى اصطدام بين الدولتين ، تدخـل البـابا إسكندر السـادس لتصفية الجـو بينهمـا لتتفرغـا لما أُطلق عليه فى ذلك الوقت (الحـرب الصليبيـة ضـد المسـلمين فـى شـمال أفريقيا) ، ففرض على الدولتين معاهدة توردسيلاس Tordesllas فى ٧ يونيـة ١٤٩٤ وبموجبهـا أصبح من نصـيب الأسـبان الأماكن الواقعـة شـرقى (حجر باديس) بينما صار من نصيب البرتغال المناطق الواقعـة غربـى هـذه المنطقة .

ثـم إن الذيـن نـادوا بهـذه الحمـلات بـرروا عملهـم هـذا بـأن المسـلمين الذيـن لجـأوا إلـى ثغـور الشـمال الأفريقـى أخـذوا يمارسـون عمليـة القرصنـة ضـد السـفن الأوربيـة ، وأنهـم أصبحـوا يُهـددون الملاحـة فـى البحـر المتوسـط .

والحقيقة أن أطماع الدول الاستعمارية - خاصة أسبانيا والبرتغال ، ثـم الدول البحرية الأخرى فيما بعد - فى بسط نفوذها على مدن وموانـى الشـمال الأفريقى ، جعلت أهالى المدن والموانى الإسلامية فى شمال أفريقيا يختـارون

حكامهم من رجال البحر القادرين على مواجهة الخطر الأجنبى ؛ ومن ثم أصبح الأهالى فى هذه الموانى والمدن فى ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، يختارون منهم القادرين على حمايتهم شخصياً وينصبونه حاكماً عليهم ، ومن ثم ظهرت بعض الأسرات البحرية الحاكمة مثل أسرة القرمانلى فى ليبيا وأسرة عروج وأخوه خير الدين فى الجزائر . واضطرت الدولة العثمانية فيما بعد للاعتراف بهذه الأسر القوية . ونشير هنا إلى أن الدول الأوربية كانت تمارس نفس النشاط فى البحر المتوسط ، فتهاجم السفن الإسلامية وتنهبها وتأسر من فيها . وكان الحسن بن الوزان (ليو الأفريقى) صاحب كتاب وصف أفريقيا – أحد هؤلاء الذين سقطوا فى أيدى إحدى السفن الإيطالية . أما العملية التى أطلق عليها الأوربيون عملية قرصنة فلم تكن فى نظر المسلمين الذين طُردوا من الأندلس بعد أن ظل أجدادهم بها قرابة ثمانية قرون – إلا من قبيل حرب جهاد مارسوها ضد الدول التى طردتهم ، طالما أنهم لا يملكون القوة لمواجهة جيوشها فى معارك حربية حاسمة . ويذكر دو كاسترى الذى كتب عدة مجلدات عن تاريخ المغرب من واقع الوثائق الأصلية الموجودة بدور الوثائق ، أنه كانت هناك أربعة مراكز هامة لهذا النوع من الحرب البحرية فى الجزء الغربى من البحر المتوسط هى طرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، وسلا(١) .

---

(١) انظر :

عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة – مجلة تطوان ٥٨ ، ١٩٥٩ (العدوان ٣ ، ٤) وكذلك

Roger Con dreau : Les Corsaires de Sale (Paris 1948)

– وكذلك :

De Castries Le Comte : Les Sources Inedites de L ' Histoire du Maroc (19 Volumes - Paris 1905 - 1924).

نشاط الأسبان الاستعمارى فى ثغور شمال أفريقيا :

وقد بدأ نشاط الأسبان الاستعمارى ضد ثغور شمال أفريقيا الإسلامية فى عهد الملك فرديناند (١٤٥٢ - ١٥١٦) الذى أشهر باسم فرديناند الكاثوليكى Ferdinand The Catholic(١) دلالة على تعصبه الدينى والمذهبى .

وبعد سقوط غرناطة - آخر معقل للمسلمين فى أسبانيا فى سنة ١٤٩٢ طارد المسلمين واليهود من أسبانيا .

وفى سبتمبر ١٥٠٥ أرسل فرديناند قائده دون ديجو ديفيرا Don Diego Devera على رأس ١٠,٠٠٠مقاتل لشمال أفريقية ، فأبحروا من مالطة بهدف الاستيلاء على ميناء المرسى الكبير غربى وهران ، وبعد معركة حامية مع القوات المدافعة عن الميناء احتله الأسبان وأخذوا يعملون لتثبيت أقدامهم فيه ليتخذوه نقطة إنطلاق لاحتلال المناطق الأخرى فى الشمال الأفريقى .

ولعل اختيار الأسبان لميناء المرسى الكبير بداية لعملياتهم الاستعمارية على الثغور الإسلامية فى الشمال الأفريقى - يرجع إلى موقعه الهام ، وصلاحية الميناء لرسو السفن ، بالإضافة إلى أنه كان مأوى لعدد من العناصر الإسلامية التى فرت من أسبانيا بعد سقوط غرناطة .

واتجهت أنظار الأسبان بعد أن استقروا فى المرسى الكبير إلى قرية (مسرغين) الواقعة على مسافة خمسة عشر كيلو متراً من وهران . ويبدو أن الأسبان لم يكونوا يتوقعون أن يجدوا مقاومة قوية لهم فيها . ويرجع

---

(١) اشتهر الملك فرديناند بسبب تمويله حملة كريستوفر كولومبس(Christopher Columbus الكشفية الشهيرة).

اهتمامهم بالاستيلاء على هذه القرية إلى حاجتهم للمواشي التي تسد حاجة جيشهم الجرار الذي أتوا به إلى المرسى الكبير - لكنهم فوجئوا بأهالي القرية والمدافعين عنها يقفون في وجه الجيش المغير مدافعين بصلابة عن حقهم في بلادهم وعن ممتلكاتهم ودينهم . وأتاح صمود سكان القرية الفرصة لوصول النجدات التي تدفقت من القرى المجاورة ، ومن وهران ذاتها . ودارت الدائرة على الجيش الأسباني فقتل منه ما ينيف على ٣,٠٠٠ جندي ، وفر الباقون إلى المرسى الكبير للإعتصام بأسواره المنيعة .

وفي عام ١٥٠٨ أرسل الملك الأسباني حملة أخرى بقيادة بدرو دي نافارو (Pedro De Nafaro) نجحت في الاستيلاء على (حجر باديس) بموقعها الممتاز على سواحل المغرب الشمالية(١) .

وهكذا تابع الأسبان نشاطهم الاستعماري في تلك الجهات بقيادة الجنرال بدور دي نافارو - فأرسلوا حملة في عام ١٥٠٩ لمهاجمة وهران ذاتها ، ووصلت الحملة إلى المرسى الكبير . وبعد أن أتمت إستعداداتها زحفت صوب وهران . ونجح القائد الأسباني في رشوة عدد من القبائل الموجودة في الميناء، بالإضافة إلى عدد من الأسر الأسبانية التي كانت مقيمة به وتعمل بالتجارة وغيرها من الأعمال المتعلقة بالملاحة في البحر المتوسط ، ومن اليهود الذين هاجروا من أسبانيا للشمال الأفريقي والذين وعدهم بتسهيل عودتهم لمزاولة نشاطهم السابق في أسبانيا . ولذا لم يجد الجيش الغازي المقاومة المتوقعة من حراس هذا الثغر الهام وسكانه ، فتدفق الجنود الأسبان على المدينة ، في حين فر من استطاع الفرار من أهل وهران . وأعمل الجنود الأسبان القتل والذبح فيمن لم يستسلم ، ومن عجز عن الفرار ، ومن

---

(١) الجيلاني : مرجع سابق جـ٢ ص١٨٢ .

أقعدهم المرض عن المقاومة أو الفرار من المذبحة البشعة التى راح ضحيتها نحو ثمانية آلاف من الأبرياء، وأنتهكت حرمات المنازل والمساجد .

وهران مركزاً لنشاط الأسبان الاستعمارى فى الشمال الأفريقى :

كان لسقوط وهران فى يد الأسبان دوى عنيف فى العالم الإسلامى كله، فانبرى العلماء والشعراء يستثيرون همم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، للوقوف فى وجه الغزاه الطامعين فى أراضيهم .

ومن ذلك قصيدة الشيخ أحمد بن القاضى عبد الله بن مجلى أحد علماء سجلماسة جاء فيها(١) .

يا معاشر الإسلام فى كل موطن	وفى كل ناد سالف ومعاصر
يا سادة العربان من آل هاشم	وغيرهم ، بالله ماصبر صابر
يا معاشر الأتراك يا كل العالم	وكل ولى حافظ للأوامر
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم	لدى الله فى (وهران) أمر الخنازر

وفى قصيدته هذه يستحث همم المسلمين ، وكذلك العثمانيين الذين كانوا يمثلون القوة البارزة فى العالم الإسلامى عندئذ ، كما يندد بالقبائل التى آزرت الأسبان ويسرت لهم دخول الميناء واعتبرها قبائل خائنة لدينها ومبادئها .

وقد أصبحت (وهران) مركزاً لنشاط الأسبان فى الشمال الأفريقى ، كما كانت مليلة التى سقطت فى يد الأسبان فى وقت مبكر مركز ملاحظة ومراقبة لحركات الأسطول العثمانى وللأوضاع فى المغرب الأقصى . وبذلك

(١) القصيدة كلها منشورة فى :

عبد القادر ، المشرفى : بهجة الناظر فى أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان كبنى عامر (الجزائر ١٩٢٤) .

غدت مليلة ووهران مأوى للخارجين علـى السلطـات الحاكمة فى المغـرب أوالمناوئين لهذه السلطات .

ومنذ أواسط القرن السادس عشر كان حاكم وهران الكونت دى الكوديت – أى أمير قرطبة (Comte D'Alcaudete) – بشخصيته القوية واتجاهاته الصليبية هو المحرك (الدينمو) والمنفذ للسياسة الاستعمارية الأسبانية فى الشمال الأفريقى . ويحوى الأرشيف الأسبانى عدة مراسلات توضح السياسة التى اتبعها هذا الحاكم الأسبانى ، ونشاطه الاستعمارى فى تلك الجهات ، فهو تارة يؤيد الثائرين على السلطات الشرعية وأخرى يساند المطالبين بالعرش . وكان حول هذا الأمير الأسبانى عدد من الجواسيس مثل يعقوب كانسينو (Jacob Cansino) وهو يهودى ، وتاجر آخر جنوى كان مقيماً فى المغرب لمدة طويلة يدعى بولو جريللو (Polo Grillo) ، وغيرهم من الذين احتضنهم الكونت دى الكوديت واستخدمهم لتحقيق أهدافه(١) .

حملات من وهران للاستيلاء على باقى ثغور الشمال الأفريقى :

وبعد الاستيلاء على وهران اتجه الأسبان لاتمام مشروعهم الاستعمارى بالاستيلاء على باقى مدن الشمال الأفريقى ، فأرسلوا أسطولاً من ١٤ سفينة حربية عليها ١٠,٠٠٠ جندى صوب (بجاية) ، فهاجموا المدينة العظيمة ودخلوها عنوة . ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى نقل ما بها من تحف ونفائس إلى أسبانيا فى مراكب غرق عدد كبير منها فى الطريق ، كما عمدوا إلى تحطيم ما تعذر نقله . وهدموا قصر اللؤلؤة الذى يُعتبر من أبدع نماذج الفن

---

(١) ظل الكونت دى الكويت يباشر نشاطه الاستعمارى فى وهران وما حولها إلى أن قُتل فى عام ١٥٥٨ على يد الجيش العثمانى فى مستغانم كما سنوضح بعد .

المعمارى الجزائرى . كذلك حطموا (قصر الكوكب) ليبنوا مكانه حصناً لهم. وهدموا المسجد الجامع . واتخذوا من بجاية مركزاً ثانياً لمواصلة فتوحاتهم فى الشمال الأفريقى .

ثم كان أن واصل الأسبان فتوحاتهم فى الجزائر فاستولوا على (شرشال) ، (بونة – عنابة) وغيرها من المدن الساحلية .

واضطر الجزائريون للخضوع – مؤقتاً – للقوة الغاشمة ، فكونوا وفداً منهم برئاسة الشيخ سالم التومى الثعالبى للتوجه إلى بجاية لمفاوضة القائد العسكرى الأسبانى بدرو دى نافارو (Pedro De Nafaro) لعقد صلح بين الطرفين ووقف الغارات الأسبانية المدمرة على المدن والموانى الإسلامية بشمال أفريقيا .

وقد نصح القائد الأسبانى الوفد بالتوجه إلى أسبانيا وتقديم فروض الطاعة للملك فرديناند الخامس .

وفعلاً سافر الوفد الجزائرى محملاً بالهدايا للملك الأسبانى ، وعقد صلح إتفق فيه على ما يلى(١) :

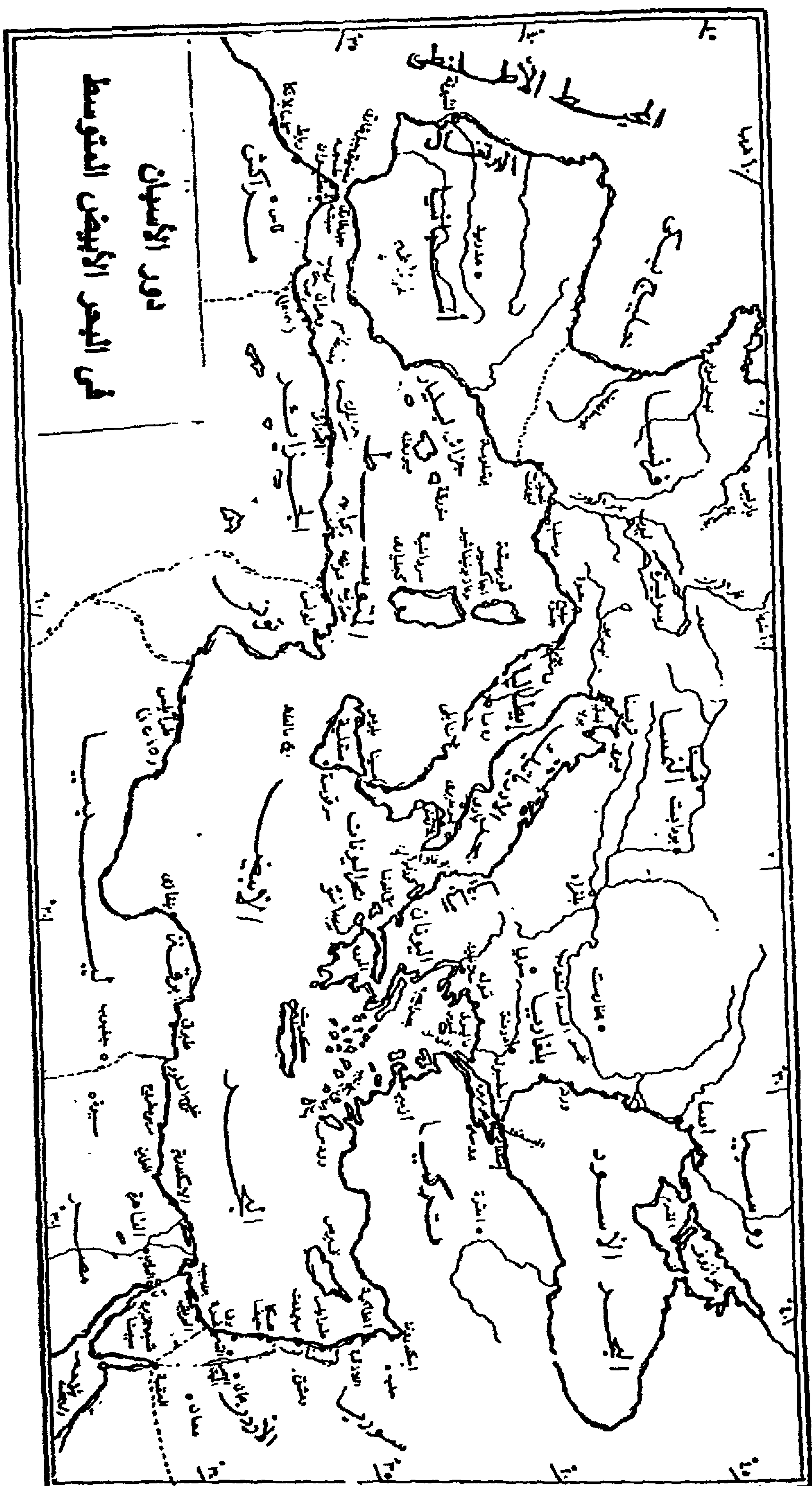
١ – يفُرج الجزائريون عن جميع الأسرى الأسبان الذين تحت أيديهم .

٢ – يتسلم الأسبان إحدى الجزر الواقعة تجاه مدينة الجزائر ويبنى الأسبان على هذه الجزيرة حصناً ، حصن الـ (Penion) ليكون مركز قيادة ومراقبة لهم .

٣ – يدفع الجزائريون سنوياً مبلغاً من المال لأسبانيا رمزاً لتبعيتهم .

---

(١) محمد بن أبى شنب (ناشر) : الذخيرة السنية (الجزائر ١٩٢٠) .


دور الأسبان
في البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلنطي

وقد قام الأسبان فعلا بتشيد الحصن ، وشحنوه بالسلاح والجنود ، وأصبحت مدافع الحصن تهُدد مدينة الجزائر نفسها ، كما أصبحوا يراقبون حركة المسلمين فى البحر ا لمتوسط ، وفى ثغوره القريبة .

وهكذا اضطرت عدة موانى أخرى على سواحل المغرب الأوسط مثل (دلس) ، و(تنس) و(مستغانم) إلى أن تعترف بسلطان الأسبان .

الأسبان يستولون على طرابلس :

فى عام ١٥١٥ استولى الأسبان على طربلس الغرب ، واتخذوها قاعدة لعملياتهم البحرية فى تلك المنطقة البعيدة عن غرب البحر المتوسط . وظل الأسبان يحكمون طرابلس حتى عام ١٥٣٥ حين تنازلوا عنها .لفرسان القديس يوحنا(١) .

ولما استولى الأسبان على ميناء طرابلس أصبحوا يسيطرون على تجارة الميناء واحتكروها ، وبذلك أصبحت الملاحة فى البحر المتوسط تحت رحمتهم .

وإذا كان البرتغال بعد كشفهم طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر قد حولوا التجارة - خاصة بعد فوزهم فى موقعة ديو

---

(١) زار ليو الأفريقى طرابلس والموانى الأخرى فى ليبيا القريبة منها فى الفترة التى كان الأسبان يسيطرون فيها على هذه الموانى - وذكر أن الأسبان أحاطوا ميناء طرابلس بسور ضخم لحمايتها من هجوم الليبيين . وعند حديثه عن (تاجورا) ذكر أن سكانها تضاعف عددهم بسبب نزوح الطرابلسيين إليها بعد استيلاء على طرابلس
Bory ,John (Ed) : The History and Description Of Africa Vol . LL (London 1889)
والكتاب ترجمه أخيراً د . عبد الرحمن حميدة (صدر عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية) .

البحرية ١٥٠٩ إلـى الطريـق الجديـد ؛ وبذلـك أصبـح البحـر الأحمـر والبحـر المتوسط شبه بحيرتين راكدتين لأن سيطرة الأسبان على الموانـى الهامـة فـى البحر المتوسط زادت فى عزلة العالم الإسـلامى وأثـرت أكـثر علـى الملاحـة والتجارة فى البحر المتوسط .

الدولة العثمانية تتصدىللتهديد الأسبانىلمدن وثغور الشمال الأفريقى:

نجحت الدولة العثمانية فى مد نفوذهـا علـى الشـام فـى ١٥١٦ ، وعلـى مصر ١٥١٧ ، هذا بالإضافة إلى توغل العثمانيين فى قلب القـارة الأوربيـة ، وفتحهم جبهة بحرية فى حوض البحـر المتوسـط باستيلائهم علـى العديـد مـن جـزره التـى اتخذوهـا - كمـا سنوضـح - مـع أمـاكن اسـتقرارهم فـى الشـمال الأفريقى - قواعد عسكرية لهم .

وهكذا كـان علـى الأسبان بعـد تخلصهـم مـن المسـلمين فـى الأندلـس وتتبعهم لهـم فـى ثغـور الشـمال الأفريقـى ، أن يواجهـوا أيضـاً هـذه الموجـة الإسلامية الجديدة المتمثلة فى العثمانيين ، والذيـن أصبحـوا يمثلـون فـى نظـر الأوربيين خطراً داهماً على العالم المسـيحى ، خاصـة بعـد أن اندفعـت قـوات العثمـانيين فـى عـام ١٥٢٩ صـوب فيينـا فـى محاولـة لاقتحـام هـذه العاصمـة الحصينة ، وبعد أن تعرض الساحل الشرقى لشبه جزيرة إيبريـا ذاتهـا لهـزات كثيرة من جانب العثمانيين(١) .

---

(١) تعددت غارات العثمانيين وحملاتهم على ثغر (بلنسية) بـالذات ، وكـان يتجمـع فـى هذا الثغر المضطهدون من المسلمين المتبقين فى أسبانيا . وكان مـن أهداف الهجوم العثمانى على الثغر - تخليص من يمكن تخليصهم منهم من اضطهاد الأسبان .

لمزيد من التفاصيل - انظر :

محمد عبد الله عنان : مرجع سابق .

وفيما يتعلق بالجزائر ، فقد ارتبطت حركة الكفاح ضد الأسبان فيها باسم اثنين من البحارة هما الأخوان (عروج) و (خير الدين)(١) .

أما عروج فقد إتخذ من جزيرة جربة التونسية قاعدة لنشاطه في البحر المتوسط بناء على اتفاق مع السلطان الحفصي محمد بن الحسن . وقد أخذ صيته يذيع وتتناقل الألسنة القصص عن جرأته في نقل أعداد كبيرة من مسلمي الأندلس وانقاذهم من يد الأسبان ، مما أدى إلى استنجاد المدن الساحلية في المغرب به لتخليصها من براثن الأسبان ، حتى بُترت ذراعه في أثناء محاولته في عام ٩١٨هـ / ١٥١٢ تخليص (بجاية) منهم .

وفي عام ٩٢٠هـ /١٥١٤ م احتل عروج (جيجل) واتخذها قاعدة لنشاطه بدلاً من جربه ؛ ثم احتل (شرشال) .

واتجهت أنظار عروج إلى الجزائر حيث كان وجود الأسبان في حصن البنيون - الذي بناه الأسبان سنة ٩١٦هـ/١٥١٠ م بعد احتلالهم للمرسى الكبير - يمثل تهديداً خطيراً للملاحة في البحر المتوسط .

ورغم أن عروج لم ينجح في الاستيلاء على قلعة البنيون فقد استطاع أن يثبت أقدامه في مدينة الجزائر ذاتها ، ومنها أخذ يبسط نفوذه على الثغور المجاورة لشمال أفريقيا .

---

(١) اختلفت الأراء حول المراحل الأولى من حياة هذين الأخوين فالبعض يذهب إلى أنهما مسلمان يرجعان لأصل تركى ، والبعض يذهب إلى أنهما اعتنقا الإسلام مؤخراً ، انظر :

عبد القادر ، نور الدين : صفحات من تاريخ مدينة الجزائر (قسنطينة ١٩٦٥) ص٤٢ وما بعدها .

وكانت الأسرة الزيانية فى تلمسان عندئذ فى حالـة شـديدة مـن الضعف والإنقسام . وفى عام ١٥١٧ كان أثنان من هذه الأسـرة همـا (أبـو حمـو) ، و(أبو زيان) يتنافسان علـى الحكم ، فأستنجد الأول بالأسبان بينمـا استنجد الثانى بعـروج(١) ونجـح عـروج فـى الاستيلاء علـى تلمسـان ، لكـن الأسبان شعروا بمدى ما يمثله هذا القائد المنتصر من خطر على أطمـاعهم فـى شمـال أفريقيـا ، فأرسـلوا حملـة مـن وهـران بقيـادة دون مـارتن (Don Martin) استطاعت أن تقطع الطريق بين عروج وقواته فى الجزائر ، وحاصر الأسبان عروج قرب الوادى المالح ، وأسروه وقتلوه هـو وعـدد كبـير مـن جنـوده فـى عام ٩٢٤هـ/١٥١٨ ، وكان فى ذلك الوقت فى الرابع والاربعين من عمره .

وكان أن تسلم الأمـر فـى الجزائـر أخـوه خـير الديـن الـذى عـرف فـى التاريخ بلقب باربا روس أى ذى اللحية الشقراء . وكان وقت قتـل أخيـه نائبـاً عنـه فـى الجزائـر ، فكـان عليـه أن يواجـه قـوات الأسـبان ، بالإضافـة إلـى الثورات التى نشبت فى مدن شمال أفريقيا التى كانت قد خضعت لأخيه . لكن الإدراك والوعى لما يتطلبه الموقف من تكتل وحزم للوقوف فى وجه الأطماع الأسبانية لم يبلغا عندئذ درجـة كافيـة مـن النضـج ، فـى حيـن انتهـز الأسـبان فرصة مقتل عروج لإثارة الاضطرابات فى تلك البلاد .

على أن خير الدين أتخذ خطوة حاسمة لمواجهة الموقف ، فأعلن ولاءه للسلطان العثمانى وتبعية البلاد الخاضعة له للدولة العثمانية ، التـى كـانت فـى ذلك الوقت تمثل القوة الأساسية فى العالم الإسلامى بحيث تستطيع أن تقف فى

---

(١) أدى ضعف الدولة الموحدية إلى تمزق الإمبراطورية الشاسعة التى كانوا يسيطرون عليها بشـمال أفريقيـا - فأقام بنـو عبد الـواد الدولـة الزيانيـة فـى تلمسـان فـى عـام ١٢٣٥ م.

وجه الأطماع الاستعمارية الصليبية ، وتتصدى للأخطار المحدقة بالأقطار الإسلامية فى المغرب والمشرق .

وكان أن أنعم السلطان سليم الأول على خير الدين برتبة (بيكلر بك) وأرسل له جيشاً من ستة آلاف مقاتل لشد أزره ، وبذلك صار والياً من ولاة الأتراك .

وقد حاول الأسبان أن يتخلصوا من خير الدين - كما تخلصوا من شقيقه من قبل - فأرسلوا حملة فى عام ١٥١٩ نزلت قرب مدينة الجزائر نفسها ، لكن خير الدين استطاع أن يوقع بها هزيمة منكرة ، وأسر من رجالها ثلاثة آلاف مقاتل . وعندئذ لجأ الأسبان إلى وسيلة أخرى ، هى إثارة (أحمد بن القاضى) المناوئ لخير الدين ، فتوجه ومعه قوة نحو الجزائر(١) ؛ كما أثاروا ضده الحفصيين بتونس والزيانيين فى تلمسان ، والوطاسيين بالمغرب الأقصى ، وأشاعوا إنه يطمع فى بسط نفوذه على بلادهم ، مما اضطر خير الدين للجوء إلى (جزيرة جربه) حيث استطاع أن يستعيد قوته . ثم عاد للجزائر حيث نجح فى عام ١٥٣٠ فى الاستيلاء على قلعة البنيون ، وسهل له الاستيلاء عليها إنشاء مرسى الجزائر الذى أصبح ملجأ صالحاً لسفنه(٢) .

أما الإمبراطور الأسبانى شارل الخامس فقد حاول فى عام ١٥٤٠ أن يوجه ضربة قاصمة للأتراك فى الجزائر ، وأعد لذلك حملة وأسطولاً على

---

(١) أحمد بن القاضى من أعيان القبائل الجزائرية الساكنة بناحية (ببلاد القبائل) ولاه خير الدين على تلك الناحية لكنه خرج عليه .

(٢) ظل خير الدين والياً على الجزائر حتى عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤ حين أنعم عليه السلطان سليم بلقب الباشوية وولاه إمارة الأسطول العثمانى .

إحسان حقى : الجزائر العربية (١٩٦١) ص٥٣ .

رأسه القائد الجنوى الشهير أندريه دوريا ، الذى كان فى خدمة أسبانيا . واشترك الإمبراطور بنفسه فى هذه الحملة التى جهز لها ٢٤,٠٠٠ مقاتلا حملتهم ٤٥١ سفينة حربية ، كما اشتركت فيها أيضاً ٦٥ بارجة . ونزل الجنود الأسبان بناحية حسين داى يوم ٢٢ أكتوبر ١٥٤١ وتحركوا صوب المكان الذى عُرف بقلعة الإمبراطور (Fort L' Empereur) فاحتلوه ، ثم اتجهوا لحصار العاصمة الجزائرية التى لم يكن بها فى ذلك الوقت سوى ٨,٠٠٠ جندى . لكن الطبيعة اشتركت فى تحديد مصير الحملة ، فقد ثارت الزوابع البحرية والجوية وتحطم جزء كبير من الأسطول الأسبانى ، فى حين لجأ الناجون من البحارة إلى المراكب المتبقية ، ونجا الإمبراطور بنفسه بصعوبة ، واتجه صوب بجاية ومنها عاد إلى أسبانيا .

وقد هزت هذه الهزيمة مكانه الأسبان فى (وهران) ، مما دعا حاكمها الكونت دى الكودت لطلب النجدة من أسبانيا . لكن ظروف أسبانيا وحروبها فى القارة الأوربية وتنازل شارل الخامس فى عام ١٥٥٦ عن عرشه – لم تمكن أسبانيا من نجدة قواتها ، مما مكن الأتراك من تشديد الحصار على وهران وغيرها من مواقعهم بالشمال الأفريقى ، حتى استطاع العثمانيون أن يوقعوا بالأسبان قرب مستغانم فأسروا منهم ١٢ ألف نسمة وأحاطوا بالبقية الباقية ، وأوقدوا النيران فى مخازن البارود . وكان ممن قتل فى هذه المعركة الكونت دى الكوديت حاكم وهران .

أما فيما يتعلق (بتونس) فكانت الدولة الحفصية قد وصلت فيها إلى درجة كبيرة من الضعف، مما استرعى أنظار الإمبراطور شارل الخامس Charles Quint ولكن خير الدين الذى كان لازال والياً على الجزائر خرج فى جيش تدعمه قوة الأتراك واستولى على بنزرت ، ثم دخل تونس فى عام ٩٣٥هـ – ١٥٢٩ وخطب بها للسلطان العثمانى .

وكان أن توجه الحسن بن أبى عبد الله الحفصى إلى أسبانيا مستنجداً بملكها شارل الخامس ، فأعد هذا قوة ضخمة قادها بنفسه ، ونزل فى (حلق الوادى) ومنها زحف صوب تونس ، فدخلها فى سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥ م ، حيث عاث الجنود الأسبان فى المدينة سلبًا ونهباً وتقتيلاً ، كما نهبوا (جامع الزيتونة) ، وبددوا ما كان به من نفائس ومحفوظات . وبعد أن نصب شارل الخامس – الحسن الحفصى على كرسى الحكم ، وقع الطرفان معاهدة فى ٦ صفر ٩٤٢هـ (٢٦ يولية ١٥٣٥) أهم ما جاء بها(١) :

١ – يُسمح للأسبان بسكنى جميع أنحاء القطر التونسى ، وإقامة طقوسهم الدينية دون أن يتعرض لهم أحد .

٢ – تقوم حاميات أسبانية فى مدن (عنابه) ، و(بنزرت) و(حلق الوادى) .

٣ – يدفع الأمير الحفصى سنوياً أثنى عشر ألف دوكة – رمزاً للخضوع لهم .

وقد قام الأسبان بتحصين مواقعهم فى الموانى التونسية بأحجار اقتطعوها من الآثار الرومانية القديمة .

وكان قبول الأمير الحفصى لهذه الشروط المهينة سبباً فى ثورة الأهالى عليه ، فقبضوا عليه وسملوا عينيه ، ثم خلفه ابنه أبو العباس الثانى فى إدارة شئون البلاد .

---

(١) للتفاصيل يرجع إلى :

أحمد بن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (تونس ١٩٦٣ - ١٩٦٤)

وقد حاول هذا الحاكم الحفصى الجديد أن يُوقف التيار الاستعمارى الصليبى الأسبانى دون جدوى ، بل لقد نجح الأسبان فى عام ١٥٤٠ فى الاستيلاء على موانى (سفاقص) و(سوسة) و (مناستير) .

والواقع أن تونس أصابها على يد الأسبان الكثير من صنوف الدمار ، إذ إندثر كثير من المعالم الدينية بها . ووصل الأمر بهم إلى أنهم اتخذوا جامع الزيتونة إسطبلاً لخيولهم ، وأتلفوا ما به من نفائس وحمل بعضها إلى روما حيث أهدوها لكنيسة الفاتيكان .

وهكذا ظلت تونس موضع صراع بين الأسبان والعثمانيين ، لاسيما أن الصراع بين الحفصيين ووزرائهم أتاح فرصة سانحة للأسبان للتدخل فى شئون تونس .

وفى ربيع الأول ٩٨١هـ (يولية ١٥٧٣) خرجت قوة عثمانية كبيرة من الآستانة على رأسها سنان باشا الوزير العثمانى ، كما خرجت حاميات عثمانية أخرى من طرابلس والجزائر ، والقيروان ، وحاصر العثمانيون حلق الوادى براً وبحراً ، فاضطر الأسبان والموالون لهم إلى الهرب والالتجاء للحصون . ولكن الجيش العثمانى لحق بهم وتمكن سنان باشا من تضييق الخناق على الحاميات الأسبانية ، حتى سلمت للجيش العثمانى ، فى حين قبض على الأمير الحفصى محمد بن الحسن الذى كان قد إرتمى فى أحضان الأسبان وأرسل إلى الأستانة . وبذلك انطوت صفحة حكم الحفصيين فى تونس، بعد أن حكموا هذه البلاد ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما[١] .

---

(١) الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى : الإستقصاء جـ٥ (طبعة الدار البيضاء ١٩٥٥) ص٥٩ ، ٦٠ ،٦١ .

الصراع فى البحر المتوسط بين القوى الإسلامية والأسبانية :

أدرك الأتراك العثمانيون أهمية تكوين قوة بحرية في عصر أصبحت هذه القوة تلعب دوراً هاماً فى مصير الدول والشعوب ، وخاصة في حوض البحر المتوسط . وقد ساعد فتح الشام ومصر وظهور قواد من أمثال خير الدين بربروس الذى أخضع الجزائر وتونس للدولة ، وطورغوث الذى أخضع طرابلس وجعلها ولاية عثمانية ، وسنان باشا الذى قاد الأسطول العثمانى في معارك حاسمة فى البحرين المتوسط والأحمر ... على تطوير القوة البحرية العثمانية مما مكنها من القيام بدور هام في مواجهة الأسبان وحملاتهم البحرية فى البحر المتوسط .

كذلك حاول العثمانيون احتلال بعض جزر البحر المتوسط الهامة ، فاستولوا على جزر بحر ايجه الواحدة تلو الأخرى ، ونافسوا البنادقة في البحر المتوسط ، كما نجح العثمانيون فى عهد السلطان سليمان القانونى في فتح رودس . ولم تلبث أن أصبحت سيادتهم البحرية غير قاصرة على شرق البحر المتوسط بل تجاوزته إلى الغرب أيضاً .

وفى عام ١٥٦٥ حاول العثمانيون انتزاع جزيرة مالطة من يد فرسان بيت المقدس ، لكن المدافعين عنها استعانوا بقوات مسيحية أخرى من الدول الأوربية ، فظلت الجزيرة في أيديهم حتى استولى عليها الإنجليز في عام ١٨٠٠م .

ومن المعارك البحرية الهامة بين الأسطول العثمانى وأساطيل الدول المسيحية – معركة ليبانتو (Lepanto) فى عام ١٥١٧(١) عندما دعا البابا

---

(١) ليبانتو : ثغر فى اليونان على خليج كورنث غرب شبة جزيرة المورة

انظر : محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية (١٩٥٩) .

إلى تأليف حلف مسيحى يعمل على احتفاظ الأسبان وغيرهم من الدول المسيحية بالمراكز التى استولوا عليها فى السواحل الأفريقية ، ويضمن للمسيحيين السيادة فى البحر المتوسط . وكان أن التقتت أساطيل الدول المتحالفة الى أطلق عليها أساطيل الحلف المقدس (أسبانيا ، البندقية ، والبابوية) بالأسطول العثمانى ، ودمرته ، وقتلت وأسرت ما يقرب من ١٥٠٠٠ من رجاله . ويبدو أن هذه الضربة كانت قاصمة ، إذ اضمحل بعدها نفوذ العثمانيين فى البحر المتوسط .



وعند نهاية القرن السادس عشر كانت الثورة الدينية الجديدة فى العالم المسيحى قد هدأت ، وشغلت أسبانيا وغيرها من الدول الأوربية بمشاكلها الأوربية ، فضلا عن نشاطها فى العالم الجديد ، مما ساعد على إضعاف حدة هذه الاندفاعة الصليبية ، خاصة أن النهضة العلمية والفكرية بدأت تصوغ مفاهيم جديدة للتعايش بين الديانات السماوية وبين معتنقى هذه الديانات .

المصادر والمراجع

أولاً : باللغة العربية :

١ - إحسان حقى : الجزائر العربية (١٩٦١) .

٢ - أحمد ابن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الآمان (تونس ١٩٦٣ -١٩٦٤) .

٣ - الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصاء - جـ٥ - (الدار البيضاء ١٩٥٥) .

٤ - عبدالرحمن بن محمد الجيلانى: تاريخ الجزائر العام جـ٢(١٩٥٥).

٥ - عبد القادر المشرفى : بهجة الناظر فى أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان كبنى عامر (الجزائر ١٩٢٤) .

٦ - عبد القادر نور الدين : صفحات من تاريخ مدينة الجزائر (قسنطنية ١٩٦٥) .

٧ - محمد بن أبى شنب (ناشر) : الذخيرة السنية (الجزائر ١٩٢٠) .

٨ - محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية (١٩٥٩) .

٩ - عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة ، مجلة تطوان العددان ٣ ،٤ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ .

ثانياً : باللغة الأجنبية :

1 - Bory, John (Ed.) : The History and Desciption of Africa .... Written by Al Hassan Ibn Mohammed el Wezan al Fasi (1600)

2 - De Castries , Le Comte : Les Sources Ineditres De L 'Histoire Du Maroc (Paris - 1905 - 1924) .

3 - Duffy, James : Portugese Africa (London 1959) .

4 - Roger Coindreau : Les Crosaires De Sale (Paris 1948) .

النشــاط البرتغــالى فى المغرب

فى النصف الأخير من القرن السادس عشر للميلاد

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم(*)

مقدمة :

لم تكن الحروب التى دارت بين البرتغاليين والمسلمين فى شمال أفريقيا أقل ضراوة أو حدة عن تلك الحروب الصليبية التى وقعت فى الشرق الإسلامى بين المسلمين وبين الذين جاءوا متخفين وراء الصليب من الأوربيين. وإذا كانت حدة الحروب الصليبيةقد هدأت فىالشرق إلا أنها عادت للظهور فى شمال القارة الأفريقية ، ولكن بشكل أعنف ، بعد تعقب المسلمين إثر سقوط غرناطةعام ١٤٩٢ وقيام ما أطلق عليه حروب الاسترداد(١) .

وسوف نعالج قصة هذا الصراع من بدايته حتى تتجلى حقيقة هذه الموجة الصليبية على شمال أفريقيا ، والتى ساندتها كافة القوى المسيحية ، فى وقت كان المغرب يعانى من انقسام وتفكك وضعف . وكان دور البرتغال فى هذه الاندفاعة قويا هدفه الأساسى تحطيم قوة المسلمين والقضاء على أية محاولة تستهدف عودتهم إلى وطنهم فى شبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) .

ذلك أن البرتغال ما كادت تنجح فى إقامة دولة قومية فى شبه الجزيرة الإيبيرية على الجزء الساحلى الغربى ، حتى تصدت للمسلمين وضغطت عليهم فى ولايات الغرب ، وبذلك استطاعت فرض السيطرة على هذا الجزء

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة .

(١) حسين مؤنس: الشرق الإسلامى فى العصر الحديث القاهرة سنة ١٩٦١م ص ٢٨٩.

من شبه الجزيرة ، فطردت المسلمين منه . ثم استغلت موجة الضعف التى سادت ولايات المسلمين الغربية ، ونجحت فى مطاردة فلول المسلمين الذين قاوموا بكل ما هو متاح لهم من أمكانات وقوة بشرية . وهكذا حتى تولى السلطة فى البرتغال ألفونسو هنريكيز فى عام ١١١٢م الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة البرتغال المستقلة ، ثم تعاقب أبناؤه فى حكم هذه الدولة إلى أن نجحت أسرة أفيس بقيادة جاو الأول فى أواخر القرن الرابع عشر فى انتزاع السلطة وتكوين الإمبراطورية البرتغالية(١) .

وعندما بدأت هذه الإمبراطورية توسعها خارج حدود البرتغال كان شمال أفريقيا هو مطمعها الأول بعد أن اتخذت طابعاً دينياً ضد المسلمين . وكانت الحروب الصليبية ضد المسلمين قد أعطت دفعة قوية للعامل الدينى الذى باركته الكنيسة ، حتى أن الملك يوحنا والد الأمير هنرى الملاح صرح بأن الميدان الحقيقى الذى يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخار هو ميدان ضرب المسلمين فى المغرب ، وأنه سيمنح أكبر وسام فى بلاده وهو وسام السيد الأعظم لمن يحارب فى هذا الميدان . وكان هذا الشرف من نصيب هنرى الابن الثالث للملك - الذى تصدى لهذه المهمة فأغدق الملك عليه الرتب والنياشين مما دفعه للقيام بمزيد من المغامرات حتى يحقق الهدف الذى أعلن عنه الملك .

وكان الأمير هنرى يعمل على رأس جماعة أطلق عليها اسم جماعة المسيح ، تألفت من بعض الفرسان الصليبيين الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم ، فلجأوا إلى البرتغال . وكانوا متحمسين

---

(١) شوقى الجمل : المغرب العربى الكبير فىالعصر الحديث ، القاهرة سنة ١٩٧٧، ص٤٣ .

للانتقام من المسلمين ، حاقدين على الإسلام وديارة . هذا فضلاً عن أن الأمير هنرى كان تواقاً لعمل يقربه إلى الله عن طريق نشر المسيحية فى سواحل شمال أفريقيا ، وبين الوثنيين الأفارقة .

وهكذا كان الدافع الدينى هو الركيزة الأساسية لسياسة الإمبراطورية البرتغالية التى وضعت نصب أعينها ضرب المسلمين وديارهم . وشجع البرتغال على المضى فى هذه السياسة اهتمام البابوية بتوسيع نطاق النشاط الدينى ، خاصة فى المغرب العربى . وقد أصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة يخولون بها ملوك البرتغال والأسبان الحق فى ملكية كل إقليم يتم اكتشافه حديثاً ، وطالبوا ببذل أقصى جهد لتنصير سكان المناطق التى اكتشفت . كذلك بذل البابوات جهوداً لإغراء البحارة على الانخراط فى سلك البعثات الكشفية ، ووعدوا المشاركين فى هذه الرحلات بالعفو يوم القيامة ودخول الجنة . وصدرت الأوامر برسم الصلبان على أشرعة السفن ، كما قام المبشرون بمرافقة الرحلات الكشفية للقيام بمهامهم الدينية(١) .

ومن ناحية أخرى عملت الكنيسة على إذكاء روح العداء ضد المسلمين حتى أطلق بعض البابوات اسم (الطاعون) على الإسلام . وقد أصدر البابا فى ١٩ ديسمبر ١٤٤٢ قراراً ضمن فيه الغفران عند (الحج) إلى سبتة ، ولمن يساهم فى الدفاع عنها بأمواله ، ولمن تصدق لتغطية المصاريف . كذلك زودت البابوية ملوك البرتغال بإقطاعات للجماعات العسكرية تحت ستار الدين ، وبذلك ضمنت لتلك الجماعات دخلاً كبيراً وأموالاً ضخمة

---

(١) محمد عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٨٥، ص١١٦ .

وثروات مكنتها من توسيع دائرة نشاطها(١) . ثم أن البابوية ضمنت للبرتغال مساهمة كل البلاد المسيحية فى غرب أوربا فى المغامرة البرتغالية ، حيث أصدر البابا قراراً تم بمقتضاه تحديد وسائل مصاريف الحروب الصليبية البرتغالية . وبموجب هذا أصبح لملك البرتغال حق التصرف فى عشر دخل كنائس بلاده ، كما تنازل البابا عن خمس دخل دولته لتمويل الحملات البرتغالية ، فضلاً عن أن البابا أرغم الكرادلة على التنازل عن عشر دخل مناطق نفوذهم لتمويل الحملات البرتغالية(٢) .

وقد حدث بعد احتلال البرتغال لمدينة القصر الصغير ، أن طلب ألفونسو الخامس ملك البرتغال من البابا تعويض ما أنفقه فى الهجوم على هذه المدينة ، كما طالبه بالتنازل للبرتغال عن الأموال التى جمعها لمحاربة الدولة العثمانية التى تدافع عن الإسلام ودياره ، فاستجاب البابا لهذه المطالب ، كما أرسل مبلغاً من المال مساعدة للبرتغال .

وثمة مثال آخر لتلك الروح الصليبية ، إذ حدث عندما قررت البرتغال الهجوم على طنجة عام ١٤٦٤ أن لجأ ألفونسو إلى البابوية ثانية ، فأصدر البابا قراراً بتخصيص عشر دخل الكنائس التابعة للبابوية لمحاربة المسلمين ، على أن يخصص نصف هذا الدخل للبرتغال والنصف الآخر لمحاربة العثمانيين . وعندما فشل البابا فى تجهيز حملة ضد العثمانيين عاد كل شىء إلى البرتغال لتمويل حملاتها ضد المغرب الإسلامى .

---

(١) أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالى إلى سبتة وإخلاء آسفى وأزمور ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الملك محمد الخامس ، الرباط سنة ١٩٧٩، ص ٩٨ .

(٢) أحمد فتوح عابدين : الصراع البرتغالى المغربى فى الفترة من عام ١٤١٥ إلى عام ١٥٧٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية / جامعة القاهرة سنة ١٩٨٦ ص١٤ .

وكان أن اشتدت الموجة الصليبية عندما أمرت البابوية رجال الكنيسة بإعلان الحرب المقدسة الصليبية ضد المسلمين . وكلما قرر ملوك البرتغال هجوماً على المغرب ضمنت البابوية الغفران لكل من أسهم فيه ، بل لقد حثت على الحج إلى سبتة وعلى الإقامة بها ثلاثة أشهر . وأرغم البابا الجماعات العسكرية على بناء كنيسة على نفقة كل جمعية بسبته ، وأرسال ثلث دخل إقطاعات تلك الجماعات إليها للمساهمة فى الدفاع عنها .

ولعل خير ما يوضح ذلك الطابع الدينى وذلك التشجيع الذى لقيته هجمات البرتغال علىالمسلمين أن البابوية اختصت تلك الهجمات بسبع وأربعين قراراً بابوياً ، فى حين لم تنل الكشوف الجغرافية سوى قرارين فقط ، مما يشير إلى قوة الدافع الصليبى ضد المسلمين فى شمال أفريقيا .

واشتدت هذه النزعة الصليبية عندما شاركت أسبانيا البرتغال ضد المسلمين بعد سقوط غرناطة . وحتى لا يحدث صراع بين الدولتين المسيحيتين حول اقتسام النفوذ فى البلاد المغتصبة قام البابا بالتحكيم بينهما ، وبمقتضى معاهدة تورد يسلاس فى عام ١٤٩٤ تقرر اتخاذ خط وهمى للتقسيم يفصل بين ممتلكات الدولتين ، ويبدأ هذا الخط من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ويمر على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات وجزر الرأس الأخضر . ولكن البرتغال اعترضت على هذا التقسيم فتدخل البابا وتقرر نقل الخط الوهمى بين الدولتين إلى نقطة تبعد ٣٦٠ فرسخاً غربى جزر الرأس الأخضر حتى تحافظ البرتغال على ممتلكاتها فى أفريقيا وحتى تحتفظ أيضاً بممتلكاتها فى البرازيل(١) .

---

(١) أحمد بوشرب : مرجع سابق ، ص٩٧ .

وقد حدث عندما حلت الهزيمة بالبرتغال فى محاولتهم احتلال مدينة طنجة ، أن اضطروا إلى الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح مع المغاربة الذين اشترطوا الجلاء على مدينة سبتة مقابل إطلاق سراح شقيق الملك وهو الأمير الصغير فرناند الذى وقع أسيراً فى قبضة المغاربة . لكن البرتغاليين فضلوا ترك الابن الرهينة وعدم الجلاء عند سبتة . وكان أن ظل الطفل فى منفاه حتى مات فى ٥ يونية ١٤٤٣ فاعتبرته الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد ضمن الشهداء(١) .

وتحت تأثير هذه الدوافع التى دفعت القوى الأوربية ممثلة فى البرتغال ثم الأسبان ، وبدعم من الكنيسة والبابوية ، تجسد العامل الدينى واضحاً ، مما أدى إلى اندفاع تلك الموجة الصليبية تحت ستار الصليب لتعيد إلى الأذهان حرباً صليبية جديدة ميدانها ليس المشرق العربى ، بل شمال القارة الأفريقية . وتتطلب دراسة هذا الصراع أن نحدد معالم هذا الصراع من خلال أوضاع البرتغال ودوافع هذا التوسع ومراحله فى شمال أفريقيا ، مع الإشارة إلى أوضاع المغرب العربى الداخلية وديناميكية هذا الصراع ، حتى انحسر تماماً عن أرض المغرب ، وما نجم عن هذا الانحسار من آثار على المستوى الإقليمى والمستوى العالمى .

التوسع البرتغالى فى شمال أفريقيا :

مر الاحتلال البرتغالى للثغور المغربية بمرحلتين ، هما مرحلة احتلال الثغور الشمالية من عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م إلى ٨٧٦ / ١٤٧١ . ثم مرحلة احتلال الثغور الغربية الجنوبية من ٩٠٥ / ١٥٠٢ إلى ٩١٩ / ١٥١٣ .

---

(١) شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص٤٦ .

وكان المتوقع – بحكم التوجية الجغرافى أن يتجه البرتغاليون إلى التوسع على الساحل الغربى لمراكش المطل على المحيط الأطلسى ، غير أنهم اتجهوا بعكس ذلك إلى سبتة ثم إلى طنجة على ساحل البحر المتوسط ، مما ينم عن أن العامل الدينى كانت له أهمية توجيه الحملات البرتغالية من أجل شطر المغرب الإسلامى إلى قسمين تمهيداً لاجتياح كل أراضيه(١) .

وإذا كان العامل الدينى هو الدافع لتلك الموجة الصليبية ، فإن ثمة دوافع اقتصادية ارتبطت بهذا التعصب الدينى ، وشجعت مضى البرتغال فى هذه السياسة التوسعية التى استمرت على أرض الشمال الأفريقى حتى نهاية القرن السادس عشر ، عندما تفوق الأسبان على البرتغال فى شبه جزيرة إيبيريا . ذلك أن القائمين بأعمال الكشف والاستعمار على ساحل أفريقيا الغربى استهدفوا الحصول من مراكش على القمح والخيل ليشتروابها الذهب من الزعماء الأفارقة الذين يتعاملون مع المحطات البرتغالية ، ثم استخدام هذا الذهب لشراء التوابل من الشرق الأقصى(٢) .

وكانت حكومة البرتغال بعد تقوية أسطولها فى عهد الأمير هنرى ، وبعد إنشاء مدرسة بحرية ، قد قامت ببث روح العداء ضد المسلمين فى قلوب رعاياها ، حتى أن الشباب البرتغالى أصابه الاعتقاد بأن المسلمين الذين خرجوا من الأندلس إلى الشمال الأفريقى يجب ألا ينعموا بالمقام هناك ، بل يجب تعقبهم أينما حلوا(٣) .

---

(1) Richard Robert: Etude sur L' Histoire des Portuguais au Maroc, Paris 1955, P.144.

(٢) صلاح العقاد : المغرب العربى ، القاهرة سنة ١٩٨٥ ، ص١٣ .

(3) De Caravlho, Vaxo: La Domination Portugaise Al' Maroc,1915- 1789, Lisbonne 1936, P. 15.

وفى ٢٥ يولية عام ١٤١٥ تحركت قوة برتغالية من ميناء لشبونة على متن مائتى وأربعين سفينة متجهة نحو ميناء سبته المغربى الذى فوجىء بهذا الغزو ، دون أية مقدمات . وكان أن اقتحم البرتغاليون المدينة ، لأن الدولة المرينية لم تستطع مواجهة هذا الخطر . وقد حاول الحاكم المغربى أبو سعيد عثمان اتخاذ خطوة فى عام ١٤١٩ بالتحالف مع القوى الإسلامية فى غرناطة ، لكن محاولته باءت بالفشل ، ولم تعد المدينة إلى الوطن المغربى الأم حتى اليوم(١) .

وبعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم فى سبتة اتجهوا إلى طنجة ، وأعدوا حملة من ثمانية آلاف جندى للاستيلاء عليها . وعند وصول هذه القوة إلى سبتة فى أغسطس ١٤٣٧ انقسمت إلى قسمين أحدهما بزعامة الأمير هنرى

---

(١) تعد سبتة من أقدم وأشهر مدن موريتانياوتقع فى شرق القصر على مستوى الجزيرة الخضراء . وكان الرومان يترددون عليها كثيراً لموقعها فى حلق المضيق ، حيث لا يتجاوز عرضة فرسخين (الفرسخ الأسبانى أربعة أميال) ولا تبعد المدينة عن ساحل أسبانيا أكثر من خمسة فراسخ . وهى مدينة عظيمة فى عهد الرومان . وحتى عندما فتحها القوط احتفظت بشهرتها . وفى عهد صالح بن صالح آخر ملوك فاس غزاها يوحنا الأول ملك البرتغال فى عام ١٤٠٩ وإن كان العرب يزيدون ست سنوات على هذا أى عام ١٤١٥ ، وقد ترك يوحنا أحد رجاله حاكماً عليها وهو بيدرودى منيسيس الذى شن غارات على المغاربة حتى وصل إلى أسوار تطوان وأفزع السكان .

انظر : مارمول كربخال : أفريقيا جـ٢ ص٢٣ .

Marmol Carbajal (L. De) L'Afrique Paris 1056.

وأيضاً الناصرى أبو العباسى أحمد بن خالد : الاستقصاء جـ٤ الدولة المرينية الدار البيضاء ١٩٥٥ ص ٩٤ .

الذى سلك الطريق البرى ، والأخرى بقيادة الأمير فرينادى والذى سلك طريق البحر ، حتى يمكن الاطباق على المدينة براً وبحراً(١) .

وكان أن دارت معركة عنيفة بين المغاربة والقوات البرتغالية التى دافعت بشكل مستميت عن التراب الوطنى ، حتى أجبرت البرتغال على طلب الصلح ، وعندئذ أصر المغاربة على ضرورة الجلاء عن سبتة وفضل البرتغاليون ترك شقيق ملك البرتغال لضمان عدم الهجوم ثانية . وظل الطفل رهينة حتى وفاته عام ١٤٤٣ . ورغم هذه الهزيمة وعجز البرتغال عن احتلال طنجة ، فإنهم عاودوا الكرة مرة ثانية لغزو الثغور المغربية ، وتجددت المحاولة على طنجة عام ١٤٥٨ . وقاد الحملة الملك الفونس الخامس ومعه ١٧,٠٠٠ مقاتل و٨٠ سفينة ولكنه فشل(٢) .

وفى عام ١٤٦٨ قام البرتغاليون بغارة على أنفا (الدار البيضاء) التى وجدها البرتغاليون خاوية على عروشها بعد رحيل سكانها إلى الرباط . وفى عام ١٤٧١ استولت القوة البرتغالية على أسيلاً وأسرت الحامية عدداً من السكان المغاربة ، واستولى البرتغاليون أيضاً على طنجة فى نفس العام بعد عدة محاولات فاشلة ، ثم واصلت البرتغال الاستيلاء على الثغور المغربية مثل أسفى وأزمور(٣) .

---

(١) شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص٤٥ .

(٢) إبراهيم حركات : السياسة والمجتمع فى العهد السعدى الدار البيضاء سنة ١٩٨٧ ص ١٤٨ .

(٣) أسفى إحدى المدن التى شيدها حانون قائد القرطاجيين فى ليبيا بأمر من مجلس الشيوخ وسميت من أجل ذلك ليبى - فنيقية ، وكانت هذه المدينة وأقليم دكالة تابعين لمملكة مراكش .

انظر : مارمول كربخال : مرجع سابق ، جـ٢ ص ٥٧ .

على أن البرتغال شغلت بعد ذلك بالكشوف الجغرافية حتى وصل البرتغاليون إلى أفريقيا الاستوائية عام ١٤٧١ ومصب الكونغو عام ١٤٨١ ثم رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٦ .

أما المرحلة الثانية من التوسع البرتغالى فى ثغور المغرب فقد حدثت مع مطلع القرن السادس عشر عندما استولت البرتغال على البريجة فى عام ١٥٠٢ ، وهى مدينة تقع على بعد خمسة عشر كيلو متراً جنوبى أزمور . وكان الغرض من السيطرة عليها سياسياً أكثر منه اقتصادياً . ثم توالت الغارات البرتغالية على أكادير التى سقطت عام ١٥٠٥ وشيدوا بها حصن فونتى . وبعد ذلك سقطت أسفى عام ١٥٠٧ ثم الصويرة عام ١٥٠٨ وأزمور عام ١٥١١ . وأخيراً حاول البرتغاليون فتح مراكش عام ١٥١٤ لكن انتشار وباء الطاعون بين الجنود البرتغاليين والقبائل المتحالفة معهم ووفاة حاكم أزمور البرتغالى أجل عملية الزحف على المدينة التى كان السعديون قد استولوا عليها ، وصمدوا أمام هذه الهجمة الصليبية مما اضطر المهاجمين إلى الانسحاب عن المدينة .

ولا شك فى أن هذا الانتصار كان عاملاً هاماً فى إزدياد نفوذ السعديين الذين تحملوا عبء الكفاح الإسلامى ضد هذه الهجمة الصليبية ، كما شجع هذا الانتصار المغاربة على معاودة الهجوم على القوات البرتغالية فى الثغور المغربية الأخرى .

والواقع أن فشل البرتغاليين فى تحقيق أحلامهم فى الوصول إلى مراكش أضعف مكانتهم . وجاءت معركة المعمورة لتعمق هذا الضعف وتزيد من حدته ، بحيث أنها تمثل المرحلة الختامية فى تصفية الوجود البرتغالى الصليبى على أرض المغرب . ذلك أن البرتغال كانت قد حاولت الاستيلاء

على المعمورة حتى تكون رأس حربة تنطلق منها إلى فاس التى كانت تعيش فترة ضعف فى عصر الأسرة الوطاسية . لكن رغم الضعف الوطاسى نجح شباب المغاربة فى صد هذه الموجة الجديدة ، وقتلوا أكثر من أربعة آلاف من البرتغاليين ، فضلاً عن إغراق ثمانى سفن بحرية برتغالية . وهذا ما حدا بالمؤرخين البرتغاليين إلى القول بأن هذه الانتصارات المغربية كانت بداية أفول نجم البرتغال على أرض التراب المغربى . وقبل أن نعالج هذه المرحلة من الانحسار البرتغالى ، نعرج قليلاً إلى أوضاع المغرب الداخلية وما كان من ظهور الأسرة السعدية ، التى سجل التاريخ دورها المشرف فى الدفاع عن ديار المسلمين ضد موجة صليبية قاسية أرادت أن تأتى على الأخضر واليابس من تراث الإسلام وحضارته فى شمال القارة ، بعد أن حاولت إطفاء دوره فى بلاد الأندلس التى نعمت بحضارة المسلمين أكثر من سبعة قرون . وإذا كان عصر عما نويل الأول فى القرن الخامس عشر يمثل قمة ما وصل إليه النفوذ البرتغالى فى المغرب ، فإن عصر جيان الثالث ١٥٢١ - ١٥٥٧ هو عصر تصفية الوجود البرتغالى فيه(١) .

أوضاع المغرب وظهور الدولة السعدية :

نقصد بالمغرب فى دراستنا هذه ، ذلك الجزء من شمال غرب القارة الأفريقية ، الذى يعرف جغرافيا باسم المغرب الأقصى ، والذى يعرف اليوم بالمملكة المغربية . ويضم جبال أطلس وسلسلة السهول الساحلية بين الجبال وساحل المحيط الأطلسى ، وهى سهول تشقها أنهار ووديان تنحدر من جبال

---

(١) انظر :

Luiz de Sousa: LesPortugais et L'Afrique du Nord de 1521 a 1557 (Lisbonne 1940).

وأيضاً شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص٦٢ - ص٦٣ .

أطلس إلى المحيط ، وهى من الشمال إلى الجنوب وأدى لوكس ويصب عند مدينة العرائش ، ووادى سيبو بفروعه الكبيرة وقواعدة الشهيرة مثل فاس ومكناس ، ثم وادى أبو الرقراق وهو نهر مزدوج يصب فى البحر المتوسط ، وعلى ضفته الغربية مدينتا رباط والفتح ، ثم وادى أم الربيع وقرب مصبه تقع مدينة أزمور ثم وادى تنسيفت وتقع على أحد فروعه مدينة مراكش ، ثم وادى السوسى ووادى درعة فى أقصى الجنوب(١) .

وكان بنو مرين قد دخلوا فى صراع مع الموحدين استمر ثمانية وخمسين عاماً ، حتى تم لهم الاستيلاء على السلطة فى مراكش عاصمة الدولة الموحدية . ويعتبر يعقوب بن عبد الخالق أو أمير المؤمنين يعقوب المنصور ، مؤسس دولة بنى مرين . وقد تولى الحكم فى هذه الدولة عدد من الحكام حتى نجح السعديون فى دخول فاس عام ١٥٤٩ وقضوا على آخر بقايا الوطاسيين – أبى حسون – الذى فر إلى الجزائر ليستنجد بالأتراك العثمانيين . وقد أعد هؤلاء له جيشاً توجه به صوب فاس ، لكنه انهزم ودخل محمد الشيخ السعدى فاس وقضى على أبى حسون وأنهى حكم الوطاسيين الذى امتد من عام ١٤٧١ حتى عام ١٥٥٣(٢) .

ولكن بنى وطاس الذين استولوا على فاس وانتزعوا السلطة لأنفسهم فى نهاية القرن الخامس عشر ، فشلوا فى الدفاع عن أراضى مراكش ، حتى آلت جميع موانى المغرب تقريباً إلى دولتى البرتغال وأسبانيا(٣) .

---

(١) انظر :خريطة شكل رقم (١) وأيضاً محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد : هذا العالم ، القاهرة سنة ١٩٥٩ ، ص٤٧ .

(٢) لمزيد من الدراسة عن الدولة المرينية والوطاسية انظر : الناصرى ، أبو العباس ، الاستقصاء المجلد الخامس .

(٣) صلاح العقاد : مرجع سابق ، ص٥٠ .

وهكذا شهد مطلع القرن السادس عشر الوضع في المغرب على النحو التالي:

١ - احتل الأسبان مليلة عام ١٤٩٧ .

٢ - سقطت غالبية ثغور المغرب في أيدي البرتغاليين .

٣ - ظلت مراكش وبعض المناطق التابعة لها في أيدي هنتاته من قبائل الموحدين .

٤ - اضمحل النفوذ الوطاسي تماماً مع بداية ظهور الدولة السعدية التي حملت عبء الجهاد والتحدي للوجود الأجنبي على التراب المغربي ، فضلاً عن جهاد رجال الطرق الصوفية الذين نظموا الصفوف ، ووحدوا الجهود ، وقاموا بالجهد الكبير للقضاء على هذا الخطر الصليبي .

ولكن ، من هم السعديون ، وما دورهم في حلبة هذا الصراع ضد القوى المحلية وضد الوجود الأجنبي ؟

الواقع إننا لانستطيع أن نعالج الصراع المغربي البرتغالي في القرن السادس عشر قبل أن نتوقف قليلاً لنلقي الأضواء على تلك الدولة الفتية التي شمرت عن سواعد العزم والهمة لكشف هذه الغمة ، بعد أن دب الضعف في أوصال الاسر الحاكمة من المرينيين والوطاسيين ، الذين تهاونوا واستكانوا حتى ضاعت أرض المغرب ودخلت تحت سيطرة فئة من البغاة الذين أخذوا يكيدون للإسلام وأهله . وإذا كان الحكام في الدولتين قد بذلوا بعض الجهد لصد هذه الموجة الصليبية فإن الأثر كان ضعيفاً ، مما أدى إلى ضياع الثغور المغربية بهذه الطريقة الدرامية . وهنا تظهر عظمة السعديين الذين قادوا حملات الجهاد ، وصدوا الغزو البرتغالي ، ووضعوا النهاية المأساوية لتلك الإمبراطورية البرتغالية .

وقد اختلف المؤرخون حول أصل السعديين الذين يدعون انتسابهم إلى أولاد على بن أبى طالب ، بينما يرى البعض الآخر أنهم ينتمون إلى عرب بنى سعد بن بكر ولذا سموا بالسعديين(١) .

وعلى أى حال فمهما اختلفت الاراء فإن انتسابهم يرجع إلى عرب الجزيرة وإلى أشراف مكة ، وهذا يعطيهم مكانة دينية لأن المغاربة عرف عنهم حب الأشراف والعمل لإرضائهم . وقد بدأ السعديون نشاطهم فى بلاد درعة والسوس الأقصى ، وتجمعت قلوب الناس حول أبى عبد الله الملقب بالقائم بأمر الله ، وبايعوه بالإمارة عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩) . وعلى الفور تولى مقاومة الاحتلال البرتغالى(٢) .

وكان أن برز هذا الحاكم من سوس لمناهضة الوجود البرتغالى ، حتى وافتة المنية عام ١٥٧١ بعد أن اتخذ من قرية تيدس - قرب تارود انت - أول عاصمة له ، ومنها وجه حملاته ضد البرتغال الذين احتلوا شاطى أكادير ، حتى استولى على حصن فونتى . وكان سقوط هذا الحصن عاملاً قويا فى انضمام قبائل الجنوب إلى السعديين . كذلك وطد القائم علاقاته بالوطاسيين ، وازدادت شعبية بفتح أكادير وانتزاع الحصن الذى استقر فيه البرتغاليون أكثر من خمسين عاماً . وقد تطلب هذا جهداً جهيداً ، وتجنيد ما لا يقل عن ٤٥٠٠ من مختلف القبائل حتى استسلم حاكم الحصن مع ثلاثة من أبنائه(٣) .

---

(١) المقرى ، أبو العباس أحمد بن محمد المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب بولاق ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م أربعة أجزاء .

(2) Auguste Cour: L'establishment des dynasties des chorfa au Maroc, Paris 1904 P. 60.

(٣) إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص٤٧ .

وقبل وفاة القائم بأمر الله رشح أبا العباس أحمد الإعرج لولاية العهد ، فتولى السلطة عام ١٥١٧ ، واستطاع أن يقوى العزم ويهيىء البلاد لتعبئة الجيش لشن غارات على البرتغاليين . وإذا كان قد لجأ إلى عقد اتفاق مع جيان الثالث ملك البرتغال إلا أنه بعد استتاب الآمن أخذ فى مقاومتهم(١) .

وعندما أحرز أبو العباس الأعرج عدة انتصارات على البرتغالين فى أسفى وغيرها من مناطق استقرارهم ، طلب منه زعماء القبائل - خاصة زعماء هنتاتة ولاة مراكش - الدخول فى طاعتة . فاستجاب لهم أبو العباس وانتقل إلى مراكش عام (٩٣٠هـ / ١٥٢٣) . وكان هذا العمل مثار غضب الوطاسيين الذين دخلوا فى حرب ضده ، فى الوقت الذى أنشق عليه أخوه الأصغر أبو عبد الله محمد الشيخ . وفى الصدام بين الأخوين نجح أبو عبد الله الشيخ فى القبض على أخية وسجنه عام ٩٤٦هـ / ١٥٤٠ حتى تم اغتياله عام ١٥٥٧ . وكانت فترة حكم أبى عبد الله محمد الشيخ حافلة بالصراع ضد البرتغاليين ، حيث نجح فى طردهم من حصن فونتى بعد اثنين وسبعين عاماً من الاحتلال . واختط أبو عبد الله حصنا جديداً بالقرب من فونتى أطلق عليه حصن أكادير ، كما أجبر البرتغاليين على الجلاء عن أسفى وأزمور (وأصيلاً) بدون قتال عام ١٥٤٢(٢) وقد حاول أبو عبد الله محمد الشيخ مد نفوذه على باقى بلاد المغرب فخرج على رأس جيش صوب الشمال لفتح

---

(1) Archives Nationales de la Torre do Tombo - Gaveta 20 Maco 4, No. II and 24.
نقلاً عن د. شوقى : مرجع سابق ، ص ١٦٨.

(٢) انظر : تفاصيل هذه الصراعات فى اليفرنى ، محمد الصغير المراكشى (١٧٢٨) نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى جزآن مطبعة أنجى ١٨٨٨ وهو مطبوع على الحجر بفاس دون تاريخ وهناك ترجمة له بالفرنسية لهوداس .

فاس مقر الوطاسيين وحاصرها حوالـى سنة كاملـة حتـى دخلها عـام ١٥٤٩ فقبض على باقى الوطاسيين عدا أبا حسـون الـذى فـر إلـى الجزائـر مسـتنجداً بالعثمانيين الذين أمدوه بالأسلحة والعتـاد . وكـان أن عـاد أبـو حسـون ليشـن حرباً على أبى عبـد اللـه ، ونجـح بعد معـارك طاحنـة فـى دخـول فـاس عـام ١٥٥٣م ، وعندئذ فر أبو عبد الله إلى مراكش وجمـع جيشـاً قويـاً استعاد بـه فاس ، وقتل أبا حسون ، وبذلك خلا الجو لابى عبد الله(١) .

ولكن أبا عبد اللـه واجـه نهايـة مؤلمـة عندمـا هاجمتـه عصابـة تركيـة واجـتزت رأسـه وحملتهـا إلـى القسـطنطينية ، حيـث علقـت علـى أحـد أبوابهـا سنوات طويلة . وهكذا قضى الحقد على شخصية إسلامية كانت تؤدى دورهـا فى الدفاع عن أراضـى المسلمين . وكـانت مأسـاة أبـى عبـد اللـه علـى أيـدى الأتراك العثمانيين الذين جاءوا إلى شمال أفريقيا لنفس الغـرض الدينـى وهـو التصدى للتوسع الصليبى فى شمال القارة . ومهما كان الأمر فقد بويع ابنــه محمد عبد الله ، الغالب بالله (١٥٥٧ - ١٥٧٤) .

وقد حاول الغالب بالله فى عام ١٥٦١ انتزاع حصن البريجة (الجديدة) من البرتغال ، وفعلاً حاصر هذا الحصن أربعـة وسـتين يومـاً ، لكنـه اضطـر إلـى فـك الحصـار عنـه ، وأخـذ يبدى بعض الميول نحـو الاسـتعانة بـالقوى الخارجية المسيحية . وقد اعترض على هذا المسلك كل من أخوية أحمد وعبد الملك ، فلجأ إلى العثمانيين فى الجزائر ، وبالتالى انتقل الحكم إلى أبـى عبد اللـه المتوكـل علـى اللـه الـذى واجـه صعوبـات كثـيرة فــى الداخـل ، بسـبب الخلافـات حـول العـرش . وكـان لهذه الأحـداث آثارهـا فـى أحـوال المغـرب وبالتالى حول التصدى للنفوذ الأجنبى . ونظراً لما ترتب علـى هـذه الحـوادث

(١) الاستقصاء ، جـ٥ ص١١٥ .

من مزيد من الصراعات بين المسلمين والبرتغاليين الذين تورطوا فى هذه الأزمة الداخلية ، نرى أن نتتبع هذه الأزمة من بدايتها .

أزمة العرش فى المغرب وآثارها :

بعد أن تولى المتوكل السلطة ، لجأ عماه عبد الملك وأحمد المنصور إلى الجزائر بعد اغتيال والدهما . وما أن علما بوفاة أخيهما الغالب حتى اتصلاً بالسلطان العثمانى سليم لمساعدتهما على تحقيق رغبتهما فى العودة إلى المغرب . ولكن السلطان طلب منهما الاتصال بحاكم الجزائر . وقد قام الرجلان بالمساعدة فى الدفاع عن تونس ضد الأسبان عام ١٥٧٤ ، فوافق على طلبهما ، وشاهد أسحق الأسطول الأسبانى فى مياه تونس فى حلق الوادى(١) .

وكان أن تفاهم الرجلان مع حاكم الجزائر على أن يقوم بمساعدتهما مقابل تعويض الجيش مادياً بمجرد تحقيق الانتصار على المتوكل ، ولذلك وضع حاكم الجزائر خمسة آلاف جندى تحت تصرفهما ، فضلاً عن أربعة آلاف من الفرسان ، وستة وثلاثين مدفعاً(٢) .

وبعد أن أعد الرجلان العدة سار عبد الملك مع أخيه أحمد المنصور إلى أسوار فاس حيث التقيا بجيش ابن أخيهم محمد المتوكل ، وانتصرا عليه ، فاضطر إلى اللجوء إلى جبل درن . ودخل أبو مروان عبد الملك فاس فى ٣١مارس ١٥٧٦ فبايعه أهلها وأجزل للجيش التركى العطاء ، ثم صرف هذا

---

(١) إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص ٦٦ وأيضاً جلال يحيى : المغرب العربى الحديث والمعاصر ، الأسكندرية سنة ١٩٨٣ ص ٢٠٤

(2) De Castries, Sources inedites De L'Histoire du Maroc, France, I, 452-453.

الجيش مكرماً . كذلك دخل مراكش فى نفس العام وبايعه أهلها أيضاً ، وأقام هو فى مراكش بينما استخلف أخاه أحمد على فاس وتوابعها(١) .

وقد أدت هذه الأحداث إلى انقسام داخل الأسرة السعدية . وإذا كان أبو مروان عبد الملك وأخوه قد استعانا بالجيش التركى فإن عبد الله المتوكل عاود الكرة على مراكش ، ولكنه فشل ؛ فاضطر إلى الهروب إلى طنجة طالباً النجدة من الأسبان ضد عمه ابى مروان ، ولما لم ينجده الأسبان ، توجه إلى البرتغال مستنجداً بملكها دون سبستيان .

وإذا كانت أسبانيا لم تجد المبرر لمساعدة المتوكل ، فإن البرتغال صارت هى المرشحة للقيام بهذا الدور ، لأنها وجدت فى ذلك الفرصة لاستعادة ما ضاع منها من ثغور ، ولإحياء الروح الصليبية مرة ثانية . ويتطلب هذا منا وقفة قصيرة لنحلل أوضاع الثغور البرتغالية فى المغرب .

ذلك أنه من الواضح أن الصراع على العرش فى المغرب أحدث تصدعاً فى النسيج الداخلى للدولة ، مما جعلها تتأرجح بين طلب النجدة من الأتراك أو الاستعانة بالقوى الأجنبية من الأسبان والبرتغال . وقد وصل الأمر إلى اتفاق الفرقاء مع القوى الأجنبية على إعطائهم امتيازات فى الدولة السعدية . ولو تكاتف الجميع سوياً ووقفوا وقفة واحدة لاستطاعوا القضاء على الوجود الأجنبى على أرض هذه الدولة الإسلامية .

ذلك أن المتوكل تبادل المراسلات مع ملك البرتغال سبستيان من خلال حاكم برج البريجة البرتغالى الذى لم يتردد فى إسداء النصح لسبستيان

---

(١) شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص١٧٥ .

بالعدول عن هذه المغامرة . وقد طلب المتوكل أربعة آلاف جندى بقيادة ضابط كبير لمساندته(١) .

وكان أن اتفق سبستيان مع المتوكل على أن يكون للنصارى سائر السواحل ، وله هو ما وراء ذلك فى الداخل ، وقبل المتوكل ذلك والتزم به(٢) .

ولم تكن هذه المرة الأولى التى يفكر فيها سبستيان فى غزو المغرب ، ولذا كانت مراسلات المتوكل معه فرصة لكى يعيد مشروعه لغزو المغرب ، وهو المشروع الذى فكر فيه عام ١٥٧٠م ثم تجدد فى عام ١٥٧٤ . ولما طلب منه المتوكل المساعدة لم يتأخر سبستيان وأسرع لتلبية النداء . وكان القصد هو الاستيلاء على العرائش ، ثم السيطرة على طرق الملاحة المارة بالمغرب . وإذا كان الملك يوحنا الثالث قد وجه اهتمامه إلى البرازيل وتخلى عن طنجة والقصير فإن ابنه سبستيان أولى الاهتمام الكبير للمغرب لأغراض دينية انتقامية فضلاً عن السيطرة على طرق المواصلات البحرية(٣) .

وهكذا يمكن القول بأن أزمة العرش فى المغرب كانت السبب الرئيسى لعودة البرتغال مرة ثانية إلى المغرب ، ولكن تحت ستار مساعدة أحد الحكام المسلمين ، وبهدف إحياء الثغور المغربية وإعادة السيطرة عليها بعد اتفاق مع أحد الحكام المغاربة . والغريب فى هذه الحملة الصليبية الجديدة أنها جاءت بزعامة الملك البرتغالى نفسه لتشهد أرض المغرب تطوراً كبيراً فى الصراع المغربى البرتغالى فى الربع الأخير من القرن السادس عشر .

---

(1) De Castries: Op. cit. I, 464.

(٢) الناصرى : الاستقصاء ، جـ٥ ، ص ٦٨ .

(3) Charles Andre, Julien: History of North Africa, London 1970, P. 227.

أوضاع الثغور المغربية قبل الحملة البرتغالية سنة ١٥٧٨ :

كانت البرتغال مع مطلع القرن السادس عشر قد انشغلت بمستعمراتها فى آسيا والعالم الجديد ، مما دفع القوى الوطنية فى المغرب إلى التشديد من هجماتها على الثغور التى كانت فى حوزة البرتغال ، بل لقد امتنعت القبائل عن تقديم القمح والأخشاب إلى رجال الحاميات البرتغالية . ومع كثرة الثغور وقلة عدد سكان البرتغال واتساع هذه الإمبراطورية التى امتدت من الهند شرقاً وحول القارة الأفريقية حتى البرتغال فىجنوب أوربا، اضطرت البرتغال إلى تخفيض أعداد الحاميات فى الثغور المغربية توفيراً للنفقات ، واعتماداً على التركيز فى المناطق التى تجلب لها الكثير من الأرباح ، خاصة بعد أن انغمست فىتجارة الجنس البشرى وصيد الرقيق الأفريقىلبيعه للدول الأخرى.

وكانت هذه العوامل من أهم الدوافع التى جعلت المغاربة يسعون لإزاحة كابوس الاستعمار الأجنبى من بلادهم ، لذلك شهد القرن السادس عشر جولات من المقاومة المغربية . ومن يطلع على الوثائق المغربية يجد أنها حافلة بالعديد من الخطابات التى يتعجل فيها حكام البرتغال إرسال التعزيزات لحماية هذه الثغور ، لكن دون جدوى ، لأن نظام الإدارة البرتغالى اعتمد على المركزية الشديدة ، وضرورة أخذ رأى الإدارة المركزية فى لشبونة عند طلب أية مساعدات . وأمام هذا الوضع المتردى فى الثغور المغربية ظهرت فكرة إخلاء بعض الثغور والإبقاء على البعض الآخر ، حتى تتمكن البرتغال من تركيز الجهود فى المناطق الأكثر حيوية والتى تعود بالنفع على شعب البرتغال(١) .

---

(١) شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص ٦٥ .

ورغم تأييد عدد من الأساقفة ورجال الدين وبعض الحكام فكرة إخلاء بعض الثغور والجلاء عنها ، إلا أن الغالبية العظمى كانت ضد فكرة الجلاء ، ورأت ضرورة الحفاظ عليها باعتبارها قواعد البرتغال الأساسية ضد القوى الإسلامية . لكن الملك جيان الثالث قرر إخلاء بعض الثغور أمام الضغط الإسلامى وكثرة الخسائر فى المغرب ، فأصدر الأوامر فى عام ١٥٣٤م إلى الحاكم البرتغالى لإخلاء ميناء سانتاكروز . ورغم رفض الحاكم هذه الأوامر إلا أن الإخلاء صار أمراً طبيعياً بعد نجاح السعديين فىإقامة قواعد عسكرية بالقرب من حصن سانتاكروز ، وبداية تطبيق سياسة الحصار حول هذه الموانى ، ثم تضيق الخناق على الحصن حتى سقط فى عام ١٥٤١ وأسر الحاكم البرتغالى مع ابنته(١) .

ويعتبر المؤرخون سقوط حصن سانتاكروز بمثابة الضربة القوية التى قصمت ظهر البرتغال فى بلاد المغرب ، بل يمكن القول أن هذا السقوط كان أول شرخ فى هيكل الكيان الاستعمارى البرتغالى للمغرب ، وهو الذى كان قد بدأ باحتلال سبتة عام ١٤١٥(٢) .

ومن ناحية أخرى ، فإن سقوط سانتاكروز أثر على أزمور وأسفى ، لأنه أصبح من الصعب الدفاع عنهما . وبالفعل بدأت البرتغال فى ترحيل النساء والأطفال ثم الرجال إلى الجديدة ، وبعدها تم الرحيل عن الثغرين فى ٣١ أكتوبر سنة ١٥٤١ . وتوالت عمليات الإخلاء عن القصر وأصيلا فى عامى ١٥٤٩ و ١٥٥٠ .

---

(١) انظر : حول فكرة الإخلاء ومختلف آراء البرتغاليين حول هذه الفكرة فى الأرشيف البرتغالى ،

Archives Nationales das la Torre do Tonbo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 4.

(2) **Luiz de Sausa: Op. Cit. P. 143.**

ولا شك فى أن الجـــلاء عن ثغــور المغرب تـرك أثـاراً عكسية فـى العـالم المســيحى ، إذ وجـه المعاصـــرون نقداً لاذعـاً للملـك جيــان الثــالث لإقدامه على مثل هذه الخطـوات ، وأخـذ الكتـاب يوجهـون اللـوم للملـك علـى إخلاء موانى المغرب . وكان الـرأى السـائد هـو أن إخـلاء الثغــور يعنـى قيام الـبربر باحتـــلالها ، ثـم اتخاذهـا قواعـد لشـن غـارات علـى مـا بقـى مـن حصون برتغالية فى المغرب . هذا إلى أن الإخلاء يعرض شواطىء الجزائـر للخطـر بسـبب اشـتداد حـدة القرصنـة ، وهـو مـا يؤثـر سـلبياً علـى التجـارة البرتغالية(١) .

وإذا حللنا هذه الآراء المتعارضة تجاه الإبقاء علـى الثغـور المغربيـة أو إخلائها ، نجد أنه من الضرورى أن نؤكد علـى أن فكـرة الإلغـاء كـانت أمـراً واقعياً ، ونتيجة حتمية للسياســة البرتغالية التى اندفعت بحماس دينـى صليبـى لا مثيـل لـه فـى مراحـل الصـراع ضـد المسلمين . وكـان ضعـف الإمــارات الإسلامية عاملاً مساعداً على سرعة استيلاء البرتغـاليين علـى هـذه الثغـور ، لكـن الإخـلاء صـار شيئاً طبيعيـاً بسـبب السياسـة البرتغاليـة التـى يمكـن أن نلخصها فيما يلى :

أولاً : عدم وجود جهة مسئولة عن حماية هـذه الثغـور ، وهـذا مـا أدى إلى تعقيد الإجراءات وتعطيل سير العمل عندما كان عامل الوقت أساسـياً فـى مساندة وتأييد الثغور التى تتعرض للخطر .

---

(1) Archives Nationales de la, Torre de Tombo - Cartes nissives Sendate Maco I, No. 73.

وأيضاً شوقى الجمل : مرجع سابق ، ٧٣ .

ثانياً : انعزال الثغور عن بعضها البعض،وصعوبة الاتصال بينها ؛ وهذا ما جعلها مثل الواحات المنعزلة ، وأصبح كل حصن يواجه مصيره بنفسه .

ثالثاً : عنف المقاومة الوطنية ضد هذا الوجود الأجنبى الذى اتخذ من الدين ستاراً للقضاء على حضارة الإسلام ، وبالتالى صار الدين شعاراً لكل من يشارك ضد هذه القوى الأجنبية . ولا ننسى الدور الذى قامت به الطرق الصوفية فى المغرب ، وتجنيد كل الطاقات للوقوف أمام هذا الغزو الأجنبى .

رابعاً : انشغال البرتغال فى مناطق آخرى من العالم ، وعدم الاهتمام بهذه الثغور التى تزعمت حركات المقاومة ، وكلفت البرتغال وهى دولة محدودة السكان - تضحيات فوق ما يمكن أن تتحمله .

خامساً : ظهور دول أخرى على الساحة مثل الأسبان والهولنديين ثم الإنجليز والفرنسيين ، وأفول نجم البرتغال ، التى رأت فى إخلاء الثغور إنقاذاً لإمبراطوريتها بعد أن اتضح أن الشمس أخذت تغرب عنها .

المرحلة الأخيرة من الصراع المغربى البرتغالى :

وعندما استتب الأمر لعبد الملك ، أمر بإنشاء السفن فى سلا والعرائش ، وأخذ يضيق الخناق على المسيحيين ، ويعد الجيش لمحاربتهم(١) وقد حدث هذا فى الوقت الذى كان ملك البرتغال سبستيان يعد العدة لحملته الصليبية

---

(١) التاكمدراتية نشره المستشرق كولان الرباط ١٩٣٤م تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول ص ٥٤ .

على المغرب ، تداعبة أحلام السيطرة على الشمال الأفريقى وتوجيه ضربة إلى المسلمين هناك ، حتى أنه زار سبتة عام ١٥٧٤ ليقف بنفسه على الأوضاع فى الثغور المغربية(١) .

وقد حاول سبستيان إغراء خاله فيليب الثانى ملك أسبانيا لكى يشاركه فى هذه المغامرة الكبرى ضد المسلمين ، ولكن الأخير لم يستجب ، وإن كان قد وعد بمساعدته بسبعة آلاف جندى من الأسبان والإيطاليين والألمان(٢) .

ويؤكد هذا التعاون أن الروح الصليبية كانت لا تزال تتملك قلوب وآمال هؤلاء الحكام ليتعاونوا سوياً ضد المسلمين . وهكذا اتخذت هذه الحملة شكل غزوة صليبية جديدة ، فأرسل سبستيان خطاباً إلى النبلاء فى بلاده يذكرهم بماضى الوجود الإسلامى فى الأندلس ، وبما كان لأسلافهم من جهود فى إنهاء هذا الوجود ، ثم دعا الأمة إلى حمل السلاح ضد المغاربة المسلمين لإخضاعهم(٣) .

وعندما علم مولاى عبد الملك باستعدادات ملك البرتغال لغزو المغرب أرسل إليه يثنيه ، ويبصره بعواقب هذا العمل ، ويدعوه إلى تحكيم العقل وعدم التهور والسير خلف المتهورين من أفراد حاشيته . والواقع إن بعض النبلاء المتعقلين أشاروا عليه بأنهم لن يحاربوا جيشاً واحداً ولا ملكاً واحداً ، وإنما سيواجهون عدة زعامات محلية وشعبية . ورغم هذا أصم سبستيان أذنية ،

---

(١) شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

(2) British Museum- Addditional Mss. 28359 F. 3II.

(٣) إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص ٧٠ .

وملك الطمع قلبه ، وأبى إلا الخروج من طنجة فى جيش لضرب بلاد المغرب(١) .

وكان أن قاد سبستيان جيشه متوجهاً من قادس إلى طنجة فى ٢٤ يونية ١٥٧٨ ، واتجه البرتغاليون إلى أصيلا حيث مكثوا بها فترة أتاحت للمغاربة الفرصة لاستكمال الاستعدادات . وقد فكر مولاى عبد الملك فى إجبار البرتغال على المعركة البرية لأنه لا قبل له بإسطول البرتغال ، ولذا استدرج البرتغاليين حتى وصل إلى الضفة اليسرى لوادى المخازن ، وعسكر هناك على شكل مثلث تتكون زاويته الغربية من التقاء نهر وارور ووادى المخازن(٢) .

---

(١) وجه عبد الملك رسالة إلى سبستيان يقول فيها " إن ما تعتزم محاربتى فى عقر دارى ظلم ، وأنا لا أضمر لك شراً ، ولم أقم بشىء ضدك ، فكيف تبيح لنفسك أن تزيل لى ما هو حقى وتعطيه لشخص آخر مقابل وعود خلابة لا يستطيع أن يفى بها لك ما دمت حيا . إنك تأتى لتطردنى من مملكتى وأنك بكل ما تملك لن تقدر على ذلك . ولا تظن أن الجبن هو الذى يملى على ما أقوله لك ؛ فإن فعلت فإنك تعرض نفسك للهلاك . وأننى مستعد للتفاهم معك رأساً برأس فى المحل الذى تريده . وإننى أفعل ذلك سعياً فى عدم هلاكك المتحقق عندى ، ولا يملى على هذه العواطف إلا محبتى للعدل . وإننى أشهد الله على ما أقول وأعلم إنك شاب لا تجربة لك ، وإن لك فى حاشيتك نبلاء يشيرون عليك بآراء فاشلة .

انظر : وثائق تاريخ المغرب وهى مترجمة من الأسبانية حاشية محمد الفاس : وقعة وادى المخازن الحاسمة ، مجلة البحث العلمى ، عدد ٩ ديسمبر سنة ١٩٦٦ ، ص٢٣٢.

(٢) شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص ١٧٨ .

وكان سبستيان قد اتصل بالمتوكل فى طنجة حيث كان فى انتظاره ، واحتفظ ملك البرتغال بابن المتوكل رهينة ، وبعث به إلى حصن البريجة(١) وقد أفاد البرتغاليون من قوتهم البحرية فاحتلوا عدداً من الثغور المغربية ، فى حين توغل معظم الجيش فى المنطقة الشمالية متجهاً إلى طنجة والقصر الكبير . واختلفت الروايات حول عدد أفراد الجيش لكل من الطرفين ، ما بين أربعة عشر ألفا ومائة وخمسة وعشرين ألفا عند البرتغاليين وما بين سبعين وتسعين ألفا عند المغاربة(٢) .

أما عبد الملك فقد أسند إلى أخيه أحمد تنظيم التعبئة العامة ، ونجح فى استدراج الجيش البرتغالى إلى مكان تكثر فيه الأنهار ، حيث يصب وادى لوكس فى العرائش ويتصل به من الضفة اليمنى وادى ريسانة ووادى المخازن . وكان هدف عبد الملك تحقيق أمرين :

أولهما : إبعاد الجيوش المغربية عن الساحل ومراكز الإمدادات البرتغالية .

وثانيهما : تكبيد العدو أكبر الخسائر على وجه السرعة وقطع خطوط الرجعة عليه .

وهكذا احتشد الجيش المغربى تاركاً وادى المخازن عن شماله كحاجز له ، بينما ترك عبد الملك الجيش البرتغالى يعبر الوادى تاركاً النهر خلفه . ورتب الجيش المغربى نفسه على شكل هلال ، الرماة من المشاه يتقدمهم جند

---

(1) Charles, Julien: Op. Cit. P. 227.

(٢) انظر الناصرى : الاستقصاء ، جـ٥ ص٦٩ .

وأيضاً : Public Record Office, State Papers, Foreign House Towns, Vol. I. No. 44.

الأندلس ثم المغاربة . وفى طرفى الهلال فرقتان كل منهما تضم عشـرة آلاف فارس ، وفى المؤخرة أصطف باقى الفرسان(١) .

والواقع أن الجيشين لم يلتقيا فـى معركـة مباشـرة ، بـل عـبرت الفـرق البرتغالية قنطرة وادى المخازن ، وعسكرت خلـف النهـر ، وعكسـر الجيـش المغربى بسوق الخميس على بعد ستة أميال من القصـر . وهكـذا حتـى بـدأت المواجهة فى الرابع من أغسطس عام ١٥٧٨ بعـد أن هـدم المغاربـة القنطـرة التى عبرها كل الجنود الذين أحضرهم سبستيان إلى المعركة(٢) .

وكان جيش سبستيان يضم عدداً من رجال الدين المسيحى ، مثلمـا كـان الجيش المغربى يضم عدداً مـن رجـال الديـن والطـرق الصوفيـة . وقـد ألقـى سبستيان خطبة حماسية فـى جيشـه قبـل بدايـة المعركـة . وعندمـا رفـع القـس إسكندر الصليب إلى أعلى ركع جند سبسـتيان علـى ركبهـم ، فاسـتغل الجيـش المغربى الفرصة بسـرعة وأطلـق مدافعـه فـى اتجـاه جيـش العـدو ، واسـتولى بسرعة على اثنين وعشرين مدفعاً(٣) .

ويبدو أن هذا الهجوم المفاجىء ألقىالرعب فىصفوف البرتغاليين الذين تعرضوا لهزيمة قاسية ، وقفز الألوف منهم فى النهر . أما المتوكل وسبستيان فقد ألقيا بأنفسهما فى النهر أيضاً حيث غرقا واسـتخرجت الجثتـان بعـد ذلـك . وشاءت الأقدار أن يموت عبد الملك قبل الشروع فى المعركة مباشرة(٤) .

---

(١) عبد الله العروى : تاريخ المغرب ، ترجمة د. ذوقـان قرقـوط ، بـيروت سـنة ١٩٧٧ ص ٢٥٨ .

(٢) جلال يحيى : مرجع سابق ، ص ٢٠٥ وأيضاً صلاح العقاد، مرجع سابق ، ص ٥٣.

(٣) توجد تقارير فى الأرشيف البريطانى عن المعركة .

Public Record Office- State Papers Foreign Royal Letter Vol. II. No. 77.

(٤) يقال أن عبد الملك كان مصابا بالكوليرا . وكان القائد رضوان الذى عمل حاجبالـه قد أخفى خبر وفاته ولم يطلع إلا القائد التركى وأحمد المنصور . وكان الجيش على علم

وكان أن أمر أحمد المنصور بسلخ جثة المتوكل وحشوها بالتبن ثم الطواف بها فى المدن حتى يكون عبرة لغيره ، ولذا لقب بالمسلوخ . أما جثة سبستيان فقد تم تحنيطها وسلمت إلى فيليب الثانى مع الأسرى بعد عام من المعركة دون أية تعويضات .

وقد أطلق على هذه المعركة معركة الملوك الثلاثة الذين ماتوا فيها ، أو معركة وادى المخازن . واختلف فى عدد القتلى من الفريقين ، لكن من المؤكد أن أسرى البرتغال كانوا كثيرين ، وقد قدروا بحوالى أربعة عشر ألفا ، وتم دفع فدية لهم من الذهب ، ولذا لقب المنصور بلقب المنصور الذهبى(١) .

وهكذا انتهت هذه الغزوة الصليبية الجديدة على أرض المغرب . وكانت خاتمة المطاف لذلك الصراع البرتغالى المغربى . أما آثار هذه الموقعة فيمكن أن نجملها على النحو التالى :

بالنسبة للمغرب :

١ - أعادت المعركة ثقة أهل المغرب فى أنفسهم .

٢ - ساعد النصر المغربى على ازدهار الحياة الفكرية والأدبية ، وظهرت مجموعة من الأدباء أمثال عبد العزيز القشتالى والمقرى صاحب

بمرضه ، وكان رضوان يخرج به فى عربه ويوهم الجيش بأنه يتحدث إليه سراً ويتلقى منه التعليمات ، ويوجهها باسمه ، كما منع الجميع من دخول خيمته .

انظر : ابن العياشى زهرة البستان ، ص ٩٨ وهناك خلاف عن سبب وفاة عبد الملك، حيث يرى البعض أنه قدمت مسموماً بسم دسه له قائد الترك فىكعك تناوله .

انظر : الاستقصاء ، الجزء الخامس ، ص٨٦ .

(١) تاريخ الدولة السعدية - مؤلف مجهول ص٦٦ وأيضاً شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص١٨٠ .

كتاب " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " ، وأيضاً ابن القاضى صاحب كتاب درة الحجال فى أسماء الرجال .

٣ - تغيرت صورة المغرب فى نظر أوربا حيث بدأت القوى المسيحية الأوربية تتهافت لعقد معاهدات مع المغرب . وتعددت السفارات المحملة بالهدايا إلى حكام المغرب ، كما توقف كل اعتداء على الأراضى المغربية فى عهد أحمد المنصور .

أما بالنسبة للعالم الإسلامى فإن هذه المعركة غيرت تاريخ المغرب الإسلامى لأنه لو انتصر البرتغاليون لتوغل الجيش البرتغالى فى ربوع المغرب ، ولصار معظم المغرب مستعمرة برتغالية لعدة قرون ، فضلاً عن عملية تنصير أهله(١) .

أما بالنسبة للبرتغال فقد ترك هذا الصراع آثاراً خطيرة فى وضعه وسياسته ، تتمثل فيما يلى :

١ - كانت الهزيمة البرتغالية أمام المغاربة قاسية حيث لم تفقد البرتغال جيشها أو ملكها فحسب ، بل فقدت استقلالها ، نتيجة لانقراض الأسرة الحاكمة بها ، وعدم وجود وريث للعرش لسبستيان ، فانضمت البرتغال إلى الحكم الأسبانى وورث فيليب الثانى البرتغال بضربة حظ كما يقول هيربرت فيشر(٢) .

---

(١) إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص٨٤ .

(٢) هربرت فيشر : أصول التاريخ الأوربى الحديث ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ ، ص٢٢٨ .

٢ – أن هزيمة البرتغال أمام المغاربة جعلت الدولة فريسة سهلة لأسبانيا، وبالتالى فإن هذه المعركة وضعت نهاية لحملة صليبية جديدة على العالم الإسلامى ، بل جعلت المغرب ينعم بالاستقرار والأمان والتوسع فى السودان الغربى .

٣ – غيرت هذه المعركة وتلك الهزيمة البرتغالية من استراتيجية الدولة الأوروبية التى صار عليها أن تتروى وتفكر طويلاً قبل الأقدام على أى مشروع لغزو أراضى المسلمين فى شمال أفريقيا . وبعبارة أخرى فإن هذه المعركة فتحت صفحة جديدة من العلاقات بين المغرب وأوروبا بل بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى(١) .

٤ – وأخيراً يمكن القول أن هذا الانتصار المغربى على جيش البرتغال وهلاك الملك قد أوقف أى خطر صليبى جديد على بلاد الشرق ، لأن هذه الحملة الهوجاء كانت آخر محاولة لإنتصار الفكرة الصليبية لاغتصاب الأراضى المقدسة المسيحية من أيدى المسلمين ، كما أن النصر الذى أحرزه السعديون عزز جانب الدولة العثمانية ، إذ اعتبر الأوربيون هذا النصر الذى أحرزه المغاربة فى وادى المخازن انتصاراً لكل المسلمين فى العالم . وفى نفس الوقت جعل هذا النصر الأتراك يعدلون نهائياً عن مطامعهم فى الاستيلاء على المغرب ، فبقى يمثل الرقعة الوحيدة التى لم تخضع للنفوذ العثمانى . وبذلك حافظت اللغة العربية على مقامها وعلى نقائها ، واستمرت تؤدى رسالتها عدة قرون بالمغرب . وصار المغرب البوابة الإسلامية فى الغرب ضد القوى المسيحية التى تحاول فى أى وقت النيل من تراث الإسلام وحضارته .

---

(١) صلاح العقاد : مرجع سابق ، ص٥٣ .

لقد كان وادى المخازن خاتمة المطـاف فـى هـذا الصـراع الطويـل بيـن البرتغال والمغرب ، وهو الصراع الذى استهله البرتغـاليون بالاستيلاء علـى سبتة عام ١٤١٥ وانتهى بوادى المخازن ، لتبقى مدينتنا سبتة ومليلة فى أيـدى الأسبان حتى يومنا هذا . والأمل معقود على أن تعود تلـك المنـاطق المغربيـة إلى حظيرة الدولة الأم ، لينتهى بذلك آخر وجود أجنبـى علـى أرض المغـرب وعلى التراب الأفريقى .

الخاتمة :

بعد هذا العرض للصراع المغربى البرتغالى فى القرن السادس عشر ، والهزيمة القاسية التى لحقت بالبرتغـال ، يمكـن أن نلخـص أهـم النتـائج التـى توصلت إليها هذه الدراسة فيما يلى :

أولاً : أن الصراع البرتغالى المغربى اتخذ طابعاً دينياً فى المقام الأول ، واتضح ذلك من مشاركة البابوية وإصدار القرارات التى ساندت البرتغال على طول الخط . وكان رصد الأموال والجيوش عاملاً واضحاً لإضفـاء الشـرعية الدينية على هذا الصراع .

ثانياً : أثبتت الدراسـة أن الحـروب الصليبيـة التـى هـدأت فـى المشـرق العربى قد فشلت فى تحقيـق أهدافهـا بعـد أن منـى الصليبيـون بخسـائر فادحـة على أرض المشرق العربى . لكن هذه الخسائر لم تفت من عضد هـذه القـوى المسيحية فى إعادة الكرة من جديد لضرب ديار الإسلام . وما طرد المسـلمين من الأندلس وسقوط آخر معقل لهم فى غرناطة عام ١٤٩٢ إلا حلقة فـى هـذا الصراع الصليبى .

ثالثاً : اتضح من دراسة هذا الصراع أنه كلما كانت القوى المحلية أكثر تمزقاً وتكالباً على السلطة ، كلما كانت الأطماع الأجنبية أكثر ميـلاً للسيطرة

والتفكير فى الغزو والاستعمار . وبالتالى فإن الوحدة هى خير وسيلة لردع أية محاولة تحاول قوى البغى الأجنبى النيل بها من تراب الوطن الإسلامى .

رابعاً : أثبتت الدراسة أن الدولة العثمانية التى وصلت إلى الشمال الأفريقى عام ١٥١٨ بناء على طلب حكام الجزائر كانت دعماً وسنداً قوياً فى مواجهة هذه الموجة الصليبية ، لأن العداء قائم بين العثمانيين والأوربيين منذ سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، فى حين أن الصراع فى شمال أفريقيا لم يكن إلا امتداداً لصراع الشرق . ولذا اتضح أن التعاون كان وثيقاً ، وأن العثمانيين صاروا حزام الأمان وظهيراً قوياً للمغاربة فى هذا الصراع الجديد فى القرن السادس عشر .

خامساً : أثبتت الدراسة أن الحروب الصليبية سواء فى المشرق أو المغرب تتفق فى جميع الوجوه ، وأن النزعة الصليبية لتدمير ثروات المسلمين والاستيلاء على الأماكن المقدسة ما هى إلا مخطط مرسوم وأمر فرضته طبيعة العلاقات بين الطرفين . وما الدوران حول أفريقيا والوصول إلى رأس الرجاء الصالح ثم محاولة الاتصال بالمملكة المسيحية الوحيدة الموجودة فى أفريقيا (مملكة برسترجون) فى الحبشة إلا أجزاء من هذا المخطط الصليبى لتدمير ديار المسلمين والقضاء على ثرواتهم ، خاصة بعد هزيمة المماليك فى معركة ديو عام ١٥٠٩ .

سادساً : أثبتت الدراسة أن معركة وادى المخازن تمثل النهاية الحتمية لكل من بغى واعتدى ، ودرسا قاسياً لكل من يحاول التطاول على ديار المسلمين . وتكفى الهزيمة القاسية والنهاية الدرامية لملك البرتغال الذى جاء مدعوماً بجيش أوربى من الأسبان والألمان والإيطاليين ، فضلاً عن دعم

دينى من البابا الذى بارك هذه الحملة وأمدها بأربعة آلاف جندى ، وبألف وخمسمائة من الخيل وأثنى عشر مدفعاً .

* * *

وأخيراً ، يمكن القول بأن الصراع إن كان قد انتهى بوادى المخازن إلا أن العصور الحديثة شهدت صراعات أخرى تجسدت فى الاستعمار الأوربى الحديث الذى اكتسح القارة الأفريقية ، ولم يهدأ له بال إلا بسقوط معظم القارة الأفريقية تحت السيطرة الأوربية ، وعندئذ أخذت البعثات التنصيرية تمارس نشاطها فى كثير من أرجاء القارة لكى تطوق ديار الإسلام . وليس أمام المسلمين اليوم إلا اليقظة الوعى والمحافظة على أراضيهم وثرواتهم أمام تلك الأطماع التى انحسرت فعلاً بعد استقلال أفريقيا عقب الحرب العالمية الثانية .

(شكل ١)

صدى الحروب الصليبية فى حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة

أ. د. فاروق عثمان أباظة(*)

شهدت العلاقات الدولية بين العالم الإسلامى والغرب المسيحى الأوربى فى الفترة بين القرنيين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين حروباً مُروعة بين أتباع المسيحية وأتباع الإسلام ، عرفت بالحروب الصليبية أو حروب الأفرنج . وقد ظل صدى هذه الحروب يدوى حتى نهاية العصور الوسطى ، فيما يمكن أن نسميه بذيول الحروب الصليبية ، كما بدا صداها واضحاً جليا فى حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة . بل أن هذا الصدى أخذ يتردد بشكل ملحوظ فى الحركة الاستعمارية الأوربية الحديثة، التى خلّفت أنواعاً جديدة من الاستعمار ظل صدى الحروب الصليبية يتردد فى وجدان القائمين عليها ، لأنها لم تختلف فى الأهداف والأساليب ، رغم تعدد أنواعها وأنماطها . فالأهداف طغت عليها المادية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، أما الأساليب فقد استغلت الدين بماله من مكانة وتأثير ، فى تحقيق مآربها إلى أبعد مدى ممكن . وهكذا صارت الدعوة لاسترداد الأماكن المسيحية المقدسة من أيدى المسلمين بمثابة الذريعة التى استندوا إليها ، لتبرير أعمالهم العدوانية ، كما غدا التبشير بالمسيحية على مذاهبهم ، هو السبيل لإيجاد قاعدة من الولاء ، من شعوب المناطق المستعمرة ، لجلاديهم من المستعمرين المتحكمين فى مقدراتهم .

ويمكننا أن نستنتج بكل بساطة من استقرائنا للمصادر المعاصرة ومن حركة التاريخ فى عصر الحروب الصليبية الذى امتد حتى نهاية القرن

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل كلية الآداب – جامعة الأسكندرية .

الخامس عشر ، أن حركة الكشوف الجغرافية في مطلع العصور الحديثة استهدف منها الغرب الأوربي - بعد أن استفاد من علوم المسلمين - أن يسيطر على مصادر التجارة الشرقية ومنابعها ، وأن يجد طريقا بحرياً جديداً إلى الشرق لايعبر ديار المسلمين ، وبذلك يحرم العالم الإسلامي من أهم مقومات ثرائه وقوته ، وهي قاعدته الاقتصادية ، المتمثلة في التجارة الشرقية وفوائدها بعد أن فشلت الحملات الصليبية عسكريا في التغلب عليه .

لهذا كانت حركة الكشوف الجغرافية الأوربية رد فعل واضح لفشل الحروب الصليبية من جهة ، وانتقاما من الوجودالإسلامي السياسي والحضاري في الأندلس لمدة ثمانية قرون متعاقبة من جهة أخرى . بل كانت أيضاً ردَ فعل واضح لنجاح الأتراك العثمانيين في فتح القسطنطينية في عام ١٤٥٣ ، وسيطرة قواتهم على سواحل البحرالأسود وفارس شرقاً ، وعلىالبلقان غرباً ، مما سد الطرق التجارية بين أسيا وأوربا عبر هذه الأقاليم ، وشل حركة التجارة الأوربية بشكل ملحوظ ، ودفع الغرب الأوربي دفعاً إلى حركة الكشوف الجغرافية . وهنا بدأت الكنيسة الغربية في أوربا تقوم بنفس الدور الذي قامت به في الحروب الصليبية ، وذلك بدفع ودعم من القوى القومية التي حلت في غرب أوربا محل القوى الاقطاعية والإمبراطورية . من ذلك أن البابا نيقولا الخامس بابا روما أصدر في عام ١٤٥٤ أي في السنة التالية مباشرة لفتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية براءة تطابق نفس البراءة التي أصدرها من قبل البابا أوربان الثاني في عام ١٠٩٥م . وقد عبرت عن ذلك أيضاً الممارسات التعسفية القاسية التي مارسها البرتغاليون في البحار الشرقية وعلى سواحل العالم الإسلامي المطلة عليها ، حيث مارسوا أبشع الجرائم مع شعوب تلك المناطق بطريقة انتقامية .

ولـم تقتصـر الممارسـات البرتغاليـة فـى الكشـوف الجغرافيـة علـى هـذه الأساليب الإنتقامية البشعة التى سبق أن مورست أثناء الحروب الصليبية ، بـل أنها اتجهت إلى أساليب الاستقطاب العقائدى من أجل إيجاد حليـف يسـاعدهم فى أحكام الحصار الاقتصادى على العـالم الإسـلامى . وحـاولوا أن يمارسـوا ذلك على الحبشة ، رغم علمهم بأنها كانت تابعة من الناحية المذهبية للكـرازة المرقصية الأرثوزثوذكسية اليعقوبية بالأسكندرية ، كما كـانت تربطهـا بالعـالم العربى والإسلامى روابط عديدة . وكان بعض ملوك الحبشة قد سبق أن مالوا إلى الاستجابة لنداءات الأوربيين والاتفاق معهم علـى تطويـق بـلاد المسـلمين فى الشرق الأدنى من ناحيتى الشـمال والجنـوب ، فـى الوقـت الـدى حرصـت البابوية الكاثوليكية على تحقيق التحالف مع الحبشـة رغـم الخلافـات العقائديـة بينهما ، مما جعل البابوية الكاثوليكية ترسل الرسل والسفراء إلى ملوك الحبشة فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى فى عامى ١٣٠٥ و ١٣١٦م كما أرسل ملك فرنسا سفارة إلى ملك الحبشة فى عام ١٣٣٨م (١) لتحقيـق تلـك الغايـة . وقد أدت تلك الاتصـالات المتكـررة بيـن الغـرب الأوربـى مـن ناحيـة وملـوك الحبشة من ناحية أخـرى إلـى استثارة الأحبـاش ضـد المسـلمين وجذبهـم إلـى دائرة الحركة الصليبية الأوربية . من ذلك أن ملـك الحبشـة لـم يكـد أن يسـمع خبر إغارة القبارصة الصليبيين على الأسكندرية فى سنة ١٣٦٥م حتـى بـادر إلى إعداد جيش ضخم ، وأعلن أنه سيهاجم مصر من ناحية الجنوب ، وبذلـك يتم تطويقها اقتصاديا وحربيـاً . ولكـن لـم تلبـث إن جـاءت الأخبـار إلـى ملـك الحبشة بانسحاب القبارصة من الأسكندرية ، وعندئذ عاد الأحباش إلى بلادهـم بعدأن فقدوا كثيرا من رجالهم دون جدوى .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، العدد ١١٨ المكتبـة الثقافية ، ص٦٠ -٦١ ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص١٢٠٩ وما بعدها(الطبعة الثانية).

وعلى الرغم من ذلك فإن ملوك الحبشة لم يتخلوا عن فكرة حصار مصر ومهاجمتها من ناحية الجنوب ، بدليل أن إسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩م) أراد القيام بحملة صليبية كبرى ضد مصر ، فيدهمها من ناحية الجنوب . وأرسل إلى ملوك أوربا فى سنة ١٤٢٨م يدعوهم لمساعدته فى القيام من جانبهم بهجوم على مصر من ناحية الشمال . وتروى المصادر أن رسول الملك إسحق إلى ملوك غرب أوربا كان تاجرا فارسيا يدعى نور الدين التبريزى. وقد نجح هذا الرسول الخائن فى إبلاغ رسالة ملك الحبشة إلى حكام الغرب الأوربى وتم الاتفاق فعلا على خطة مزدوجة لمهاجمة مصر من ناحيتى الجنوب والشمال . ولكن حدث عند عودة التبريزى بعد ذلك إلى الحبشة عن طريق مصر أن اكتشف أمره ، فقتله السلطان المملوكى برسباى جزاء خيانته . وعلى الرغم من مقتل التبريزى فإن دعوة ملك الحبشة صادفت قبولا لدى بعض ملوك أوربا . من ذلك أن الفونس الخامس ملك أرغونة شرع فى أعداد أسطوله لمهاجمة شواطئ مصر ، وأرسل سفارة إلى ملك الحبشة يؤكد فيها حسن نيته عن طريق عقد مصاهرة بين الطرفين . كذلك أظهر ملك فرنسا أهتماما كبيراً بذلك المشروع على الرغم من انشغال فرنسا عندئذ بحرب المائة عام ضد إنجلترا حتى عام ١٤٥٣ م(١) .

تمت هذه الاتصالات الودية بين صليبيى غرب أوربا والأحباش قبل اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى بين عامى ١٤٨٧ -١٤٩٨ . وكانت هذه الاتصالات مصحوبة كذلك بفكرة أخرى طالما نادى بها دعاة الحروب الصليبية فى أوربا ، وهى تجويع

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية - جـ٢ ، ص١٢٠٩ وما بعدها (١٩٧١) .

مصر والقضاء على شعبها بتحويل مجرى النيل عن مصر من منابعه فى الحبشة . وظلت هذه الفكرة تراود عقول المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل ألفونس ملك أرغونة إلى ملك الحبشة فى سنة ١٤٥٠م يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من ناحية الجنوب ، فى الوقت الذى يقوم ألفونس بغزو بلاد الشام(١) .

ولهذا فإن خطة الغرب الأوربى فى مطلع العصور الحديثة فى فرض حصار اقتصادى على العالم العربى والإسلامى هى من إفرازات الحركة الصليبية فى العصور الوسطى ، باعتباره عاملاً مؤثراً فى طاقته الحربية ، سواء بالبحث عن طريق غير طريق مصر للحصول على تجارة الشرق أو البحث عن حليف جديد يساعد فى إحكام الحصار الاقتصادى عن طريق إغلاق البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، وحرمان مصر من مياه نيلها ، وهى الأهداف التى سعى البرتغاليون إلى تحقيقها فى مطلع العصور الحديثة . غير أن رد الفعل الصليبى لم يصل إلى هذا الحد فقط ، بل تطلع البرتغاليون إلى غزو الجزيرة العربية ، مركز العقيدة الإسلامية ، والعدوان على مقدساتها، وبلغ ذلك حد إعلان رغبتهم فى نبش قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة المنورة . كذلك استهدفوا إدخال الحبشة فى حظيرة الكاثوليكية وتحويلها عن كنيسة مصر ليستمر ولاءها لهم (٢) . ومعنى ذلك أنهم أرادوا اقتلاع كل تراث المنطقة من جذوره إسلاميا كان أو قبطيا . وظل هدفهم هذا قائما حتى بعد وصولهم إلى الهند والشرق الأقصى وسيطرهم على منابع التجارة الشرقية فى المحيط الهندى .

---

(١) المرجع السابق .

(2) Alvarez, F. :Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Year 1520 -1527, PP. 265 , 270.

واستطاع البرتغاليون أن يحققوا غـايتهم مستندين إلى قواهم وخبرتهم البحرية التى أقتبسوها من العرب والمسلمين من جهة، وإلى جهود استطلاعية أخرى اتسمت بالسرية وتركزت حول جمع المعلومات عن مصادر التجارة ، وأنواع البضائع الشرقية وأمكانات القوى التى سيحاربونها ، من جهة أخرى . وتمكن الملك البرتغالى يوحنا الأول Jean I أن يضع اللبنة الأولى فى تاريخ البحرية البرتغالية المتسمة بالطابع العدوانى الصليبى ، حيث استولى على ميناء " سبته " على الساحل الغربى لأفريقيا من أيدى المسلمين فى عام ١٤١٥ ، وأقطعها لولده الأمير هنرى الشهير بالملاح ، والمعروف بحقده وكراهيته المتناهية للإسلام والمسلمين ،والذى كرس وبذل جهوده لاكتشاف طريق بحرى جديد يدور حول أفريقيا للوصول إلى الهند للسيطرة على تجارة المسلمين(١) . وبدأت رحلات الكشوف البحرية البرتغالية لسواحل غرب أفريقيا فى سنة ١٤١٨ . وقد لجأت البرتغال إلى إضفاء الشرعية الكنسية على التوسعات البرتغالية فى أعقاب فتح العثمانيين للقسطنطينية ؛ فى سنة ١٤٥٤ بأحقية التاج البرتغالى فى امتلاك سبته وغيرها ، مما يؤكد توفر الروح الصليبية فى توسع البرتغال فضلا عن الدوافع الاقتصادية الغالبة .

واستمرت الرحلات البحرية البرتغالية تكتشف الساحل الغربى لأفريقيا، حتى تمكن " بارتليموديـاز Bartholomew Diaz " من الوصول إلى أقصى نقطة فى هذا الساحل واكتشاف الطرف الجنوبى لأفريقيا ، الذى عرفه " برأس العواصف " والذى أطلق عليه ملك البرتغال يوحنا الثانى Jean II (١٤٨١ - ١٤٩١) " رأس الرجاء الصالح " تيمنا بالكشف الجديد فى عام ١٤٨٧ (٢) .

---

(1) Ackinson, W.C. : A History of Spain and Portugal, P. 99.

(2) Kammerer, A. : La Mer Rouge, L' Arabia depuis L'Antiquite, T.II. P.75.

وجاء بعد ذلك الرحالة البرتغالى " بيرو دى كوفلهام Pero De Covlham " الذى تمكن من الوصول إلى مصر عبر البحر المتوسط فى سنة١٤٨٧ ، ثم أبحر منها إلى ميناء سواكن عبر البحر الأحمر ، واتجه جنوبا حتى وصل إلى عدن ، التى وصفها بأنها كانت إنذاك مدينة عظيمة وأن تجارها من جميع الأجناس . وبعد ذلك واصل رحلته إلى الهند (١) . وعند عودته قام بزيارة معظم المناطق الإسلامية الواقعة على الساحل الشرقى لأفريقيا ، كما مر بمدينة زيلع ، ثم اتجه جنوباً حتى وصل إلى" سوفالا "(٢) وقد عاد هذا الرحالة إلى مصر حيث تمكن من جمع معلومات عن الحبشة دفعته للتوجه إليها . وكانت رحلته إلى الحبشة التى تتبع من الناحية العقائدية الكنيسة الارثوذكسية اليعقوبية فى مصر ، بداية لسلسلة من رحلات المستكشفين والبعثات الأوربية الكاثوليكية التى وفدت إليها أثناء القرن السادس عشر ، والتى كانت تهدف إلى استقطابها للكاثوليكية لتطويق العالم الإسلامى، وانتزاع التجارة الشرقية التى تشكل مصدر قوته إنذاك . وقد أصبح " بيرودى كوفلهام " مستشاراً لملك الحبشة " قسطنطين الثانى " ثم أصبح بعد ذلك مبعوثه إلى ملك البرتغال " يوحنا الثانى " للاتفاق على حملة مشتركة لتحرير القدس . ولكن تلك البعثة لم تبتعد كثيراً بسبب نزاع نشب بين حراس البعثة وبعض الأهالى ، وبذلك فشل هذا المشروع العدوانى الصليبى (٣) .

وكان.أن مهدت جهود الرحالة " بيرودى كوفلهام " السبيل أمام الرحالة " فاسكو دا جاما Vascoda Gama للقيام برحلته حول رأس الرجاء الصالح فى

---

(1) Playfair, R.L. :A History of Arabica Felix or Yemen, Selections From the Records of the Bombay Government ,XL IX ,P. 96

(2) Coupland, R. L : Africa and Its Invaders, P 42

(3) Ziada, M. : Foreign Relations of Egypt in the Fifteenth century, pp. 287, 288 .

سنة ١٤٩٧ ، فمر بالساحل الشرقى لأفريقيا حتى وصل إلى موزمبيق ، حيث وجد قاربا على متنه بعض الزنوج وأحد البحارة ، ظنه البرتغاليون فى بداية الأمر من المغاربة . وعندما اقتربت السفن البرتغالية من القارب ، هرع الزنوج وألقوا بأنفسهم فى البحر وفروا إلى الساحل ، بينما نقل البحار إلى سفينة القيادة البرتغالية حيث أحسن "داجاما " استقباله . وقد اكتشف أن الرجل هندى ، وليس عربيا مغربيا ، وأنه من أهل " كمباى Campay " بالهند ويدعى " دافان " . وقد أتخذه " داجاما " مستشارا له لأنه كان خبيرا بالتوابل ومن سماسرتها . ووافق الملاح على مرافقة البرتغاليين إلى الهند ، وتعهد بتزويدهم بحمولة من التوابل نظير توصيله إلى بلاده (١) كما أستجاب شيخ موزمبيق لطلب " داجاما " وزوده باثنين من المرشدين ، إلا أنهما تمكنا من الفرار عندما تأكدا أن البرتغاليين يمارسون العنف مع الأهالى(٢) . ولهذا لم يغامر " داجاما " بالرسوبسفنه فى ممبسة ، عندما شك فى احتمال قيام ملكها بتدمير سفنه وإغراقها انتقاما لما فعله ضد أهالى موزمبيق. وعندما وصل " داجاما " بعد ذلك إلى ميناء مالندى – الواقعة حالياً فى كينيا – لقى فيها ترحيبا من ملكها – خوفا أو ضعفاً – فلما عزم على مغادرتها بعد عدة أسابيع ، طلب من صاحبها امداده بملاح يرشده إلى الهند ، فاستجاب له الملك وأمده بملاح ماهر قاد أسطوله إلى قاليقوط، فوصلها فى مايو سنة ١٤٩٨(٣).

وإذا كان ذلك ما أوردته الكتابات البرتغالية حول هذا الموضوع، فإن أول من أشار إليه من المؤرخين المسلمين قطب الدين النهروالى الذى أشار إلى أن البرتغاليين " دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج

---

(1) Howe, Sonia :In Quest of Spices , PP. 193, 195.

(2) Strandes,J. :The Portuguese Period in East Africa, PP. 20, 24.

(3) Strong, J. : The History of Kilwa, (J. R. A . S .) .

وقال لهم : لاتقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا فى البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الآمواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا فى بحر العرب وصارت الإمدادات تترادف عليهم من البرتغال ، وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا ونهبا ، ويأخذون كل سفينة غصبا ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم (أذا هم) على المسافرين"(١) وعلى هذا النص أعتمد المستشرق الفرنسى " جبريل فران Ferrand " فيما ذهب إليه من أن أحمد بن ماجد العربى المسلم هو الملاح الذىقاد أسطول " فاسكو دا جاما " من مالندىإلىموطن التوابل فى قاليقوط(٢) ومن المرجح أن دور ابن ماجد انحصر فى إسداء النصح وتقديم المشورة للرحالة البرتغالى " فاسكوداجاما " ، وإمداده بالمعلومات التى ساعدت على سلامة سفنه ، وتعليمه الطريق قولا ووصفاً ، وليس عملا وقيادة . أما الملاح الذى قام بمهمة إرشاد " فاسكوداجاما " فهو ذلك الملاح الهندى الذى أشارت إليه المصادر البرتغالية . وبذلك " لاتلقى المسئولية كاملة على ابن ماجد فى وصول البرتغاليين إلى الهند ، خاصة وأن البرتغاليين إنذاك لم يكشفوا عن أهدافهم الحقيقية ، ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم ، طالما كانت معاملتهم حسنة ، وتكفلوا بإعطاء الأجر المناسب "(٣) وقد

---

(١) قطب الدين النهروالى ، محمد بن أحمد الحنفى المكى : "البرق اليمانى فى الفتح العثمانى مخطوطه نشرها حمد الجاسر عام ١٩٦٧ ،ص١٨ -١٩ .

(2) Ferrand, G : Le Pilote Arabe de Vasco de Vaco de Gama , PP. 290, 307 Art Shihab Al Din In E N C of Islam .

(٣) محمد عبد العال أحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملامح فاسكو دى جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الأفريقية بجامعة القاهرة ، العدد الخامس ١٩٧٦ ص١٥٥ -١٦٧- ١٧٨ .

Hunter, F. M. : An account of the British settlment at Aden, P. 162 .

استغرقت رحلة " فاسكو دا جاما " الأولى إلى الهند ثلاث سنوات (١٤٩٧ – ١٤٩٩) عاد بعدها إلى لشبونة فى شهر سبتمر ١٤٩٩ .

وظهر التعصب الصليبى لدى " فاسكو دا جاما " عندما قام أثناء رحلته بمهاجمة أحدى السفن التجارية العربية واستولى على ما بها من بضائع، ثم أمر باغراقها بمن تحملهم من الركاب . كذلك قام أثناء رحلته الثانية إلى الهند فى سنة ١٥٠٢ بتكليف أحد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن التجارية الإسلامية ولمنعها من المتاجرة أثناء إبحارها فى مياه المحيط الهندى إلا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين . وأشتط " فاسكو دا جاما " فى مهمته عندما قام فى شهر يناير سنة ١٥٠٣ بمهاجمة سبع سفن إسلامية واستولى عليها ، بل أنه قام بقتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر . وفى ذلك يورد المؤرخ " بامخرمه " فى حولياته عن سنة ٩٠٨ هـ التى يوافق مطلعها اليوم السابع من يوليو سنة ١٥٠٢ أنه " فى هذه السنة ظهرت مراكب الفرنج فى البحر بطريق الهند وهرموز وتلك النواحى ، وأخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا أهلها وأسروا بعضهم "(١) كذلك يشير ابن أياس فى حولياته عن سنة (٩١٢هـ التى يوافق مطلعها ٢٤ مايو سنة ١٥٠٦م) إلى أنه قد " حدث فى هذه السنة أن قويت شوكة الفرنج ، وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم من ناحية الهند وهرمز ، أهلكهم الله " (٢) ولم يكتف البرتغاليون بذلك ، بل إنهم هددوا جدة فى سنة ١٥٠٥م ، وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل إلى مكة نفسها

---

(١) بامخرمه ، أبو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (٩٤٧هـ/١٥٤٠م) ، قلادة النحرفى وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة السنة الثانية بعد التسعمائة لوحة ١١٩٠ .

(٢) ابن أياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٢ ، ص٣٤٧ .

على هيئة حجاج فى زى عربى وكشف أمرهم[١] ، وكان ملكهم قد أقسم أن يستولى على مكة وأن يقوم بنبش قبر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة المنورة كما سبق أن أشرنا [٢] وقد تطورت أهداف الرحالة البرتغاليين فى المحيط الهندى التى بدأت برغبتهم فى كشف الطريق البحرى المؤدى إلى الهند لتحقيق مصالح اقتصادية لبلادهم بتحويل مسار التجارة الشرقية عن العالم العربى والإسلامى وحرمانه من أهم مقومات قوته إشباعاً لتعصبهم الصليبيى ، إلى الرغبة فى احتكار تجارة الشرق والسيطرة على مصادرها الأصلية ، بل وإلى إقامة أول حكومة استعمارية أوربية فى بلاد الشرق وضعوا على رأسها نائبا لملك البرتغال فى بلاد الهند . وكان تفوق البرتغاليين الحربى فى ذلك الوقت عاملا أساسيا فى سرعة تطور موقفهم بحيث أصبحوا يمتلكون سفناً حربية مزودة بالمدافع ، وهى أسلحة لم تكن معروفة فى الهند فى ذلك الحين[٣] . كذلك سيطر البرتغاليون على جزيرة سقطرى فى عام ١٥٠٧ الواقعة فى مواجهة القرن الأفريقى وتشرف على خليج عدن وشرق أفريقيا ، وسيطروا على مضيق هرمز فى نفس السنة ، واحتكروا مصائد اللؤلؤ فى الخليج العربى[٤] . وامتد نفوذهم إلى مضيق ملقا فى عام ١٥١١ فى أقصى جنوب الملايو فى الشرق الأقصى ، والتى كانت تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية حيث كانت تتجمع فيها منتجات منطقة

---

(1) Stripling, G. W. F . :The Ottoman Turks and the Arabs, P. 28.

(2) Kammerer, A : Op Cit, Tom2, p 144.

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ، ص٥ - ٥١.

(٤) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ٢ ، ص٦٩٨ -٦٩٩ .

الشرق الأقصى والهند الصينية . وهكذا أدى نشاط الرحالة البرتغاليين في المحيط الهندي إلى سيطرة البرتغال على التجارة الشرقية ومصادرها في أرجاء هذا المحيط ، وحرمان العالم العربي والإسلامي من عوائدها نتيجة لتحويل طريق التجارة الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح .

وكان من الطبيعي أن تقوم القوى العربية والإسلامية في العالم العربي والإسلامي ، وفي كافة أرجاء المحيط الهندي ، بمقاومة هذا الغزو البرتغالي الاستعماري الصليبي في مراحله الأولى ، بكافة مالديها من طاقات وإمكانات . وقد تمثلت هذه القوى في الكيانات المحلية الصغيرة التي قامت كل منها بمواجهة هذا الغزو بقدر طاقتها وإمكاناتها ؛ مثل الدولة الطاهرية في جنوب غرب الجزيرة العربية ، ودولة اليعاربة على الساحل الغربي للخليج العربي ، والسلطنات الإسلامية على الساحل الغربي للهند ، وغيرها من القوى المحلية ؛ وإن كانت طاقتها وإمكاناتها محدودة للغاية إذا قيست بطاقات وإمكانات القوة البرتغالية الطامعة والمتطلعة إلى السيطرة والثراء . لهذا استنجدت هذه الكيانات المحلية بالقوى الإسلامية البحرية الكبرى (١) التي تمثلت في الدولة المملوكية ، التي كانت تسيطر على مصر والشام والحجاز ، والتي سبق أن واجهت في بداية عهدها الحروب الصليبية وذيولها . ثم واصلت دورها في مواجهة الغزو البرتغالي منذ بدايته حتى عام ١٥١٧ ، عندما حلت محلها الدولة العثمانية التي كانت أقدر منها على المواجهة والصمود أمام الخطر البرتغالي طوال القرن السادس عشر الميلادي ، وحتى خبا نجم البرتغاليين في المحيط الهندي في منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، وعندئذ حلت

---

(١) ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي محمد الشيباني : الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص٣١ب .

محلهم قوى استعمارية أخرى جديدة تمثلت فى هولندا وإنجلترا وفرنسا ، وكلها أسست شركات احتكارية استعمارية ضخمة فى بلاد المحيط الهندى ، وأصبحت تمثل أعمدة الاستعمار الأوربى الحديث هناك وفى العالم أجمع .

وقد تمكن الأتراك العثمانيون من ملء الفراغ السياسى والعسكرى الناتج عن ضعف الدولة المملوكية لمواجهة الغزو البرتغالى الاستعمارى الذى هدد الأماكن الإسلامية فى الحجاز . ذلك أنهم نجحوا فى إقامة مظلة أمنية استراتيجية امتدت من الخليج شرقاً إلى حدود المغرب العربى فى أقصى الغرب ، حيث كان الأسبان يتطلعون إلى السيطرة على سواحل المغرب بعد أن تمكنوا من إخراج المسلمين من غرناطة فى سنة ١٤٩٢م وتعقبوهم فى ديارهم بالمغرب العربى للحيولة دون عودتهم إلى الأندلس . كذلك امتدت المظلة الأمنية العثمانية إلى اليمن فى أقصى الجنوب وإلى الأحساء فى شرق الجزيرة العربية لإقامة حزام أمنى حول الحرمين الشريفين ، بينما كان الربع الخالى فى جنوب الجزيرة العربية يشكل درعا واقيا لحماية الحرمين الشريفين من ناحية الجنوب . وظلت الدولة العثمانية تحرص على تأمين الأماكن المقدسة فى الحجاز وفلسطين خلال الأربعة قرون التى حكمت فيها معظم أجزاء العالم العربى فى العصر الحديث .

* * *

وإذا كان الهدف الصليبى لدى البرتغاليين قد بدا واضحاً فيما تناولناه من ممارسات فى نطاق المحيط الهندى ، فقد بدأ هذا الهدف الصليبيى لدى الأسبان الذين اندفعوا فى اتجاه الغرب للوصول إلى الهند فوصلوا إلى العالم الجديد ، تدفعهم الرغبة فى جمع الأموال لاسترداد بيت المقدس من أيدى المسلمين ، كما ثبت ذلك فى أوراق كريستوفر كولومبس مكتشف هذا العالم

الجديد(١) مما يؤكد الهدف الصليبى لديه ، ويثبت صدى الحروب الصليبية فى حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة . وكان الشرق الإسلامى المتفوق دائماً بحضارته وإمكاناته المادية ماثلا أمام كولومبس من خلال قراءته ومعايشته للواقع التجارى فى موانى إيطاليا ، ومن مطالعته للكتب العربية فى علم الجغرافيا ، سواء فى إيطاليا أو فى البرتغال ، حتى تمكن كولومبس من رسم خرائطه للعالم الشرقى ، الذى كان يتطلع إلى إيجاد طريق جديد إليه ، غير تلك الطرق التى سيطر عليها العرب المسلمون . وكان حلمه فى النهاية أن يجلب الثروة من اكتشافاته ليعد العدة ويتمكن من استرداد بيت المقدس للعالم المسيحى من أيدى العرب المسلمين . ومن هنا يبدو بوضوح صدى الحروب الصليبية فى حركة الكشوف الجغرافية بالنسبة للأسبان كما سبق تبينه بالنسبة للبرتغاليين .

وقد ذكر زميلى الأستاذ الدكتور جمال محمود حجر فى محاضرة له فى ذكرى مرور خمسمائة عام على اكتشاف العالم الجديد ، " أن تاريخ كولومبس فى القرن السادس عشر ، لم يعلن به آنذاك ، بحيث أهملته تماما الكتابات التاريخية ، ولم يعتن به كتاب عصره ، ولم يذكروا له دورا مهما ، وبعضهم لم يقدم لنا اسمه صحيحاً ، والوثائق المعاصرة تكاد تكون غائبة ، وكتابات المعاصرين التى كان يمكن أن تكون دائرة معارف تاريخية عن الاكتشافات الجغرافية المبكرة تكاد لا تذكره . حتى ابنه الثانى فرديناند ، وهو كاتب السيرة الشخصية لأبيه ، لم يفعل ذلك . أما سجلات كولومبس ومراسلاته فيكاد معظمها يكون مفقوداً " . وهكذا خلفت لنا شهرة كولومبس موضوعاً

---

(١) جمال محمود حجر (دكتور) : دراسات فى التاريخ الأمريكى ، دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ١٩٤٤ص٩.

غامضاً رغم أن ما كتب عنه فيما بعد لم يكتب مثله عددا عن غيره . ورغم تنامى الاعتزاز لدى الغرب بكولومبس فى القرون الأربعة السابقة خلال الاحتفال بذاكره المئوية ، إلا أنه مع تغير العالم وتغير أمريكا تغيرت سمعة كولومبس فى القرن العشرين ، حيث خضعت الكتابة التاريخية لمقاييس ومناهج عملية تفصل بين الحقيقة والرمز أو الأسطورة ؛ كما أن الحياة الحديثة جعلت الناس لا يعتقدون دائماً فيما كان قبل أمراً مقدساً ، فلم يعد عصر الاستكشاف يمثل الصورة المشرقة لمرحلة المجد بل صار الاستكشاف فى نظرهم غزوا ، وصار كولومبس إله الظلم والاضطهاد ، بحيث حوصر كولومبس فى أواخر القرن العشرين وبالتحديد فى الذكرى المئوية الخامسة له فى عام ١٩٩٢ . لقد اعتبره بعض المؤرخين لاإنسانى النزعة ، تاجرا للرقيق، ومدمراً أفسدت إدارته للمستعمرات كثيراً من الأمور الطيبة فى العالم الذى اكتشفه . ونظر إليه البعض الآخر على أنه لايستحق لقب سيد البحار ، والأمريكيون الأصليون يعتبرون الإشادة به تجميلاً لوجه هتلر ، ويصفونه بأنه صياد محظوظ طماع ، لايتجاوز كونه بحاراً عادياً وحاكماً غير موفق لعالم أسبانيا الجديد ، وهو فى نظرهم رمز للسلب والنهب ، والعبودية والموت . ويرى علماء البيئة أن وصول الأوربيين إلى أمريكا لوث بيئتها ، وأن على أمريكا أن تسعى إلى إنقاذ ما تبقى من أرض مهددة بالتلوث . وفيما بين عامى ١٤٩٢ وهو عام وصول كولومبس إلى الأرض الجديدة ، ١٥١٤ تفشت الأمراض التى نقلها الأوربيون إلى الأرض النقية العذراء المعزولة . وطبقا لأحدث الأحصائيات فإن " التاينو " الذين كان عددهم ثمانية ملايين ، صاروا ٢٨٧ ألفا فقط ، وبعد أربعين سنة أخرى ، أصبحوا عنصراً منقرضاً.

لقد أصبح المؤرخون اليوم يتحدثون عن توسعات كولومبس من وجهة نظر الأمريكيين الأصليين الذين هضمت حقوقهم فى الماضى . إنهم يتحدثون عن المواجهة والصدام ، وليس عن الاستكشاف والإعمار ، حتى أن المجلس الكنسى الأمريكى قرر أن المناسبة الخامسة لذكرى كولومبس عام ١٩٩٢ يجب أن تكون للرثاء وليس للاحتفال ، نظراً لما جرى من إبادة جماعية ، واستعمار واستغلال . وبعد أربع سنوات من المناقشات قررت الأمم المتحدة التخلى عن أية محاولة للاحتفال فى عام ١٩٩٢ بالذكرى المئوية الخامسة لكولومبس واكتشافه للعالم الجديد . فهل يزيد ذلك من قناعتنا بأن دور كولومبس كان ينعكس فيه صدى الآثار السلبية للحروب الصليبية ؟ لقد كان من بين أهداف كولومبس أن يجمع العالم حول المسيحية ، وأن يجمع الثروة ليحشد الجيوش لكى يستعيد بيت المقدس ، من أيدى العرب المسلمين ، فهل يعد ذلك مقياسا لصدى الحروب الصليبية فى حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة بالنسبة للجانب الأسبانى؟ (١) لقد كانت إيطاليا التى ولد بها كولومبس ونشأ ، مهداً للخرائط وكتب المسالك فى أوربا ، كما ألفت المدن الإيطالية منذ القرن الحادى عشر الميلادى عقد تحالف مع المسلمين عند القيام بمشروعات بحرية . ومن العدل فى هذا السياق أن نقول أن الخرائط البحرية قد عرفها العرب قبل الأوربيين بعدةقرون وأن خرائط المحيط الهندى العربية سابقة على أى خريطة أوربية معروفة إلى اليوم . ويؤكد ذلك المقدسى المتوفى فى عام ٩٨٩م . كذلك كان للعرب خبرة بالمحيط الأطلنطى ، فقد أبحروا فيه لتحقيق المصالح التجارية وجمع المعلومات ذات القيمة العلمية واتخذوا من إحدى جزر المحيط الأطلنطى مكانا لبداية أصل خطوط الطول .

---

(١) جمال محمود حجر (دكتور) : نفس المرجع ، ص١٠ - ١٤ .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى كانت لديهم أخبار عن شمال أوربا مثل الدانمرك وأيسلندا . ولو قدر للعرب أن يمكثوا فى الأندلس وقتاً أطول لحققوا كشوفهم فى العالم الجديد ، وهو الدور الذى قام به خشخاش القرطبى ومن كرر المحاولة بعده .

* * *

إن الغرب الأوربى فى عالمنا المعاصر ، وهو فى مواجهة واضحة مع العالم الإسلامى ، يحاول أن يضفى على الحروب الصليبية البائدة بكل ما اعتراها من سلبيات ونقائص ، وغدر وعدوان ، صفة " الجهاد " ، الشائعة فى عالمنا الإسلامى . بل إن لفظ " الجهاد " أصبح لفظاً مستعملا لديهم فى لغاتهم بمنطوقه العربى ، لإضفاء الصبغة الدينية على تلك الحروب ذات الأهداف المادية الواضحة . ويذكر ذلك زميلنا الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران أستاذ تاريخ العصور الوسطى بأن لفظ " الجهاد " أصبح شائعاً فى استخدامات المؤرخين الغربيين المعاصرين فى المؤتمرات الدولية التى عقدت مؤخراً فى أوربا ، لإعطاء تلك الحروب صفة القداسة ، ولإضفاء الشرعية عليها .

أن الحملات الغربية التى اتجهت فى العصور الحديثة للمشرق العربى حيث بيت المقدس ، حاول قادتها أن يربطوا بينها وبين الحروب الصليبية ، رغم أن أهدافها المادية واضحة للعيان ، ليضفوا عليها الصفة الدينية التى تبرر شرعيتها من وجهة نظرهم .

من ذلك ما حدث فى بداية القرن العشرين فى حملة اللنبى على سوريا بين عامى ١٩١٧ - ١٩١٨ فى نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد بدت الروح الصليبية فى رؤوس مخططيها ومنفذيها على أعلى المستويات للاستيلاء على فلسطين بالدرجة الأولى ، لتدمير الروابط العربية

والإسلامية، وتصفية الدولة العثمانية باعتبارها معقل الخلافة التي تشكل رباطا يربط العالم الإسلامي ، ولو من الناحية الشكلية ، واقتسام أملاك الدولة في المشرق العربي بين إنجلترا وفرنسا ، وتقديم وعد بلفور في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ ، أثناء مرور تلك الحملة بغزة ، بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يجتذب إليه يهود العالم الذين كانوا يعيشون في إطار قوميات متعددة في أرجاء المعمورة ، حتى لاتظل فلسطين والقدس في أيدي العرب المسلمين بعد جلائهم عنها في المستقبل .

وحينما عهد لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني للجنرال اللنبي أن يتولى قيادة الحملة الموجهة للسيطرة على فلسطين والقدس ، بعد فشل السير مرى في موقعة غزة الأولى عام١٩١٧ مما أدى إلى عزله ، طلب لويد جورج من اللنبي أن "تكون القدس هي هدية عيد الميلاد للشعب البريطاني"(١) وأشارت الوثائق البريطانية إلى أن ذلك سيحدث صدى بعيداً في العالم المسيحي. ومن الثابت أن اللنبي حمل معه في حملته كتبا تناولت الحروب الصليبية التي نصحه بها لويد جورج وأقرها مجلس الحرب ، بانتزاع القدس من خلافة العثمانيين لتعود للمسيحيين الغربيين، لأن هذا يضفي عليه شخصياً وعلى إنجلترا والشعب البريطاني شرفاً كبيراً بين سائر الشعوب المسيحية الغربية . وقد وعى اللنبي ذلك كلّه في ذهنه ، وهو يعمل في نفس الرقعة التي سبق أن سارت عليها الحملات الصليبية من قبل في العصور الوسطى . وعندما تكللت جهود اللنبي بالنجاح ودخل القدس في اليوم الحادي عشر من ديسمبر ١٩١٧ راح يعلن على الملأ مقولته المشهورة : " اليوم انتهت الحروب الصليبية " وقد اعتبر حملته هذه خاتمة للحروب الصليبية التي بدأت

(1) Savage, Raymond : Allenby of Armageddon , New York, P. 191.

فى العصور الوسطى ، وتتويجا لجهود القادة الصليبيين الذين سبقوه فى هذا الصدد . وفى ذلك الوقت تعالت أصوات الاعتراض من عرب فلسطين وأعيانها وتساءلوا " هل سقط بيت المقدس فى أيدى الافرنج بعد أن خرجوا منها فى الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة "(١)؟!

وكان أن خرج مفتى فلسطين وبعض الوجهاء من الاجتماع الذى أعلن فيه اللنبى هذه المقولة دون أن يصافحوه ، احتجاجا على ما ذكره(٢) .

ومن زاوية أخرى فقد سار على نهج اللنبى " منرتزهاجن " المسئول عن الاستخبارات فى فلسطين منذ دخول القوات البريطانية غزة فى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، إذ عَدّ هو الآخر حملة اللنبى استكمالا وتتويجا لجهود الصليبيين فى العصور الوسطى بقوله : " وقد صدقوا (يقصد الأتراك إنذاك) التمويه الذى قمنا به فوضعوا احتياطيّهم من القوات فى الموضع الخاطئ ... وبهذه الطريقة أدخلنا الحملة الصليبية السابقة وذلك لأبعاد الأتراك عن الأماكن المقدسة المسيحية "(٣) .

ليس هذا فحسب ، بل أن الجنرال " جورو " الفرنسى ردد عندما دخل دمشق وذهب لزيارة قبر صلاح الدين مقولته المشهورة : ها قد عدنا ياصلاح الدين ، وها هم أحفاد الصليبيين ...فأين أحفادك ؟ "(٤) . وعلى أية حال فإن ماذكره " لويد جورج " و" اللنبى " " ومنرتزهاجن " " وجورو" من أقوال ،

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام دمشق ١٩٢٥ ، الجزء الثالث ، ص١٤٩ .

(٢) أميل الغورى : فلسطين عبر ستين عاما ، ببيروت ١٩٧٢ ،ص٢٩ –٣٠ .

(3) Gardenr, Brian : Allenby of Arabia, New York, 1951 .

(٤) نوفان قرقوط (دكتور) : المشرق العربى فى مواجهة الاستعمار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٧ ،ص٥ .

رغم اختلاف الصيغ ، إنما يشير إلى أنهم يمثلون الصليبيين الجدد فى تاريخنا المعاصر ، أى أنهم صليبيو القرن العشرين ، الذين حققوا ما عجز عن تحقيقه أجدادهم فى العصور الوسطى ، فى ظل ما قدمه لهم هذا القرن من تكنولوجيا لم تكن معروفة من قبل فى العصور الوسطى . وقد اختصر وجودها الكثير من الوقت ، وجعل مهمتهم أمرا ميسورا .

ومن الواضح أن أقوال كل من اللنبى وجور كانت تحمل نبرة التحدى ، بعد ما تمكنوا من أهدافهم ، وتأكدوا أنهم لن يخرجوا بسهولة . وقد اتخذت حكومتاهما ، الأساليب والوسائل مما يعرقل الوحدة بين العرب ، باقتسامهما الأملاك العثمانية فيما بينهما ، وبزرعهما ذلك الكيان الصهيونى فى فلسطين لضمان فصل الجناح الأسيوى عن الجناح الأفريقى للأمة العربية ، طبقاً لما أشار إليه مؤتمر كامبل باترمان فى إنجلترا فى عام ١٩٠٤(١) .

يضاف إلى ذلك أن ويفل WAVELL وهو أحد قادة اللنبى العسكريين فى هذه الحملة ، تحدث عن الأثر الذى أحدثته الحملة علىالسوريين أنفسهم بقوله: " فقد رحب أكثر المسيحيين واليهود باحتلال سوريا ، بينما ظلت هناك مجموعات من المسلمين وهى نسبة كبيرة على ولائها للأتراك أصحاب الخلافة وأن استقلوا عنها "(٢) ويأتى ماقاله ويفل متمما لما سبق من أقوال لويد جورج واللنبى وجورو ، بما يحمله من معنى . إن الفرحة باستعادة القدس من أيدى الأتراك لم تشمل الأوربيين فحسب ، بل شملت معظم المسيحين واليهود السوريين أيضاً ، الذين لم يكن فى مقدورهم التعبير عن مدى كراهيتهم لوجود الأماكن المقدسة فى يد الأتراك المسلمين أصحاب الخلافة وهم على رؤوسهم كحكام .

---

(١) حسن صبرى الخولى (دكتور) : فلسطين بين مؤامرات الصهيونية والاستعمار ، إدارة الأعلام والنشر ، القاهرة ، ص٩.

(2) Wavell : Allenby Soldier and Stateman , London 1946, P. 246 .

وإذا كان هناك من قال بأن الحملة لم تكن صليبية موجهة ضد الإسلام، باعتبار أن الجهاد قد أعلن من جانب واحد فقط هو جانب الأتراك ، وباعتبار أن العرب كانوا حلفاء لبريطانيا فى هذه الحملة ، فقد فاتهم أن لكل عصر مقتضياته وأسلوبه . فإذا كانت كلمة الدين تحرك السياسة فى العصور الوسطى فإننا فى هذه الفترة الأخيرة من التاريخ الحديث نجد أن الهوة قد اتسعت بين الدين والسياسة ، بدليل أن دعوة الأتراك للجهاد فقدت صداها بعد أن تغلبت المصالح السياسة وسخرت الدين لتحقيق أهدافها .

أما إذا تساءلنا عن موقف البابوات فى أوربا بصفة عامة ، فقد انقسموا منذ بداية الحرب العالمية الأولى ما بين مؤيد ومعارض . وكان على رأس المعارضين للحرب بابا روما بنوا الخامس ، الذى حاول أن يدعو إلى نبذ القتال دونما تفريق العقائد ، إلا أن دعوته لم تجد آذاناً صاغية ، كما لم يعد لها ذكر برحيله . ولم يمنع ذلك خلفه من أن يدعو أتباعه فى العالم بأسره إلى تقديم الشكر بمناسبة احتلال القدس ، كما ذكرت مجلة الكوكب فى عددها الصادر فى ٢٥ ديسمبر ١٩١٧ ، بل لقد نهاهم عن السعى لإعادتها لتركيا(١).

يضاف إلى ذلك أن البابوات الغربيين توافدوا من كل حدب وصوب ، مؤيدين ومعارضين للحرب فى فلسطين ، للاحتفال بعودة القدس والأماكن المقدسة إلى أيدى المسيحيين الغربيين . وشاركهم فى ذلك اللنبى فى مختلف احتفالاتهم الدينية ، وأخذت له صور تذكارية . كذلك قرعت الكنائس الأوربية أجراسها غقب سقوط القدس فى يد اللنبى ، حتى الألمانية منها ، رغم أن الألمان كانوا حلفاء الأتراك فى هذه الحرب ، وكأن ما خسره الألمان عسكرياً فى الحرب آنذاك عوضته عودة القدس والأماكن المقدسة المسيحية

---

(١) إحسان عسكر (دكتور) : الصحافة العربية فى فلسطين الأردن سوريا ولبنان مؤسسة سجل العرب بالقاهرة ١٩٨٢ ، ص٢٢ ،٢٣ .

إلى أيدى المسيحيين الغربيين(١) وكان ما اتخذه البابوات الغربيون من احتفالات فى القدس بمثابة صك أعتماد أو فتوى بالموافقة على ما اتخذته السياسة الغربية آنذاك (٢) .

وأخيراً يأتى دور الحركة الصهيونية التى ساندتها الحركة الاستعمارية الغربية ، بتقدير أحقيتها فى فلسطين منذ وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧ ، ومساندتها فى مرحلة الانتداب حتى تم إعلان قيام إسرائيل فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٨ باعتبارها المشروع الاستعمارى المستقبلى ، المرتبط بايديولوجية جديدة ، يهودية ، وليست صليبية ، وأن اتفقتا فى الهدف والغاية باعتبار القدس مازالت محور الصراع . ورغم جهود السلام التى بدأتها مصر فى أعقاب حرب أكتوبر المجيدة فى عام ١٩٧٣ والتى استجاب لها جانب من قادة إسرائيل ومؤسسيها وشعبها ، قناعة منهم بأن السلام يحقق لدولتهم البقاء والاستقرار ، فإن موجة التعصب الدينى اليهودى ، وهو الذى حل محل التعصب الصليبى مازال يقف موقف التحدى الرافض للسلام ، طلباً فى بلوغ حدود وهمية لأطماع لاتقل خطورة عن أطماع الصليبيين فى العصور الوسطى . وللأسف الشديد مايزال الغرب بنقله للسفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس يرتكب حماقة الصليبيين ليجعل من القدس محوراً للصراع ، بدلاً من أن تكون محور هداية ومركز تجمع ووفاق ، للأديان جميعاً . وهو بذلك يعرقل مسار جهود السلام ، ويخالف القانون الدولى باعتبار القدس من الأراضى المحتلة التى مازال التفاوض مستمراً بشأنها . فهل ما يزال صدى الحروب الصليبية يدوى فى تاريخنا المعاصر؟!.

---

(١) محمد كرد على (دكتور) : خطط الشام ، الجزء الثالث ، دمشق ١٩٢٥ ، ص١٢٩.

(٢) أحمد إبراهيم شحاته : حملة النبى على سوريا [١٩١٧ - ١٩١٨] ، رسالة ماجيستير كلية الآداب بجامعة الأسكندرية ١٩٩٣ ، ص ٥٦٨ .

المنشآت الدينية في غرناطة الإسلامية

(المساجد ومصيرها بعد السقوط)

د. صالح محمد السنيدي(*)

مدخل

قدر لي أن أتعرف على هذه المدينة الحالمة ، حينما كنت طالباً في جامعتها ، مكثت فيها عدداً من السنين ، متقلباً بين مرابعها وأزقتها أدرس ماضيها واتعرف على حاضرها . وفي برنامج الدكتوراة بنفس الجامعة ، كلفني أحد الأساتذة في إعداد بحث موجز حول " مساجد غرناطة الإسلامية "(١). ولا شك في أن هذا البحث الموجز ، فتح عيني على موضوع جدير بالدراسة وإعادة النظر فيه ، ليس لقلة ما كتب فيه بشكل عام وبالعربية بشكل أخص فقط ، بل لأهمية هذا الجانب في حياة المسلمين وتاريخهم في الأندلس . وهذا الموضوع الذي أقدمه اليوم ، ليس إلا جزءاً وامتداداً لذلك البحث الذي استقصيت فيه الدراسة عن مساجد غرناطة الإسلامية . وقد اخترت له هذا العنوان " المنشآت الدينية في غرناطة الإسلامية : المساجد ومصيرها بعد السقوط " .

وترجع صعوبة هذا الموضوع وأهميته إلى انعدام الكتابات العربية فيه، اللهم إلا فيما يتعلق بالمعاهدة التي عقدت بين المسلمين الغرناطيين والأسبان

(*) قسم التاريخ والحضارة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(١) نشر هذا البحث الموجز بمناسبة تكريم الأستاذ خاثينتو بوش Jacinto Bosch Via في كتاب أصدره قسم الدراسات السامية في جامعة غرناطة بعد وفاته وذلك في نهاية عام ١٩٩١م .

النصارى ، فضلاً عن نتف يسيرة فى تاريخ المساجد والأوقاف ، ولذا فإننى استقيت مادته بشكل أساسى من المصادر والمراجع الأسبانية ، وبخاصة كتب الأوقاف والتقارير الكنسية ، وما كتب فى شأن الكنائس الغرناطية ، ثم كتب الطبوغرافيا والتاريخ المحلية ، وكلها تشكل مصادر أساسية لهذا الموضوع(١).

وتتمثل المنشآت موضوع هذا البحث ، فى المساجد وما شاكلها من مؤسسات لها صلة بالعبادة والجهاد ، ثم الأوقاف التى حبسها المسلمون لخدمة هذه المنشآت وخدمة مرتاديها والقائمين عليها ، وهى فى الواقع جزؤ من الأوقاف التى أوقفت لأعمال البر والإحسان فى الحضارة الإسلامية العريقة ؛ وهذه المؤسسات أولاها المسلمون جل عنايتهم واهتمامهم ، منذ أن دخلوا البلاد فاتحين ، إذ يعتبر المسجد الركيزة الأولى فى بنية المدينة الإسلامية وحضارتها ، وقد شهدت أسبانيا - بعد فتحها - تزايداً كبيراً فى عدد هذه المنشآت(٢) يتناسب مع حجم ذلك التحول الكبير الذى شهدته تلك البلاد فى العقيدة وما يرتبط بها من مؤسسات اجتماعية واقتصادية .

وكان أن أخذت غرناطة تحتل مكانتها منذ بدايات القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، بعد أن اعتمدها الزيريون عاصمة

---

(١) انظر مثلاً :

GOMEZ MORENO: *Guia de Granad*, 1892. J. MUNZER: *Viaie por Espana Y Portugal*, Granada 1987 E. SECO DE LUCENA: *Plano de Granada Arabe*, Granada 1910. P. SECO DE LUCENA: *Documentos Arabigo- Granadinos*, Madrid 1961 *La Granada Nazari del siglo xv*. Granada 1975. M. VILLANUEVA RICO: *Casas, mezqitas, Y tiendas de los habices de las iglesias de Granada, Madrid 1966. Habices de las mezquitas de la ciudad de Granada Y sus alguerias,* madrid 1961.

(٢) عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس ، القاهرة سنة ١٩٨٢م ، ص ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

ومستقراً لهم(١) ، فنمت وازدهرت وتقاطر عليها الناس لسكناها والاستقرار بها ؛ ومن ثم فقد شقت طريقها لتصبح من أهم المدن الأندلسية ، وخاصة بعد أن أخذت الحركة الصليبية تحقق نجاحها المتواصل على حساب الحواضر الأندلسية واحدة تلو الأخرى . وهكذا غدت غرناطة معقل المسلمين ومحط أنظارهم فى شتى مدن وقرى الأندلس المهددة التى باتت تنتظر نفس المصير ، فنزح كثيرون إلى غرناطة واستقروا بها ، حتى صارت من أهم الحواضر الإسلامية والأوروبية ، وأكثرها ازدحاماً بالسكان(٢) ؛ لكن الحركة الصليبية التى وضعت نصب عينيها اجتثاث ما تبقى من وجود إسلامى فى شبه الجزيرة الإيبيرية ، فيما عرف بحروب"الاسترداد الأسبانية Reconquista"، لم تلبث أن استهدفت غرناطة ، مما أجبر هذه المدينة على الاستسلام لعدوها، وبذلك سقط آخر معقل إسلامى فى أسبانيا بعد صمود طويل وكفاح مستميت.

وبسقوط غرناطة خسر العالم الإسلامى موقعاً استراتيجياً مهما فى أوروبا ، وفقدت الحضارة الإسلامية والإنسانية كنزاً لا يقدر بثمن ، هو عصارة الفكر الأندلسى ، الذى تطاولت إليه أيادى أولئك المتحجرين بالحرق والاتلاف .

---

(١) تنتمى هذه الأسرة إلى قبيلة صنهاجة البربرية الكبيرة ، وقد استقل بحكمها زاوى بن زيرى فى بداية القرن الخامس الهجرى بعد صراع استطاع أن يحسمه لصالحه ، فأسس إمارة بنى زيرى فى غرناطة التى توالى أبناؤه على حكمها من بعده حتى سقوطها فى أيدى المرابطين .

(٢) بروفنسال : **أدب الأندلس وتاريخها** ، ترجمة : شعيرة والعبادى ، القاهرة سنة ١٩٥١م ص٦٥ . ؛ عنان : **نهاية الأندلس** القاهرة سنة ١٩٨٧م ص٤٤٠ .

أولاً : سقوط المدينة : آثاره ونتائجه

لم يلبث أن دخل فرناندو Fernando وإسابيل Isabel ملكا أسبانيا المتحدة غرناطة ، متوجين بالنصر ، بعد أن سلمهما أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة ، وخرج يجر أذيال الخيبة والهزيمة ، وجرت هذه الأحداث فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢ من يناير ١٤٩٢م فى موكب جنائزى ومأتم حزين قابلهما فرح غامر وسعادة طالما انتظرها المنتصرون .

(أ) معاهدة التسليم :

والواقع أن هذا الملك الغرناطى لم يسلم المدينة ويفتح أبوابها لخصومها الأسبان ، إلا بعد أن أعيته الحيلة ، ويئس ومن معه من المحاصرين داخل غرناطة ، من استمرار المقاومة ، بعد أن أنهكهم طول الحصار(١) ، وفقدوا الأمل من وصول أية إمدادات من قبل إخوانهم فيما وراء البحر ، فعقدوا العزم على التسليم بشروط وضمانات تعهد بها الملك الأسبانى . وبعد مفاوضات ومداولات بين المعسكرين : الإسلامى والنصرانى ، تم توقيع معاهدة لتسليم غرناطة ، ووافق عليها الطرفان فى ٢١ من محرم سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢٥ من نوفمبر سنة ١٤٩١م ، وقد تضمنت بنوداً عدة بلغت ست وخمسين بنداً(٢) كفلت للمسلمين داخل المدينة حقوقهم ، وضمنت لهم حرية العبادة ، والاحتكام إلى شريعتهم فى كل أمورهم المدنية والدينية . ويهمنا من

---

(١) مجهول : نبذة العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، تحقيق الداية دمشق سنة ١٩٨٤م، ص١٢١ . عنان : نهاية ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) مجهول : نبذة ص ص ١٢٣ - ١٢٥ ؛ المقرى : نفح الطيب تحقيق إحسان عباس بيروت سنة ١٩٦٨م ٥٢٥/٤ ؛ عنان : نهاية ص٢٤٤ ؛
W. IRVING, *La Cronica de la Conquista de Granada*, Granada 1987 p. 509.

هذه البنود ما يخص الجانب الديني أو يتعلق بالمنشآت الدينية ، التي أكدت عليها وثيقة التسليم ، ومنها :

١ - يتعهد الملكان فرناندو وإسابيل وخلفاؤهما إلى الآبد ، بأن يترك أبو عبد الله والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان ، وسائر أفراد الشعب ، تحت حكم شريعتهم ، وألا يأمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هي ، وأن يقضي بينهم وفق شريعتهم ، وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم . كما تقضي الوثيقة بألا يرغم مسلم أو مسلمة قط أو ذرياتهم - عندئذ وفيما بعد - على اعتناق النصرانية ، أو تقلد شارة خاصة بهم ، كذلك أكدت على عدم السماح للنصارى بدخول أماكن عبادة المسلمين دون ترخيص ، وأن العقاب سينال من يفعل ذلك . هذا مع النص على أن يعامل المسلمون برفق وكرامة .

٢ - وأشارت الوثيقة إلى أن المأمورين القضائيين الذين يعينون لمحاكم المسلمين ، يجب أن يكونوا مسلمين عندئذ وإلى الآبد ، وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين ، أيضاً مسلمين ، وألا يتولاها نصراني في أي وقت ؛ وأشارت إلى أن للفقهاء حقوقهم المشروعة ، ويجب أن تؤدى وفقاً للقواعد المرعية ؛ وإذا قام نزاع بين المسلمين فصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، وما يراه قضاتهم ، وإذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فإنه يعرض على قاض مسلم وآخر نصراني ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضي به .

ثم توالت فقرات الوثيقة لتأخذ هذا المنحى فمثلاً :

٣ – إذا دخل نصرانى منزل مسلم قهراً عنه عوقب على فعله ، ولا يؤاخذ أى مسلم بذنب ارتكبه غيره قريباً كان أو بعيداً عنه ، ولا يدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته ، وإذا فرّ أسير مسلم ولجأ إلى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضهما أو غيرهما ، فإنه يعتبر حراً ولا يسمح لأحد بمطاردته . ثم تمادت الوثيقة ، بأن سمحت باعتناق النصرانى للإسلام دون إيذائه أو تهديده ، ومن يفعل ذلك يقع تحت طائلة العقاب ، وإذا أرادت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب فلا يقبل ذلك منها حتى تسأل وتوعظ وفقاً للشرع الإسلامى .

٤ – أما فيما يتعلق بالميراث فللمسلمين حق الاحتفاظ بشريعتهم والاحتكام إلى فقهائهم وفقاً لسنن المسلمين فى ذلك . وأشارت إلى دخل الجوامع المؤسسات الدينية ، أو أية أشياء أخرى مرصودة لأعمال الخير ، وكذا دخل المدارس ، بأن يبقى كل ذلك متروكًا لنظر الفقهاء ، وألا تتدخل الحكومة الأسبانية بأية صورة ، فى شأن هذه الصدقات ، أو تأمر بأخذها فى أى وقت .

٥ – كذلك اشترطت وثيقة التسليم أن يكون الحكام والقادة والقضاة الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضى التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالحسنى والكرامة ، مع المحافظة على الامتيازات الممنوحة لأهلها . فإذا أخل أحدهم بالواجب عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق . وأكدت الوثيقة على أنه لا يسمح لنصرانى بالصعود إلى الأسوار القائمة فيما بين القصبة والبيازين ، حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، ومن يفعل ذلك يتعرض للعقاب.

وقد ذيلت تلك الاتفاقية بأن ملكى قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكى ، الوفاء بكل ما يحتويه هذا العهد والميثاق من النصوص

ويوقعانه باسمهما ، ويمهرانه بخاتمهما ، كما يصدق عليها ولدهما الأمير ، والكردينال ورؤساء الهيئات الدينية ، وكبار رجال الدولة وشخصياتها ، حتى يكون ذلك أدعى للوفاء بها .

وتكرر تأكيد هذه التعهدات بعد عام من تسليم غرناطة بمرسوم جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء الدولة بالمحافظة على نصوص هذه الوثيقة ، وألا ينقص منها شيء ، عندئذ وإلى الأبد ، وإنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكى بأن يحافظا ويأمرا بالمحافظة على كل ما تحتويه من البنود إلى الأبد . وذيل هذا التأكيد بتوقيع الملكين وولدهما وجمع كبير من الأمراء ورجال الدين والأشراف(١) .

(ب) موقف السلطات الأسبانية منها :

هذه الوثيقة الصريحة فى ألفاظها ، الواضحة فى معانيها ، المؤكدة فى أحكامها وشروطها ، تقبلها المسلمون ، واعتقدوا أنهم سيعيشون فى ظل نظام جديد ، يكفل لهم حقوقهم الدينية والاجتماعية والثقافية . لكن هذا الظن وتلك الأحلام تبخرت سريعاً ، إذ حدث بعد فترة قصيرة من المهادنة ، أن بدأ

---

(١) لم تتحدث مصادرنا العربية كثيراً عن مادة هذه المعاهدة ، وإن أشارت إلى مقتطفات منها ، انظر : فى هذا الصدد : مجهول : نبذة ص ص ١٢٣ – ١٢٥ ؛ المقرى : نفح ٦١٥/٢ – ٦١٦ ، ٥٢٥/٤ – ٥٢٦ ؛ وقد أورد لنا المرحوم محمد عبد الله عنان بنود هذه المعاهدة كاملة نقلاً عن المصادر الأسبانية ، (النهاية ص ص ٢٤٤ – ٢٥٠) ؛ وكذلك عبد الله جمال الدين : المسلمون المنصرون القاهرة سنة ١٩٩١م ص ص ٢١– ٣٢ ؛ وتفاوتت الآراء حول عدد بنودها ما بين ٥٦ و ٦٦ ، ويكمن الاختلاف فى إضافة بنود المعاهدة السرية الملحقة بالمعاهدة العامة من عدمه ، فمن أضافها أخذ بالرقم الأخير ومن اعتبرهما معاهدتين منفصلتين اعتمد الرقم الأول .

الإخلال ببنود تلك المعاهدة . وكأن حدس موسى الغسانى – أحد فرسان غرناطة – قد هداه إلى الحقيقة المرة التى أخفاها الملكان الكاثوليكيان خلف سطور وعودهما المعسولة فى تلك الوثيقة ، عندما وقف صارخاً فى المجتمعين ، برئاسة الملك التعيس أبى عبد الله الصغير لمناقشة أمر التسليم وشروطه : " لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم " إلى أن يقول : " فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والغص الوحشى "(١) .

والواقع أنه بعد دخول غرناطة فى حوزة ملك قشتالة ، أصبح المسلم فى أى مكان من أسبانيا مهزوماً ، وإن كان من الناحية القانونية ما زال يتمتع بنفس حقوق المواطنة . وكان من الممكن الحديث عن التعايش بين الطرفين، لكنه فى الحياة الواقعية العامة ظهرضغط وقهر المنتصرين ، وأخذ يشتد يوماً بعد يوم(٢) ؛ وهكذا بدأت بنود تلك المعاهدة تتداعى بنداً بنداً . وكانت أساليب تنصير المدينة وأهلها، تتسم بطابع الهدوء والترغيب والترهيب فىبداية الأمر، ثم لجأوا إلى الشدة والعنف بعد ما رأوه من تمسك المسلمين بدينهم . وبحثاً عن نتائج سريعة وحاسمة، ففىسنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م بدأ الضغط علىالمسلمين لاعتناق ديانة المنتصر(٣) ، وصحب ذلك عدة أساليب وإجراءات منها :

---

(١) J. A. CONDE, *Historia de la dominacion de los Arabes en Espana, t. III, Madrid, 1820 p. 256* ؛ عنان : نهاية ص ٢٥٥ .

(٢) أنطونيو هورتز وبرنارد بنثت : تاريخ مسلمى الأندلس " الموريسكيون " ، الدوحة سنة ١٩٨٨م ص ص ٢٠ – ٢١ .

(٣) المقرى : أزهار الرياض تحقيق الهراس وأعراب المحمدية ١٩٨٠م ١/٦٨ – ٧١ ، ويلاحظ أنه يؤرخ لذلك فى سنة ٩٠٤هـ ، ليس فى هذا الكتاب وحده وإنما فى نفح الطيب أيضاً (٤ / ٥٢٧) .

- إغلاق المساجد أمام المصلين المسلمين وتحويل بعضها إلى كنائس ، وإغلاق المدارس وحلقات العلم .

- تشجيع المتنصرين من المسلمين بالهبات والمنح ، والضغط على من لم يفعل ذلك لإجباره على الرحيل ، مع التركيز فى ذلك على ذوى المكانة من علماء الدين ووجهاء المسلمين وقادتهم .

- جمع الكتب العربية وإحراقها فى ميدان باب الرملة(١) وسط المدينة.

- مصادرة الأوقاف الإسلامية الخيرية ، سواء منها ما يخص المساجد أو المدارس أو أعمال البر الأخرى .

وقد صارت هذه الإجراءات أشد عنفاً وقسوة ، عندما تناولت اللباس واللغة والعادات والتقاليد والدين نفسه ، بعد أن رفضت الأكثرية المسلمة الاستجابة للإغراءات أو الرضوخ للتهديدات ، فدعت إلى التنصير القسرى للمسلمين ، وصدرت قوانين متتالية وشديدة اللهجة ، حرص المنتصر على تطبيقها ، بدعم وتشجيع من الكنيسة الكاثوليكية المتعصبة ، تدعو بمجملها إلى حظر التخاطب باللغة العربية فى المحادثات اليومية ، أو ارتداء الملابس الإسلامية ، كما هدمت الحمامات الموجودة فى المدينة كجزء من القضاء على عادة إسلامية متأصلة فىالمجتمع الإسلامى الغرناطة وهىالطهر والنظافة(٢).

---

(١) ميدان باب الرملة فى وسط غرناطة الحديثة خلف الكاتدرال ، وما زال يحمل نفس الاسم ، أما قصة حرق الكتب فمعروفة وأكدت عليها المصادر الأسبانية قبل العربية ، انظر: عنان الذىتوقف عند هذه القضية فىكتابه : **نهاية الأندلس** ص ص٣١٦-٣١٩.

(٢) ناقش هذه الإجراءات عدد من الباحثين فى مقدمتهم لوى كارديلك فى كتابه : **الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون** ، ترجمة التميمى تونس سنة ١٩٨٩م ؛ عنان: **نهاية** ص ص ٣١٠ - ٣٢٧ .

وعلى الرغم من المحاولات المستميتة من قبل سكان المدينة المسلمين ، للمحافظة على هويتهم الدينية حتى بلغت حـداً وصـل بهم إلى إعـلان الثـورة والتمرد ، إلا أن ذلك لم يجد شيئاً أمام قوة وتصميم المنتصر لفرض سلطانه ومعتقداته على المغلوبين ، وهذا ما ناقشه عدد من الباحثين(١) ، مما لا يدخل في موضوعنا .

ثانياً : المنشآت الدينية ومصيرها بعد السقوط :

وهكذا رافـق هـذا التحـول السياسـي الكبير ، تحـول دينـي لا يقل عنـه أهمية، بل كـان أبعد أثـراً وأشـد خطـراً ، لأنـه يمـس المعتقد الدينـي للشـعب الغرناطي المسلم المغلوب على أمره . فبعد أن تهاوى صرح الدولة الإسلامية في الأندلس ، ساد صمت رهيب بانتظار ما ستتمخض عنـه الأيـام . وبعـد أن صدمتهم الحقيقة المرة التي لا تقبل التأويل ، بدأت الاحتجاجات من المسلمين، وتعـالت الصيحـات التـي نجـد صداهـا فـي وثـائق تلـك الفترة ، وتـبرز فيهـا بوضـوح محاولـة الالتفـاف حـول المعتقـدات الدينيـة ، وتشـخيص الأخطـار المحدقة بها والتي حاول المنتصرون اجتثاثها من جذورها . أما المسلمون فقد اتخذوا من الإشارة إلى العهود التي نكثت ، والمحارم التي انتهكت والطهـارة التي دنسـت ، شـعاراً يرفعونـه فـي وجـه السلطات الأسبانية . وبـالطبع كـان للمساجد دورها في تلك الاحتجاجات التـي نـادى بهـا مسلمو غرناطـة ، فهـي رمز وحدتهـم ومعتقدهـم الـذي رفعـوا رايـة الجهـاد فـي سبيله بعـد أن فشـلت

---

(١) انظر : على سبيل المثال: L. MARMOL CARVAJAL. *Historia de le rebelion y castigo de los Moriscos del Reino de Granada*, Madrid 1797. ؛ عبد الواحد ذنـون طه في كتابه حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة بغداد سنة ١٩٨٨م .

احتجاجاتهم السلمية ، إذ تتردد الإشارة إلى المساجد التى انتهكت أو حولت إلى كنائس فى مصادر تلك الفترة : " وقطع الاذان لهم من الصوامع "(١) ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بدل الاذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن "(٢) ، وساهم الشعر فى تسجيل تلك الصيحات التى استحالت إلى أنات خافتة بعد أن بح صوتها بلا مجيب ، فهذا شاعرهم يبث شكواه وأنينه(٣) :

فواحسرتا كم من مساجد حولت   وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفاكم من صوامع أوحشت   وقد كان معتاد الآذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى   وآياتها تشكو الفراق وسورها

ورفع آخر عقيرته مستنجداً بإخوانه وراء الحدود(٤) :

وآها على تلك المساجد سورت   مزابل للكفار بعد الطهارة
وآها إلى تلك الصوامع علقت   نواقيسهم فيها نظير الشهادة

على أن إبراز أماكن العبادة كرمز لاستثارة الهمم ، والنفير إلى الجهاد كلما دهمهم خطر أوحلت بهم محنة ، لم يكن أمراً وليد الساعة ، إذ نجد ذلك فى رسائل ابن الخطيب قبل ذلك ، حينما يقول فى إحداها : " الجهاد الجهاد...... الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله "(٥) .

---

(١) مجهول : نبذة العصر ص١٢٩ ؛ المقرى : أزهار ٦٨/١ .

(٢) مجهول : نبذة العصر ص ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) عنان : نهاية ص٢٦٨ .

(٤) المقرى : أزهار ١١٢/١ ؛ وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة ، ترجمة وتعليق محمد عبد الله الشرقاوى القاهرة سنة ١٩٨٤م ص٣١ .

(٥) هذا مقطع من رسالة له يحث فيها على الجهاد ، انظر : المقرى : أزهار ٦٤/١ .

أما السياسة الأسبانية فقد استمرت ماضية فى طريقها المرسوم ، جاهدة فى إذابة الأقلية المسلمة ودمجها فى الأكثرية الكاثوليكية ، فانتدبت لذلك أشرس رجالها ومفكريها الذين ينتمون إلى الكنيسة أو يدينون بأفكارها ، التى تدعو إلى القضاء على كل المذاهب والأديان(١) فى سبيل بقاء المذهب الرسمى للدولة . لذلك أنشأت محاكم التفتيش التى كانت مهمتها ملاحقة كل من يشتم فيه أى مخالفة لذلك المذهب . كذلك عمل الأسبان على قطع أى ارتباط لهؤلاء المسلمين – الذين أطلق عليهم اصطلاحاً "الموريسكيون"(٢)– بدينهم ولغتهم ، فأزيلت تلك الشواهد الباقية والرموز الحية ، وهى المساجد التي تذكرهم بماضيهم وتبعث الأمل فى نفوسهم ، إما بهجرها حتى تهدمت أو تحويلها إلى كنائس أو مصادرتها من قبل الدولة . وصدرت المراسيم المتتابعة التى تقضى بتحويل المساجد إلى كنائس ، إذ صدر أحدها سنة ١٥٢٤م وإن كان قد طبق قبل صدوره بسنوات عديدة ، حيث منعت الصلوات وأغلقت المساجد ، وحول بعضها إلى كنائس قبل هذا التاريخ وبعد السقوط مباشرة – كما سنرى عند عرضنا لها . ثم اتبع ذلك المرسوم بآخر سنة ١٥٢٦م يدعو إلى تحويل ما تبقى منها إلى كنائس فى الحال(٣) . وحرص رجال الدين وأعوانهم على تنفيذ هذه القرارات بسرعة ، وصادروا كل ما يتعلق بها من

---

(١) مع أن المسلمين كان لهم النصيب الأوفر من تلك الملاحقة وذلك الاضطهاد ، إلا أن الطوائف الأخرى كاليهود والبروتستانت تعرضت لذلك ، ونالها نصيبها من المضايقة والطرد .

(٢) أطلقت هذه التسمية Los Moriscos على هؤلاء للدلالة على أصلهم الإسلامى بعد سقوط الدولة الإسلامية فى الأندلس ، ولعلها جاءت من كلمة " مورو " Moro التى تطلق على المسلم وتحمل فى طياتها بعض الاحتقار أحياناً .

(٣) انظر : عنان : نهاية ص ص ٣٥١ – ٣٥٢ .

أوقاف أو ملحقات ونحوها ، دون أدنى اعتبار لأهليتها ، وكونها ملكاً مشاعاً للمسلمين . وشتان بين هذا السلوك وما فعله المسلمون عندما أسسوا أهم مساجدهم وأكبرها فى قرطبة ، وفى ذلك يقول ول ديورانت إن عبد الرحمن الداخل اشترى الكنيسة من النصارى ، وبنى المسجد مكانها ، ويقارن ذلك بما حدث بعد سقوط المدينة : " لما عادت قرطبة إلى النصارى حولوا المسجد إلى كنيسة ، وهكذا تتغر مقاييس التقى والصدق والجمال "(١) .

وفى الصفحات التالية سنحاول بالتفصيل - حسب ما توفره المصادر لنا من مادة علمية - إيضاح وضع أهم هذه المؤسسات الدينية بعد سقوط غرناطة، مع التعريف بتاريخها ومكانتها ، بشكل مختصر مفيد . وينصب حديثنا على المساجد التى تشكل عصب الموضوع ، لأن ما عداها إما يدخل فى نطاقها أو إنه وضع لخدمتها والعناية بها .

المساجد الغرناطية :

حظيت غرناطة كغيرها من المدن الإسلامية بنصيب وافر من المساجد، منذ أن تحولت إلى مدينة إسلامية . وكان أن ازدهرت الحضارة الإسلامية فى غرناطة بوضوح فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، عندما حولها الزيريون إلى عاصمة إقليمية كبرى ، أصبحت هدفاً تؤمه أعداد كبيرة ، وصاحب ذلك حركة عمرانية نشطة ، كان للمساجد نصيبها منها . لكن المدينة بلغت أوجها وعظمتها أيام بنى نصر ، عندما أصبحت مؤئل مسلمى الأندلس الذين قصدوها طلباً للأمن والسلامة عندما بدأت تتهاوى معاقلهم الواحدة تلو الأخرى . فى تلك الفترة تكاثرت المساجد بما يتناسب

---

(١) قصة الحضارة ١٣ / ٣٠٣ .

وهذه الأعداد الكبيرة التى استقرت فى غرناطة وأرباضها ، حتى قدرها البعض بما ينيف عن مائتى مسجد ، تناثرت فى أحياء المدينة وأرجائها(١) ؛ وحتى لا يتشعب موضوع البحث - سأحاول الدخول فى صلب الموضوع مباشرة بمعنى الوقوف على أهم تلك المساجد خاصة ما يتعلق بمصيرها بعد السقوط .

١ - المسجد الأعظم :

هناك غموض يحيط بتاريخ إنشاء هذا الجامع ، حاولت أن أصل فيه إلى نتيجة مقنعة فى البحث السابق المشار إليه . ولعل بداية القرن السادس الهجرى ونهاية الخامس (الحادى والثانى عشر الميلادى) ، تعد تاريخاً معقولاً لإنشائه .

وقد أصبح هذا الجامع من أهم المساجد الأندلسية ، بل أهمها على الإطلاق بعد سقوط الحواضر الأندلسية مثل قرطبة وأشبيلية وغيرها ، إذ تفرد بالصدارة ليكون مركز إشعاع فى هذا الركن من أركان العالم الإسلامى طيلة أكثر من قرنين من الزمن ، فتوافدت عليه أفواج الدارسين والعلماء داخل الأندلس وخارجها ، وانبرى فيه للتدريس والفتيا عدد من فطاحل العلماء المعدودين فى الغرب الإسلامى(٢) .

وبدا من الواضح اهتمام الحكومة الأسبانية المنتصرة بهذا الجامع منذ البداية ، فهناك إشارات غير مؤكدة تذكر أن فرناندو لما دخل غرناطة صلىّ

---

(1) MUNZER, *Viaje, p. 41.*

(٢) أصبح مقصد العلماء ومبتغاهم سواءاً فيما تبقى من الأندلس أو شمال أفريقية بشكل عام ، يلحظ ذلك من تردد طلاب العلم وأساتذته على هذا الجامع ، وقد فصلت الحديث عن ذلك فى البحث المشار إليه آنفاً .

صلاة الشكر مع إسابيل ، وأقام قداس النصر فيه(١) . ويرجع هذا الاهتمام بالجامع إلى جماله ، وموقعه المتوسط ، وحسن بنائه وسعة حجمه ، وكونه رمزاً لوحدة مسلمي غرناطة ، الذين يؤمونه كل يوم جمعة . ولدينا وثيقة تفيد بإقامة الجمعة فيه بعد السقوط ، فالرحالة الألماني منتزر Munzer الذى زار غرناطة بعد سنتين من سقوطها ، يؤكد لنا ذلك ، بل يزيده توثيقاً بوصفه المفصل لوقائع صلاة الجمعة وخطبتيها ، وما جرى بعد الانتهاء منها(٢) .

على أنه يبدو أن هذا المسجد كان من أوائل المساجد الغرناطية تعرضاً للمضايقة ، للأسباب التى ذكرناها سابقاً ، ومع ذلك فإن عملية الإغلاق والتحويل تأخرت قليلاً خوفاً من ردة الفعل الإسلامية ، نظراً لكونه الجامع الأهم فى المدينة . ومع ظهور الإشارات الأولى لنقض بنود الاتفاقية والنكث بالعهود التى قطعت للمسلمين ، توجهت إليه الأنظار ، إلا أن الوثائق لم تحدد لنا مصيره خلال هذه الفترة التى سبقت مصادرته ، أى فيما بين سنة ١٤٩٢م و ١٥٠١م ، ولا يستبعد أنه ظل مفتوحاً للمسلمين جزءاً من ذلك الزمن ، ثم بدأت المضايقة لهم حتى تم إغلاقه . ثم أعقب ذلك إجراءات لتحويله إلى كنيسة ، حتى صدر القرار رسمياً بذلك سنة ١٥٠١م ، فأصبح معبداً كاثوليكياً دون أية إضافة أو تعديلات على مبناه(٣) ، كذلك أنشىء فيه المصلى الملكى سنة ١٥٠٥م(٤) ، وقد رفعت بعد ذلك درجته إلى كنيسة

---

(1) IRVING, *la Cronica,* p. 520.

(2) *Viaje,* p. 51.

(3) L. TORRES BLALBAS, " La Mezquita mayor de Granada " *al Andalus* x (1945) p. 416.

(٤) MORENO, *Guia,* p. 287. ، وقد أنشىء هذا المصلى ليضم رفاتهما بعد وفاتهما ، بأمرهما الصادر فى ١٣ من سبتمبر سنة ١٥٠٤م .

عظيمـة (كاتدرائيـة) سـنة ١٥٠٩م(١) ، هـى المعروفـة فـى غرناطـة اليــوم بسجراريو Sagrario .

وكانت التعديلات المبدئية التى أضيفت إلى هذا الجامع محدودة ليساير وضعه ككنيسة ، إذ حورت أجـزاء منـه ، و أضيفت إليـه أجزاء أخرى من مذابح ومصليات ومنابر(٢) . ومع ذلك فقـد بقـى محافظـاً علـى شـكله وهيكلـه العام ، وهو ما يؤكده القسيس الفرنسي فرانكوس برتو Francos Bertaut الذى زار غرناطة فى عام ١٦٥٩م ووصف المعبد الإسلامى المحول إلى كنيسـة ، وأبرز هذه الحقيقة . هذا وإن كانت علامات الشيخوخة قـد ظهرت علـى هـذا المبنى(٣) واضحة فى ثنايا وصفه ، إذ لم يمض على زيارتـه تلـك إلا سنتين، حتى صدر قرار هدمه سنة ١٦٦١م ، ولم يشـمل ذلـك الهدم كـامل الجـامع ، وإنمـا شـمل جزءه الغربـى بالدرجـة الأولـى ، وتـرك البـاقى علـى حالـه بعـد ترميمه(٤). وفىسنة ١٧٠٤م(٥) اختفى هذا المسجد نهائياً حيث شيدت الكنيسـة الحالية التى تعدّ أهم كنائس المدينة الآن ، على طراز معمار عصر النهضة .

أما منار هذا المسجد المتميز والذى كـان يعد مـن أهـم معـالم غرناطـة الإسلامية ، فقد ظـل يقـاوم عاديـات الزمـن فـترة طويلـة ، وإن كـان الزلـزال القوى الذى ضرب هذه المدينة عام ١٥٢٦م ، قد أثر فيه تأثيراً بالغاً ، إلا إنـه بقى صامداً على الرغم من إطـلاق اسم "المنـار الخـرب" عليـه ، حتـى تقـرر

---

(1) BLABAS, " La Mezquita...." p. 416.

(2) MORENO, *Guia*, pp. 288-289.

(3) BALBAS, " La Mezquita ...." p. 417.

(4) MORENO, *Guia*, p. 248.

(5) MORENO, *Guia*, p. 284. " La Mezquita...." pp. 411,417.

إزالتـه نهائيـاً فيسـنة ١٥٨٨م(١) وإقامـة المنـار المعـروف بـ تورپيانـا Turpiana(٢) مكانه .

وهكذا اختفى هذا الجامع الذى ظل قائماً أكثر من أربعـة قرون ، تمثل عصر هذه المدينة الذهبى ، كان خلالها مركزاً علمياً ومعلماً حضارياً ، التـف حوله الغرناطيون فى صلواتهم وشئون حياتهم الدينية والدنيوية ، ومنحوه كل رعاية وتقدير .

ومن الملاحظ أن أول ما اختفى من ملحقات هذا الجامع ، دار الوضـوء التى أزيلت مباشرة بعد تحويله إلى كنيسة(٣) ، ويعود السبب فى ذلك إلى إنهـا ليست من مستلزمات المجتمع النصرانى .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ، أن هذه الكنيسة تضـم فـى قبتها رفـاة الملكين الكـاثوليكيين فرنـاندو وإسـابيل وإلـى جوارهمـا ابنهمـا وشـخصيات نصرانية أخرى مهمة(٤) .

٢ - مسجد الحمراء :

أمـر بتأسيس هـذا المسـجد ثـالث أمـراء الأسـرة النصريـة ، المعـروف بمحمد المخلوع (٧٠١هـ/١٣٠٢م - ٧٠٨هـ/١٣٠٩م) ، وقـد اعتنـى ببنائـه

---

(1) BALBAS, "La Mezquita....", pp. 417, 424.

(٢) أحمد بن قاسم الحجرى : ناصر الدين على القوم الكافرين ، تحقيـق : محمـد رزوق، الدار البيضاء ١٩٨٧م ص٢٣ ؛ BALBAS, " La Mezquita. .." p.424.

(3) BALBAS, " La Mezquita.... " p.425.

(٤) وعن محتويـات هـذه الكنيسـة بشكل عـام ، انظـر : الصفحـات (٢٨٧ - ٣٠٥) . MORENO, *Guia* ؛ عنان : الآثار الأندلسية الباقية ، القـاهرة سنة ١٩٦١م ص ص ١٧١ - ١٧٢ .

وزخرفته ليكون الجـامع الرسمى للدولـة النصريـة ، إذ يرتـاده أفـراد الأسـرة الحاكمة من سلاطين بنـى الأحمـر ، ورجـال الدولـة والمقربيـن مـن هـؤلاء ، ويقع بالقرب من قصور الحمراء وداخل أسوارها(١) .

وتحتل اليوم كنيسة مريم العذراء Santa Maria معظم موقع هذا الجامع، فبعد وصول الملكين الكاثوليكيين وتسلمهما قصور الحمراء ، رسّم هذا الجامع ليكون كنيسة عظمى (كاتدرائية) ، دون تغيير أو إضافات على مبناه سوى ما تقتضيه طقوس الكنيسة . ويذكر الرحالة الألمانى السالف الذكر، أنه أصبح مقراً للمطران مع أتباعه وحوراييه بأعدادهم الكبيرة(٢) وظل على وضعه هذا حتى حلّ الجامع الأعظم مكانه عند تحويله إلى كاتدرائية فيما بعد حيث انتقل إليه هؤلاء .

وقد اقتطعت بعض أجزائه لتلحق بالقصر الملكى الذى أقامه كارلوس الخامس ، مما عرضه للتشويه والإهمال(٣) ، فبدأ الوهن والخراب يدب فى أجزائه ، حتى تقرر هدمه نهائياً فى أكتوبر من سنة ١٥٧٦م بأمر من فيليب الثانى(٤) ؛ ولحقت به مئذنته التى ظلت تقاوم إلى أن تهدمت بعده بقليل .

---

(١) انظر : حول ذلك كل من : ابن جزى الكلبى الغرناطى : كتاب الخيل تحقيق الخطابى بيروت سنة ١٩٨٦م ص ٢٦ ؛ ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية القاهرة سنة ١٣٤٧هـ ص٥٠ .

(2) MUNZER, *viaje*, p.49.

(٣) MORENO, *Guia*, p.119. ؛ فون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ، ترجمة الطاهر مكى ، القاهرة سنة ١٩٨٥م ص١٧٩ .

(4) MORENO, *Guia*, p.119.

ويحتفظ لنا متحف مدريد الوطنى بآخر ما تبقى من آثار هذا الجامع ، وهو مصباح برونزى بديع الشكل(١) .

٣ – مسجد البيازين الكبير :

تكمن أهمية هذا المسجد فى موقعه المتميز ، بأكبر أحياء غرناطة وأكثرها ازدحاماً بالسكان(٢) ، فكان أهم مساجد هذه المدينة بعد المسجد الأعظم ، ليس بكثرة مرتاديه من مصلين ومتعلمين فقط ، بل لدوره الواضح والمؤثر فى أغلب الأحداث السياسية التى شهدتها هذه المدينة فى عهد بنى الأحمر ، فى حى يشكل الفقراء – بأوضاعهم السيئة – أغلب قاطنيه .

أما مصيره بعد السقوط ، فقد كان محط أنظار السلطة الجديدة ، منذ اللحظات الأولى لدخولهم غرناطة ، نظراً لموقع هذا المسجد ومكانته السياسية فى ذلك الحى الذى عرف بالثورة ، وجبل أهله على الشجاعة والإباء(٣) ، فجاءت قرارات الحكام الأسبان مبكرة ، كإجراء وقائى لأى تصرف قد تغذيه مثل تلك التجمعات فى المساجد أو غيرها ، وتشكل خطورة على وجوده فى هذه المدينة . لذا صدر مرسوم يقضى بإغلاقه ، ثم تحويله إلى كنيسة فى تاريخ ١٦ من ديسمبر سنة ١٤٩٩م ، بأمر من الكاردينال خيمنيث دى ثيسنيروس Jimenez de Cisneros عرفت بكنيسة سان سالفادور San Salvador ثم رفعت درجتها إلى خورانية بعد سنتين من ذلك ؛ وفى سنة ١٥٣٣م

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس الأسكندرية سنة ١٩٨٥م ص١٧٤ .

(٢) بروفنسال : أدب ص٦٧ .

(٣) عنان : الآثار ص١٧٠ .

أصبحت تتمتع ببعض امتيازات الكاتدرائية ، ثم حولت إلى كنيسة لليسوعيين فيما بعد(١) .

لقد احتلت هذه الكنيسة مبنى ذلك المسجد مع بعض التعديلات الطفيفة التى يتطلبها الوضع الجديد . ومع تقادم المبنى ومرور الزمن ، بدأ الضعف يعتريه ، مما أجبرهم على هدمه فى الثلث الأخير من القرن السادس عشر الميلادى . لكن ذلك الهدم لم يكن شاملاً حيث استبقيت أجزاء منه مثل رواقه الغربى الذى أبقى فى المبنى الجديد مع احتفاظه بطابعه الإسلامى . وكذلك ساحته المعروفة بفناء البرتقال والتى ما تزال قائمة . وخلال تلك المدة التى ظل فيها المعبد الإسلامى قائماً ، احتاج لعدة ترميمات أهمها كان فى عام ١٥٤٣م(٢) ؛ ويذكر بلباس أن البقايا الباقية من مسجد البيازين فى كنيسة سان سالفادور ، قد أتى عليها الحريق الذى حدث سنة ١٩٣٦م(٣) .

٤ - مسجد المرابطين :

يقع هذا المسجد فى أحد الأحياء الراقية فى غرناطة الإسلامية ، وهو حى القصبة القديمة المقابل للحمراء . وقد اتسم بالحسن والأناقة ، وتفيد الرواية بأنه من أقدم المساجد الغرناطية(٤) .

ومع ما تعرض له هذا المسجد من إهانة وإهمال بعد دخول المدينة تحت سلطة مملكة قشتالة ، إلا أن مئذنته ما زالت قائمة حتى الآن .

---

(1) MORENO, *Guia*, p.477.

(2) MORENO, *Guia*, p.479.

(3) BALBAS, "el Alminar de la Iglesia de San Jose..." *al Andalus* V1,p. 428.

(4) MARMOL CARVAJSL, *Historia*, 1, p.19.

ولذا فقد حظيت بالدراسة والبحث من قبل بعض الدارسين الأسبان أمثال بلباس(١) .

يقول الرحالة الألماني منتزر : " بأمر من الملك ، طرد المطران المسلمين منه ، وحوله إلى كنيسة باسم سان خوسيه "(٢) ومعنى هذا أنه تم تحويله إلى كنيسة مع البدايات الأولى لعمليات تنصير المدينة ، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار زيارة منتزر المبكرة للمدينة ؛ ومهما قلنا فى مبررات هذا الإجراء فإنه يعبر عن سياسة عامة للحاكم الأسباني ورجاله المتعصبين دينياً ، وهو بلا شك إجراء من شأنه تعزيز سلطة المنتصر فى هذا الحى الذى يشكل قلب المدينة ، ومحاولة التضييق على ساكنيه المسلمين لإجبارهم على مغادرته أو التكيف مع الوضع الجديد .

وقام المطران هرناندو دى تالابيرا Hernando de Talavera بإجراءات تحويله إلى كنيسة سان خوسيه San Jose . وقد أبدى همة ونشاطاً فى رفع درجته إلى خورانية سنة ١٥٠١م ، وظلت هذه مستقرة فى نفس مبنى المسجد المذكور حتى تقرر هدمه فى عام ١٥١٧م ، لتقوم مكانه الكنيسة الحالية التى اكتمل بناؤها بعد ثمان سنوات(٣) .

وقد نقلت بعض أجزائه بعد هدمه ، خاصة سيقان الأعمدة للاستفادة منها فى مبان أخرى(٤) .

---

(١) خص مئذنة هذا المسجد بعد تحويله إلى كنيسة ببحث ، نشر فى مجلة الأندلس العدد ٦ سنة ١٩٤١م .

(2) Viaje, p. 50.

(3) MORENO, *Guia*, p.455.

(4) BALBAS, "el Alminar...", p.428.

٥ - مسجد المنصورة :

قام الأمير الزيرى باديس بن حبوس بتأسيسه علـى الأرحـج أثنـاء فـترة حكمـه (٤٢٨هـ / ١٠٣٧م - ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م)(١) ، ويعـرف بمسـميات أخرى مثل مسجد ابن توبة ومسجد القاضى ، ويقع فى حى يحمل الاسم نفسـه أسـفل الجبـل الـذى تحتلـه الحمـراء . والمعلومـات القليلـة حولـه تفيـد بصغـر حجمه(٢) .

وتشـغل مكانـه اليـوم كنيسـة سـانتا آنـا Santa Ana التـى بنيـت سـنة ١٥٤٠م(٣) .

٦ - مسجد التايبين :

أطلق هذا الاسم على مسجدين كلاهمـا فـى ربـض البيـازين ، أكبرهمـا وأهمها يقع فى حى الكورجه Cauracha أو أخشارش من البيـازين ، ويخضـع فى أسلوب بنائه لنمط المعمار الموحدى ، مما يوحى بأنه من إنشاءاتهم الدينية التى اشتهروا بها فى القرن الثالث عشـر الميـلادى . ويبـدو هـذا التـأثير فـى مئذنتـه التـى بنيـت فـى بدايـة القـرن المذكـور ، وتتسـم هـذه المئذنـة بالجمـال والأناقة ، وتشبه الخيرالدا بأشبيلية فى طريقة بنائها وتصميمها(٤) .

وتقوم كنيسة سـان خـوان دى لـوس رييـس San Juan de los Reyes مكانه اليوم ، بعد أن أمر الملكان الكاثوليكيان بتحويله إلى معبد نصرانـى فـى

---

(1) MORENO, *Guia,* p.407.

(2) M. TERESA M. PEREZ, " Las Mezquitas de Granada en los libros de Habices " *Andalucia Islamica* 1V-V, p.204.

(3) E. SECO, *Plano,* p.48.

(4) E. SECO, *Plano,* p.49.

٥ يناير من سنة ١٤٩٢م(١) . وتظهر أهميته ، من مجاورته للحمراء ، وهذا مما عجل فى ترسيمه مبكراً .

مساجد أخرى :

هناك عدد كبير من المساجد التى توافرت لنا أسماؤها فى غرناطة ، لكن دون توافر معلومات تذكر عنها ، لذا فقد أفردنا لها جدولاً خاصاً يوضح اسم المسجد وموقعه فى الفترة الإسلامية ثم مكانه الحالى فى غرناطة الحديثة؛ وعلينا أن نضع فى الاعتبار عند استعراض هذه القائمة أن مصدرنا الوحيد فيها هو الوثائق الكنسية ، التى استهدفت من ذكرها تحديد وتسجيل أملاك كل دائرة كنسية من هذه المساجد وغيرها من الممتلكات الإسلامية المشاعة بعد الاستيلاء على غرناطة ، لذا فهى بمثابة الأرشيف الإدارى ليس أكثر ، فلم تهتم كثيراً بقراءة الاسم العربى الصحيح لهذا المسجد أو ذاك ، كما خلطت بين المساجد وأوقافها بشكل يصعب معه التحديد أحياناً بين ما هو مسجد وما هو وقف أو زاوية أو رباط . ومع ذلك فقد حاولنا جاهدين أن نصل إلى الحقيقة ، سواء فيما يتعلق بالاسم أو الموقع . ولا شك فى أن تداخل الأسماء وتعددها للمسجد الواحد ، سيضخم المسئولية ، ومع ذلك اخترنا هذه القائمة بعد تمحيص وتدقيق ، نرجو أن يكون نصيبنا منه الصواب . كما أهملنا ما يحتمل الخطأ فى قراءته أو موقعه فى كثير من الأحيان ، وفى الحالات القليلة التى أثبتنا فيها ما يحتمل الشك سواءاً فى اسمه أو موقعه وضعنا علامة الاستفهام .

---

(1) MORENO, *Guia*, p.430.

جدول تقريبى لأهم المساجد الغرناطية التى أمكن تحديدها(١)

	اسم المسجد	مكانه فىغرناطةالإسلامية (الحى أو الربض)	مكانه فى غرناطه اليوم
١	إبراهيم	مقابل بـاب التوابين " مدينة غرناطة "	منزل رقم١٩ شارع Navas وسط المدينة
٢	أبى إياد	القصبة القديمة	شارع Oidores
٣	أخشارش ؟	البيازين	شرق البيازين
٤	ابن سحنون	المرابطين " القصبـة القديمة "	عند ملتقى شارع Santa Isabe مع San Miguel
٥	ابن سعيد	غرناطة القديمة	بالقرب من ساحة دار الرماية
٦	آصف	حى آصف	قرب كنيسة S. Ildefonso
٧	الأعظم	مدينة غرناطة	كاتدرائيةSagrario
٨	ابن غمارة	غرناطة القديمة "قرب باب الفخارين"	بداية شارع Santa Esco Lasticaبجانب دار الرماية
٩	باب الفخارين	باب الفخارين	شارع Aguado
١٠	الباسلى	حى زناتة	شارع Cenete
١١	باديس	القصبة القديمة	بالقرب من ساحة San Miguel

(١) استفدت فى هذه القائمة من عدة مصـادر ومراجـع خاصـة مـا ورد فـى هـامش(٢) ، بالإضافة إلى كتاب مرمول كاربخال ومدونة سقوط غرناطة ، ثم بحث مارتينث حـول المساجد فى كتب الأحباس الكنسية وقد وردت جميعها فى عداد القائمة السابقة .

	اسم المسجد	مكانه في غرناطة الإسلامية (الحى أو الربض)	مكانه في غرناطه اليوم
١٢	البرج	باب التوابين	Bibataubin
١٣	البشرى	رحبة الزيادة	بجانب Aljibe de Polo قرب شارع Panaderos
١٤	البرياني	الشارع (البيازين)	بجانب كنيسة San Bartolome
١٥	البيازين (الكبير)	الزيادة (البيازين)	كنيسة San Salvador
١٦	البير	الشارع (=)	يقع ضمن أملاك San Cristo bal
١٧	البيضاء (الأحدب)	البيضاء (=)	في ممر La Harena بجانب Aljibe en Cuesta del chapizal
١٨	التوابين	فج اللوزة	شمال شرق حي Albaicin ساحة Cruz de piedra
١٩	التوابين	القصبة الجديدة	كنيسة San Juan de los Reyes " Albaicin"
٢٠	الحجر	باب الفخارين	كنيسة Santo Domingo del Monasterio de la Santa Cruz
٢١	الحدادين	الرملة	يقع عند التقاء شارع Mesones مع ساحة باب الرملة Bibarrambla
٢٢	الحفيد	فج اللوزة "البيازين"	شارع San Luis

	اسم المسجد	مكانه في غرناطة الإسلامية (الحى أو الربض)	مكانه فى غرناطه اليوم
٢٣	الحوراء	درب الحوراء	بين ساحة San Gil وساحة صناعة السكاكين Cuchilleros
٢٤	الدباغين	الدباغين	حول شارع Salamanca
٢٥	الرقدة	باب المصدع؟	يقع بين شارعى La Silleriaو Capuchinas
٢٦	الروضة	الروضة (البيازين)	بالقرب من Cruz de la Rauda فى البيازين
٢٧	الزيتونة	قرب باب البنيدر فى حى السند (البيازين)	ساحة Castillas شرق البيازين
٢٨	الزينة	العقبة (-)	فى بداية العقبة بالبيازين
٢٩	سقاية البزارين	سقاية البزارين (باب البيرة)	بداية شارع Azacayas بالقرب من باب البيرة
٣٠	السلطان	الحمراء	كنيسة Santa Maria
٣١	الشارع	الشارع(أسفل البيازين من ناحية البيرة)	منتصف شارع San Cristobal " البيازين "
٣٢	الشافعى	باب التوابين	فىبداية شارع San Matias
٣٣	ششون أو ششونة	الروضة بالبيازين	يقع فى Aljibe de Santa Isabel منتصف شارع San Luis "البيازين"

	اسم المسجد	مكانه في غرناطة الإسلامية (الحى أو الربض)	مكانه في غرناطه اليوم
٣٤	الصفا	فج اللوزة	فى مبتدأ شارع San Luis " البيازين "
٣٥	العقبة	العقبة " البيازين "	فى Cuesta de Alhacaba
٣٦	على حمزة	سقاية البزارين	يقع فى زقاق مغلق يؤدى إلى شارع البيرة
٣٧	غندير	البيازين	ساحة المنى Almona "البيازين"
٣٨	القشاشين	القشاشين؟	بين شارع Zacarin وساحة San Gil
٣٩	القطانين	القيصرية	يقع فىزاوية القيصرية الغربية
٤٠	القورجة "العليا"	القصبة الجديدة	بدايةCuesta de las Cabras " البيازين "
٤١	القورجة "السفلى"	القضبة الجديدة	يقع غرب المسجد السابق قريباً منه
٤٢	مخاضة الفقيه	قرب باب الرحى	ساحة Encarnacion
٤٣	المرابطين	المرابطين "القصبة القديمة"	كنيسة San Jose
٤٤	المنصورة	المنصورة	كنيسة Santa Ana
٤٥	المؤذن	القصبة القديمة	بالقرب من Las Tomasas
٤٦	مورور	مورور	يقع أسفل أبراج حصن Bermejas

	اسم المسجد	مكانه فى غرناطة الإسلامية (الحى أو الربض)	مكانه فى غرناطه اليوم
٤٧	مجهول	باب الفخارين	كنيسة San Cecilio
٤٨	مجهول	الرملة	شارع Mesones فى موقع كنيسة Sta. dela Magdalena
٤٩	مجهول	فج اللوزة	فى عقبة شارع San Gregorio " البيازين "
٥٠	مجهول	البيازين	المنزل رقم ١١ فى طريق San Martin "البيازين"
٥١	مجهول	البيازين	ساحة elMantidero "البيازين"
٥٢	مجهول	المرابطين	ساحة San Miguel
٥٣	مجهول	البيازين	خلف المنزل رقم ١ فى شارع el Agua "البيازين"
٥٤	مجهول	القصبة القديمة	قرب ساحة el Abad
٥٥	مجهول	القصبة القديمة	حول ساحة San Nicolas
٥٦	مجهول	باب البيرة	كنيسة San Andres
٥٧	مجهول	القصبة القديمة	معبد San Nicolas

الخاتمة :

بعد إطلالة قصيرة على غرناطة الإسلامية ، تعرفنا من خلالها على أبرز وأهم مساجدها ، وبشكل أخص على مصيرها بعد سقوط هذه المدينة ، تبرز أمامنا قضايا ومشاكل فى هذا البحث تؤكد الحاجة إلى مزيد من جهود الباحثين وذوى الاختصاص ، كل فى ميدانه ، لطرق هذا الموضوع ، أقصد تاريخ العمارة الدينية ليس فى غرناطة وحدها وإنما فى الأندلس بشكل عام . ذلك أنه على الرغم مما بذل فيه من جهود مثل ما قام به أستاذنا السيد عبد العزيز سالم وآخرون أمثاله إلا أن الموضوع ما زال بكراً ، يتطلب التفاتة الباحثين واهتمامهم . ومع تطور ونمو الدراسات الأوروبية فى هذا الجانب ، إلا أنها ما زالت ناقصة ، فكيف الحال بلغة الضاد التى تشق طريقها فى هذا الميدان .

وعند الكتابة فى هذا الموضوع سيفاجأ الباحث بندرة المادة العلمية فى مصادرنا الإسلامية ، من ذلك أن أهم تلك المساجد وهو الجامع الأعظم ، لم نتوصل حتى الآن لتحديد دقيق لتاريخ إنشائه ، فما بالك بالتفصيلات الأخرى؟ ومن ناحية ثانية ، لدينا إحصائية تقريبية عن عدد هذه المساجد لكن لم نتعرف إلا على أسماء عدد منها ، وحتى بعد معرفتنا بهذه الأسماء ستواجهنا مشكلة تحديد مواقعها الدقيقة !! ... إلخ .

أما فيما يتعلق بوضع هذه المنشآت بعد السقوط فقد توافرت لنا معلومات فى غاية الأهمية ، أمدتنا بها كتب الأوقاف والسجلات الكنسية ، التى أولت هذا الموضوع عنايتها ، لكن فى حدود ما يخدم مصلحتها ؛ وفى ثنايا ذلك استطعنا أن نسد جزءاً ليس بالقليل من تلك الفجوة التى نلمسها فى مصادرنا العربية . وقد أفادتنا هذه الوثائق كثيراً فيما يتعلق بالموقع والمساحة

ونحوها ، ولكنها توقفت عند تاريخ تنصير أغلب تلك المنشآت والإجراءات التى تمت بعد ذلك ، ثم تاريخ هدم أو سقوط تلك المنشأة . وبعد ذلك تأتى كتب الحوليات ، ثم الدراسات المتأخرة التى وظفت تلك المادة العلمية التى ورثتها ، فى دراسة تاريخ وطبوغرافية المدينة فى عصورها المختلفة .

ومع قوة وصلابة تلك المنشآت المعمارية الدينية فى غرناطة الإسلامية ومهارة المهندسين المسلمين ، إلا أنها اندثرت بشكل يكاد يكون تاماً وفى وقت مبكر نسبياً ، فما هى الأسباب ؟ هل يعود ذلك إلى رداءة البناء وضعف مادته فى هذه المنشآت بالذات ؟ أم إلى عوامل أخرى ؟ الواقع أن الإجابة تحتاج إلى دراسة ثانية، إلا أن الباحث فيهذا الموضوع عليه أن لا يستبعد العامل الدينى فى ظل ذلك التحول السريع أو التنصير القسرى للمدينة وأهلها ، وبأسرع وقت ممكن لقطع أى صلة لهم بماضيهم ، وإزالة أية شواهد قد تذكرهم بالماضى القريب . يعزز ذلك بقاء مبان إسلامية أخرى فى أنحاء الأندلس المتفرقة خارج غرناطة وداخلها ، استعملت فيها نفس مواد البناء وهندسته التى طبقت على بعض المساجد الغرناطية خاصة الكبيرة منها . ومن أمثلة ذلك قصر الحمراء الذى يختلف فى دلالته وأهدافه ، ويقبع فى زاوية منعزلة من غرناطة . وكذلك الخيرالدا فى أشبيلية ومسجد قرطبة ، الذى كان مثلاً يحتذى فيمساجد الأندلس عامة، فلماذا تهدمت تلك وبقيت هذه حتىيومنا هذا؟

أخيراً سيندهش المراقب لسرعة تحول ذلك البلد المسلم فى مؤسساته وعاداته وتقاليده وحتىأسمائه ولغته، إلىما يسعى إليه المنتصر، ولكن ستزول دهشته حينما يتعمق فى البحث والتحرى ، ليكتشف أن وراء ذلك التحول الكبير وقفت كل مؤسسات مملكة قشتالة الأسبانية ، عسكرية كانت أو مدنية ودينية،حيث سخرت هذه جميعاً بكل ما تملك من وسائل لتحقيق ذلك الهدف .

أثر الحروب الصليبية فى زخرفة المعادن
فى العصر الأيوبى

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى(*)

ترتبط الدولة الأيوبية ارتباطاً وثيقاً بالحروب الصليبية ، حيث أن مولد هذه الدولة جاء نتيجة مباشرة للأحداث التى صحبت تلك الحروب على مسرح الشرق الأدنى ، كما أن مؤسس الدولة – وهو صلاح الدين – يعتبر رمزاً خالداً من رموز الحركة الصليبية وعلماً من أبرز أعلامها . ومن الثابت أن الحروب الصليبية كانت لها انعكاساتها الحضارية مثلما كانت لها آثارها الهدامة بوصفها تعبيراً عن الحرب بكل ما تعنيه الحرب من قتل وتدمير وتخريب . وفى هذا البحث سنحاول أن نلقى الضوء على جانب من الجوانب الحضارية للحروب الصليبية فى العصر الأيوبى ، يتعلق بانعكاسات تلك الحروب على زخرفة المعادن فى مجال الفنون الإسلامية .

والواقع أن العصر الأيوبى كانت له سمة مميزة وبصمة واضحة فى تكوين شخصيته الفنية ، الأمر الذى يتجلى فى عناصره الزخرفية عامة ، ورسومه الآدمية وخطوطه الكتابية خاصة . وتظهر هذه العناصر وتلك الرسوم والخطوط جلية واضحة فى زخرفة التحف المعدنية التى أنتجها وصنعها فنانو هذا العصر .

ذلك أن صناعة المعادن نشطت فى العصر الأيوبى نشاطاً كبيراً على أيدى الوافدين من صناع التحف المعدنية الذين هاجروا من

(*) مدرس آثار إسلامية – كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادى .

الموصل إلى مصر والشام ، وهنا تنبغي الإشارة إلى أن علاقة هؤلاء بمصر والشام كانت قائمة قبل هجرتهم إليها . وليس أدل على ذلك من أن صاحب الموصل عز الدين مسعود أعلن تبعيته للسلطان صلاح الدين الأيوبي مراراً(١) وقد عمل هؤلاء الصناع في خدمة أمراء بني أيوب وخاصة في حلب والقاهرة . ومما لا شك فيه أنهم نقلوا معهم أساليبهم الفنية التي تميزت بها المدرسة الموصلية في مجال زخرفة التحف المعدنية(٢) .

وتحتفظ المتاحف العالمية والأوربية ، فضلاً عن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وغيره من المتاحف العربية بالعديد من القطع الفنية المعدنية التي

---

(١) كانت العلاقات قائمة بين صلاح الدين الأيوبي وصاحب الموصل قبل هجرة الفنانين إلى مصر والشام . ومما يدل على ذلك أنه في سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م وسنة ٥٨٨هـ/١١٩٣م تم الصلح بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل ورضي الأخير أن يكون تابعاً لصلاح الدين (وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان " صلاح الدين " وقطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها ، وخطب له في ديار بكر وجميع الديار الارتقية وضربت السكة باسمه) .

- ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ٢ ، ص١٧٢ .
- ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص١٢٢ - ١٢٣ .
- أبو شامة ، الروضتيين في أخبار الدولتين ، جـ١ ، ص٢٤٨ .

(٢) زكي محمد حسن ، فنون الإسلام ، بيروت ، سنة ١٩٨١م ، ص٥٤٩ - ٥٥٠ .

ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٢م، ص١٥٤ .

- سعاد ماهر محمد ، كتاب الفنون الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦م ، ص ١٥٠ .

ترجع إلى العصر الأيوبى وتتميز بأسلوب زخرفة مدرسة الموصل ذات المكانة الكبيرة والشهرة الواسعة فى هذه الصناعة العريقة(١) .

وسنركز فى هذه الدراسة على عدد من التحف المعدنية التى تميز فى صناعتها وحذق فى زخرفتها صناع وفنانو المعادن بأسلوب مدرسة الموصل، وقوام رسومها موضوعات مسيحية ومناظر دينية ، مما يتفق وروح العصر ، عصر الحروب الصليبية . هذا مع ملاحظة أن هذه الموضوعات المسيحية وتلك المناظر الدينية موضوع البحث ليس فيها ما يتنافى مع عقيدة المسلمين عن السيد المسيح وعن المسيحية ، بل كلها مما يتفق وتاريخ السيد المسيح مثلما جاء فى القرآن الكريم ، فضلاً عن أن بعضها يحمل أسماء عدد من سلاطين بنى أيوب .

ويفسر البعض هذه الظاهرة بتسامح سلاطين الأيوبيين ولا سيما ملوك دمشق الذين بلغ من تسامحهم مع المسيحيين أن كانت لهم علاقات ودية واضحة فى أثناء فترات السلم بينهم وبين الكيان الصليبى ببلاد الشام(٢) .

ولايفوتنا هنا أن نوضح حقيقة هامة ، هى أن معظم هذه التحف كانت تصنع خصيصاً لكى يقتنيها مسيحيو الغرب وحجاج بيت المقدس الذين كانوا يحضرون لزيارة الأماكن المقدسة ، وربما مرّ بعضهم بمصر فى طريقهم

---

(١) سعاد ماهر محمد ، المرجع السابق ، ص٥٦ .

(٢) بخصوص هذا الصدد كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، إلى بلدوين أحد ملوك الفرنج ، وهو يومئذ ملك مملكة بيت المقدس ، معزياً له فى أبيه ، ومهنئا إياه له بجلوسه فى الملك بعده .

- القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٧ ، ص١١٥ - ١١٦ .

إليها(١) هذا بالإضافة إلى حاجة الأسواق الأوربية إلى هذا النوع من التحف . ومن المعروف أن الحروب الصليبية أدت إلى إزدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب فى العصر الأيوبى ، وأنه كان من نتائج هذه الحروب نشاط العلاقات التجارية بين العالمين الإسلامى والمسيحى حتى أبرمت اتفاقيات وعقدت معاهدات بين تجار مدينة حلب فى بلاد الشام وتجار مدن بيزا وجنوة والبندقية بإيطاليا .

وهنا يكشف المؤرخ الإيطالى مانفرونى كاميللو(٢) ، عن الأهداف الحقيقية للتجار الإيطاليين فيقول : " أن الجنوية والبيازنة استغلوا الحروب الصليبية من أجل السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب والحصول على الربح الوفير من ورائها وتقوية مراكزهم ووجودهم فى الشرق ، حيث الوفرة والثروة ، وحيث كانت القوافل التجارية تأتى محملة بالسلع الشرقية النفيسة الواردة إلى موانى الشام " .

وكان إن اكتظت الأسواق الأوربية بأنواع كثيرة من المنتجات والتحف النادرة الواردة من الشرق والتى كانت موضع تقدير وإعزاز فى أوربا . وقد حرص سفراء هذه الدول على المثول فى بلاط سلاطين دولة بنى أيوب طالبين لتجارهم إعفاءات وتخفيضات جمركية ، فاستجاب لهم السلاطين

---

(١) محمد مصطفى ، مناظر دينية على التحف الإسلامية ، مجلة المجلة ، العدد ٤٨ ، السنة الرابعة ، ديسمبر سنة ١٩٦٠ ، ص٣٩ .
- زكى محمد حسن ، المرجع السابق ، ص٥٥٠ .
- كريستى وأرنولد وبريجز ، تراث الإسلام ، جـ٢ ، سنة ١٩٨٣م ، ترجمة زكى محمد حسن ، ص١٨-١٩.

(2) Manfroni, c, Storia della Marina Italiana della Invasione Barbariche al trattato di minfeo (400-1261) Vol.1 Livirno, 1899, PP. 136, 138.

ومنحوهم تسهيلات وامتيازات تمتعوا بها أثناء إقامتهم فى الشرق واعتبروهم رعايا أمة صديقة(١) ، كذلك كان لهؤلاء التجار فى الأسكندرية وغيرها من المراكز التجارية فنادق لسكناهم ولتخزين بضائعهم وكانت لهم كنائس خاصة بهم ، وغير ذلك من الامتيازات التى منحها إياهم سلاطين دولة بنى أيوب(٢).

واعتاد الحجاج الصليبيون أن يحملوا معهم بعض التحف المعدنية ذات الموضوعات الدينية المسيحية عند عودتهم من الشرق ، فى صورة هدايا لأقربائهم وأصحابهم فى الغرب . وكان هذا فى حد ذاته مما ترك أثراً للحروب الصليبية فى زخرفة بعض التحف المعدنية الأيوبية .

ومن هذا نخلص إلى القول بأن الحروب قد لا تخلو من حسنات بجانب ما هو معروف عنها من سيئات ، فيذكر لنا ابن جبير فى رحلته ، وابن تغرى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٦٣م ، ص ٤٨٨-٤٨٩ .

- ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، سنة ١٩٦٨ ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ص٦٩٦-٦٩٧ .

- مصطفى حسن محمد الكنانى ، العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الإسلامى ، جـ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨١م ، ص١٥١ .

- كريستى وأرنولد وبريجز ، المرجع السابق ، ص٩٥ .

- سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٩٠م ، ص ١٥٢ .

- ف. هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ٢ ، سنة ١٩٩١م ، ترجمة أحمد رضا محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٢٦ ، ٤٧ - ٤٨ ، ٥٥ .

(2) Lane- Poole, History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, P218.

بردى فى نجومه(١) ، أن الحرب كانت تدور بين المسلمين والصليبيين ، بينما التجارة بين الطرفين قائمة وكل فى حاله . يقول ابن جبير : " من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم ، وهى من الأمنة على غاية . وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية والدنيا لمن غلب ، فالأمل لا يفارقهم فى جمع الأحوال سلماً أو حرباً " . ولا شك فى أن هذه الاتصالات والروابط تركت أثراً واضحاً فى الفن الإسلامى .

* * *

وخير مثال لأثر الموضوعات المسيحية على زخرفة التحف المعدنية الأيوبية ، تلك العلبة الأسطوانية الشكل المصنوعة من النحاس الأصفر(٢)

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ، ص٢٦٠-٢٦١ .

- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، ص٤٨ .

(٢) يعد النحاس من أقدم المعادن التى عرفها الإنسان ، وهو لا يوجد عادة فى الطبيعة كفلز خالص مثلما يوجد الذهب ، ولكنه يستخلص غالباً بطرق صناعية من خاماته ، والنحاس الأصفر سبيكة من خليط النحاس والزنك ، ولم يعرف إلا فى عصر متأخر بالنسبة لتاريخ المعادن ، وقد نتج النحاس الأصفر لأول مرة من خلط خامى النحاس والزنك ، لا من خلط الفلزين نفسهما .

- الفريد لوكاس ، المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة زكى إسكندر ، مكتبة مدبولى ، سنة ١٩٩١م ، ص ٣٢٧ ، ٣٦٠ .

والمكفتة(١) بالفضة والتى تعد من القطع الرئيسية الهامة ، التى يحتفظ بها متحف فيكتوريا وألبرت بلندن .

وتتكون هذه العلبة من جزئين ، الغطاء العلوى والبدن السفلى ، وقوام زخرفة بدن العلبة ثلاثة اشرطة أفقية متوازية باستدارة العلبة ، أو سطهن أوسعها ، ويتألف من مجموعة من الأشخاص فى حالة تتابع وحركة كأنهم فى موكب دينى مسيحى ، يتميزون بسحن مسيحية الملامح ، وحول رؤوسهم

---

(١) التكفيت In laying ، كلمة فارسية الأصل بمعنى دق ، أما من الناحية الصناعية فتعنى حفر رسوم الزخارف على سطح التحفة المراد زخرفتها حفراً عميقاً ثم تملأ الحفر المؤلفة للرسوم والزخارف المطلوبة بمعدن آخر فيعطى بذلك الفائدة المطلوبة ، وهى إظهار الرسوم والزخارف باللون المخالف للون المعدن المشكل منها التحفة ، وقد بلغ فن تكفيت المعادن عند المسلمين غايته من الاتقان فى القرن ٦هـ/١٢م وظل محافظاً على هذه المنزلة زهاء قرنين ، ويطلق على صانع الكفت أو التكفيت كفتى ، وقد ذكر المقريزى فى خططه سوق الكفتيين بالقاهرة فيقول " هذا السوق يسلك إليه من البندقانيين ومن حارة الجودرية ومن الجملون الكبير وغيره ويشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وكان لهذا ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة ، وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم وللناس فىالنحاس المكفت رغبة عظيمة، وأنه لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت " .

- المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠٤ - ١٠٥ .

- The Dictionary of Artiques and the Decorative Arts, London, 1969, P. 247.

- حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية ، جـ٢، دار النهضة العربية، سنة ١٩٧٨م، ص٩٧٤ - ٩٧٥ .

- كريستى وأرنولد وبريجز ، المرجع السابق ، ص٢٦ - ٢٧ .

- سعاد ماهر ، المرجع السابق ، ص١٢٤ .

هالات(١) كاملة الاستدارة ، وكان الغرض من رسم هذه الهالة حول رؤوس الأشخاص المسيحيين أن تكون علامة من علامات القدسية ، ولذا كانت تسمى هالة التقديس . أما عن صور الأشخاص المسلمين فإن أحدهم يحمل بيده اليمنى مبخرة وأخر يحمل شمعة .

ويظهر من بين هؤلاء الأشخاص شخصان متقابلان كل منهما رافع يده اليمنى ، وبينهما صليب ، ويتوسطهما طفل صغير راكع على إحدى ركبتيه ، ربما يتلون عليه بعض التراتيل أو القراءات لمنحة البركة . ونلاحظ أن ملامح أحد هذين الشخصين مختلفة عن بقية الأشخاص بأن له لحية ، وهو أكبرهم سناً وأكثرهم وقاراً ، كما أن ملابسه مختلفة ، ويكللها السواد - بينما ملابس الآخرين بيضاء . وهى ملابس فضفاضة بوسطها حزام وتزخرفها رسوم نباتية بسيطة - ويحف به من الجانبين صليبان ، ما يدل دلالة واضحة على أنه شخصية دينية كنسية ذات مقام عالى وقدر رفيع . (شكل -١) .

أما الشريط العلوى لبدن العلبة فيحتوى على فروع نباتية متداخلة تكوّن أشكالاً حلزونية تتداخل وتتعانق فى تنسيق وأسلوب فنى نلحظه

---

(١) كان بداية ظهور الهالة فى القارة الأسيوية ، وعرفها الفن البوذى والإغريقى فى " جندرا " على الحدود الغربية للهند فى نهاية العصر الهلينستى ، وعرفتها الأقاليم التى انتشرت فيها تعاليم البوذية ، كما كان الفنانون البيزنطيون يرسمون دائرة أو هالة حول رؤوس القياصرة . وعندما عرفها الفنانون المسيحيون ، أقبل مصورو التصاوير المسيحية على رسم الهالة حول رؤوس الأشخاص من رجال الدين والكنيسة ، حيث شاع أن رسم الهالة علامة من علامات القدسية . ثم انتقلت هذه الهالة إلى الفنون الإسلامية فى العصر العباسى ، وأصبح رسمها حول رؤوس الأشخاص سمة من سمات تصاوير المدرسة العربية .

- سعاد ماهر ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

على زخارف التحف المعدنية فى مصر والشام فى النصف الأول من القرن ٧هـ/١٣م(١) .

وأما الشريط السفلى لبدن العلبة فيحتوى على مجموعة من الرسوم الحيوانية ممثلة فى كلاب الصيد وغزلان وأرانب ذوات آذان طويلة . وقد رسمت هذه الحيوانات فى حالة عدو بعضها وراء بعض ، وتمتاز برشاقة أجسامها الممتدة والمعبرة عن الحركة ، وذلك على أرضية من الزخارف النباتية المورقة ، وهذه سمة من سمات الرسوم الحيوانية والزخارف النباتية فى العصر الأيوبى(٢) .

ويحكم هذه العلبة الأسطوانية غطاء علوى نقشت زخارفه الكتابية بنوعين من الخطوط ، هما الكوفى الفاطمى والنسخ الأيوبى . وتجدر الإشارة إلى أن الخط الكوفى لم يبطل استعماله فى العصر الأيوبى ، وإنما ظل يستعمل إلى جانب الخط النسخ على تحف كثيرة لمدة طويلة . ويعد استعمال كلا النوعين معاً على تحفة واحدة من العلامات التى تتميز بها التحف

---

(١) هذا النوع من الزخرفة المتداخلة ذات أصول من زخارف سامراء من الطراء الثالث، ويرجع للزخارف الجصية التى وجدت فى قصور سامراء وبيوتها ، وقد وجدت هذه العناصر من قبل فى الشرق وخاصة فى الوحدات الزخرفية السورية ذات الأصول المسيحية .

- Farid Shafii, Simple Calyx ornament in Islamic Art, Cairo University Press, 1957, PP. 220-21, Plate 41 (K.L.M).

- زكى محمد حسن ، الفن الإسلامى فى مصر من الفتح العربى إلى نهاية العصر الطولونى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٤م ص٢٩ - ٣١ .

(٢) سعاد ماهر ، المرجع السابق ، ص٥٣ .

الأيوبية. والتي على أساسها نستطيع أن نرجح أحياناً نسبة القطع الفنية إلى ذلك العصر(١) .

أما عن النقش الكوفى فيزخرف الجزء الموازى لاستدارة بدن العلبة ، وهو بالخط الكوفى المورق المزهر(٢) ويتضمن عبارات دعائية ، ونص الكلمات تكرار لعبارتى " العز الدائم " و " الجد الصاعد "(٣) ،

---

(١) وهناك ملحوظة أخرى وهي أن استعمال الخط الكوفى بعد العصر الفاطمى اقتصر على الآيات القرآنية والعبارات الدعائية ، أما الخط النسخ فى العصر الأيوبى فكانت تكتب به النصوص التاريخية ، ولا غرو فى ذلك فإن مؤرخى الفنون وباحثى الآثار يرون أن العصر الأيوبى من عصور الانتقال التى تعتبر نيلاً لما قبلها وتمهيداً لما بعدها .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الإسلامى ، سنة ١٩٦٣م ، ص٢٥ ، ١٢٥ .

(٢) من أهم صور الخط الكوفى ، الكوفى البسيط الذى لا زخرف فيه ، والكوفى المورق Floriated أى المرسوم على أرضية بها زخارف نباتية ، الكوفى المزهر Foliated أى الذى تخرج من حروفه فروع نباتية بها أزهار ، الكوفى المضفور Tressed أى الذى تشتبك فيه الألف مع اللام على هيئة ضفيرة .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى العصر العثمانى ، سنة ١٩٨٧م ، ص١٧٤ .

(٣) وكانت هذه العبارات الدعائية تتكرر بصفة دائمة فى المكاتبات فى العصر الأيوبى ووجدت أيضاً على زخرفة تحفهم التطبيقية ومنها " الجد الصاعد ، العز الدائم ، السعد الساعد ، الحظ السائد ، التوفيق الوارد " .

- القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٧ ، ص١١٥ .

حيث تنتهي الألف واللام ومدات الحروف بورقة نباتية ثلاثية(١) ، أما النقش الثاني فيزخرف السطح العلوى للغطاء وهى كتابة بخط النسخ الأيوبى ، عبارة عن نص تاريخى يتضمن اسم السلطان العادل الأيوبى وينتهى بعبارة " برسم الطشت خانة(٢) العادلية " . هذا فى حين تزخرف الحافة العليا للسطح رسوم نباتية مورقة(٣)

---

(١) وجدت زخرفة هذه الورقة الثلاثية البتلات فى افاريز الزخارف الجصية تحت القبة بجامع الأزهر ، إذن فهى ذات أصول فاطمية الطراز .

– Farid Shafii, Op. Cit, P. 128, Plate, 30.

(٢) الطشت خانة ، الطشت وهى لفظة محرف عن طست العربية ، خانة كلمة فارسية الأصل بمعنى مكان أو بيت،وصاحبه هوالمسئول عن البيوت السلطانية أو خزائن السلطان المختلفة التى كانت تحفظ فيها حوائجه من الشطوت والأوانى المختلفة الأوانى المختلفة .

– حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٢ ، ص٧٤١ – ٧٤٢ .

(٣) أن لفظ أرابيسك Arabesque من الألفاظ الأجنبية التى أطلقها مؤرخو الفنون من الأوربيين على نوع معين من الزخرفة الإسلامية النباتية ، لأن هذه الكلمة أصدق فى الدلالة على هذا النوع من الزخرف الذى أبرز ما فيه هو ظاهرة النمو . التوريق ما هو فى الحقيقة إلا نمو وتكاثر ، ويبدو أن الفنان المسلم كان يعنى بهذه الزخرفة فى محاولة لحل المعادلة اللانهائية للوجود ، أو تأكيداً لمبدأ الترابط اللانهائى له تحت شعار واحد هو وحدانية الخالق حيث قيل عنها (إذ لا مبتدأ لها ولا منتهى ، لأنها تسعى وراء الله) وفى موضع آخر قيل هو وحدانية الخالق حيث قيل عنها (إذ لا مبتدأ لها ولا منتهى ، لأنها تسعى وراء الله) وفى موضع آخر قيل فيه أن مضمونه الفكرى يتطابق مع مضمونه الزخرفى ، ولا تزال كلمة التوريق Turiques مستعملة فى اللغة الأسبانية حتى اليوم للدلالة على هذه الزخرفة .

Encyclopedie de L'islam, Tome I, Paris, 1913, PP. 367 - 362.

ذات طابع عربى Arabesque . (صورة ١)(١) .

كذلك يتجلى تمثيل الموضوعات المسيحية على رسوم التحف المعدنية الأيوبية فى الشمعدان النحاسى المكفت بالفضة المحفوظ فى متحف الفنون الزخرفية بباريس . وقوام زخرفة بدن هذا الشمعدان ثلاثة أشرطة ، أوسطهن أوسعهن ، ويحتوى على مناطق أو جامات مفصصة ، بعضها كبير والبعض الآخر صغير : الجامة الكبرى داخلها رسم السيدة العذراء(٢) واقفة تحمل

- بشر فارس ، سر الزخرفة الإسلامية ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢م ، ص١١ .
- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى تاريخه وخصائصه ، بغداد ، سنة ١٩٦٥م ، ص١٨٣ .
- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الإسلامية فى العصر العثمانى ، ص١١ .

(١) Maigeon, Manuel D'Art Musulman, Paris, 1907, Vol. 2. P. 173, Fig. 149.

- Mohammedan and Orienta2, 100 Masterpieces, Victaria and Albert Museum, London, London, 1931, 12.
- زكى محمد حسن ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، بغداد سنة ١٩٥٦م ص٤٦٠ شكل ٤٩٠.

(٢) وقد ظهر أيضاً تمثيل السيدة العذراء على التحف الخزفية التى ترجع إلى النصف الأول من ٧هـ/١٣م ، من العصر الأيوبى وأبدع مثال لذلك هو ما يحتفظ به متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ومتحف بناكى بأثينا ، أجزاء من صحن متعدد الألوان ، يحتوى على رسوم نباتية باللون الأزرق الداكن والأخضر والأسود على أرضية بيضاء تمثل المسيح وخلفه العذراء عليهما السلام ، تضمه إليها وقد أسند رأسه إلى رأسها وكان يحيط بهما - كما يظهر على أجزاء من الصحن فى متحف بناكى - صور القديسيين الأثنى عشر ، ويتمثل الجميع وقوفاً ، وحول رؤوسهم هالات ترمز بالطبع إلى القداسة. ويلاحظ استدارة الوجه ، وفى هذا تأثير من رسوم الأشخاص بمنطقة الموصل ، ومن هنا تتضح الصلة الفنية بين شمال العراق ومصر فى

على إحدى يديها المسيح عليه السلام طفلاً صغيراً ، وعن يمينها سيدة وعن يسارها رجل، وقد كللت رؤوسهم بهالة التقديس، كما ارتدوا ملابس فضفاضة ذات أكمام واسعة وطويلة ، تذكرنا بالملابس العربية . (شكل٣ : أ ، ب)

* * *

أما الجامات الصغرى فتحتوى على رسوم آدمية وحيوانية فى مناظر صيد ، وقد رسمت كل من الجامات الكبرى والصغرى على مهاد من الزخارف النباتية المورقة ، ويحف بهذا الشريط العريض شريطان رفيعان متشابهان ومتماثلان يحوى كل منهما مناطق صغيرة مفصصة داخل كل منها رسم أدمى فى وقفة إجلال ، بما يتناسب مع الموضوع الرئيسى . ويلاحظ أيضاً فى هذه الرسوم الملابس العربية الفضفاضة .

وتحتوى رقبة الشمعدان على ثلاثة أشرطة ، الأوسط به رسوم آدمية فى مناظر مختلفة ، أما الشريطان العلوى والسفلى فهما متشابهان ويحويان كتابة بخط النسخ الأيوبى ، نصها " عمل داوود ابن سلامة الموصلى فى سنة ستة وأربعين وستمائة "(١) ، هذا

ذلك العصر ، وأن هذه الصلة لم تظهر فقط فى المعادن ولكننا وجدناها على الخزف أيضاً.

- محمد مصطفى ، المرجع السابق ، ص٤٠-٤١ ، شكل٢ .
- حسن الباشا ، فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، دار النهضة المصرية ، سنة ١٩٧٣م ، ص٩٥-٩٦ ، شكل ٢٩ .

(١) بالنسبة لتاريخ هذا النص فهو يقع فىآخر فترة حكم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، حيث أنه تولى الحكم سنة ٦٣٧هـ وتوفى سنة ٦٤٧هـ .

- ابن واصل ، مفرج الكرب ، جـ٥ ، ص٢٦٥ .
- المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

بالإضافة إلى كتابة كوفية مزهرة لبعض العبارات الأيوبية المعتادة مثل " العز الدائم " و" الجد الصاعد " . (صورة ٢)(١) .

* * *

وتتمثل أيضاً رسوم السيدة العذراء فى زخرفة التحف المعدنية الأيوبية فى تلك الزمزمية النحاسية المكفتة بالفضة ، والتى يحتفظ بها متحف فرير جاليرى فى واشنجتون ، وتظهر فى الدائرة الوسطى (المركزية) السيدة مريم العذراء تحمل بين ذراعيها المسيح عليه السلام طفلاً صغيراً ، وهى تجلس على عرش ، ويقف على جانبيها قديسان . ويحيط بهذه الدائرة شريط كتابى يحوى خطوطاً كوفية مزهرة . ويكتنف هذه المنطقة المركزية أطار عريض يحمل ثلاثة أشكال بيضاوية تزخرفها رسم طيور محلقة . وتحصر هذه الأشكال البيضاوية مناظر دينية تمثل مواقف من حياة السيد المسيح عليه السلام . ويزخرف الحافة الخارجية للتحفة شريط رفيع من الخط النسخ الأيوبى . ويلاحظ أن لها بروزاً ناتئاً ، لكى تصب منه السوائل ، وعليها أيضاً كتابة نسخية وزخرفة نباتية وله مقبضان .(صورة ٣)(٢) .

* * *

ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بشمعدان من النحاس المكفت بالفضة يرجع للعصر الأيوبى ، وهو من عمل صناع الموصل(٣) ، الذين

---

(1) Migeon, Op. Cit. Fig. 149. bis.

(٢) محمد مصطفى ، المرجع السابق ، ص٤١ ، شكل ٣ .

(٣) وقد هاجر الكثير من هؤلاء الصناع إلى دمشق وحلب والقاهرة واستقروا بهذه العواصم الإسلامية فى العصر الأيوبى ، وازدهرت صناعتهم فى هذه المدن مع الحفاظ على أسلوبهم الصناعى والزخرفى ، فحرصوا على تسجيل أسمائهم على تحفهم

تفوقوا فى صناعة هذا النوع من التحف المعدنية المكفتة بالفضة والذهب منذ زمن بعيد ، ونشطت صناعتهم فى القرنين ٦-٧هـ/١٢-١٣م . وقد ابتكر هؤلاء الصناع عناصر زخرفية جديدة تجلت فى زخرفة هذا الشمعدان الذى سجل عليه اسم صانعه بخط النسخ الأيوبى على الشريط الأوسط لبدن الشمعدان ، ونصه " العز والبقا والظفر بالأعدا ودوام الرخاء والرفعة والارتقاء وادو ... " عمل الحاج إسماعيل نقش محمد بن فتوح الموصلى المطعم أجير شجاع الموصلى النقاش "(١) .

وتاريخ الصناعة اعتزازاً بنسبتهم إلى بلدهم بالرغم من توطنهم واستقرارهم فى القاهرة ودمشق وحلب . ولا شك فى أن الوحدة السياسية قد قضت على الفروق الفنية فى كل من العاصمتين المصرية والشامية ، القاهرة ودمشق ، مما أدى إلى التشابه وإلى صعوبة التفرقة بين النتاجين ما لم تحمل التحفة توقيع صاحبها أو إمضاء صانعه . ومتحف الفن الإسلامى بالقاهرة غنى بتوقيع مجموعة كبيرة من صناع النحاس ما بين مصريين وعراقيين وموصوليين .

- حسن عبد الوهاب ، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية ، مجلة المجمع العلمى المصرى ، المجلد ٣٦ ، جـ٢ ، سنة ١٩٥٣ - ١٩٦٤م ، ص٥٥٦ .
- محمد عباس عبد الوهاب ، الوحدة الفنية بين مصر وسوريا ، مجلة المجلة العدد ١٧ ، ١٩٥٨م ، ص٢٨-٢٩.
- سعيد الديووجى ، الموصل فى العهد الأتابكى ، الموصل ، سنة ١٩٥٨ ، ص٥١ .
- زكى محمد حسن ، فنون الإسلام ، ص٥٤٤ .
- سعاد ماهر ، المرجع السابق ، ص١٣١ ، ص١٣٣ .

(١) لقد قام بصنع هذا الشمعدان الحاج إسماعيل ، بينما نقشه وزخرفه الفنان والصانع محمد بن فتوح الموصلى، وطعمه أى كفته بالفضة ، الكفتى أجير شجاع الموصلى النقاش ، انظر :

- Mayer, Islamic Metalworkers and Their works, Geneva, 1959, P.51.

وقد زخرف هذا الصانع الشريط برسوم آدمية داخل مناطق كبيرة مخصصة ، بعضها لفارس يمتطي جواداً في حالة عدو وحركة ، وبيده سيف (شكل ٣) ، وأخرى لأمير جالساً على عرشه وحوله بعض الأشخاص (شكل ٤) . ومناطق دائرية صغيرة داخلها رسم شخص جالس ، ويتوسط هذه المناطق الكبيرة والصغيرة مناطق أخرى مفصصة داخلها رسوم طيور ذات حركة كلها رشاقة وإنسيابية ، وتلك سمة من سمات رسوم الطيور على التحف في العصر الأيوبي .

أما الشريطان العلوي والسفلي لبدن الشمعدان فتزخرفهما أيضاً رسوم آدمية في مناظر رقص وطرب في أوضاع مختلفة (شكل ٥) . ويلاحظ أن الفنان أو الصانع قد رسم ملابس الأشخاص وبها مسحة أوربية تظهر واضحة جلية في السروال والحذاء الأوربي (البوت) . وكما ذكرنا من قبل أن مثل تلك التحف صنعت لتسوق في السوق الأوربية ، وكان على الفنان أن يختار أنواعاً معينة من الزخارف لكي تروج منتجاته في الغرب المسيحي . لذلك رسم الصليب على رقبة هذا الشمعدان ، داخل دائرة صغيرة بين الدوائر التي تضم الرسوم الآدمية والزخارفة النباتية . (صورة ٤)(١) .

* * *

كذلك يحتفظ متحف الجزيرة بالقاهرة بمبخرة من النحاس المكفت بالفضة ترجع لعصر السلطان الملك العادل الثاني يزخرف بدنها جامات بها كتابات دعائية بخط كوفي نصها " العز الدائم " " والجد الصاعد " ، وتنتهي حروف هذه الكتابة بصور أشخاص في مناظر صيد وطرب ورقص وشراب، ويتخللها رسوم حيوانية .

---

(١) سعاد ماهر ، كتاب الفنون الإسلامية لوحة ٦٤ (أ ، ب ، جـ ، د) .

أما الشريط العلوى من زخارف هذه المبخرة فيحتوى على نص تاريخى بخط النسخ الأيوبى نقرأ منه عبارة " عز لمولانا السلطان العادل السعيد المظفر المنصور بسيف الدنيا والدين(١) ، أبى بكر ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن أبى بكر ابن أيوب خليل أمير المؤمنين "(٢) . وأما الشريط الأخير فيحتوى على رسوم حيوانات متتابعة فى حركة عدو وجرى ، كما أن أرجل المبخرة تزخرفها رسوم جميلة وكذلك غطائها مزين بالتخريم ، ويزخرف حافته شريط من الحيوانات المتتابعة بعضها له رأس أدمى وتظهر بها العناصر الزخرفية الأدمية بمسحة أوربية . (صورة ٥)(٣) .

* * *

ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بمبخرتين مكفتتين بالذهب والفضة تشبهان هذه المبخرة من حيث أسلوب الزخرفة . وتمتاز رسوم

---

(١) سيف الدنيا والدين ، لقد أطلق لفظ سيف فى كثير من الألقاب المركبة التى تحمل جميعها معنى من معانى القوة ، وقد أضيف إليه لفظى الدنيا والدين فى العصر الأيوبى، حيث نعت به الكثير من رجال الدولة والحكام وقد وجدت هذه الألقاب أيضاً على تحفة من النحاس للسلطان العادل أبى بكر بن أيوب ومحفوظة بمتحف بناكى بأثينا .

- حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فىالتاريخ والوثائق والآثار ،سنة ١٩٨٩م،ص٣٤٣.

(٢) أمير المؤمنين ، الأمير فى اللغة ذو الأمر والتسلط ، وهو لقب من ألقاب الوظائف التى استعملت كألقاب فخرية ، وأمير المؤمنين من الألقاب المركبة على لقب أمير ، ويقصد بالمؤمنين المصدقين تصديقاً قلبياً بعقيدة الإسلام ، ولقب أمير المؤمنين ثانى ألقاب الخلفاء ظهوراً بعد لقب خليفة وأول من تلقب به عمر بن الخطاب . وأن أضافه كلا اللقبين إلىبعض تعطىالمعنىصفة دينية (من المؤمنين) إلى جانب الصفة السياسية (من أمير) .

- حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص١٧٩ ، ١٩٤ .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ص٧٦ .

العناصر الآدمية بمسحة أوربيــة فــى جامـات تحـوى كـل منهـا فارسـاً يمتطـى جواده . وفى هذا الجـزء السـفلى يد مستقيمة تخـرج منـه . هـذا عـدا رسـوم حيوانات ممثلة فىكلاب الصيد وأرانب فىحالة عدو ورقة ورشاقة ، فىالجزء العلوى . ولا يوجدعلىهذه المبخرة أية عناصر كتابية (رقـم السـجل ٢٤٠٧٨)، أما الأخرى فإنها تشبه الأولى من حيث الأسلوب الزخرفى ، ولكنها تحـوى عناصر كتابية بالخط الكوفى المزهر منها " العز الدائـم " و " الجـد الصـاعد " وبالجزء العلوى تخريمات ورسم طائر مجنح (رقم السجل ١٥١٠٧) .

* * *

كذلك يحتفـظ متحـف اللوفـر بباريس بمثـال آخـر مـن التحـف المعدنيـة الأيوبية يرجع لعهد السلطان العادل أبى بكر الثانى . وهو عبـارة عـن طسـت مـن النحـاس المكفت بالفضـة ، زخـرف سـطحه الخـارجى - بينمـا السـطح الداخلى غفل من الزخرفة - بمناظر تصويرية مختلفة فى إطـارين عريضيـن متوازيين داخل مناطق مفصصة ، المنظر الأول لفارس واقف يحمل على كلتا يديه طائرين(١) ، (شكل ٦) والثانى لفـارس يمتطـى جـواداً والثـالث لفـارس

---

(١) يبدو أن هذا الأمير أو الفارس كان يمارس رياضة الصيد بـالطيور ، وهـى مـا اسماه العرب بـالبيزره - وهـى كلمـة فارسـية الأصـل بمعنـى علـم أحـوال الطيـور الجارحـة والبازيار هو صاحب أو حامل الباز أى الطير - وقد كانت رياضة الملوك والأمراء ، وقد مارسها ملوك وسلاطين مصر فى مختلف العصور الإسلامية فكانوا يخرجون إلى الصيد على متون جيادهم وخيولهم يحيط بهـم رجـال يحملـون أسلحة الصيد وهـم فـى أبهى أزيائهم .

- السيد أدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، سنة ١٩٠٨ ، ص٢١-٢٢.
- **Zaky. M. Hasan, Hunting as practised in Arab countries of the middle ages, Cairo, 1937, PP. 12-13.**

يطارد حيواناً . أما الإطار السفلى فيحوى رسم شخص يمسك فى يديه أرنبين من أذانهما الطويلتين (شكل ٧) - وكما ذكرنا من قبل أن تلك الرسوم الحيوانية للأرانب ذات الأذان الطويلة كانت سمة من سمات الزخرفة على مختلف التحف التطبيقية الأيوبية من حزف وزجاج ومعادن. والرسم الثانى فى ذلك الإطار لفارس يصرع حيواناً (شكل ٨) ، والثالث لفتاتين جالستين جلسة طرب.

وقد رسمت العناصر الزخرفية لتلك المناطق المفصصة على مهاد من الزخارف النباتية المورقة . أما أرضية الإطارين العريضين فقد زخرفت بخطوط صغيرة متداخلة ومتقابلة ومنكسرة وتلك الخطوط كانت من أسلوب فنانى مدرسة الموصل . (صورة ٦)(١) .

وترجع أهمية هذا الطست إلى زخرفة الرسوم الآدمية وتمثيلها بمسحة أوربية ، سواء فى الملابس أو الحذاء (البوت) الأوربى ، بالإضافة إلى النص التاريخى على حافة هذا الطست والذى ذكر فيه اسم السلطان العادل أبى بكر الثانى وألقابه فضلاً عن اسم الصانع ، ونصه هو " عز لمولانا

- الجواليقى ، المعرب من الكلام الأعجمى من حروف العجم ، دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٢ ، ص٧٨ .
- أبو عبد الله الحسن ، البيزرة ، نظر وتعليق محمد كرد على ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٢ ، ص٣ .
- أنا مارى شميل ، الباز الشهب ، ملاحظات فى البيزرة فى الشرق والغرب ، مجلة فكر وفن ، العدد الرابع ، العام الثانى ، سنة ١٩٦٤ ، ص٢٤ - ٢٧ .
- سعاد ماهر محمد ، البيزرة فى التاريخ والآثار ، مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة الثالثة ، الرياض ، سنة ١٩٧٧ ، ص٩٣ - ٩٤ .

(١) زكى محمد حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص٤٦٢ ، شكل ٥٠٧ .

السلطان الملك المالك العالم العامل المؤيد(١) المظفر المنصــور المجـاهد المرابط سيف الدنيا والدين عضد الإسلام والمسـلمين قامع الكفرة المشركين قاتل المتمردين محيى العدل فى العالمين ناصر الحق بالبراهين حامى ثغور بلاد المسلمين منصف المظلومين من الظالمين أبـو اليتامى والمساكين عماد الخلافة قصيم الملكة ركن الأمـة ناصر الملـة ملك المعالى قطب السلاطين مهلك الملحديـن مجمر المجاهدين ملك رقاب الأمم سلطن العرب والعجم بهلوان الشام ملك العراق أوحد العصر المؤيد حامى الثغور بالطعن فى الثغر أبو المنائح مصدق المدائح الملك العادل أبى بكـر ابـن مولانـا السلطان الملك الكامل أبى المعالى ابن أبى بكر بن أيوب عز نصره . عمل أحمد بن عمر المعروف بالزكى النقاش(٢) برسم الطشت خاناه(٣) العادلية " .

---

(١) المؤيد ، اسم مفعول من الأيد والمراد أن الله يؤيده ويقويه وهو من الألقاب التى تشير إلى تقوى الملقب ، إذا أنه مؤيد من السماء يأيته النصر من عند الله مثل " المنصور ".
- حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص٥٢٢ - ٥٢٣ . لمزيد من التفاصيل من الألقاب التى ذكرت على هذا الطست باسم السلطان العادل أبى بكر الثانى ... راجع المرجع السابق .

(٢) يتضمن هذا النص التاريخى اسم الصانع وقد كان معروفاً باسم النقاش ولا غرابـة فى ذلك فإن الصانع كان يرى فى نفسه نقاشاً مزخرفاً لنقوش وزخارف التحفة علاوة على أنه مكفتاً . وقد عاش هذا الفنان فى أوائل القـرن ٧هـ/١٣م فى بلاد ما بين النهرين وتتلمذ على يديه الكثير من صناع المعادن وكان مشهوراً بعمل وصنع العديد من التحف المعدنية ومن بينها هذا الطست المؤرخ ١٢٣٨/١٢٤٠م وكان ضمن مجموعة Jacqueley Bey ثم فى مجموعة Distau Collection وهو حالياً فى متحف اللوفر تحت رقم٥٩٩١.ومتحف الفن الإسلامىبالقاهرةغنىبمثل هذه التوقيعات علىالتحف التطبيقية.
- حسن عبد الوهاب ، توقيعات الصناع ، ص٥٤٥.

- Mayer, Op. Cit, PP. 30-31.

(3) Wiet. G., Objects en cuivres, catalogue general du musee arabe du caire 1932, P.272.

وتتجلى أيضاً رسوم الفرسان بالزى الأوربى على زخرفة التحف المعدنية الأيوبية فى تلك المحبرة الأسطوانية المصنوعة من النحاس المكفت بالفضة والتى يحتفظ بها متحف برلين وعليها رسم الفارس يمتطى جواده داخل دائرة ويحمل بإحدى يديه بازاً وتحت رجليه أرنب صغير ، وحول راسه هالة التقديس (شكل ٩) وذلك على مهاد من الزخرفة النباتية . وتتكرر هذه الدوائر على السطح الخارجى لبدن المحبرة ، ويحف بهذا البدن شريطان من أعلى وأسفل من الزخارف النباتية المورقة . (صورة ٧)(١).

* * *

كذلك يحتفظ متحف اللوفر بباريس بقدر معدنى كبير من النحاس المكفت بالفضة باسم السلطان الملك الناصر يوسف سلطان حلب(٢) ، كانت محفوظة من قبل ضمن مجموعة باربرينى ، تتألف زخارف بدنها من رسوم آدمية لفرسان داخل جامات مفصصة ، وتتميز بأن زى الفرسان وملابسهم أوربية الطراز وكذلك غطاء الرأس (عبارة عن قبعة كبيرة) .

ويزخرف بدن القدر عناصر كتابية فى شريطين ، العلوى يحوى خطوطاً كوفية مزهرة لعبارات دعائية ، والسفلى يحوى كتابة بالخط النسخ الأيوبى نصها " عز لمولانا السلطان الملك الأعظم الملك الناصر العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد المرابط(٣) صلاح الدنيا والدين ركن الإسلام

---

(١) زكى محمد حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص٤٦٣ ، شكل ٥١١ .

(٢) هو السلطان الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين ، كان صاحب حلب فى فترة حكم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٤٧هـ .
- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهر ، جـ٦ ، ص٣٥٩ - ٣٦٢ .

(٣) كلمتا " المجاهد المرابط " ، لقبان يمكن أن يعتبر ظهورهما فى العصر الأيوبى صدى لروح الجهاد التى قويت فى ذلك العصر الذى كان من أهم أهدافه مناهضة الصليبيين والقضاء على الشيعة والعمل على استعادة المذهب السنى لمكانته القديمة . وأغلب

والمسلمين ناصر الحق بالبراهين محيى العدل فى العالمين أبى المظفر يوسف ابن السلطان الملك العزيز برسم شربخانة(١)الملك الظاهر" ، وهذا النص التاريخى على مهاد من الزخرفة النباتية المورقة . كذلك تزخرف رقبة القدر عناصر كتابية بخط النسخ الأيوبى نصها " عز لمولانا السلطان الملك الأعظم الناصر يوسف " (صورة - ٨)(٢) .

* * *

وخلاصة القول أنه من خلال استعراضنا لزخرفة التحف المعدنية الأيوبية نجد أن بعض رسومها تنحصر فى الموضوعات المسيحية ، والمناظر الدينية ، والأشكال والرسوم الآدمية والحيوانية ، وبها فرسان تمتطى خيول ، أى أنها تناسب الأسواق الأوربية التى كانت تباع بها ويحملها معهم الصليبيون عند عودتهم إلى بلادهم ، هذا فضلاً عن التجار الإيطاليين الذين روجوا لهذه التحف المعدنية ذات الموضوعات التى تتناول رسوم السيدة

الظن أنها ألفاظ اقتبست من القرآن الكريم والأحاديث النبوية فقد ذكر الجهاد والمجاهد فى آيات قرآنية كثيرة منها سورتى النساء والأنفال : وأطلق هذا اللفظ من قبل على الملك صلاح الدين الأيوبى وأيضاً على الملك الصالح نجم الدين أيوب .

- حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص٤٥١ - ٤٥٢ .

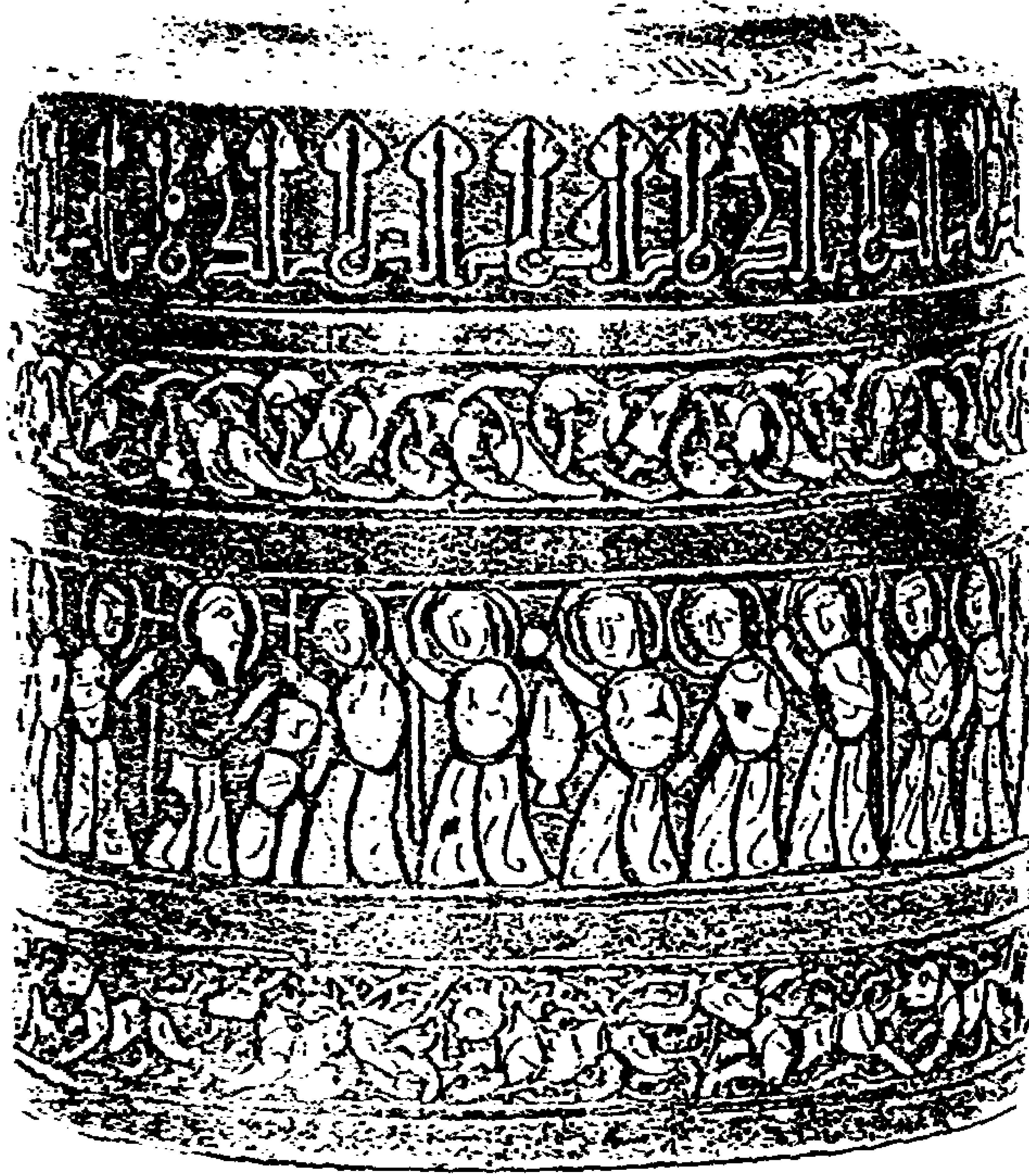
(١) تعد وظيفة صاحب الشرابخانه من الوظائف المهمة والخطيرة ، وكان ترتيبها الثالثة عشر من الوظائف التى يشغلها العسكريون بحضرة السلطان ، وكان موضوعها التحدث فى أمر الشرابخانه السلطانية وما يتصل بها من السكر والشراب والفواكه . وكان يتولى مسئولية الشرابخانه أمير من أكابر أمراء المئين الخاصكية المؤتمنين ، وهو مسئول عن بيت الشراب الذى يشتمل على أنواع الأشربة المخصصة للسلطان وبها الأوانى النفيسة .

- حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٢ ص٦١٤ .

(2) Migeon, Op. Cit Fig. 151.

العذراء والمسيح عليه السلام وأتباعهم . هذا علاوة على رسوم الفرسان التـى تمثل الانتصارات وحياة الحرب والقرصنة إنذاك ، وذلك بتأثيرات ذات مسحة أوربية فى ملابس الأبطال والفرسان .

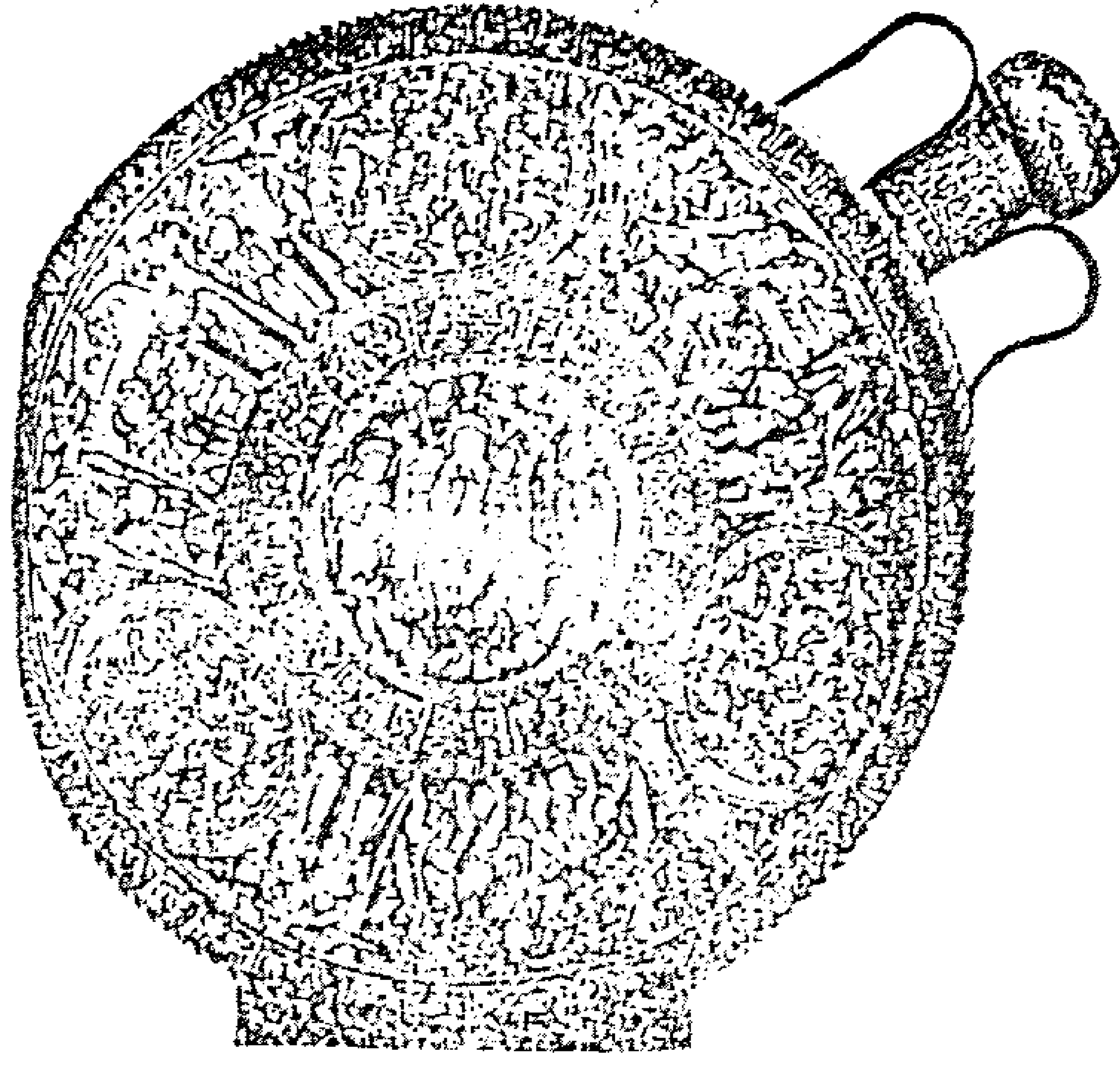
ونخلص من هذا بأن الحروب الصليبية أثرت بشكل مباشر على نوعيـة الزخارف والنقوش التى رسمت على الكثير من التحف التطبيقيـة التـى ترجـع إلـى العصـر الأيوبـى . وحسـبنا أن نجـد اسـماء سـلاطين بنـى أيـوب منقوشـة بألقابهم على تلك التحف مما يدل دلالة واضحة على مدى التسامح الدينى لدى هؤلاء السلاطين ، مما أدى إلى إزديـاد ورواج النشـاط التجـارى بيـن الشـرق والغرب ، أى بين المسلمين والمسيحيين فى ذلك العصر .



(صورة ١) : عُلبة من النحاس المكفت بالفضة تزخرفها مجموعة من الأشخاص فى موكب دينى مسيحى ويظهر بها الصلبان المبخرة والكتابات والرسوم الحيوانية - محفوظة بمتحف فيكتوريا وألبرت بلندن .



(صورة ٢) : شمعدان من النحاس المكفت بالفضة يزخرفه رسوم السيدة العذراء تحمل المسيح عليه السلام طفلاً صغيراً وحولها مجموعة من الأشخاص - محفوظة بمتحف



(صورة ٣) : زمزمية من النحاس المكفت بالفضة تزخرفها رسم السيدة العذراء جالسة على عرش وتحمل المسيح عليه السلام طفلاً صغيراً وحولها أشخاص وقديسون . - محفوظة بمتحف فريرجاليرى بواشنطون .

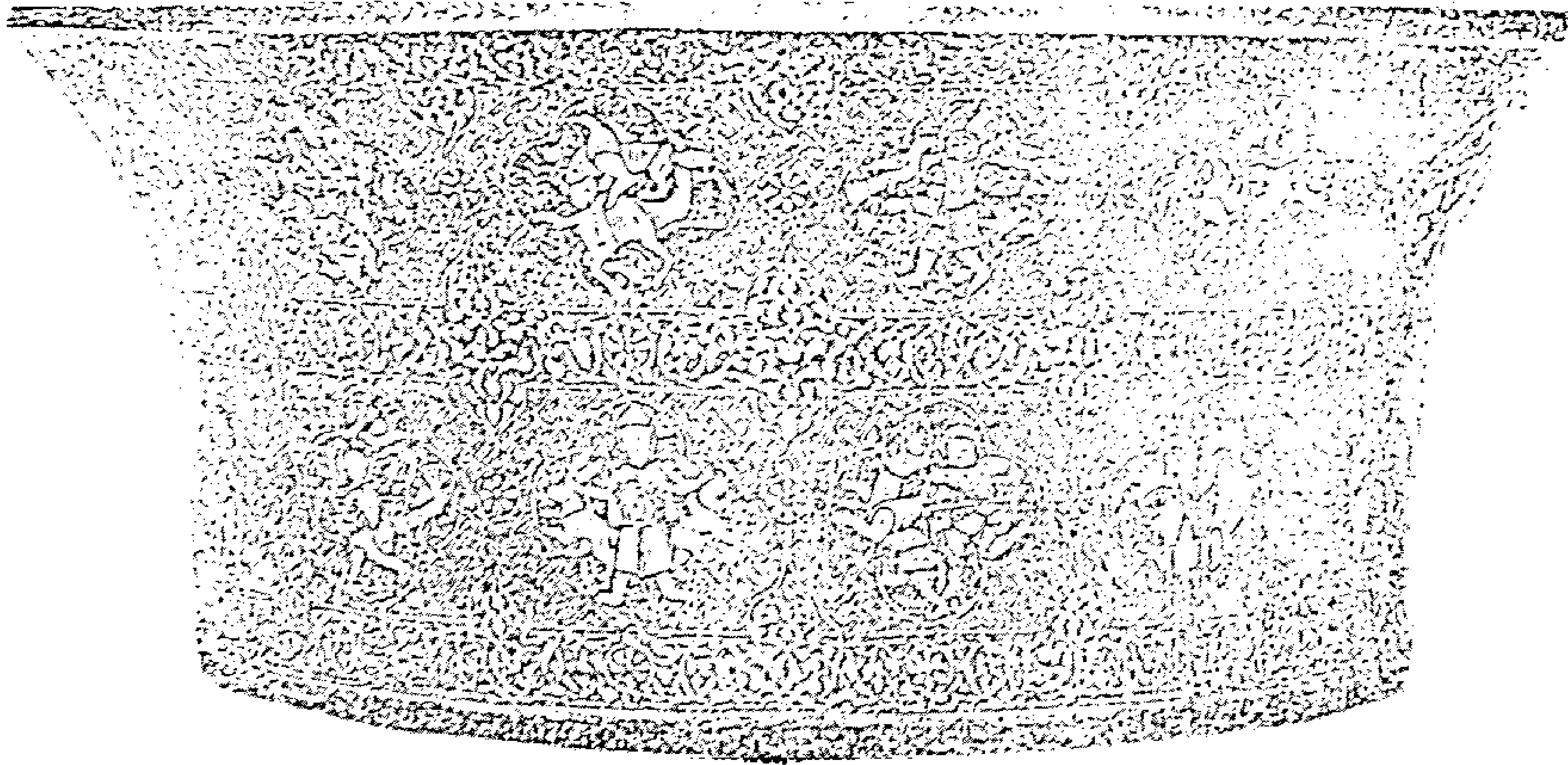


(صورة ٤) : شمعدان من النحاس المكفت بالفضة تزخرفة رسوم آدمية بتأثيرات ومسحه أوربية وكتابات كوفية ونسخية .

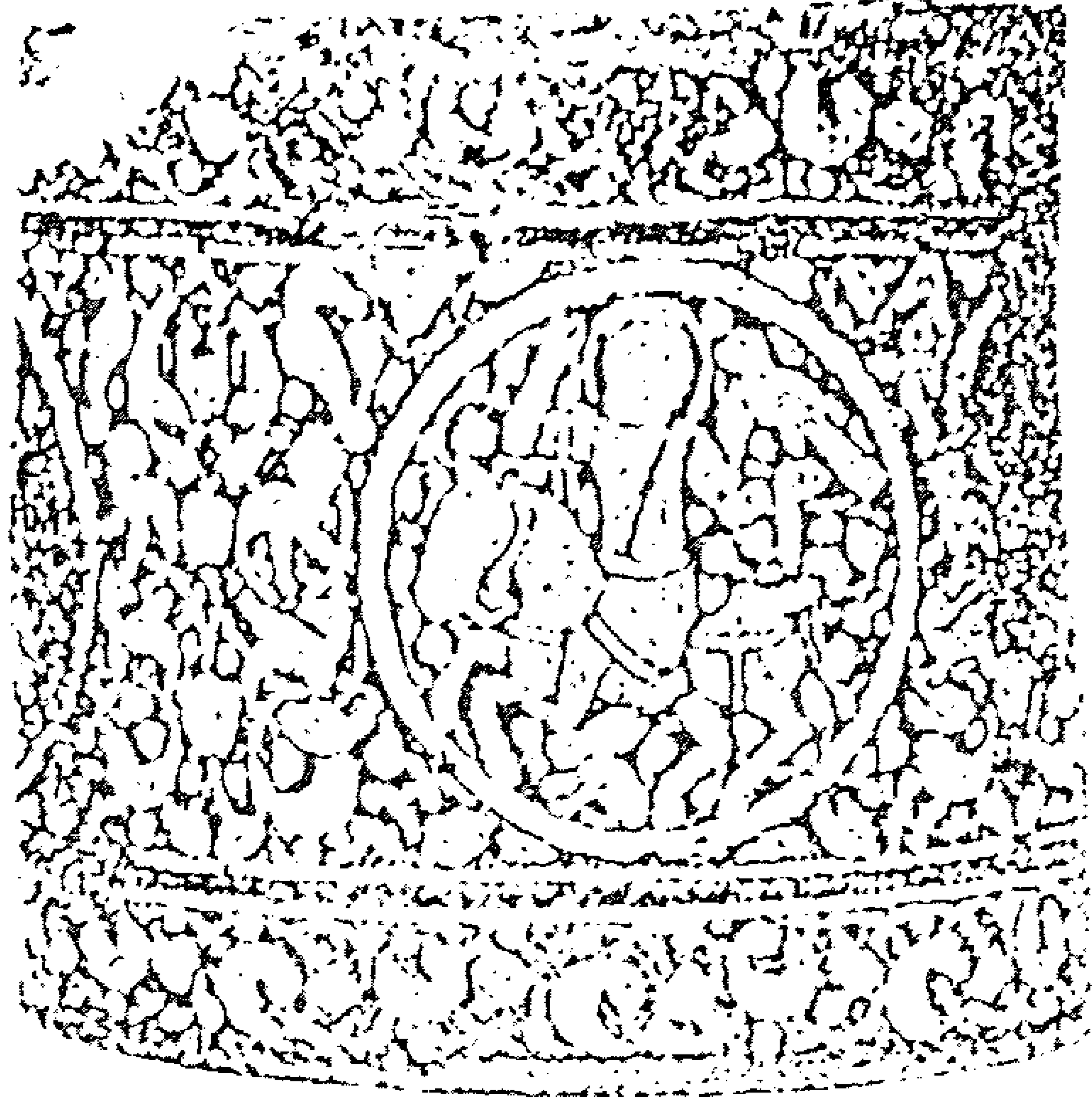
- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة .



(صورة ٥) : مبخرة من النحاس المكفت بالفضة تزخرفها رسوم آدمية بمسحه أوربية ورسوم حيوانية برؤوس آدمية وكتابات نسخـية باسم السلطان العادل الثانى - محفوظة حالياً بمتحف الجزيرة بالقاهرة .



(صورة ٦) : طست من النحاس المكفت بالفضة تزخرفه رسوم آدمية فى جامات مفصصة ، بتأثيرات أوربية وهالات قدسية ، وكتابات نسخية باسم السلطان الملك العادل أبى بكر الثانى - محفوظ بمتحف اللوفر بباريس .



(صورة ٧) : محبرة من النحاس المكفت بالفضة يزخرفها رسم فارس يمتطى جواداً داخل جامة دائرية ويحمل بيده اليسرى بازاً – محفوظ بمتحف برلين .



(صورة ٨) : قدر كبير من النحاس المكفت بالفضة تزخرفه رسوم آدمية بمسحه أوربية، وحيوانية داخل جامات مفصصة، وكتابات نسخية باسم الملك الناصر يوسف صاحب حلب – محفوظة بمتحف اللوفر بباريس



(شكل ١) : يبين الرسوم الآدمية فى الموكب الدينى المسيحى وعلى رؤوسهم هالات التقديس ، وبأيديهم الصلبان والمبخرة .



(شكل ٢ أ) : يبين السيدة العذراء تحمل السيد المسيح عليه السلام طفلاً صغيراً وحولها بعض الأشخاص داخل جامة مفصصة .



(شكل ٢ ب) : يبين السيدة العذراء يستند إليها السيد المسيح عليه السلام على أجزاء من صحن خزفى من العصر الأيوبى أيضاً .



(شكل ٣) : رسم آدمى لفارس جواده داخل دامة مفصصه ، وحول رأسه هالة وتُرى التأثيرات يمتطى الأوربية على حذاء القدم .



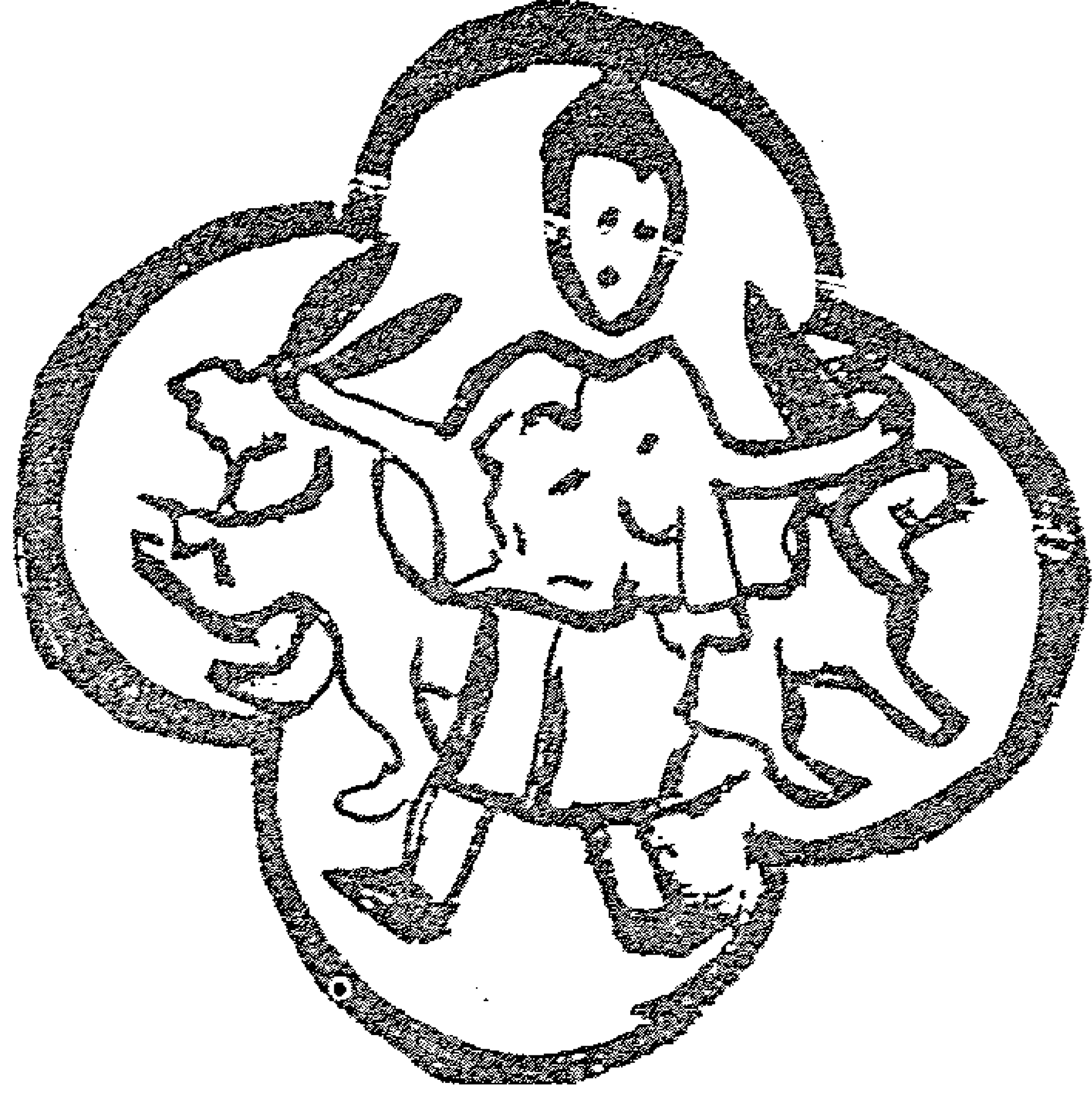
(شكل ٤) : جامة مفصصة داخلها أميراً جالساً على عرشه وحوله بعض الأتباع ويُرى زخرفة الصليب فى أقصى اليمين خلف أحد الأتباع .



(شكل ٥) : جلسة طرب ورقص وشراب ويُرى تداخل الأزياء العربية مع المسحة الأوربية فى زى بعض الأشخاص وأحذيتهم .



(شكل ٦) : رسم فارس يحمل علىكلتا يديه طائرين وتُرى المسحة الأوربية على حذائه.



(شكل ٧) : رسم آدمى يحمل بكلتا يديه أرنبين صغيرين من آذانهما الطويلتين ويُرى غطاء الرأس الأوربى .



(شكل ٨) : فارس يصرع حيواناً مفترساً يمثل الشجاعة والفروسية .



(شكل ٩) : فارس يمتطى جواداً ويحمل بيده اليسرى بازاً وأسفله أرنب صغير .

Through this diary it is clear to see that the Near East, the Arab-Muslim East, is seen as "the different world" and may be an enemy, but it is not the most faraway and alien anymore: this place has been taken by India and China that, however, were little more than names to Frescobaldi who thought that the Nile and the Ganges were two arms of the Jordan and that all these rivers had their sources in the Earthly Paradise.

At the beginning of the 15th century Ptolemy's *Cosmographia* will arrive in the Western world from Byzantium and it is in Florence that it will be translated into Latin.

Since then, also the geographic memory will change its aspect.

from the East that were subsequently shipped to Europe. The Western world thought that a blockade of these two cities would have forced the Mameluke sultan of Cairo, who at the time ruled over Jerusalem, to cede the city to the Christians.

Frescobaldi linked other, more persona! interests to the above, which nevertheless are all linked to the culture of his epoch. For example, he was interested in the habits of the Muslims, a topic towards which his journal shows a schizophrenic attitude: on the one hand a sharp condemnation that even leads to contempt and offence and which has its origins in the commonplaces of the anti-islamic propaganda fostered in all of the Christian world; on the other hand, it appears that he was curious towards this world and even shows some sympathy towards it. The reasons for this are Frescobaldi's experiences among the Muslims which weren't negative at all and which left a positive recollection in his mind.

A similar attitude - i.e. a schizophrenic one - but in a completely different context regards the places and monuments visited by the pilgrims: on the one hand there is the reference to the fascination of the extraordinary, the mystery, the difference; on the other, the references are to everyday life and to familiar aspects, which are also used as means of description. For example, the text tells us that the landscape of the Holy land (with its many hills) resembles that of Tuscany or that certain cities have a greater or smaller number of inhabitants than Florence. In short, on the one side we find the game of wonder and astonishment, and on the other side this wonder is reduced to everyday life. Obviously, the text also contains descriptions of exotic animals, such as giraffe, elephant, camel and crocodile. Since Marco Polo's times such descriptions were almost compulsory for this type of writing.

not for the Florentine nobles of the 14th century who were originally merchants - but rather that Gucci had probably been entrusted with the management of money affairs by the group of pilgrims who made the journey with Lionardo.

As a matter of fact, in Gucci's journal we find a very detailed list of the expenses incurred, also the daily ones (such as wine, etc.). Frescobaldi does provide some remarks in this respect, but they are quite few and less methodical.

Neither is it the religious element that Frescobaldi tends to write about the most. Compared to other journals, this one cites little of the prayers and religious rites which had to be performed at the various "holy places". References to such are on the other hand found plentiful in journals written by priests or friars.

The declared interest of Frescobaldi with respect to the Holy Land is undoubtedly devotional, but it is above all military. In fact, Frescobaldi is already quite old when he sets out for his pilgrimage (from one of the manuscripts it appears that he was already sixty) and he is quite competent in questions concerning war. He therefore declares that King Charles III of Naples had entrusted him through a common friend (the Florentine Augustinian Onofrio Dello Steccuto, bishop of Volterra, who had also been Lionardo's father-confessor) with the examination of the situation in view of a possible future crusade. This means that he has had to closely study ports, fortifications, defences, communication routes and so forth. This explains the extraordinary attention devoted by Lionardo in his journal to the delta of the Nile. In fact, between the beginning of the 13th century and the middle of the 14th century, the leading opinion among those organizing projects for crusades was that the troops would have to attack the Nile delta which (with the cities of Alexandria and Damietta) was the point of arrival of the spices

In 1818 Manzi published a codex of the Biblioteca Barberiniana in Rome, which contains a trip made by Frescobaldi. This work was much criticized by Fiacchi, who preferred a codex of the same writing kept in the Biblioteca Ricasoli in Florence which he transcribed but which the scholars have not yet been able to identify (while Fiacchi's notes have been lost). The text was taken up again by Gargiolli and then, in 1944, by Angelini. UP until today, we therefore have only a poor edition of Frescobaldi's pilgrimage journal and on that we have to work. A better edition, which takes all manuscripts into account, and which will perhaps be follwed by a true critical edition, is presently being prepared under the direction of Gabriella Bartolini in Rome. Obviously, for the considerations contained in this article we are still referring to Angelini's edition.

The introduction to the writing is simple but also very solemn: the author states his own name, the names of those travelling with him - or at least those of the most important figures, that is to say Giorgio Gucci and Andrea Rinuccini - and the precise date of their departure from Florence, 10th August, 1384. From the text, we can gather very precise information as to the following: length of the journey. means of transportation, travels by sea and on dry land with the routes followed, duration of each single leg and of the stops. This kind of information is usually included in diaries of this sort, but with significant differences. Indeed, there are texts which are very attentive towards the goods that have been seen and the costs of the journey (including lease of ships, customs duties, entrance fees, etc.); Frescobaldi's writing speaks about some costs and states the costs incurred, but it is not very precise in this respect. The reason for this seems to be not so much his detachment from money - which was more characteristic in the 16the century, but

example, that Frescobaldi and Gucci took notes together and that each of them, on the basis of a "rough draft" that they had written together and which they both used, afterwards wrote his own diary. Also with respect to the second problem, i.e. the question if the definitive texts of Frescobaldi and Gucci have been compiled independently from one another or if the two friends have continued to exchange news, records and considerations also a long time after their return to Florence, the state of the manuscripts does not allow a certain solution. In short, Frescobaldi's and Gucci's texts must in a certain way be considered "synoptic". However, we don't know up to what point they really are so, nor if they are so only with respect to their starting basis or also due to an exchange of ideas extended in time until the compilation of the final texts. Besides, we don't even know if the authors considered the version of their respective texts which we have as the final one: This type of text was written over and over again and was constantly modified. A further problem is linked to the subsequent copyists. In the Middle Ages there was no such thing as *Copyright:* Every transcriber could add, take off or change anything he wished from the text he was copying, except obviously if he was working with the Bible or with another *auctoritas* such as ancient philosophers or poets. But travel journals, as was the case for collections of stories or chronicles, were continually amended by the copyists, and it is often impossible to determine the original text (as it has been conceived by the author) from all manuscripts of that same text which have been preserved until our times. This problem finds no actual solution even if he have an autograph of the author, because he, too, used to re-write and modify his works.

At this point we must ask ourselves what the travel journal which we think has been written by Frescobaldi actually is.

be that he used to read religious text in Volgare, such as the *Leggenda Aurea* or the *Fiore di Virtu* (Flower of Virtue). This kind of literature was very popular among laymen who had a specific religious engagement. And the "Morali" which Lionardo took with him to the Holy Land may well have been books of this sort.

But we are interested in the manner in which Lionardo organized his memories as a pilgrim: if he wrote them down right a way in a more or less complete series of notes; if he revised these notes and, if so, in which direction (to read them again for his own spiritual edification or in order to communicate them to others). And another question: What are the boundaries of the individual work of Lionardo? Is the text that bears his name really and entirely written by him?

The answer to this kind of question could be found carrying out another study about this diary that has yet to be done: the comparison with those of his fellow-travellers. We have, as a matter of fact, various dozens of hand-written codices (there even could be autographs among these, but we don't know for sure) which contain the report about the trip to the Holy Land in the years 1384-85 in the versions by Lionardo Frescobaldi, Giordano Gucci and Simone Sigoli. It doesn't seem that these three people collaborated with one another in the writing of their respective texts. None of them says so and, for as much as we know, each of them could have written his version without the other two knowing anything of this work. But there is a group of manuscripts bearing the text attributed to Frescobaldi and another group with that attributed to Gucci that have a striking resemblance. Whereas Sigoli's text is always separate from the other two and we know that, while between Frescobaldi and Gucci there was a particularly friendly relationship, Sigoli had no part in this special friendship. One could therefore think, for

translations into the vernacular language, meaning not exactly translations, but free adaptations of the Holy Book in Italic Volgare? There existed many of these translations into the vernacular: the medieval Florentine literature knew plenty of such things. The hint towards "Morali", that is to say books "about morals" poses more subtle problems. In fact this term (unless it is used to indicate a particular kind of exegetic literature, such as the *Moralia in job* by Saint Gregory the Great) could simply refer to one of the many writings in Volgare which were composed in order to serve as an instrument of edification and meditation for laymen.

This aspect leads us to the question of Lionardo's culture, and the religious and devotional culture in general.

We know two things in this respect. First, Frescobaldi was a member of the circle of devout and learned people who met at the Augustinian convent of Santo Spirito that was located very close to the place where the houses of the Frescobaldi family stood. Second, he belonged to the group of Florentine followers of Saint Caterina da Siena who used to be in contact with another well-known "spiritual leader" of the time, Giovanni delle Celle Luigi Marsili, a great humanist, was the animator of the circle of Santo Spirito. In the convent there was a huge library, containing above al the works of the Fathers of the Church in the 4th and 5th century (Jerome, Ambrose, Augustin). Therefore, we shouldn't be surprised if we found out that when preparing his trip Lionardo would have read - or would have had somebody read to him - some pages of the letters that Jerome wrote from the Holy Land.

However, judging by the text of the diary, it would appear that Lionardo didn't have a specific culture neither concerning classical studies nor regarding the Fathers of the Church. It could

In fact, we have no clue as to the manner of working of the pilgrim-diarist. We could get some hints from the study of an autograph document of his, but unfortunately we don't have any. But even in case we did, we shouldn't delude ourselves: If there was an autograph document, this would almost certainly be the last and most mature version of the work, leaving us to wonder about its preliminary aspects. Did he take notes during his trip? And if so, with which means, which writing instruments? Did he carry his writing instruments (i.e. paper and pen with portable inkpot) with him since he left his home town? Did he perhaps take notes on a book he took with him, in the same way as we sometimes do today, making notes on the margin of our guidebooks?

Frescobaldi, who belonged to an important family of merchants used to travelling, at least theoretically could have known some other pilgrimage journal (written before his), which maybe was also written in Italic Volgare or even the Tuscan language. There was one in particular, written in that same century by the Franciscan friar Niccolo da Poggibonsi, that perhaps was quite well-known in Tuscany at that time. A study concerning the echoes which may be present in Frescobaldi's journal of other previous pilgrimage journals has not yet been carried out. It would nonetheless be very interesting.

We know that Lionardo took some books with him. He tells us about "books of the Bible, and Gospels, and about Morals". The "books of the Bible" are without any doubt books of the Old Testament, the Gospels are collections of the New Testament. But which were those books of the Bible? And the Gospels, were they the canonical ones (all of them?) or perhaps also some apocrypha? And was it the Latin text of the Bible, i.e. the one translated by Saint Jerome at the end of the 4th century which was usually employed in the Western world, or just simple

Simone di Gentile Sigoli (Gucci was Lionardo's friend, even if they didn't share the same political ideas; Sigoli was of a slightly lower social class). Second: Lionardo Frescobaldi's trip to the Holy Land (let us not forget that he was a layman but with a strong interest for religious questions and influenced by the figure of Caterina da Siena) is justified only partly by the desire to see the "holy places", since Frescobaldi - an expert for military questions - declares that he has also been entrusted by the King of Naples with the study of the territory and the unbelievers' fortifications and defences in view of a future crusade. Third: Frescobaldi evidently is an effective writer and an able reporter. Fourth: He belongs to one of the leading families in Florence in the 14th century, which means a family of bankers, merchants, entrepreneurs: as such, he is also attentive towards the economic life of the countries he visits.

Two problems derive from this. First problem: To whom was his report really addressed and for whose use was it written? To himself? To his spiritual leaders and to the members of the devotional group to which he belonged? To his family, for reasons of spiritual edification or commercial promotion? To the King of Naples who was collecting tactic information in order to be able to organize a crusade? Second problem: How was the collection, the choice and the memorization of news done?

The problem connected with the collection of data, the fixing of the same on a material support and their subsequent re-elaboration and popularization is one of the most delicate in the study of the mechanics of the building of memory for the Middle Ages. Let us look at some basic problems for our specific text, the journal of a pilgrimage to the Holy Land written by Lionardo di Niccolo Frescobaldi.

century that have been written in Volgare: some of them have been written by religious people and their main concern is to provide useful information as to the legs and length of the journey, spiritual news, and other news regarding the "holy places" to visit and their outer appearance. Others, however, have been written by laymen and seem more difficult to understand. First of all, and on the specific level of tradition of the memoirs, it is not easy to make out to whom they are addressed. To the writers themselves, as a future memory of an intense moment from the point of view of religion and a marking experience of one's life? To their families, as an exhortation and witness? To friends or perhaps brothers in one of the many devotional brotherhoods for laymen to which all members of the higher social classes belonged? And then, are they really just the evidence of a religious experience? Or do they also represent the witness of a generous action which is intended to give glory to the entire family? Or are they just travels during which one prays, with whom he is in contact and thus studies possible economic outlooks of certain places and countries?

Lionardo di Niccolo Frescobaldi, who belonged to an important Florentine family struggling for power in the city, made, a trip to the Holy Land in the years 1384-85 together with some fellow-citizens, some of them also belonging to other noble families of the city. As it always happened at that time, the pilgrimage was made by a number of persons together. Lionardo's report of this trip, which has been written down by hand in various codices - which means that it must have been quite well-known in that age - none of them written by the author himself as far as we know, is of particular interest for various reasons. First: We can compare Lionardo's report with those written independently from his but about the same pilgrimage by two of his fellow-travellers, Giorgio di Guccio Gucci and

order to legalize any kind of title and to resolve any controversy. The family memoirs, written by a member of the family and maybe carried on generation after generation, were basically used to create an identity and a tradition and to preserve them. It must be noted that the quality and intensity of the stories contained in the "books of memoirs", the increase of their number and the care with which they are kept goes hand in hand with the transformation of the leading Tuscan families from urban patriciate to institutionally legitimized nobility with titles and feudal investiture, and therefore with the consolidated use of family names and heraldic insignia. This phenomenon is at its peak during the period of principality, i.e. starting in the 16th century.

But in Tuscan literature we have a series of sources of memoirs written in Volgare which are undoubtedly touched by the dimension of the "diary" and which nevertheless also concern another kind of literature: diaries related to voyages; and they also have contacts (at least with respect to their essence and their contents) with devotional literature. This hybrid kind, which - for example in a merchant's society such as the one existing in Florence at the time - also has some features which are typical for commercial books (insofar as it speaks of communication routes, money exchange, merchandise, costs and so forth), consists of the pilgrimage journals, of which we have many (some of them have not even yet been published) and which only rarely concern the pilgrimage to Santiago but rather the pilgrimage to the Holy Land.

The tradition of pilgrimage journals brings two literary kinds to a fusion: the devotional book and the travel journal. In the Western world, this tradition dated back to the 4th century AD and it was also important for the Latins. But in Tuscany there are various examples of such from the 14th and 15th

variety of topics, from commercial interests to various kinds of business, but always with a personal and direct style that the use of the Latin language - even if employed by an expert of such - would never have allowed. And we have above all the so-called "family books", strictly private writings that for their tone and perhaps their practical fruition were addressed towards more people than the one- or the ones - who had materially written it and were of interest to an entire family group.

We are, in short, in the field of diaristics, and as a matter of fact, for example the Florentine world of the 14th and 15th century brings forth some kinds of memoirs that we wouldn't very well know to define: whether they are "chronicles", "diaries" or "family books". In practice, we tend to define "chronicle" a writing stating facts concerning a vast community (usually at least a city); the term "diary" refers to a writing which basically regards facts and things related to the life of a single person; "family book" is a memoir describing a whole family group in all its aspects (marriages, births, financial situation, death, important events) and which sometimes covers a period of more than one generation. It is evident that while the distinction between "chronicle" and "diary" can be considered quite simple, the one between "diary" and "family book" can often be difficult and also seem not very necessary. Given the nature of solidarity which characterizes the medieval mentality, a written memoir (even if Personal) will never be enough of such.

What we would like to know about "family books" is why the family memoirs where so carefully kept in certain social groups: the practical and cultural goals of this preservation of data which were evidently passed on from one generation to another. As a matter of fact, juridical justifications for this tradition seem scarce: in the late Middle Ages, the people in Tuscany were already used to turning to notaries and courts in

THE MEMORY OF JERUSALEM. REMARKS ABOUT THE DIARY OF A PILGRIM FROM FLORENCE TO THE HOLY SEPULCHRE (1384 - 85)

BY

Franco Cardini(*)

The Tuscan literature of the late Middle Ages Offers a vast range of documents written in "Volgare" between the end of the 13 th and the first half of the 15th century; later on in the 15th century, the humanist culture will return to the use of the Latin language for historiography and poetry, and the development of the Italic "Volgare" language-which will in the end become the Italian language - suffers a delay. There are obviously some fields of knowledge and of communication of knowledge (theology, science, law) in which Latin would have reigned without rivals even until the 18th century.

Nevertheless, when between the 13th and the 15th century the Volgare began to be considered worthy of being a written language, it became very popular - except for poetry, where for a long time afterwards Italian poets still preferred to use French or Provencal - for some types of documents and memoirs. Among all kinds of documents, those relating to trade were soon written in everyday language: the Volgare was utilized for accounts, accounting books and sales deeds since people felt that it was more practical. It is interesting to note that, among memoirs, the Italic Volgare becomes dominant the more those documents are intimate and personal. We therefore have complete exchanges of letters in the Italic language: they obviously concern a great

(*) Prof. of Medieval History - univ. of Florence.

الكلمة الختامية :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾

حضرات الإخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات

الآن ، وقد انهت هذه الندوة جلستها الختامية ، لا يسعنا سوى أن نشكر الله عز وجل ، لما حبانا به ، وحبا به اتحاد المؤرخين العرب من فضل ورعاية .

لقد نجحت ندوتنا والحمد لله نجاحاً منقطع النظير ، بفضل الله أولاً ، ثم بفضل جهودكم ودعمكم .

حقاً إنها مناسبة فريدة وثمينة ، أن يجتمع هذا الحشد من المؤرخين تحت مظلة اتحادهم ، يقدمون خلاصة أفكارهم فى موضوع من الموضوعات الخطيرة ... موضوع يحظى بأهمية خاصة فى التاريخ العالمى من جهة وفى مجال البحث التاريخى من جهة أخرى ... موضوع سيظل يشغل بال الباحثين، ويشد انتباه المؤرخين والمفكرين إلى ما شاء الله .

نعم ، إنها مناسبة ثمينة أن نجتمع تحت لواء اتحاد المؤرخين العرب لنستمع إلى هذا القدر من وجهات النظر المتباينة ، والآراء النقية الخالصة ، والمناقشات المثمرة البناءة التى شارك فيها هذا الجمع من المؤرخين وأقطاب أساتذة التاريخ ، سواء من أعضاء الاتحاد أو من الإخوة الضيوف ... من العرب ومن الأوربيين الغربيين ... من المسلمين ومن المسيحيين ... الجميع لا يستهدفون إلا هدفاً واحداً مشتركاً ، هو الكشف عن الحقيقة التاريخية عارية صافية ، مجردة من الميول والأهواء والنزعات الهدامة ، التى ألصقها بعض

المغرضين على مر العصور والأجيال بالحركة الصليبية ... وتم تحقيق الهدف فعلاً فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب ، وفى جو بعيد عن التشدد والانفعال ، ولا أقول التعصب والانحياز .

حضرات الإخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات

نكرر مرة أخرى إن اتحاد المؤرخين العرب بكم ولكم . وسيظل إن شاء الله يعمل دائماً لصالح التاريخ والعلم ... لصالح العرب وأمة العرب ... لصالح المؤرخ العربى فى المشرق والمغرب ...

نسأل الله أن يجمعنا دائماً على درب الخير . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رئيس الاتحاد

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



